٢ باب

مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

● **مناسبة هذا الباب لما قبله:**

قال ناصر السعدى[(١)]:- وهذا الباب تكميل للباب الذى قبله وتابع له ثم شرح ذلك **وبينه ابن عثيمين فقال**[(٢)] .

هذا الباب كالمتمم للباب الذى قبله؛ لأن الذى قبله: «باب فضل التوحيد وما يُكفّر من الذنوب»، فمِن فَضْلِهِ هذا الفضل العظيم الذى يسعى إليه كل عاقل، وهو دخول الجنة بغير حساب.

قال الفقير: هذا الباب فى فضل التوحيد المطلق الكامل المحقق والذى قبله فى فضل من أتى بمطلق التوحيد فناسب أن يأتى بها على نسق واحد والله أعلم.

● **شرح الترجمة والتبويب ومناسبته للتوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ:[(٣)] من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب أى: ولا عذاب وتحقيق التوحيد هو معرفته، والاطلاع على حقيقته، والقيام بها علماً وعملاً، وحقيقة ذلك هو انجذاب الروح إلى الله محبة وخوفاً، وإنابة وتوكلاً، ودعاء وإخلاصاً وإجلالاً وهيبة، وتعظيماً وعبادة. وبالجملة فلا يكون فى قلبه شىء لغير الله، ولا إرادة لما حرم الله ولا كراهة لما أمر الله؟ وذلك هو حقيقة لا إله إلا الله فإن الإله هو المألوه المعبود.

وما أحسن ما قال **ابن القيم:**

فلو أحد كن واحداً فى واحد ... أعنى سبيل الحق والإيمان

وذلك هو حقيقة الشهادتين، فمن قام بهما على هذا الوجه فهو من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب. أ. هـ

قال حامد بن محمد بن حسن[(٤)] **بن محسن:**- باب فى بيان أدلة من الكتاب والسنة تدل على أن من حقق التوحيد الذى أرسل الله به الرسل وألزم به العبيد وهو إقبال العبد على الله بقلبه وقالبه فى عبادته ودعائه وتوكله واستعانته ولا يساوى معه تعالى فى حبه ورجائه وخوفه لا إله إلا هو دخل الجنة بغير حساب أ. هـ

---

(١) القول السديد ٢٠.

(٢) القول المفيد/ ١٠٩.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٧٠

(٤) فتح الله الحميد المجيد ١٥٢.

قال ناصر السعدى[1]: فإن تحقيق التوحيد تهذيبه وتصفيته من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدع القولية الاعتقادية والبدع الفعلية العملية، ومن المعاصى، وذلك بكمال الإخلاص لله فى الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصل التوحيد، ومن الشرك الأصغر المنافى لكماله وبالسلامة من البدع والمعاصى التى تكدر التوحيد وتمنع كماله وتعوقه عن حصول آثاره. فمن حقق التوحيد بأن امتلأ قلبه من الإيمان والتوحيد والإخلاص، وصدقته الأعمال بأن انقادت إلى أوامر الله طائعة منيبة مخبتة إلى الله، ولم يجرح ذلك بالإصرار على المعاصى؛ فهذا الذى يدخل الجنة بغير حساب، ويكون من السابقين إلى دخولها وإلى تبوؤ المنازل منها.

ومن أخص ما يدل على تحقيقه كمال القنوت لله وقوة التوكل على الله، بحيث لا يلتفت القلب إلى المخلوقين فى شأن من شؤونه، ولا يستشرف إليهم بقلبه، ولا يسألهم بلسان مقاله أو حاله، بل يكون ظاهره وباطنه وأقواله وأفعاله وحبه وبغضه وجميع أحواله كلها مقصوداً بها وجه الله متبعاً فيها رسول الله».

والناس فى هذا المقام العظيم درجات ﴿**وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا**﴾ وليس تحقيق التوحيد بالتمنى ولا بالدعاوى الخالية من الحقائق، ولا بالحلى العاطلة، وإنما ذلك بما وقر فى القلوب من عقائد الإيمان وحقائق الإحسان وصدقته الأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة الجليلة.

فمن حقق التوحيد على هذا الوجه حصلت له جميع الفضائل المشار إليها فى الباب السابق بأكملها والله أعلم.

وقال نحوه ابن باز فى «التعليق»، وعبدالله بن جار الله فى «الجامع الفريد». أهـ.

قال ابن عثيمين[2]:

قوله: «من».

شرطية، وفعل الشرط: «حقق»، وجوابه: «دخل»، قوله: «بلا حساب»، أى: لا يُحاسب لا على المعاصى ولا على غيرها.

وتحقيق التوحيد: تخليصه من الشِّرك، ولا يكون إلا بأمور ثلاثة:

الأول: العلم؛ فلا يمكن أن تحقق شيئاً قبل أن تعلمه، قال الله تعالى: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**﴾ [3].

---

(١) القول السديد ٢٠، ٢٣.

(٢) القول المفيد (١/ ١٠٩، ١١٠).

(٣) محمد: ١٩.

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١).

الثانى: الاعتقاد، فإذا علمت ولم تعتقد واستكبرت؛ لم تحقق التوحيد، قال الله تعالى عن الكافرين: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾(٢) فما اعتقدوا انفراد الله بالألوهية.

الثالث: الانقياد، فإذا علمت واعتقدت ولم تنقد؛ لم تحقق التوحيد، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾(٣).

فإذا حصل هذا وحقق التوحيد؛ فإنَّ الجنَّة مضمونة له بغير حساب، ولا يحتاج أن نقول إن شاء الله؛ لأنَّ هذا حكاية حكم ثابت شرعاً، ولهذا جزم المؤلف رحمه الله تعالى بذلك فى الترجمة دون أن يقول: إن شاء الله.

أمَّا بالنسبة للرجل المعيّن؛ فإننا نقول: إن شاء الله. أ هـ.

قال الفقير: «باب من حقق التوحيد دخل الجنةبـغير حساب» أى من أتى بالتوحيد على الحقيقة بشروطه السبعة وقد خلص هذا التوحيد من شوائب الشرك والبدع والمعاصى فأنه ولابد دخل الجنة ولكن بفضيلة زائدة على أهل الديانة الذين ربما جاءوا بشرك أصغر أو بمعاصى هذه الفضيلة أنهم يدخلون الجنة بغير حساب ولاعذاب وقد اكتفى المصنف رحمه الله بكلمة بغير حساب لأنها تقتضى أنه لايعذب أيضاً ذلك لأن النبى ﷺ قال: «من نوقش الحساب عذب» وهذا يقتضى أنه من لم يحاسب لم يعذب ولهذا استغنى باحدهما عن الآخر.

وهذ جزاؤهم فى الأخرة ولهم فضيلة أخرى فى الدنيا وهى كونهم صاروا أئمة ممكنين كما سيأتى مزيد شرح لهذا والله أعلم.

● ● ●

● مناسبة الآية للترجمة:

قال سليمان آل الشيخ(٤): مناسبة الآية للترجمة من جهة أن الله تعالى وصف إبراهيم عليه السلام فى هذه الآية بهذه الصفات الجليلة التى هى أعلى درجات تحقيق التوحيد، ترغيباً فى اتباعه فى التوحيد، وتحقيق العبودية باتباع الأوامر، وترك النواهى،

---

(١) النحل: ١٢٠.
(٢) ص: ٥.
(٣) الصافات: ٣٦.
(٤) تيسير العزيز الحميد ٧١.

فمن اتبعه في ذلك فإنه يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب كما يدخلها إبراهيم عليه السلام.

وقال نحوه **عبدالله بن جار الله والقرعاوي** وقال الأخير[1] حيث دلت الآية الكريمة أن من اتصف بهذه الصفات الأربع فقد استحق الجنة كما استحقها إبراهيم بغير حساب ولا عقاب.

قال الفقير: يبين المصنف رحمه الله من حقق التوحيد، وكيف حققه، وكيفية تحقيقه، ومقصود التحقيق، كل ذلك يبينه بإراده لهذه الآية والتى تليها والحديث كما سنوضح فى الشرح بعون الله فحينما يذكر إبراهيم عليه السلام والآيات التى تنص على إمامته إنما يذكر المثل الأعلى لكل مسلم والأسوة الحسنة التى تمثل فيه تحقيق التوحيد؛ لبلوغه صفات الكمال البشرى، وذلك بإتمامه كلمات الله لما ابتلاه الله بها، فبذكره عليه السلام - تتضح الغاية، وهى تحقيق التوحيد، وكيف حققه، هذا الأسوة، وهذا الإمام كما وصفه الله تعالى **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** والأمة هو القدوة الذى يؤتم به، وقال ابن مسعود (الأمة) : المعلم للخير، وسيأتى تفسيره بأوسع من ذلك

قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

الإعراب: [2].

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إن واسمها وجملة كان خبرها واسم كان مستتر تقديره هو أى إبراهيم وأمة خبر كان أى كان وحده أمة بذاتها لأنه اجتمعت فيه من صفات الكمال ما يجتمع فى أمة مصدق فيه قول أبى نواس:

ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم فى واحد

وقانتاً خبر ثان لكان ولله متعلقان بقانتاً وحنيفاً خبر ثالث. ولم يك: لم حرف نفى وقلب وجزم ويك فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه السكون وحذفت النون للتخفيف واسم يك مستتر تقديره هو ومن المشركين خبر يك.

● **ماجاء فى تفسيره الآية من السنة:**

(١) الجديد ٤٦.

(٢) إعراب القران ٥/ ٣٨٢ و ٣٨٣.

أولاً: بالمرفوع:

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يشهد له أمة إلا قبل الله شهادتهم. والأمة، الرجل فما فوقه إن الله يقول ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١).

ثانياً: بالموقوف:

وعن أبى العبيد أنه جاء إلى عبدالله فقال من نسأل إذا لم نسألك فكأن ابن مسعود رق له فقال أخبرنى عن الأمة قال الذى يعلم الناس الخير(٢)

وعن عبدالله بن مسعود عن الأمة القانت قال الأمة معلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله(٣).

وعنه أن معاذا كان أمة قانتا لله حنيفاً فقلت فى نفسى غلط أبو عبدالرحمن إنما قال الله تعالى ان إبراهيم كان أمة قانتا لله، فقال تدرى ما الأمة وما القانت؟ قلت الله أعلم: قال: الأمة الذى يعلم الخير والقانت المطيع لله ولرسوله، وكذلك كان معاذ بن جبل كان يعلم الخير وكان مطيعا لله ولرسوله(٤).

وعنه عن عبدالله بن مسعود أنه قال أن معاذ كان أمة قانتاً لله قال: فقال رجل من أشجع يقال له فروة بن نوفل: نسى إنما ذاك إبراهيم، قال: فقال عبدالله: ما نسى إنما كنا نشبهه بإبراهيم قال وسئل عبد الله عن الامة فقال معلم الخير والقانت المطيع لله ورسوله(٥).

وعن مسروق قال: قرأت عند عبد الله هذه الآية ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ فقال كان معاذ أمة قانتا قال هل تدرى ما الأمة؟ الأمة الذى يعلم الناس الخير والقانت الذى يطيع الله ورسوله(٦)

وعنه أن معاذًا كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين فقال له رجل نسيت؟ قال: لا ولكنه شبيه إبراهيم والامة معلم الخير والقانت المطيع(٧).

عن ابن عباس فى قوله ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ قال: كان على الإسلام ولم يكن

---

(١) ذكره السيوطى فى الدر (٢/١٧٦) ونسبه لابن مردويه.

(٢، ٣) أخرجه ابن جرير فى تفسيره» (٧/١٢٨، ١٢٩).

(٤، ٧) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٧/ ١٢٨، ١٢٩)

فى زمانه من قومه أحد على الإسلام غيره، فلذلك قال الله ﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ (١).

عن ابن عباس فى قوله ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ قال: إماماً فى الخير ﴿قَانِتًا﴾ قال: مطيعا (٢).

عن ابن عمرو قال: صلى إبراهيم الظهر والعصر بعرفات ثم وقف، حتى اذا غابت الشمس دفع. ثم صلى المغرب والعشاء بجمع، ثم صلى به الفجر كأسرع ما يصلى أحد من المسلمين، ثم وقف به حتى إذا كان كأبطأ ما يصلى أحد من المسلمين، دفع ثم رمى الجمرة ثم ذبح وحلق، ثم أفاض به إلى البيت فطاف به فقال الله لنبيه ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ والله تعالى أعلم(٣).

ثالثاً: أقوال التابعين ومن بعدهم:

عن شهر بن حوشب قال: لم يبق فى الأرض إلا وفيها أربعة عشر يدفع الله بهم عن أهل الأرض ويخرج بركتها، إلا زمن إبراهيم فإنه كان وحده(٤).

عن قتادة فى قوله ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ قال: إمام هدى يقتدى به وتتبع سنته(٥).

عن مجاهد فى قوله ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال: لسان صدق (٦).

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الطبرى(٧): يقول تعالى ذكره ان إبراهيم خليل الله كان معلم خير يأتم به أهل الهدى قانتاً يقول مطيعاً لله حنيفا يقول مستقيما على دين الإسلام ولم يك من المشركين يقول ولم يك يشرك بالله شيئاً فيكون من أولياء أهل الشرك به وهذا إعلام من الله تعالى أهل الشرك به من قريش أن إبراهيم منهم برىء وأنهم منه برآء. اهـ.

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ١٧٦) ونسبه لابن أبى حاتم فانظره بتخريجنا.

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن المنذر.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه للبيهقى فى «الشعب».

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ١٧٦، ١٧٧) ونسبه لابن جرير.

(٥) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن جرير، وابن أبى حاتم.

(٦) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم.

(٧) تفسير الطبرى ٧/ ١٤/ ١٢٨.

قال الرازى:- اعلم إنه تعالى وصف إبراهيم عليه السلام بصفات:

الصفة الأولى: أنه كان أمة، وفى تفسيره وجوه:

الأول: أنه كان وحده أمة من الأمم لكماله فى صفات الخير كقوله:

ليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم فى واحد

الثانى: قال مجاهد: كان مؤمنا وحده، والناس كلهم كانوا كفارا فلهذا المعنى كان وحده أمة وكان رسول الله ﷺ يقول فى زيد بن عمرو بن نفيل: **«يبعثه الله أمة وحده»**(١).

والثالث: أن يكون أمة فعلة مفعول كالرحلة والبغية، فالأمة هو الذى يؤتم به، ودليله قوله **﴿إنى جاعلك للناس إماما﴾** وذكر هؤلاء الثلاثة ابن الجوزى.

الرابع: أنه عليه السلام هو السبب الذى لأجله جعلت أمته ممتازين عمن سواهم بالتوحيد والدين الحق، ولما جرى مجرى السبب لحصول تلك الأمة سماه الله تعالى بالأمة إطلاقا لاسم المسبب على السبب، وعن شهر بن حوشب لم تبق أرض إلا وفيها أربعة عشر يدفع الله بهم عن أهل الأرض إلا زمن إبراهيم عليه السلام فإنه كان وحده. أهـ.

قال الرازى(٢):

أعلم أنه تعالى لما زيف فى هذه السورة مذاهب المشركين فى أشياء:

منها: قولهم باثبات الشركاء والأنداد لله تعالى، ومنها طعنهم فى نبوة الأنبياء والرسل عليهم السلام، وقولهم: لو أرسل الله رسولا لكان ذلك الرسول من الملائكة.

ومنها: قولهم بتحليل أشياء حرمها الله، وتحريم أشياء أباحها الله تعالى، فلما بالغ فى إبطال مذاهبهم فى هذه الأقوال، وكان إبراهيم عليه السلام رئيس الموحدين وقدوة الأصوليين، وهو الذى دعا الناس إلى التوحيد وإبطال الشرك وإلى الشرائع، والمشركون كانوا مفتخرين به معترفين بحسن طريقته مقرين بوجوب الاقتداء به، لا جرم ذكره الله تعالى فى آخر هذه السورة، وحكى عنه طريقته فى التوحيد ليصير ذلك حاملا لهؤلاء المشركين على الاقرار بالتوحيد والرجوع عن الشرك. أهـ.

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ١٨٨)، والطبرانى فى «الكبير»(١/ ١٥١/ ٣٥٠) عن سعيد بن زيد به.

(٢) «التفسير الكبير» (١٠/ ١٣٧)

قال القرطبى(١): دعا عليه السلام مشركى العرب إلى ملة إبراهيم إذ كان أباهم وبانى البيت الذى به عزّهم. أهـ.

قال ابن كثير(٢): يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية. اهـ.

● الفرق بين الأمة والإمام:

قال ابن القيم: والفرق بين الأمة والإمام من وجهين:

أحدهما : أى الإمام كل مايؤتم بـه سواء بقصده وشعوره أولا، ومنه سمى الطريق إماما، كقوله تعالى ﴿**وإن كان أصحاب الأيكة لظلمين فانتقمنا مهم وإنهما لبإمام مبين**﴾ أى بطريق واضح لايخفى على السالك. ولايسمى الطريق أمة.

الثانى: أى الأمة فيه زيادة معنى وهو الذى جمع صفات الكمال فى العلم والعمل وهو الذى بقى فيه فرداً وحده، فهو الجامع لخصال تفرقت فى غيره، فكأنه باين غيره باجتماعها فيه وتفرقها أو عدمها فى غيره ولفظ الأمة يشعر بهذا المعنى فيضم عند النطق بها وأتى بالتاء الدالة على الموحدة كالغرفة واللقمة، ومنه حديث «**إن زيد بن عمرو بن نقيل يبعث يوم القيامة أمة وحده**» فالضم والاجتماع لازم المعنى الأمة، و منه سميت الأمة التى هى آحاد الأمم، لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو فى عصر واحد. أهـ(٣).

● ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ(٤): أنه كان أمَّة، أى قدوة وإماماً معلماً للخير، وإماماً يقتدى به. روى معناه عن ابن مسعود. وما كان كذلك إلا لتكميله مقام الصبر واليقين اللذين بهما تنال الإمامة فى الدين. كما قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾(٥).

قال ابن عثيمين(٦):

---

(١) تفسير القرطبى (٦/ ٣٨١٣).
(٢) ابن كثير ٢/ ٥٧٢.
(٣) «مفتاح دار السعادة».
(٤) تيسير العزيز الحميد ٧١.
(٥) السجدة: ٢٤
(٦) القول المفيد ١/ ١١٠ - ١١٢.

قوله: ﴿أُمَّة﴾.

أي: إماماً، وقد سبق أنّ أمة تأتى فى القرآن على أربعة أوجه: إمام، ودهر، وجماعة، ودين.

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّة﴾.

هذا ثناء من الله - سبحانه وتعالى - على إبراهيم بأنَّه إمام متبوع؛ لأنَّه أحد الرسل الكرام من أولى العزم، ثم إنَّه ﷺ قدوة فى أعماله وأفعاله وجهاده؛ فإنَّه جاهد قومه وحصل منهم عليه ما حصل، وألقى فى النار فصبر.

ثم ابتلاه الله - سبحانه وتعالى - بالأمر بذبح ابنه، وهو وحيده، وقد بلغ معه السعي (أي: شب وترعرع)؛ فليس كبيراً قد طابت النفس منه، ولا صغيراً لم تتعلق به النفس كثيراً، فصار على منتهى تعلّق النفس به.

ثم وفق إلى ابن بار مطيع لله، قال الله تعالى عنه: ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾(١)، لم يحنث والده ويتمرد ويهرب، بل أراد من والده أن يوافق أمر ربه، وهذا من برّه بأبيه وطاعته لمولاه سبحانه وتعالى، وانظر إلى هذه القوة العظيمة مع الاعتماد على الله فى قوله: ﴿سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِين﴾.

فالسين فى قوله: ﴿سَتَجِدُنِى﴾ تدل على التحقيق، وهو مع ذلك لم يعتمد على نفسه، بل استعان بالله فى قوله: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾.

وامتثلا جميعاً وأسلما، وانقادا لله - عز وجل -، وتلّه للجبين؛ أى: على الجبين، أى جبهته؛ لأجل أن يذبحه وهو لا يرى وجهه، فجاء الفرج من الله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾(٢)، ولا يصح ما ذكره بعضهم من أن السكين انقلبت، أو أن رقبته صارت حديداً، ونحو ذلك. أهـ.

● ● ●

(١) الصافات: ١٠٢.

(٢) الصافات: ١٠٤ - ١٠٥.

قوله: ﴿قانتاً﴾

● ماجاء فى تفسيرها من القرآن:

أتى القنوت فى القرآن على معانى:

(الأولى): الطاعة.

(والثانى): الإقرار بالعبادة.

(والثالث): الامساك عن الكلام فى الصلاة.

(الرابع) طول القيام فى الصلاة. قال تعالي: **﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾**(١) وقال **﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾**(٢).

(الخامس) : الخاشع.

ومدح الله القانتين مع جملة من الأخلاق الأخرة فقال: **﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾**(٣). وسيأتى من كلام ابن الجوزى وغيره.

● ماجاء فى تفسير الآية من الآثار:

عن ابن مسعود: (القانت): المطيع لله ورسوله. وتقدم الأثر.

وعن ابن عباس: (القانت): مطيعاً. وتقدم الأثر أيضاً.

وروى ابن جرير عن مجاهد؛ قال: ﴿قانتاً﴾ مطيعاً لله فى الدنيا.

● ماجاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال ابن جرير(٤): قال بعضهم: مطيعون. ثم ذكر الأثار فى ذلك عن قتادة ومجاهد وغيرهما ممن تقدم وقال بعضهم: الإقرار بالطاعة.

قال: وأولى معانى القنوت: الطاعة والاقرار لله عز وجل بالعبودية. اهـ مختصراً.

وقال البغوى(٥): (قانتاً لله) مطيعاً له. وقيل: قائماً بأوامر الله تعالى. اهـ.

---

(١) البقرة: ٢٣٨.
(٢) الزمر : ٩.
(٣) الأحزاب: ٣٥.
(٤) تفسير الطبرى (١/١/٤٠٢) (٧/٤/١٢٩).
(٥) معالم التنزيل (٣/٤٥٦)

وقال الزمخشري[1]: والقانت: القائم بما أمره الله. اهـ.

وقال ابن الجوزي[2]: المراد بالقنوت في تفسير قوله (كل له قانتون) ثلاثة أقوال:

أحدهما: أنه الطاعة. قاله ابن عباس، وابن جبير، وقتادة.

الثاني: أنه الإقرار بالعبادة. قاله عكرمة والسدي.

الثالث: القيام، قاله الحسن والربيع.

وقال في قوله (وقوموا لله قانتين) ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الطاعة، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد..

الثاني: أنه طول القيام في الصلاة قاله ابن عمر، والربيع بن أنس.

الثالث: أنه الإمساك عن الكلام في الصلاة، قاله زيد بن أرقم.

ثم قال ابن الجوزي في تفسير قوله (قانتاً) شرحنا «القنوت» في البقرة. اهـ.

وعني بذلك ما قدمناه من كلامه.

قال الرازي[3]: **الصفة الثانية**: كونه قانتا لله والقانت بما أمره الله تعالى به، قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه كونه مطيعا لله كما تقدم أهـ.

قال ابن كثير: القانت: هوالخاشع.

قال ابن تيمية: (قانتاً) دوام الطاعة. **وقال ابن القيم**: والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة.

● ما جاء في الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ[4]: أنه كان قانتاً لله، أي خاشعاً مطيعاً، دائماً على عبادته وطاعته كما قال شيخ الإسلام: القنوت في اللغة: دوام الطاعة. والمصلي إذا طال قيامه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت في ذلك كله. قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ فجعله قانتاً في حال السجود والقيام. انتهى.

---

(١) الكشاف (٢/ ٣٤٨).

(٢) زاد المسير (١/ ١١٨، ٢٣٦) (٤/ ٣٨٤).

(٣) التفسير الكبير ١٠/ /١٣٧.

(٤) القول المفيد ١/ ١١٢.

فوصفه فى هاتين الصفتين بتحقيق العبودية فى نفسه أولاً: علماً وعملاً.

وثانياً: دعوة وتعليماً واقتداء به، وما كان يقتدى به إلا لعلمه به فى نفسه، ووصفه فى الثانية بالاستقامة على ذلك كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فتضمنت العلم والعمل والاستقامة والدعوة أهـ.

قال ابن عثيمين(1): **قوله**: ﴿قانتاً﴾ القنوت: دوام الطاعة، والاستمرار فيها على كل حال؛ فهو مطيع لله، ثابت على طاعته، مديم لها فى كل حال.

كما أنَّ ابنه محمداً ﷺ يذكر الله على كل أحيانه: إن قام ذكر الله، وإن جلس ذكره، وإن نام، وإن أكل، وإن قضى حاجته ذكر الله؛ فهو قانت آناء الليل والنهار. أهـ.

● ● ●

● **قوله [حنيفاً]**:

الإعراب: قال القرطبى: «فى تفسيره» قال الزجاج: هو حال من إبراهيم. اهـ.

●ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(2).

وقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(3).

وقال: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(4).

وقال: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾(5).

وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾(6).

---

(1) تيسير العزيز الحميد ٧١.
(2) البقرة: ١٣٥.
(3) آل عمران: ٦٧.
(4) آل عمران: ٩٥.
(5) البقرة: ١٣٠.
(6) النساء: ١٢٥.

وقال ابن كثير: ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه أنا أوحينا إليك ياخاتم الرسل ﴿**وَاتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾ كما قال ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾(١).

وكما قال تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾(٢).

وقال: ﴿**وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾(٣).

وقال: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**﴾(٤).

وغير ذلك من الآيات التي تنصف على أن (الحنيف) هو المستقيم على دين الإسلام، وأن الله أمرنا بها وهى دين أبينا إبراهيم.

● ما جاء فى تفسير الآية من السنة:

عن ابن ابزى عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «**أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**».

وإذا أمسى قال مثل ذلك(٥).

وفى «صحيح مسلم»: «**وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم**»(٦).

وفى «صحيح البخارى»: «**أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة**»(٧).

وفى «المسند» «**بعثتُ بالحنيفية السمحة**»(٨).

وفى حديث التنوخى فى «المسند» «**هل لك فى الإسلام الحنيفية، ملة أبيك إبراهيم**»(٩).

والتنوخى هذا رسول هرقل إلى رسول الله. وهو صحابى.

---

(١) الأنعام: ١٦١.
(٢) الروم: ٣٠.
(٣) يونس: ١٠٥.
(٤) البينة: ٥.
(٥) أخرجه أحمد وأبو الشيخ وابن مردويه وكذا فى «الدر». (٣/ ١٢٣).
(٦) [صحيح] مسلم/ صفة الجنه (٦٢) وأحمد (٤/ ١٦٢).
(٧) [صحيح] البخارى فى الإيمان (٢٩) والترمذى فى المناقب (٣٢) وأحمد (١/ ٢٢٦).
(٨) أحمد (٥/ ٢٦٦) (٦/ ١١٦، ٢٢٢).
(٩) أحمد (٣/ ٤٤٢).

وفى صحيح البخارى من حديث ابن عمر: **أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقى عالماً من اليهود فسألهم عن دينهم فقال: إنى لعلى أن أدين دينكم فأخبرنى، فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، قال زيد: ما أفر إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً، وأنى أستطيعه؟ فهل تدلنى على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً. قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله. فخرج زيد فلقى عالماً من النصارى. فذكر مثله.**

فلما رأى زيد قولهم فى إبراهيم عليه السلام خرج فلما برز رفع يديه فقال: «اللهم إنى أشهد أنى على دين إبراهيم»(١).

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى(٢): (حنيفاً) يقول: مستقيماً على دين الإسلام. اهـ.

قال البغوى(٣): وقيل: مخلصاً. اهـ.

وقال الزمخشرى(٤): المائل إلى ملة الإسلام، غير الزائل عنه. اهـ.

قال الرازى(٥): **الصفة الثالثة**: كونه حنيفاً والحنيف: المائل إلى ملة الإسلام ميل الا يزول عنه.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: إنه أول من اختتن وأقام مناسك الحج وضحى، وهذه صفة الحنيفية أهـ.

قال القرطبى(٦): (حنيفا) مائلاً إلى الحق. أهـ.

وقال ابن كثير(٧): (الحنيف) المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد ولهذا قال **﴿ولم يكن من المشركين﴾**.

قال ابن القيم : الحنيف المقبل على الله المعرض عن كل ما سواه.

---

(١) [صحيح] البخارى فى مناقب الأنصارى (ح ٣٨٢٧).

(٢) تفسير الطبرى (٧/ ١٤/ ١٢٨).

(٣) معالم التنزيل (٣/ ٤٥٦).

(٤) الكشاف (٢/ ٣٤٨).

(٥) «التفسير الكبير» (١٠/ ٢٠ / ١٣٧)

(٦) تفسير القرطبى (٤/ ٢٤٦٤).

(٧) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٧٢).

● ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ(١): انه كان حنيفاً؛ والحنف الميـل، أى مائلاً منحرفاً قصداً عن الشرك كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢)، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾(٣) الآيه أهـ.

قال حامد بن محمد بن حسن بن محسن(٤): حنيفاً - أى مائلاً من الباطل الى الحق ومن الشرك إلى التوحيد ومن الكفر إلى الايمان ومن النفاق إلى الإخلاص ومن المعاصى إلى الطاعات، قال تعالى: ﴿وإبراهيم الذى وفى﴾.

قال ابن عثيمين(٥):

قوله: ﴿حَنِيفًا﴾ أى: مائلاً عـن الشرك، مجانـباً لكل ما يـخالف الطاعـة؛ فوصف بالإثبات والنفى؛ أى: بالوصفين الإيجابى والسلبى أهـ.

قوله: «ولم يك من المشركين».

الإعراب: وبعض وجوه القراءة:

قال القرطبى(٦): ﴿وما أنا من المشركين﴾ اسم (ما) وخبرها، وإذا وقفت قلت: (أنا) زدت الألف لبيان الحركة، وهى اللغة الفصيحة.

قال الأخفش: ومن العرب من يقول (أنَ). وقال الكسائى: ومن العرب من يقول (أنه) ثلاث لغات.

وفى الوصل ثلاث لغات أيضاً «أن تحذف الألف فى الإدراج، لأنها زائد لبيان الحركة فى الوقف ومن العرب من يثبت الألف فى الوصل كما قال الشاعر:

[أنا سيف العشرة فاعرفونى]

وهى لغة بعض بنـى قيس وربيعة؛ عن الفراء. ومن العرب مـن يقول فى الوصل: (آن) فعلت مثل (عان) فعلت؛ حكاه الكسائى عن بعض قضاعة. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الرازى(٧): الصفة الرابعة: قوله ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ معناه أنه كان من

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٧١)

(٢) «الأنعام»: (٧٩)

(٣) «الروم»: (٣٠)

(٤) «فتح الله الحميد المجيد» (١٥٥).

(٥) «القول المفيد» (١/ ١١٢).

(٦) تفسير القرطبى (٤/ ٢٤٦٤).

(٧) «التفسير الكبير» (١٠/ ٢٠ / ١٣٧ و ١٣٨)

الموحدين فى الصغر والكبر والذى يقرر كونه كذلك أن أكثـر همته عليه السلام كان فى تقرير علم الأصول فذكر دليل إثـبات الصانع مع ملك زمـانه وهو قوله: ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ ثم أبطل عبادة الأصنـام والكواكب بقوله﴿ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ ثم كسر تلك الأصنام حتى آل الأمر إلى أن القوه فى النار، ثم طلب من الله أن يريه كيفية إحياء الموتى ليـحصل له مزيد الـطمأنينة، ومـن وقف على علم الـقرآن علم أن إبراهيـم عليه السلام كان غارقا فى بحر التوحيد أهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ[1]: أنه ما كان مـن المشركين. أى هو موحـد خالص من شوائب الشرك مطلقاً فنفى عنه الشرك على أبلغ وجوه النفى، بحيث لا ينسب إليه شرك وإن قل، تكـذيباً لكفار قـريش فى زعمهم أنـهم على ملة إبـراهيم عليه الـسلام. وقال المصنف فى الكلام على هذه الآية. ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ لا للملوك ولا للتجار المترفين ﴿حَنِيفًا﴾ لايميل يميناً ولا شمالاً كفعل العلماء المفتونين: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ خلافاً لمن كثر سوادهم وزعم أنه من المسلمين.

قلت ـ سليمان ـ: وهو من أحسن ما قيل فى تفسير هذه الآية. لكنه ينبه بالأدنى على الأعلى. وقـوله: لئلا يستـوحش تنبيه عـلى بعض معـنى الآية. وهو المنفـرد وحده فى الخير. وقد روى ابن أبى حاتم عن ابن عـباس فى قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾[2] كان على الإسلام ولم يكن فى زمانه من قومه أحد على الإسلام غيره، فلذلك قال الله: ﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ ولا تنافى بينه وبين كلام ابن مسعود المتقدم.

قال عبد الرحـمن آل الشيخ[3]: يوضِّح هذا قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[4] أى على دينه مـن إخوانه المرسلين، قالـه ابن جرير رحمه الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾[5] وذكر تعالى عن خليله عليه السلام أنه

---

(١)« تيسير العزيز الحميد» (٧٢).

(٢) تقدم تخريجه فى تفسير الآية

(٣) «فتح المجيد» (٧٦)

(٤) و (٥) الممتحنة: ٤.

قال لأبيه آزر ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾[1] فهذا هو تحقيقُ التوحيد. وهو البراءةُ من الشِّرك وأهله واعتزالُهم، والكفر بهم وعداوتهم وبُغْضُهم. فالله المستعان.

قال المصنف رحمه الله في هذه الآية: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ لئلا يستوحش سالك الطَّريق من قِلَّة السَّالكين: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ لا للملوك ولا للتجار المترَفين ﴿حَنِيفًا﴾ لا يميل يميناً ولا شمالاً، كفعل العلماء المفتونين ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ خلافاً لمن كثَّر سوادَهم وزعم أنه من المسلمين.

وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ على الإسلام. ولم يَكُ في زَمانه أَحدٌ على الإسلام غيره» أهـ. كما تقدم[2]

قلت: ولا مُنَافاة بين هذا وبين ما تقدم: من أنه كان إماماً يقتدى به في الخير.

قال ابن باز[3]: أكد الكلام بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. بل فارقهم في عقيدته وأعماله وأقواله ومنزله، وهذا الذي ينبغي للمسلم أن يستقيم ويحقق توحيده، ولا يخالط المشركين ويكثر سوادهم. فلهذه الصفات حقق إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كمال التوحيد أهـ.

وفصل ذلك حامد بن محمد بن حسن بن محسن.

قال ابن عثيمين[4]: قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

تأكيد، أي لم يكن مشركاً طول حياته؛ فقد كان عليه الصلاة والسلام معصوماً عن الشرك، مع أن قومه كانوا مشركين، فوصفه الله بامتناعه عن الشرك استمراراً في قوله: ﴿حَنِيفًا﴾، وابتداءً في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، والدليل على ذلك: أنَّ الله جعله إماماً، ولا يجعل الله للناس إماماً من لم يحقق التوحيد أبداً.

---

(١) «مريم»: (٤٨ - ٤٩).

(٢) التعليق المفيد ٣٩.

(٣) القول المفيد ١/ ١١٣ - ١١٥.

(٤) تقدم تخريجه

ومن تأمل حال إبراهيم عليه السلام وما جرى عليه وجد أنه في غاية ما يكون من مراتب الصبر، وفي غاية ما يكون من مراتب اليقين؛ لأنَّه لا يصبر على هذه الأمور العظيمة إلا من أيقن بالثواب، فمن عنده شك أو تردد لا يصبر على هذا؛ لأنَّ النفس لاتدع شيئاً إلا لما هو أحب إليها منه، ولا تحب شيئاً إلا ما ظنت فائدته، أو تيقنت.

ويجب أن نعلم أنَّ ثناء الله على أحد من خلقه لا يقصد منه أن يصل إلينا الثناء فقط، لكن يقصد منه أمران هامان:

الأول: محبة هذا الذى أثنى الله عليه خيراً، كما أنَّ من أثنى الله عليه شراً؛ فإننا نبغضه ونكرهه، فنحب إبراهيم عليه السلام؛ لأنه كان إماماً حنيفاً قانتاً لله ولم يكن من المشركين، ونكره قومه؛ لأنهم كانوا ضالين، ونحب الملائكة وإن كانوا من غير جنسنا؛ لأنهم قائمون بأمر الله، ونكره الشياطين؛ لأنَّهم عاصون لله وأعداء لنا ولله، ونكره أتباع الشياطين؛ لأنَّهم عاصون لله أيضاً وأعداء لله ولنا.

الثاني: أن نقتدى به فى هذه الصفات التى أثنى الله بها عليه؛ لأنَّها محل الثناء، ولنا من الثناء بقدر ما اقتدينا به فيها، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِى الأَلْبَابِ**﴾(١)، وقال تعالى: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ**﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ**﴾(٣).

وهذه مسألة مهمة؛ لأنَّ الإنسان أحياناً يغيب عن باله الغرض الأول، وهو محبة هذا الذى أثنى الله عليه خيراً، ولكن لاينبغى أن يغيب؛ لأنَّ الحب فى الله، والبغض فى الله من أوثق عرى الإيمان.

●**فائدة:**

قال ابن عثيمين: أبو إبراهيم مات على الكفر، والصواب الذى نعتقده أن اسمه آزر؛ كما قال الله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً**﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ**﴾(٥)؛ لأنَّه قال: ﴿**سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا**﴾(٦)، ﴿**فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**﴾(٧)، وفى سورة إبراهيم قال: ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ**﴾(٨)، ولكن فيما بعد تبرأ منه.

---

(١) يوسف: ١١١. (٢) الممتحنة: ٤. (٣) الممتحنة: ٦.
(٤) الأنعام: ٧٤. (٥) التوبة: ١١٤. (٦) مريم: ٤٧.
(٧) التوبة: ١١٤. (٨) ابراهيم: ٤٠.

أما نوح؛ فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾(١)، وهذا يدل على أن أبوى نوح كانا مُؤمنَين.

● **فائدة أخرى:**

قال ابن عثيمين: قال الإمام أحمد: ثلاثة ليس لها أصل: المغازى، والملاحم، والتفسير؛ فهذه الغالب فيها أنَّها تذكر بدون إسناد، ولهذا؛ فإن المفسرين يذكرون قصة آدم، ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾(٢)، وقليل منهم من ينكر القصة المكذوبة فى ذلك.

قلت: وستأتى القصة وتضعيف الحافظ ابن كثير لهافى باب قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾

فالقاعدة إذاً: أنه لا أحد يعلم عن الأمم السابقة شيئاً إلا من طريق الوحى، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ﴾(٣).

فصل

فى جزاء الأئمة والمحسنين فى الدنيا

قال الفقير: ولما كان من طبائع الناس التى جبلت عليها حب العاجلة وتقديمها على الآخرة لاستبعادهم إياها أحياناً أولحبهم واستعجالهم الخير لما كان هذا حال الناس ناسب أن نذكر لهم جزاء الأئمة والمحسنين ممن حققوا التوحيد فى الدنيا كما بينت الآيات ثم بعد ذلك نذكر جزاءهم فى الآخرة كما بينت السنة. ذلك أن الله عزوجل لم يجعل جزاء الأئمة الجنة بغير حساب فقط بل جعل أى ـ الأمامة شرط من شروط الاستخلاف والتمكين وإقامة الدول وقد بين الله ذلك فى غير موضع فقال ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾(٤) وقد فعل الله تعالى ذلك بهم بعد ابتلائهم وصبرهم على هذا البلاء بربط الله على قلوبهم وتثبيته إياهم حتى يوقنوا بأن العاقبة لهم فبلغوا بذلك الأمامة فى الدين فأورثهم الله عرش فرعون كما

(١) نوح: ٢٨. (٢) الاعراف: ١٩٠. (٣) إبراهيم: ٩.
(٤) القصص: ٥، ٦

قال تعالى . ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمت ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾(١) وكما قال تعالى ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾(٢) فلما كملوا مقام الصبر ومقام اليقين نالوا كما نال إبراهيم من قبل مقام الأئمة وفى حق إبراهيم قال تعالى فى سورة البقرة ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين﴾(٣) ولقد عبر عن هذا كله صاحب«الظلال»عن كيفية إقامة المجتمع المسلم فقال: إن هذا المجتمع لايقوم حتى تنشأ جماعة من الناس تقرر أن عبوديتها الكاملة لله وحده، وأنها لاتدين بالعبودية لغير الله. لاتدين بالعبودية لغير الله فى الاعتقاد والتصور ولاتدين بالعبودية لغير الله فى العبادات والشعائر.. ولاتدين لغير الله فى النظام والشرائع.. ثم تأخذ بالفعل فى تنظيم حياتها كلها عن أساس هذه العبودية الخالصة.. تنقى ضمائرها من الاعتقاد فى ألوهية أحد غير الله ـ معه أومن دونه ـ وتنقى شعائرها من التوجه بها لأحد غير الله ـ معه أو دونه وتنقى شرائعها من التلقى عن أحد غير الله ـ معه أو من دونه ـ عندئذ ـ وعندئذ فقط ـ تكون هذه الجماعة مسلمة، ويكون هذا المجتمع الذى أقامته مسلماً كذلك ـ فأما قبل أن يقرر ناس من الناس إخلاص عبوديتهم لله ـ على النحو الذى تقدم ـ فإنهم لايكونون مسلمين وأما قبل أن ينظموا حياتهم على هذا الاساس فلا يكون مجتمعهم مسلماً.. ذلك أن القاعدة الأولى التى يقوم عليها الإسلام والتى يقوم عليها المجتمع الإسلامى هى شهادة أن لاإله إلاالله وأن محمداً رسول الله ـ لم تقم بشطريها ـ وإذن فإنه قبل التفكير فى إقامة نظام اجتماعى إسلامى وإقامة مجتمع مسلم على أساس هذا النظام.. ينبغى أن يتجه الاهتمام أولاً إلى تخليص ضمائر الأفراد من العبودية لغير الله ـ فى أية صورة من صورها التى أسلفنا وأن يتجمع الأفراد الذين نخلص ضمائرهم من العبودية لغير الله فى جماعة مسلمة . وهذه الجماعة التى خلصت ضمائر أفرادها من العبودية لغير الله اعتقاداً وعبادة وشريعة هى التى ينشأ منها المجتمع المسلم وينضم إليها من يريد أن يعيش هذا المجتمع بعبادته وعقيدته

(١) الأعراف : ١٣٧

(٢) السجدة : ٢٤

(٣) البقرة : ١٢٤

وشريعته التى تتمثل فيها العبودية لله وحده ثم قال هكذا نشأت الجماعة المسلمة الأولى التى أقامت المجتمع المسلم الأول وهكذا تكون نشأة كل جماعة مسلمة وهكذا يكون كل مجتمع مسلم والحاصل أن الله عزوجل جعل الإقامة فى الدين شرط فى الاستخلاف وفى التمكين فقال «ونجعلهم أئمة» وهى المنة الأولى التى بها تأتى المنة الثانية وهى الورث والتمكين وإقامة دولة المسلمين «نجعلهم الوارثين» وقد بين الله تعالى للناس كيف يكونوا أئمة بعرضه لهذا القدوة والمثل فى القرآن فقال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ فبين سبحانه وتعالى أنه لابد من الابتلاء والفتن حتى يصل العبد إلى درجة الأئمة بصبره على ذلك والابتلاء والفتن تأتى بمعنى الأوامر والنواهى كما فى قوله تعالى ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾(١) وقوله تعالى -﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾(٢) أى لايؤمر ولاينهى كما قال ذلك الشافعى وفى الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم قال ابن كثير كلمات أى بشرائع وأوامر ونواهى فهذه شروط الأمامة الابتلاء والصبر عليه وعدم الجزع من حكم الله واليقين بأن العاقبة للمتقين وكذلك التمكين لذا قال تعالى فى بنى إسرائيل ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ وقال ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ ولقد بين المفسرون الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم عليه السلام فقال ابن عباس الكلمات التى ابتلى الله بهن إبراهيم فراقه قومه فى الله حين أمر بمفارقتهم ومحاجته نمروذ فى الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذى فيه خلافه، وصبره على قذفه إياه فى النار ليحرقوه فى الله على هول ذلك من أمرهم والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده فى الله حين أمره بالخروج عنهم وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله ومابتلى به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه فلمامضى على ذلك من الله كله واخلصه للبلاء ﴿قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٣) على ماكان من خلاف الناس وفراقهم(٤)

وعنه أيضاً ابتلاه الله بالمناسك وقيل غير ذلك فأتمهن أى قام بهن ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾(٥) فنال بذلك الإمامة فى الدين وحقق كذلك مقام اليقين المجيد بالقيادة وإذعانه لشرع رب العالمين وخلع شرائع وقوانين المضلين فقال تعالى ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وهذه كلمات الله لاتبدل فمن وفى بهذا الشرط وفى الله له

(١) العنكبوت : ٢ (٢) القيامة : ٣ (٣) البقرة: ١٣١

(٤) ابن كثير١/ ١٦٥ (٥) النجم :٣٧

بالثانى كما قال تعالى فى حق يوسف عليه السلام ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(١) فبعد الإحسان - وهذا تعبير آخر عن درجة الأئمة فبعد بلوغها يأتى الحكم ويأتى الاستخلاف ثم قال إبراهيم ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أى المشركين غير الخلص الذين لم يبلغوا درجة المحسنين وكانوا فى ريب من وعد رب العالمين وهذه مشيئته الشرعية ألا يكون اماماً ظالماً أو مشركاً كمايين سعيد بن جبير قال المراد به المشرك لايكون أماماً ظالماً لايكون إماماً مشركاً ويؤيده قوله تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٢) فمن رضى بغير شرع الله شرع ورضى بغير أمر الله أمر فقد دخله من الظلم والشرك بقدر هذا الرضى وتخلف عن الإمامة بهذا القدر وكذلك من شك أو لم يصبر على بلاء الله عزوجل يكون قد نقص من أمامته فى الدين بقدر هذا الريب وبقدر هذا الجزع وعدم الصبر فيكون له حصة من الإمامة فى الدين بقدر ما صبر على بلاء الله الذى هو شرعه وأمره ونهيه ويكون له مطلق الإمامة الدينية الشرعية إذا أتى بمطلق الصبر واليقين فالمطلق للمطلق والحصة للحصة. هذا فى أمر الدنيا وفى أمر الآخرة كذلك يحاسب بقدر ما أتى من جزع وعدم صبر وقلة يقين أوشك. وامتثل الرسول ﷺ لقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ فكان يقتدى به ﷺ فى الوصول إلى الإمامة بنفسه ثم فى منهجه مع أصحابه فابتلى هو ﷺ يمثل ما ابتلى به إبراهيم فصبر وأيقين وكان لنافيه الأسوة الحسنة وكذلك الصحابة مستهم الباساء والضراء وزلزلوا وأذوا فى الله وتركوا أموالهم وأولادهم وذويهم مهاجرين إلى الله عزوجل فبلغوا من الصبر على بلاء الله ومن اليقين بوعد الله منازل الأئمة فمن الله عليهم بالتمكين والاستخلاف وجعلهم الوارثين ولعل هذا من حكم الإتيان بحديث السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب لأنهم اقتدوا بالنبى الذى اقتدى بأبيه إبراهيم فحقق الجميع أعلى مراتب التوحيد ودخول الجنة بغيرحساب .

فالأمة :(الغرباء) و(السواد الأعظم)، و(الطائفة المنصورة)،و(الفرقة الناجية)، أهل العلم

قال الإمام أحمد: أبو حمزة السكرى جماعة.

وهذه كلمات الله لاتبديل لها فى كل عصر ومصر وما أرى تخلف هذه السنة عنا

---

(١) يوسف : ٢٢

(٢) لقمان :١٣

وحرماننا من هـذه المنة إلا أننا لم نفى بالشرط ولـم نحقق التوحيد فينـا بمعنى أن نرفع شعار الحكم لله عزوجل فـى كل مناحى الحياة ولا نشترى بذلك ثمـناً قليلاً من عرض زائل أو منصب تافه ونصبر على ذلك كله موقنين بأن العاقبة للمتقين.

أرى أننا فعلا لم نـبتلى بلاء الأولين وإن ابتليـنا لم نصبر صبرهم فلـهذا مازلنا فى استضعاف وهوان إلى أن نفى للرحـمن عزوجل بهذا الشرط والله الموفق لا رب سواه. وهو الحنان المنان.

● ● ●

سؤال: ما الفرق بين النصر والتمكين

الجـواب الفـرق الأول: النصر بـخلاف التمكيـن لأنه لايلزم أن يكون مـع النصر تمكين، ولايلـزم من النصر نفسه تمـكين قال﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾

فحبيب النجار ـ مؤمن يس ـ انتصر لأنـه مات مسلماً، ودخل الجنة، ولـم يمكن له. وكذا قصة أصحاب الأخـدود ولأن الله وعد المؤمنين بذلك كما تـقدم وجعل ذلك حق عليه لهم بـقوله تعالى ﴿ **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ لكن النصر قد يـتبعه تمكين أحياناً قال تعالى ﴿ **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ**﴾ الآية فهذا نصر تبعه تمكين فى المدينة.

الفرق الثانى: النصر قد يكون عـلى مستوى فردى، أما التمكين فيـكون على مستوى الأمة أو الجماعة، أو الطائفة.

سؤال: هل المطلوب النصر أم التمكين؟

الجواب: التـمكين لأنـه فى هذه الحالـة يدخل النـاس فى الإسلام فى أمـن وأمان، ونخرجهـم من عبادة غير الله إلى عـبادة الله. والدليل قولـه تعالى ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ**﴾ وفى الحديث «بعثت بالسيف بين يدى الساعة ليعبد الله وحده وجعل رزقى تحـت ظل «رمحى» (١)، (٢). فالإمامة وسيلة إلـى غاية والغاية هى الإرث والتمكين للدين.

---

(١) فى المسند

(٢) قال ربعى: ابتعثنا الله لـنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد فـالرسول بُعث بالسيف ولم يشهره إلا بعد ١٣ سنة بعد أن أذن الله له فلا بد وأن يكون دليل شرعى للقتال

الدليل قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الآية

ذلك حتى يُقام الدين لأن الدين لايُقام فى حالة استضعاف.

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ فلو أحس الناس بالأمن لدخلوا فى دين الله أفواجاً ولا لتزموا بدين الله أفواجاً فالإمامة ليست مطلوبة لدخول الجنة بغير حساب فقط، وإن كنا حولها ندندن. بل لإقامة دين الله فى الأرض الذى لايقوم إلا بالتمكين ولاتمكين إلا بالأئمة.

فائدة: أبو جهل ربط سمية من رجليها وهددها بقذفها فى حيائها وكان الصحابة يمرون عليها ومعهم سلاحهم ولايفعلون أى شيء فى أبى جهل فلو ارتبطت دعوة النبى ﷺ بالسلاح وبالقتل لكان ذلك أكبر شيء للصد عن دعوته ﷺ.

وقد كان النبى ﷺ يصلى فى الكعبة فيقول أحد الكفار من يأتى بسلا جزور فلان ويوضع على ظهره وهو يصلى . لكن الصحابة كان بلاؤهم أن يصبروا وليس أن يعملوا عمليات من شأنها أن تصد عن الدعوة وتعوق خطوات التمكين.

فهدفنا ليس نصر، ولكن تمكين وإرث.

والذى يفعل هذه العمليات هو مخطئ عندنا؛ لأن لم يراع المفاسد والمصالح التى اعتبرها رسول الله ﷺ بقوله «حتى لايتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» وكذلك يتحدث الناس الآن أننا نقتل مسلمين أو معاهدين فالواجب علينا السعى إلى التمكين، لا إلى النصر، وقد يأثم من قام بنصر فردى محدود يعوق خطوات التمكين.

سؤال: كيف تمكن ؟ وما السبيل إلى التمكين؟

هو تربية الأئمة: أى نتربى نحن أن نكون هكذا، وكذا نربى غيرنا لا نبعبع بها ولكن تكون معنا ونتصورها (١).

(١) إذن دورنا هو صناعة الأئمة فالتربية صناعةلها اصول وأسس ولها تدرج مسلم ـ متعلم ـ داعى ـ ـ معلم ـ يصل إلى ذروة سنام الإسلام يصبح مجاهد . هذه هى الشخصية الكاملة التى قاربت الكمال البشرى قال ﷺ «والعالم والمتعلم شريكان فى الأجر» وماسوى ذلك فهمج لاخير فيهم» وهذا هو الإمام الربانى الذى تعلم وعمل وعلم كما تقدم وهؤلاء هم المجاهدون فى وقت الجهاد المعلمون المربون فى وقت الاعداد : فابن قدامة المقدسى وعبدالغنى المقدسى الذين كانوا بجانب صلاح الدين فى فتح بيت المقدس كانوا مجاهدين وكانوا أئمة وكذا ابن تيمية ألب الناس على التتار ووقت الجهاد كانوا على رؤوس المجاهدين ووقت السلم كانوا على رؤوس المعلمين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

فلن تقوم قائمة للمسلمين ولايأتيهم وعد الله إلا أن يكملوا هذين المقامين - الصبر واليقين - ويلتزموا بالإيمان والعمل الصالح.

كما قال تعالى : ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾

فلهم الإرث والتمكين، ولهم الأمن والاهتداء بشرط عدم الشرك بالله كما قال تعالى : ﴿**لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾ أي : المشركين.

● **فلماذا نريد الأمن؟**

الجواب: نطلب الأمن لوجوه:

الأول: لكي نأمن في عبادتنا، فنعبد الله بأمن، ولانطلب الأمن لكي نتكاسل أو ننام أو لنسرف على أنفسنا، بل للعبادة في أمن واطمئنان.

الثاني: نطلب الأمن لإقامة ماجاء به الكتاب العزيز ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾

● **وهل طلب الأمن غاية أم وسيلة؟**

الجواب: أنت لاتطلب الأمن لذاته، وإنما تطلبه لتحقيق الغاية التي ما خلقت إلا لاجلها ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾وهذا الدين لايقام وأنت خائف فزع قلق، إنما يقام بأمن واطمئنان، وهذا الأمن لايحصل عليه إلا من بلغ درجة الأئمة.

وإذا أنعم الله على العبد بالأمن لايوفى شكرها إلا بالطاعة والعبادة الدائمة، كماقال الله تعالى : ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ ولما ثبت في الصحيح عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألاتدعولنا، فقال: «**قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لايخاف إلا الله، والذئب على غنمه،**

وكلكم تستعجلون»(١).

فالواجب أن نوفى شكر النعمة التى نحن فيها بالعبادة الدائمة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى البيت والطريق والعمل و.... إلخ.

ولما روى عن النبى ﷺ«**من أصبح معافى فى بدنه، آمناً فى سربه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا»**(٢).

فالخلاصة: أن الأمن الذى وعد الله به فى الآية ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ بعد الاستخلاف سيكون ولابد من حدوث ذلك كله بشروط الآية (الإيمان - عمل الصالحات) فبعد الإرث والتمكين يأتى الأمن، وهذا الأمن يقتضى الشك، وهذا الشكر لايكون إلا بإخلاص الطاعة والعبادة لله وحده لاشريك له، بل والدوام عليها. كما قال تعالى ﴿ **وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾.

سؤال: هل نحن الآن على أعتاب هذه الإمامة، وهل حققنا منها شيء.. وهل وقفنا على أول الدرج أم نحن تحت الدرج؟ وهل نحن رؤوس أم ذيول؟.

بين النبى ﷺ أن الإمام لابد أن يكون رأساً ولا يكون إمَّعةً لما أخرج الترمذى من حديث حذيفة مرفوعاً« **لاتكونوا إمعة، تقولون إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا»**(٣).

أى: إن أحسن الناس يحسن معهم، وإن أساؤوا أساء معهم، فهذا هو الإمعة، فيجب أن نعمل لله، لانعمل لأحد من لمخلوقين ، ولا اتباعاً لأحد أو تبعاً لأحد، بل نتبع ماجاء به الرسول ولانقلد ديننا الرجال.

فالإمام (الرأس) لايكون ذنباً لأحد، ولايقلد أحداً تقليداً أعمى، بل يعلم ويعمل بحق وتحركاته تكون من رأسه بالحق.

فالإمام لابد وأن يكون على علم (على الحق)، لما ثبت عنه ﷺ فى الصحيح من

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى، والنسائى، وأبو داود، وأحمد، والحميدى، من حديث خباب.

(٢) [ضعيف] أخرجه الترمذى (٢٣٤٦)وابن ماجه (٤١٤١) والبخارى فى الأدب المفرد (٣٠٣).

وانظر تخريجنا «للطب النبوى» للذهبى وهو ضعيف فيه سلمة بن عبيد الله بن محصن فجهول ولايتابع على حديثه.

(٣) أخرجه الترمذى (٢٠٠٧) وقال: حسن غريب.

حديث معاوية قال قال ﷺ «**من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين والله المعطى وأنا القاسم، ولاتزال هذه الأمة ظاهرين على من خالفهم**» وفى رواية : «**ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون**»(١).

ففى أول الحديث : «**من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين**» وفى آخره: «**لاتزال .. ظاهرون**» فالجمع بين أول الحديث وآخرون أنهم هم المصلحون إذا فسد الناس، وهم أهل العلم، وهم الغرباء.

كما فى حديث حذيفة فى الصحيح «كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى»(٢). وفى بعض روايته قال: «**ياحذيفة تعلم كتاب الله واتبع مافيه**» (٣) ثلاثاً.

وفى حديث العرباض بن سارية مرفوعاً «**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة.. فعليكم بسنتى، وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ**»(٤).

وفى حديث أبى هريرة مرفوعاً: «**كيف بك ياعبدالله بن عمر إذا بقيت فى حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم، واختلفوا فصاروا هكذا** وشبك بين أصابعه، قال: فما تأمرنى؟ **قال : عليك بخاصتك ودع عنك عوامهم**»(٥). أصله فى الصحيح إلى قوله «**من الناس**» (٦).

وعند أحمد «**تأخذ ما تعرف وتدع ما تنكر، وتقبل على خاصتك، وتدع عوامهم**». **فقوله : «وتدع ماتنكر»** أى : مما خالف الحق مما علمته.

وقال ابن مسعود فى ذم التقليد: **ألا لايقلدن أحدكم دينه رجلاً إن آمن آمن وإن كفر كفر، فإنه لا أسوة فى الشر**»(٧).

---

(١) **[صحيح]** أخرجه البخارى (ح ٣١١٦).

(٢) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى، ومسلم، وانظر كتابى «كيف الأمر إن لم تكن جماعة» يسر الله طبعه.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٤٦)، وأبو نعيم (١/ ٢٧١)

(٤) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذى (٢٦٦٧)،وابن ماجه (٤٢، ٤٣)

وأنظر رياض الصالحين بتخريجنا(١٥٩).

(٥) أخرجه الطبرى وصححه ابن حبان. كذا قال الحافظ فى الفتح (١٣/ ٤٢)

(٦) **[صحيح]** أخرجه البخارى (ح ٤٨٠)

(٧) أخرجه ابن عبدالبر فى جامعه

وقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾[1].

قال الغـزالى : من عادة ضعفاء الـعقول أنهم يعرفون الحق بالـرجال، والعاقل من اقتدى بأمير المؤمنين على بن أبى طـالب: « لاتعرف الحق بالحق بالرجال، ولكن أعرف الحق تعرف أهله»(*).

قال الشوكانى عن التقليد المذموم: اتباع من ليس بحجة بغير حجة.

فهذا هو التقليد الذى أجمعت الأمة على حرمته.

وسيأتى ـ إن شا الله ـ بـحث مطول فى التقلـيد فى الباب السابع والـثلاثين من هذا الكتاب.

أكر دليل على أننا لم نخرج من الإمعيه والـتعصب للمذاهب والاحزاب ولو بالباطل هو أننا مازلنا نقلد.

فمن أسباب أننا لم نخرج من حالة الاستضعاف هـو التقليد الأعمى فالتقليد الأعمى الذى أجمعت الأمة على حرمته هو اتباع من ليس بحجة بغير حجة.

وهذا الموضوع الناس فيه طرفان ووسط:

(أ) طرف يقبح العلماء بالكلية بل فى بعض الأحيان يكفرونهم.

(ب) طرف يعظمٍّ العلماء بالكلية ويجعل كلامهم كالدليل.

(جـ) طرف وسط: نحتـرمهم ونقدرهم ونعتد بأفهـامهم المستنبطة من الـدليل لقوله ﷺ: **«فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدون...» أى فَهْمُ الخلفاء لها وعملهم بها.**

قول: [وقال: **﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾**].

● مناسبة الآية للترجمة:

قال سليمان آل الشيخ(**):

مناسبة الآيـة للترجمة من جهة أن الله تعـالى وصف المؤمنين السابقـين إلى الجنات بصفات، أعظمها الـثناء عليهم بأنهم بربهم لايشركون، أى شـيئاً من الشرك فى وقت من الأوقات فإن الإيمان النافع مطلقاً لا يوجد إلا بترك الشرك مطلقاً. ولما كان المؤمن قد يعرض لـه ما يقدح فى إيـمانه من شرك جـلى أو خفى، نـفى عنهم ذلـك، ومن كان كذلك فقد بلغ من تحقيق التوحيد النـهاية، وفاز بأعظم التجارة، ودخل الجنة بلا حساب ولا عذاب.

(*) «المنقذ من الضلال والموصل إلى ذى العزة والجلال»

(١) المؤمنون ٥٩ (**) تيسر العزيز الحميد.

قال عبد الرحمن الشيخ[1]: وصف المؤمنين السَّابقين إلى الجنة، فأثْنَى عليهم بالصِّفات التى أعظمُها: أنهم بربهم لايشركون. ولما كان المرءُ قد يَعرض له ما يَقْدحُ فى إسلامه: من شرك جَلِيٍّ أو خفى نفى ذلك عنهم، وهذا هو تحقيق التَّوحيد، الذى حَسُنت به أعمالهم، وكملت ونفعتهم.

قلت ـ عبد الرحمن آل الشيخ ـ: (**قوله: «حَسُنَت وكَمُلَت»**) هذا باعتبار سلامتهم من الشِّرك الأصغر، وأمَّا الشِّرك الأكبر فلا يقال فى تركه ذلك، فتدبَّر. ولو قال الشَّارح: صَحَّت، لكان أقوم اهـ.

قال ابن باز[2]: هذا صفات أهل التوحيد والإيمان أنهم كانوا موحدين لله مخلصين له خالصين من الشرك مع عبادتهم وخوفهم لله وهذا كمال التوحيد.

وقال عبد الله بن جار الله إن هؤلاء المؤمنين دخلوا الجنة بسبب تخليصهم التوحيد والسلامة من الشرك[3]. اهـ.

وقال نحو ذلك القرعاوى فقال[4]: مناسبة الآيه للباب: حيث دلت الآية الكريمة على أن من اتصف بهذه الصفات وطهَّر نفسه من الشرك المحبط من الأعمال فقد استوجب الجنه بلا حساب ولا عذاب لأنه بذلك قد حقق التوحيد وهذا جزاء من حققه.

قال ابن عثيمين[5]: هذه الآية سبقها آية، وهى قوله: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ** ﴾[6].

لكن المؤلف ذكر الشاهد. و﴿**مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم**﴾؛ أى: من خوفهم منه على علم، و﴿**مُّشْفِقُونَ**﴾؛ أى: خائفون من عذابه إن خالفوه.

فالمعاصى بالمعنى الأعمّ - كما سبق - شرك؛ لأنَّها صادرة عن هوى مخالف للشرع، وقد قال الله تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾[7].

---

(١) فتح المجيد ٧٧.

(٢) التعليق المفيد ٤٠.

(٣) الجامع الفريد ٢١.

(٤) الجديد ٤٨.

(٥) القول المفيد ١/١١٦ و ١١٧.

(٦) المؤمنون: ٤.

(٧) الفرقان: ٤٣.

أما بالنسبة للمعنى الأخص؛ فيقسمها العلماء قسمين:

١ - شرك.　　　　٢ - فسوق.

وقوله: ﴿لايشركون﴾.

يُراد به الشرك بالمعنى الأعم؛ إذ تحقيق التوحيد لا يكون إلاَّ باجتناب الشرك بالمعنى الأعم، ولكن ليس معنى هذا ألاّ تقع منهم المعاصى؛ لأنَّ كل ابن آدم خطَّاء، وليس بمعصوم، ولكن إذا عصوا؛ فإنَّهم يتوبون ولا يستمرون عليها؛ كما قال تعالى: ﴿والَّذين إذَا فعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1]. اهـ.

● **لماذا اختار المصنف هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ مع أن هناك فى القرآن آيات كثيرة تنفى الشرك عن المؤمنين الموحدين الذين كمل توحيدهم؟.**

قال الفقير: الجواب: بالنظر إلى سياق هذه الآية فى الآيات قبلها وبعدها يتضح لماذا اختارها ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ أى مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجلون من مكر ربهم.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى يؤمنون بآيات الله الكونية والشرعية وايقنوا أن كل ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه وما شرعه الله فهو إن كان امراً فمما يحبه ويرضاه وإن كان نهياً فهو مما يكرهه ويأباه وإن كان خيراً فهو حق.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ أى لا يعبدون معه غيره بل يوحدونه ويعلمون أن لا إله إلا هو أحداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولا نظير له ولا كفء له.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أى يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا. قد قصروا فى القيام بشرط الإعطاء وهذا من باب الاشفاق والاحتياط.

● ● ●

---

(١) آل عمران: ١٣٥.

● **ماجاء فى تفسير الآية من السنة:**

عن عائشة قالت: قلت يارسول الله قوله الله ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ**﴾ أهو الرجل يسرق ويزنى ويشرب الخمر، وهو مع ذلك يخاف الله؟

قال: «**لا، ولكن الرجل يصوم ويتصدق ويصلى، وهو مع ذلك يخاف الله أن لايقبل منه**»(١).

وعن الحسن قال: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة، ثم تلا ﴿**إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ**﴾ إلى قوله ﴿**أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ**﴾ قال المنافق: ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي**﴾(٢).

● **ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:**

قال الطبرى(٣): ﴿**وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ**﴾ يقول: والذين يخلصون لربهم عبادتهم، فلا يجعلون له فيها لغيره شركاً، كالوثن ولا لصنم، ولا يراؤن بها أحداً من خلقه، ولكنهم يجعلون أعمالهم لوجهه خالصاً، وإياه يقصدون بالطاعة والعبادة دون كل شىء سواه. اهـ.

وقال الرازى(٤): ﴿**وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ**﴾ وليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفى الشريك لله تعالى لأن ذلك داخل فى قوله ﴿**وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ**﴾ بل المراد منه نفى الشرك الخفى وهو أن يكون مخلصاً فى العبادة لايقدم عليها إلا لوجه الله تعالى وطلب رضوانه والله أعلم. اهـ.

وقال القرطبى(٥): قال الحسن: يؤتون الإخلاص، ويخافون ألا يقبل منهم. اهـ.

---

(١) أخرجه الفريابى وأحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن ماجه وابن أبى الدنيا فى «نعت الخائفين» وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى «الشعب». كذا فى «الدر» (٥/ ٢١).

(٢) أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم. كما فى «الدر» (٥/ ٢١).

(٣) تفسير الطبرى (٩/ ١٨/ ٢٤، ٢٥).

(٤) التفسير الكبير (١٢/ ٢٣/ ١٠٨).

(٥) تفسير القرطبى (٧/ ٤٥٢٤).

وقال ابن كثير[1]: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ أى لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه، ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً لم يتخذ صاحبة، ولا ولداً، وأنه لانظير له، ولا كفء له. اهـ.

وقال الشوكانى[2]: لما نفى سبحانه الخيرات الحقيقية عن الكفرة المتنعمين أتبع ذلك بذكر من هو أهل للخيرات عاجلاً وآجلاً فوضعهم بصفات أربع:

الأول: قوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾.

والصفة الثانية: قوله ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾.

والصفة الثالثة: قوله ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ أى يتركون الشرك تركاً كلياً ظاهراً وباطناً.

والصفة الرابعة: قوله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾. اهـ مختصراً.

● ماجاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

تقدم قول سليمان آل الشيخ فيها فى مناسبتها للباب، وكذلك قول عبد الرحمن آل الشيخ وابن باز وابن عثيمين.

وقال حامد بن محمد[3]: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ فكل من لا يشرك بربه فالآية تشمله.

وقال عبد الله بن جار الله[4]: أى لا يعبدون مع الله غيره، بل يوحدونه ويفردونه بالعبادة ويعلمون أنه لا إله إلا هو. اهـ.

● ● ●

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣٧).

(٢) فتح القدير (٣/ ٤٨٥).

(٣) فتح الله الحميد المجيد (١٥٨).

(٤) الجامع الفريد (٢١).

وعَنْ حُصَيْنِ بـنِ عَبْدِ الرَّحمنِ قَالَ: كُنْتُ عـنْدَ سَعيد بن جُبَيْـر ، فقال: أَيَّكُم رَاى الكَـوكَبَ الَّذى انقَـضَّ البَارِحَـةَ؟ فَقُلْتُ: أنـاَ ثم قُلْـتُ أَمَا إِنِّى لَمْ أَكُـنْ فى صَلاَة: ولَكنِّـى لُدغْتُ. قَال فماذا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: استـرقيت. قَالَ: فمَا حَـملَكَ عَلَى ذَلـكَ؟ قُلْتُ: حَديثُ حَـدَّثناهُ الشعبىّ، قال : وما حدثـكم الشعبى؟ قلت حدثنا عن بريـده بن حصيب (الأسلمى) أنه قَالَ: «لاَ رُقْيـةَ إلاَّ من عَيْنِ أوحُمَةٍ» قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَـهَى إِلى مَا سَمِعَ، وَلكنْ حَدَّثَنَا ابنُ عـبَّاسٍ عَنِ النَّبىِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عُـرِضَتْ عَلَـىَّ الأَمَمَ، فَـرأَيْتُ النَّبىَّ ومَعَـهُ الرَّهْطُ، وَالـنَّبىَّ معَهُ الـرَّجُلَ والرَّجُلاَنِ ، وَالنَّبـىَّ ولَيس معَهُ أحَدٌ، إِذ رُفِعَ لى سَـوَادٌ عَظيمٌ فَظَنَنتُ أَنـهُم أُمَتى، فَقيـلَ لى إلى الأفق الأخـر فانا سواد عظـيم هَذَا مُوسَى وَقَـومُه ولكن انـظر إلى الأفقُ فَنَظَرتُ فَإذَا سَوَادٌ عَظيمٌ، فَقيـلَ لى أنظر إلى الأفق الأخر فإذا سواد عظيم هَذه أُمَّتُكَ، وَمَعَهُـم سَبْعُونَ أَلـفاً يَدخُلُـونَ الجَنَّةَ بِغَيـرِ حِسَابٍ ولاَ عَـذَابٍ.. ثُمَّ نَهضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ فى أُولئـكَ الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولاعذاب فَقَـالَ بَعْضَهُـمْ: فَلَعَلَّهُـمُ الَّذينَ صَحِبُـوا رَسولَ الله ﷺ قالَ بَعْضُهُم: فَلَعلَّهُـمُ الَّذينَ وُلِدُوا فى الإِسْلاَم فَلَمْ يُـشْرِكُوا بالله شَيْئًا.. وذَكَرُوا أَشْـيَاءَ فَخَرَجَ علـيهم رَسُـولُ الله ﷺ فَأَخْبَرُوه فقَـالَ: «هُمُ الذيـن لايرقـونَ ولاَ يَستَـرقُونَ وَلاَ يَكتَـوُونَ. وَلاَ يَتَطَيَّـرُونَ. وعَلَى ربِّهِـم يَتوكَّلُون» فَـقَامَ عُكَّاشَـةُ بنُ مِحْصَـنٍ فقال يارسول الله ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِى مِنْهُم. فَقَالَ: «أَنتَ مِنهُم» ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنى مِنهُمْ فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةَ»(١).

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى «الطـب»/ باب: من اكتوى أو كوى غيره (١٠/ ١٦٣ - ١٦٤/ ح ٥٧٠٥ - الفتح) ومسلم فى «الإيـمان» / باب: الدليل على دخول الجنه طوائف من المسلـمين بغير حساب ولا عذاب (١/ ٣/ ٩٤) النووى وأحمد فـى «مسنـده» (١/ ٢٧١) وابن حبـان فى «صحيـحه» (٨/ ١١٤/ ح ٦٣٩٦ - الإحسان). من طريق: سعيد بن جبير عن ابن عباس.
وفى الباب عن ابن مسعود وعقبه بن عامر وعمران بن حصين.
وانظر «رياض الصالحين» (ح ٧٥) وفتح المجيد (ح ٩٦)بتخريجنا.

وهذا لفظ مسلم وقد رواه البخارى عن حصين قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: حدثنى ابن عباس قال: قال النبىّ - ﷺ -.

عُرِضَت عليّ الأمم، فأخذ النبى يمرُّ معه الأمَّة، والنبى يمر معه النفر والنبىُّ يمُرُّ معه العشرة. والنبى يمرُّ معهُ الخمسةُ والنبىُّ يمرُّ وحدَه، فنظرتُ فإذا سوادٌ كثير، قلتُ: ياجبريلُ هؤلاء أمتى؟ قال: لا ولكن انظر إلى الأفق، فنظرتُ فإذا سوادٌ كثير، قال: هؤلاء أمَّتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدَّامَهم لا حسابَ عليهم ولا عذاب. قلت: ولمَ؟ قال: كانوا لايَكْتَوون ولا يَسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربّهم يتوكلون. فقام إليه عُكاشة بن محصن فقال: ادعُ الله أن يَجعلنى منهم. قال: اللهمَّ اجعلهُ منهم. ثم قام إليه رجلٌ آخر فقال: ادع الله أن يَجعلنى منهم. قال: **سبَقَكَ بها عكاشة**»(١).

ثم رواه بلفظ آخر تحت نفس الباب عن سهل بن سعد قال: قال النبىُّ - ﷺ - **ليدخُلنّ الجَنَّة من أمتى سبعون ألفاً - أو سبعمائة ألف، شكٌ فى أحدهما - متماسكين، آخذ بعضهم ببعض، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجَنَّة ووجوههم على ضوء القمر ليلة البدر**(٢).

وبوّب عليه أيضاً. . باب «**ومن يتوكل على الله فهو حسبة**» ولفظه «**يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب: هم الذين لايسترقون، ولايتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون**». أهـ.

قوله : «وعن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال : أيكم رأى الكوكب.....الحديث».

● مناسبة الحديث للباب: -

قال عبد الله بن جار الله(٣): - مناسبته للباب: أن هؤلاء المؤمنين الموصوفين بتلك الصفات دخلوا الجنة بغير حساب لقوة توكلهم وتوحيدهم وإخلاصهم وإعتمادهم على الله وحده. اهـ.

● **قال القرعاوى**(٤):- حيث دلّ الحديث على أن من أحرز الخصال الاربعة المذكورة فى الحديث فقد حقق توحيده ودخل الجنة بغير حساب ولا عذاب. أهـ.

● **قوله: «عن حصين بن عبد الرحمن».**

قال سليمان آل الشيخ(٥): **قوله**: «عن حصين بن عبد الرحمن هو السلمى أبو

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٥٤١). (٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٥٤٣).
(٣) الجامع الفريد ٢٣. (٤) الجديد ٥٣. (٥) تيسير العزيز الحميد ٧٣.

الهذيل الكوفى ثقة، تغير حفظه فى الآخر؛ مات سنة ست وثلاثين ومائة، وله ثلاث وتسعون سنة. أهـ.

● **قوله: «كنت عند سعيد بن جبير».**

قال سليمان آل الشيخ(١): وسعيد بن جبير هو الإمام الفقيه من جلة أصحاب ابن عباس، روايته عن عائشة، وأبى موسى مرسلة، وهو كوفى مولى لبنى أسد، قتل بين يدى الحجاج سنة خمس وتسعين، ولم يكمل الخمسين وقصته مع الحجاج مشهورة ـ أهـ

قوله: «فقال: أيكم رأى الكوكب الذى انقض البارحة».

● **لطيفة: (قال الفقير):**

وهنا لطيفة تدل على علاقة السند بالمتن، وهى أن راوى هذه الحديث (سعيد بن جبير) ترجم لـه المزى ترجمة مطولة، ذكر فيها ما يبين إمامته فى الدين، وقوة ثباته، وسعة علمه، وتحقيقة للتوحيد. وذكر قصته مع الحجاج وثباته ورسوخ قدمه أمام الحجاج إلى أن قتله. وبهذا اللطيفة يتبين لك علاقة السند بالمتن وبالباب.

قال ابن عثيمين(٢): **قوله: «انقضَّ البارحة».**

أى: سقط البارحة، والبارحة: أقرب ليلة مضت، وقال بعض أهل اللغة: تقول فعلنا الليلة كذا إن قلته قبل الزوال، وفعلنا البارحة كذا إن قلته بعد الزوال.

وفى عرفنا؛ فمن طلوع الشمس إلى الغروب نقول: البارحة لليلة الماضية، ومن غروب الشمس إلى طلوعها نقول: الليلة لليلة التى نحن فيها بل بعض العامة يتوسع متى قام من الليل قال البارحة؛ وإن كان فى ليلته.

● **قوله: «قلت: أنا» أى حصين**(٣)

● **قوله: «ثم قلت: أما إنى لم أكن فى صلاة»**

قال سليمان آل الشيخ(٤): القائل هو حصين، خاف أن يظن الحاضرون أنه ما رأى النجم إلا لأنه يصلى، فأراد أن ينفى عن نفسه إيهام العبادة ـ فيتزين بما ليس فيه ويرائى ـ وأنه يصلى مع أنه لم يكن فعل ذلك، وهذا يدل على فضل السلف الصالح وحرصهم على الإخلاص، وشدة ابتعادهم عن الرياء بخلاف من يقول: فعلت وفعلت ليوهم الأغمار أنه من الأولياء، وربما علق السبحة فى عنقه أو أخذها فى يده يمشى بها بين الناس إعلاماً للناس أنه يسبح عدد ما فيها من الخرز.

(١) نفس المصدر السابق.
(٢) القول المفيد ١/ ١١٧.
(٣) القول المفيد ١/ ١١٨.
(٤) تيسير العزيز الحميد ٧٤.

وقد قال الإمام محمد بن وضاح: حدثنا أسد عن جرير بن حازم عن الصلت بن برهام قال: مر ابن مسعود بامرأة تُسبِّحُ بِهِ فَقَطعهُ وألقاه؛ ثم مَرَّ برَجُلٍ يُسبِّحُ بِحصى فضَرَبَهُ بِرجْلِهِ ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ جِئتُمْ بِبدعَةِ ظُلماً، أو: لقد غَلَبْتُم أَصْحَابَ مُحمد ﷺ علماً؟!)[1] أهـ.

●قوله: «ولكنى لدغت».

قال سليمان آل الشيخ[2]: هو بضم أوله وكسر ثانية مبنى لما يسم فاعله أى لدغته عقرب أو نحوها. اهـ.

قال ابن عثيمين[3]: والظاهر أنها شديدة، لأنه لم ينم منها.

● قوله: «قال: فماذا صنعت؟

القائل هو سعيد بن جبير:

قوله: «قلت: استرقيت».

قال سليمان آل الشيخ[4]:

قوله: «قلت ارتقيت» لفظ مسلم: «استرقيت» أى طلبت من يرقينى.

● قوله: «قال: فما حملك على ذلك؟».

قال سليمان آل الشيخ[5]: فيه طلب الحجة لصحة المذهب.

قال ابن عثيمين[6]: أى: قال سعيد: ما السبب أنك استرقيت.

● قوله: «قلت حديث حدثناه الشعبى».

قال سليمان آل الشيخ[7]:

أى حملنى عليه حديث حدثناه الشعبى، واسمه عامر بن شرحبيل الهمدانى - بسكون الميم - الشعبى. ولد فى خلافة عمر وهو من ثقات التابعين وحفاظهم وفقهائهم، مات سنة ثلاثة ومائة.

(١) تقدم تخريجه عن ابن مسعود بمعناه فى قصة أخرى.
(٢) تيسير العزيز الحميد ٧٤.
(٣) القول المفيد ١/١١٨.
(٤)(٥) تيسير العزيز الحميد ٧٤.
(٦) القول المفيد ١/١١٩.
(٧) تيسير العزيز الحميد

قال ابن عثيمين[1]: وهذا يدل على أن السلف رضى الله عنهم يتحاورون حتى يصلوا إلى الحقيقة.

فسعيد بن جبير لم يقصد الانتقاد على هذا الرجل، بل قصد أن يستفهم منه ويعرف مستنده.

● **قوله: «قال: وما حدثكم الشعبىُّ؟ قلت: حدثنا عن بُريده بن حصيب الأسلمى أنه قال».**

قال سليمان آل الشيخ[2]:

● **قوله: (عن بريدة)** - بضم أوله وفتح ثانيه - تصغير بردة بن الحصيب - بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين - ابن عبد الله بن الحارث الأسلمى، صحابى شهير. مات سنة ثلاث وستين. قاله ابن سعد. اهـ.

● **فائدة:**

قلت: ولم يقل (قال رسول الله ﷺ لا رقية إلا من عين أو حمة)، ويسكت بل ذكر الحديث بسنده، وهذا دليل سلفى على أنه من يذكر الدليل (الحديث) يذكره بسنده بمخرجه، وبمن أخرجه، كأن يقول: (أخرجه البخارى أو مسلم أو أحد أصحاب السنن).

فالعلاقة جمال الدين القاسمى فى كتاب «قواعد التحديث»، نقل فتوى ابن حجر الهيتمى، قال فى فتاواه الحديثيه ما نصه: «وسئل - رضى الله عنه - فى خطيب يرقى المنبر فى كل جمعة، ويروى أحاديث كثيرة، ولم يبين مخرِّجها، ولا رواتها، فما الذى يجب عليه؟

فأجاب بقوله: ما ذكره من الأحاديث فى خطبه من غير أن يبين رواتها، أو من ذكرها فجائز بشرط أن يكون من أهل المعرفة فى الحديث، أو بنقلها من مؤلِّفه كذلك، وأما الاعتماد فى رواية الأحاديث على مجرد رؤيتها فى كتاب ليس مؤلفه من أهل الحديث أو فى خطب ليس مؤلفها كذلك، فلا يحل ذلك، وفى فعله عزر عليه التعزير الشديد، وهذا حال أكثر الخطباء فإنه بمجرد رؤيتهم خطبة فيها أحاديث حفظوها،

(١) القول المفيد ١/ ١١٩.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٧٤.

وخطوبها من غير أن يعرفوا أن لتلك الأحاديث أصلاً أم لا؟! فيجب على حكام كل بلد أن يزجروا خطباءها عن ذلك. ويجب على حكام بلد هذا الخطيب منعه من ذلك إن ارتكبه، - ثم قال - فعلى هذا الخطيب أن يبين مستنده فى روايته، فإن كان مستنداً صحيحاً فلا اعتراض عليه، وإلا ساغ الاعتراض عليه، بل وجاز لولى الأمر - أيد الله به الدين، وقمع بعدله المعاندين - أن يعزله من وظيفة الخطابة زجراً له عن أن يتجرأ على هذه المرتبة السنية بغير حق» انتهى ملخصاً(*).

● **قوله: «لا رقية إلا من عين أو حمة».**

قال ابن حجر: العين نظر باستحسان مشوب بحسد من خبيث الطبع يحصل للمنظور منه ضرر، وقد وقع عند أحمد من حديث أبى هريرة رفعه **«العين حق ويحضرها الشيطان وحسد ابن آدم»**(١). ثم قال: نقل عن بعض من كان معيناً أنه قال: إذا رأيت شيئاً يعجبنى وجدت حرارة تخرج من عين؛ وقال الخطابى: فى الحديث أن للعين تأثيراً فى النفوس ثم قال: الذى يتمشى على طريقة أهل السنة أن العين إنما تضر عند نظر العائن بعادة أجراها الله (٢).

وقال ابن الأثير: الحمة بالتخفيف: السم، وقد يشدد، وأنكره الأزهرى، ويطلق على إبرة العقرب للمجاورة، لأن السم منها يخرج، وأصلها حُمَوٌ، أو حُمَىٌ بوزن صُرَد، والهاء فيها عِوض من الواو المحذوفة أو الياء. أهـ.

قال النووى: وقال القزاز: قيل هو شوكة العقرب، وكذا قال ابن سيده: إنها الإبرة التى تضرب بها العقرب والزنبور، وقال الخطابى: الحمه كل هامة ذات سم من حية أو عقرب وقد أخرج أبو داود من حديث سهل بن حنيف مرفوعاً: **«لارقية إلا من نفس أوحمه أو لدغه»**(٣) فغاير بينهما أى بين اللدغة بعدها من العام بعد الخاص وقد تقدم أن هذه زيادة عند أحمد ومسلم من طريق هشيم.

وقال ابن حجر: والتحقيق أنه عنده - أى عند البخارى - عن عمران بن حصين، وعن بريدة أى موقوفاً عليهما. ووقع لبعض رواة البخارى قال حديث الشعبى

(*) انظر «قواعد التحديث» للقاسمى (ص١٦١)، وانظر كتابى «فقه الخطابة» الطبعة الثانية.

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٤٣٩) بإسناد منقطع.

(٢) فتح البارى (١٠/ ٢١٠).

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٨٦)، وأبو داود (٣٨٨٨).

مرسل . والمسند حديث ابن عباس فأشار بذلك إلى أنه أورد حديث الشعبى أستطراداً ولم يقصد إلى تصحيحه،وقد روى البخارى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت :رخص الرسول ﷺ فى الرقية من الحية والعقرب[1] **قال النووى**: الحمه هى باسم العقرب وشبهها، وقيل: فوعة السم وحدته وحرارته، والمراد: أو ذى حمة كالعقرب وشبهها أى لارقية إلا من لدغ ذى حمه أهـ[2].

قال سليمان آل الشيخ[3]: هكذا روى هنا موقوفاً، وقد رواه أحمد وابن ماجه عنه مرفوعاً[4]، ورواه أحمد وأبو داود والترمذى عن عمران بن حصين به مرفوعاً[5] قال الهيثمى: رجال أحمد ثقات. والعين هى إصابة العائن غيره بعينه، والحمة - بضم المهملة وتخفيف الميم - سم العقرب وسبهها قاله ثعلب قال الخطابى: ومعنى الحديث: لا رقية أشفى أو أولى من رقية العين والحمة. وقد رقى النبى ﷺ ورقى.اهـ. **قلت**: وسيأتى ما يتعلق بالرقى إن شاء الله تعالى.

قال ابن عثيمين[6]:

● قوله: «**لارقية**». أى: لا قراءة أو لا استرقاء على مريض أو مصاب.

● قوله: «**إلا من عين**». ويسميها العامة الآن: «النحاتة»، وبعضهم يسميها «النفس»، وبعضهم يسميها «الحسد».

قلت: تقدم فى حديث سهل: «لا رقية إلا من نفس».

قوله: «**حُمَة**». وهى كل ذات سم، والمعنى لدغته إحدى ذوات السموم، والعقرب من ذوات السموم.

قوله: «**فقال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع**».

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٧٤١) ومسلم فى السلام (٧/ ٤٣٩/ ٥٢) بلفظ «رخص النبى ﷺ الرقية من كل ذى حمة».

أما هذا اللفظ فأخرجه ابن ماجه (٣٥١٧) عن عائشة رضى الله عنها.

(٢) مسلم بشرح النووى (٣/ ٩٣)..

(٣) تيسير العزيز الحميد ٧٤ و ٧٥.

(٤) [صحيح] أخرجه ابن ماجه (٣/ ٣٥) وانظر «فتح المجيد» (ح ٩٨) بتخريجنا.

(٥) [صحيح] أخرجه أحمد (٤/ ٤٣٦)، وأبو داود (٥٨٨)، والترمذى (٢٠٥٧).

وانظر «الطب النبوى للذهبى» ٥٥٢ بتحقيقنا ـ وأيضاً «فتح المجيد» (ح ٩٩) مرفوعاً.

(٦) القول المفيد ١/ ١١٩

قال سليمان آل الشيخ[1]:

قوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع»، أى من أخذ بما بلغه من العلم وعمل به فقد أحسن، لأنه أدى ما وجب، وعمل بما بلغه من العلم، بخلاف من يعمل بجهل أو لا يعمل بما يعلم فإنه مسىء آثم. وفيه فضيلة علم السلف وحسن أدبهم وهديهم وتلطفهم فى تبليغ العلم، وإرشادهم من أخذ بشىء وإن كان مشروعاً إلى ما هو أفضل منه، وإن من عمل بما بلغه عن الله وعن رسوله فقد أحسن، ولا يتوقف العمل به على معرفة كلام أهل المذاهب أو غيرهم أهـ.

قال ابن عثيمين[2]:

فقال سعيد بن جبير: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس.. إلخ.

إذن؛ فحصين استند على حديث: **«لا رقية إلا من عين أو حُمَة»**، وهذا يدل على أنَّ الرقية من العين أو الحمة مفيدة، وهذا أمر واقع؛ فإنَّ الرقى تنفع بإذن الله من العين ومن الحمة أيضاً، وكثير من الناس يقرؤون على الملدوغ فيبرأ حالاً، ويدل لهذا قصة الرجل الذى بعثه النبى ﷺ فى سرية، فاستضافوا قوماً، فلم يضيِّفوهم، فلدغ سيدهم لدغته عقرب، فقالوا: من يرقى؟ فقالوا: لعل هؤلاء الركب عندهم راقٍ، فجاؤوا إلى السرية، قالوا: هل فيكم من راقٍ؟ قالوا: نعم، ولكن لا نرقى لكم إلا بشىء من الغنم. فقالوا: نعطيكم. فاقتطعوا لهم من الغنم، ثم ذهب أحدهم يقرأ عليه الفاتحة، قرأها ثلاثاً أو سبعاً، فقام كأنما نشط من عقال، فانتفع اللديغ بقراءتها، ولهذا قال ﷺ: **«وما يدريك أنها رقية؟»** (يعنى: الفاتحة)[3]، وكذا القراءة من العين مفيدة.

ويستعمل للعين طريقة أخرى غير الرقية، وهو الاستغسال، وهى أن يؤتى بالعائن، ويطلب منه أن يتوضأ، ثم يؤخذ ما تناثر من الماء من أعضائه، ويصب على المصاب، ويشرب منه، ويبرأ بإذن الله.

وهناك طريقة أخرى، ولا مانع منها أيضاً، وهى أن يؤخذ شىء من شعاره، أى: ما

---

(١) تيسير العزيز الحميد: ٧٥.

(٢) القول المفيد ١/ ١١٩ - ١٢١.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى: (٥٧٣٦)، ومسلم فى اللباس (١٤/ ١٨٧ - النووى).

وانظر «الطب النبوى للذهبى» (٤٣١ - بتخريجنا).

يلى جسمه من الثياب؛ كالثوب، والطاقية، والسروال، وغيرها، أو التراب إذا مشى عليه وهو رطب، ويصب على ذلك ماء يرش به المصاب أو يشربه، وهو مُجرَّب.

وأما العائن؛ فينبغى إذا رأى ما يعجبه أن يُبرِّك عليه؛ لقول النبى ﷺ لعامر بن ربيعة لما عان سهل بن حنيك «هلا برَّكت عليه»(١)؛ أى: قلت: بارك الله عليك أهـ.

● **قوله: «ولكن حدثنا»**

قال ابن عثيمين(٢): القائل سعيد بن جبير.

قال سليمان آل الشيخ(٣):

قوله: «ولكن حدثنا ابن عباس». هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمى ابن عم النبى ﷺ دعَا لَـهُ النبى ﷺ فقال: **«اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فى الدِّين وَعَلمهُ التَأويلُ»**(٤). فكان كذلك. قال عمر: لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عشره منا أحد، أى ما بلغ عشره فى العلم، مات بالطائف سنة ثمان وستين.

قال المصنف: فيه عمق علم السلف، لقوله: قد أَحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا وكذا، فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثانى أهـ.

قلت: قوله (ولكن حدثنا ابن عباس عن النبى ﷺ قال...) فيه استدراك كأنه يقول: إن ما قلته حق وصحيح ـ مرجوح ـ وإن كان الذى معى أحق وأصح ـ أرجح منه ـ فلم ينكر عليه ـ سعيد ـ وإن كان لأول وهلة يظهر أن الحديثين متعارضان، فالحديث الأول **«لا رقية إلا من عين أوحمه»**، والثانى: **«لا يسترقون ولايكتوون، ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»**، فلماذا إذاً لم ينكر سعيدٌ على حصين ـ وسيأتى وجه الجمع بينهما عند قوله **«لايسترقون»** ـ وذكر المصنف ـ محمد بن عبد الوهاب ـ أن هذا يدل على عمق علم السلف، أى: رسوخ أقدامهم فى العلم حتى علم أن ما مع حصين لم يخالف ما معه، حتى وإن كان ما معه هو الأرجح والأصوب، إلا أنه أقره، وقال: (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع)، بل فيه أيضاً عمق أدب السلف لاسيما فى مواطن الاختلاف فمن صور الاختلاف فى الواقع:

---

(١) [صحيح أخرجه: مالك فى «الموطأ» (٢/٧١٦)، ابن ماجه (٣٥٠٩).
وانظر «الطب النبوى» للذهبى (٥٤٦، ٥٤٧ بتحقيقنا).

(٢) القول المفيد ١/ ١٢١.

(٣) تيسير العزيز الحميد: ٧٥.

(٤) [صحيح بغير هذا اللفظ] أخرجه أحمد (١/٢٦٦) عن ابن عباس وأخرجه البخارى (١٤٣)، ومسلم فى الفضائل (١٦/٣٧ - النووى) بدون «وعلمه التأويل». وانظر «فتح المجيد» (ح ١٠٠) بتخريجنا.

مثال: لو أن شخصاً يرى أن حديث، «**من أدرك الركوع فقد أدرك ركعة**» ضعيف، والآخر يرى أنه صحيح ـ صححه الشيخ الألباني ـ وهذا الآخر مقلد له، فتقوم الدنيا ولا تقعد على هذه المسألة، ومن الممكن أن يعمل فرق وأحزاب مع أن المسألة فيها راجح وأرجح منه، وقد يكون كلا الأمرين معتبر، إذاً فلماذ نختلف، بل ونقول: (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع).

ومثال آخر: فى حديث «**لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن**»، وحديث: «**من أدرك الركوع فقد أدرك الركعة**»، فالأول معه أدلته المعتبرة، وإن كان بالنظر إلى الأدلة الأخرى مرجوح إلا أنها معتبرة ولا ننكر على من يأخذ بذلك لأن معه أدلة يتبعها، ونقول له: أحسنت.

وفيه أدب الاختلاف الناشئ عن علم، وأما سوء الأدب فناشيء عن جهل، فالجهل العميق يؤدى إلى سوء أدب عميق، فنكون كما قال النبى ﷺ: «**حثالة من الناس مرجت عهودهم وأماناتهم**»، والحديث تقدم، فهم حثالة لعمق جهلهم، وسوء أدبهم.

ومثال ثالث: فى التشهد الأوسط، هل نقول: التشهد كله فى التشهد الأوسط، أم نقول: نصفه، فهذا ثبت وهذا ثبت، فهذا جائز.

ومثال الاختلاف فى البسملة، هل يجهر بها أم يُسر بها، وهذه سنة وهذه سنة، ففى القاعدة التى قعدها ابن تيمية ـ تبعاً للإمام أحمد رحمه الله ـ

علماء الحديث يعملون بكل ما ثبت عن النبى ﷺ وإلا لو عملنا بالبعض وتركنا البعض، لصارت السنة بدعة والبدعة سنة، فإذا جهرنا بالبسملة ـ مثلاً ـ، فهذا وارد، وإذا لم نجهر فهذا وارد، ولكن إذا أسررنا بها دائماً ثم جاء شخص وجهر بها سنقول: هذه بدعة، وهذا بسبب الاستمرار على سنة واحدة من السنن التى ثبت فيها عن النبى ﷺ فى الباب الواحد أكثر من وجه.

ومثال آخر: بعض الناس يقول: نصلى قيام مع قراءة القرآن، ونربى الناس على ذلك، وآخرون يقولون: نربى الناس على العقيدة، وآخرون يقولون: نربى الناس على العلم والفقه، وآخرون يقولون: نربى الناس على الدعوة.

فيُظن أن هذا فُرقة وخلاف وهذا من سوء جهلنا، وسوء الأدب والهوى ولكن هذا كله صواب، ولكن إذا كان لكل منهم دليل، فلا يوجد فرقة، وكل منهم (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع).

وهذا الاختلاف يسمى اختلاف تنوع، أى: هذا كله حق.

أما اختلاف التضاد فهو خلاف بين حق وباطل.

وذلك لأن الطائفة المنصورة تشمل ذلك كله، كما قال النوى: الطائفة المنصورة ما بين عالم وزاهد وفقيه وشجاع وبصير بالحرب ومحدث.. إلخ.

فسعيد بن جبير يقول للمختلف معه: قد أحسنت إذا استمسكت بدليل ولكن معى دليل آخر: (لكن حدثنا ابن عباس قال......) الحديث.

● قوله: «عرضت عليَّ الأمم».

قال ابن حجر(١):

قوله: (عرضت) بضم أوله على البناء للمجهول.

قوله: (عليَّ) بالتشديد (الأمم) بالرفع، وقد بين عبثر بن القاسم - بموحدة ثم مثلثة وزن جعفر - فى روايته عن حصين بن عبد الرحمن عند الترمذى والنسائى أن ذلك كان ليلة الإسراء ولفظه «لما أسرى بالنبى ﷺ جعل يمر بالنبى ومعه الواحد» الحديث.

قال ابن حجر: فإن كان ذلك محفوظاً كانت فيه قوة لمن ذهب إلى تعدد الإسراء وأنه وقع بالمدينة أيضاً غير الذى وقع بمكة، فقد وقع عند أحمد والبزار بسند صحيح قال: «أكرينا الحديث عند رسول الله ﷺ ثم عدنا إليه فقال: عرضت على الأنبياء الليلة بأممها، فجعل النبى يمر ومعه الثلاثة والنبى يمر ومعه العصابة»(٢) فذكر الحديث.

وفى حديث جابر عند البزار «أبطأ رسول الله ﷺ عن صلاة العشاء حتى نام بعض من كان فى المسجد»(*) الحديث والذى يتحرر من هذه المسألة أن الإسراء الذى وقع بالمدينة ليس فيه ما وقع بمكة من استفتاح أبواب السماوات باباً باباً ولا من التقاء الأنبياء كل واحد فى سماء ولا المراجعة معهم ولا المراجعة مع موسى فيما يتعلق بفرض الصلوات ولا فى طلب تخفيفها وسائر ما يتعلق بذلك وإنما تكررت قضايا كثيرة سوى ذلك رآها النبى ﷺ، فمنها بمكة البعض ومنها بالمدينة بعد الهجرة البعض ومعظمها فى المنام، والله أعلم» أهـ.

قال ابن عثيمين(٣):

● قوله: «عرضت على الأمم».

(١) فتح البارى ١١١/٤١٤ و ٤١٥.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/٤٠١، ٤٢٠) عن ابن مسعود به.

(*) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (١٠/٤٠٧) ونسبه للبزار وقال: رجاله الصحيح غير مجالد بن سعيد وقد وثق.

(٣) القول المفيد ١/ ١٢١.

العارض لها الله - سبحانه وتعالى-، وهذا فى المنام فيما يظهر. **والأمم: جمع أمة،** وهى أمم الرسل. أهـ.

● **قوله: «فرأيت النبيَّ ومعه الرهط».**

قال ابن حجر: الرهط: عدد من الرجال من ثلاثة إلى عشرة.

قال القزاز: وربما جاوزا ذلك قليلاً، ولا واحد له من لفظه ورهط الرجل: بنو أبيه الأدنى.

وقيل: قبيلته. والإسماعيلى من طريق ابن أبى ذئب: أنه جاءه رهط فسألوه فأعطاهم، فترك رجلاً منهم. أهـ(١).

قال سليمان آل الشيخ(٢): هو الجماعة دون العشرة قاله النووى.

قال ابن عثيمين(٣): الرهط من الثلاثة إلى التسعة.

● **قوله: «والنبىّ ومعه الرجل والرجلان والنبىّ وليس معه أحد».**

قال ابن حجر(٤): ووقع فى رواية ابن فضيل **«فجعل النبى والنبيان يمرون ومعهم الرهط»** زاد عبثر فى روايته **«والشىء»** وفى رواية حصين بن نمير نحوه لكن بتقديم وتأخير.

وفى رواية سعيد بن منصور التى أشرت إليها آنفاً «فرأيت النبى ومعه الرهط، والنبى ومعه الرجل والرجلان، والنبى ليس معه أحد والنبى معه الخمسة.

وفى حديث ابن مسعود «فجعل النبى يمر ومعه الثلاثة، والنبى يمر ومعه العصابة والنبى يمر وليس معه أحد»(٥).

قال ابن حجر: والحاصل من هذه الروايات أن الأنبياء يتفاوتون فى عدد أتباعهم. أهـ(٦).

قال سليمان آل الشيخ(٧): «وفيه الرد على من احتج بالأكثر وزعم أن الحق محصور فيهم، وليس كذلك، بل الواجب اتباع الكتاب والسنَّة مع من كان وأين كان.

---

(١) فتح البارى (١/ ١٠٠/ح٢٧). (٢) تيسير العزيز الحميد ٧٥.
(٣) القول المفيد ١/ ١٢١. (٤) الفتح / ٤١٥. (٥) تقدم قريباً.
(٦) وفيه عدم استعجال الداعى استجابة الناس والصبر عليهم وألا ينتظر فتحاً فى الدعوة فى حياته، فإن كان فبها ونعمت، وإلا فالأنبياء يجىء بعضهم يوم القيامة وليس معهم أحد من أمة الإجابة. الله أعلم.
(٧) تيسير العزيز الحميد ٧٥ و ٧٦.

قال ابن عثيمين[1]: الظاهر أنَّ الـواو بمعنى أو؛ أى: ومعه الـرجل أو الرجلان؛ لأنَّه لو كـان معه الرجل والـرجلان صار يغنـى أن يقول: ومعـه ثلاثة، لكن المـعنى: والنبى ومعه الرجل، والنبى الثانى ومعه الرجلان.

● **قولـه**: «**والنـبى وليس معه أحد**». أى: يبعث ولا يكون معه أحد، لكن يبعثه الله لإقامة الحجة، فإذا قامت الحجة حينئذ؛ يعذر الله من الخلق، ويقيم عليهم الحجة. أهـ.

قلت: فالنبى بجلالة قدره وارتفاع منزلته ومكانته وحسن منهجه يأتى ومعه الرجل أو الرجلان أو يأتى وليس معه أحد. !!

ماهى الفائدة من ذلك؟

(١) أن الداعى يدعـو وليس عليه إلا الـبلاغ وليس عليـه ثمرة البلاغ. قال تـعالى: ﴿**وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ**﴾. أى أن النبى لا يعلم النتيجة ولكن عدم علمه بها لـم يثبطه عن دعوته. ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ**﴾ ﴿**مَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ**﴾.

(٢) قلة الناجين وكثرة الهالكين فى كل عصر ومصر.

(٣) أن الكثرة ليست حـجة ولا يصح الاستدلال بها. مثلاً فى مسـألة [عدم المواظبة على الدعاء فى آخـر كل خطبة جمعة] يستـدل من يستدل على المواظبة بـأن كل الخطباء يفعلون هذا ولا حجة فى ذلك. وإن جاز الاستدلال بالكثرة فإنما يستدل بها على الباطل غالباً.

قال تعالى: ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ ﴿**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ ﴿**وما وجدنا لأكثرهم من عهد.....**﴾ والحديث «**والنبى وليس معه أحد...**» وحديث «**قم فابعث بعـث النار من كل ألف تسع مائة وتسـعة وتسعين إلى النار، وواحد فى الجنة**».

(٤) الصبر على الدعوة وعدم استعجال الثمرة.

(٥) أن ثمرات الأعمال لاتدل على فسادها ولا صلاحها.

الدليـل: أن نبياً يدعو ومـنهجه سليـم ونيته صالحة خـالصة ولكن لم تـأت الدعوة

---

(١) القول المفيد ١/ ١٢١ و ١٢٢.

بثمارها فلم يثنه هذا عن منهجه فيخالف المنهج ويعدل عنه إلى منهج غيره لكسب أفراد لدعوته.

● ولكن قد يكون العمل باطلاً وله ثمرة.

الدليل: السامرى لما صنع لهم عجلاً جسداً له خوار تبعه أكثر الناس وكان عمله باطلاً.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتاب «اقتضا الصراط المستقيم» أن الصوفى قد يجد رقة فى قلبه من الذكر الباطل لايجدها السنى من قراء القرآن. فيقول الصوفى: إن الذكر الذى أقوله أفضل من قراءة القرآن فهل هذا يصح؟ الجواب: لايصح.

لأن ثمرات العمل لاتدل على صلاح العمل ولافساده.

أو مثلاً كما يقول بعضهم: ذهبنا إلى باكستان وذهبنا إلى الهند وذهبنا إلى كنيسة كذا وكذا واستجاب لنا أناس كثيرون.

هذا شيء طيب ولكن ليس دليلاً على صلاح العمل ولا على فساده، فالصلاح والفساد مرده إلى الكتاب والسنة ولانحتج بالثمرة، كما تقدم من حديث العرباض بن سارية: «فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهدين». وكما فى الحديث: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً كتاب الله وسنتى».

● قوله: «إذ رفع لى سواد عظيم».

قال ابن حجر[1]: فى رواية «حصين بن نمير فرأيت سواداً كثيراً سد الأفق»، والسواد ضد البياض هو الشخص الذى يرى من بعيد، ووصفه بالكثير إشارة إلى أن المراد بلفظ الجنس لا الواحد، ووقع فى رواية ابن فضيل «ملأ الأفق» الأفق الناحية، والمراد به هنا ناحية السماء. أهـ.

قال ابن عثيمين[2]: قوله: «إذ رفع لى».

هذا على تقدير محذوف؛ أى: بينما أنا كذلك؛ إذ رفع لى.

قوله: «سواد عظيم».

المراد بالسواد هنا الظاهر أنه الأشخاص، ولهذا يقال: ما رأيت سواده؛ أى: شخصه، أى أشخاصاً عظيمة كانوا من كثرتهم سواداً.

قوله: «فظننت أنهم أمتى».

وذلك لأنهم كانوا باعدين عنه، وفى رواية البخارى (قلت: يا جبريل: هؤلاء أمتى؟ قال لا» وقد تكون ظننت بمعنى رجوت، كما جاء فى البخارى بلفظ «فرجوت أن تكون أمتى)(*).

---

(١) فتح البارى ١١/ ٤١٥. (٢) القول المفيد ١/ ١٢٢.

(*) ح (٥٧٥٢) وهذا أفضل مايشرح به غريب الحديث، أن يشرح بما جاء من طريق أخرى بلفظ آخر قاله النووى.

قال ابن حجر(١): وفى رواية ابن فضيل «**فإذا سواد قد ملأ الأفق، فقيل لى: انظر ههنا وههنا فى آفاق السماء**» وفى حديث ابن مسعود «**فإذا الأفق قد سد بوجوه الرجال**» وفى لفظ لأحمد «**فرأيت أمتى قد ملأوا السهل والجبل، فأعجبنى كثرتهم وهيئتهم، فقيل أرضيت يا محمد؟ قلت: نعم أى رب**». اهـ.

● إشكال وجوابه:

وقد استشكل الإسماعيلى كونه ﷺ لم يعرف أمته حتى ظن أنهم أمة موسى، وقد ثبت من حديث أبى هريرة كما تقدم فى الطهارة «كيف تعرف من لم تر من أمتك؟ فقال: **إنهم غر محجلون من أثر الوضوء**»(٢) وفى لفظ «**سيماً ليست لأحد غيرهم**»(٣) وأجاب بأن الأشخاص التى رآها فى الأفق لا يدرك منها إلا الكثرة من غير تميز لأعيانهم، وأما ما فى حديث أبى هريرة فمحمول على ما إذا قربوا منه، وهذا كما يرى الشخص شخصاً على بعد فيكلمه ولا يعرف أنه أخوه، فإذا صار بحيث يتميز عن غيره عرفه. ويؤيده أن ذلك يقع عند ورودهم عليه الحوض.

وكما فى حديث الفجر «**لايعرفن من الغلس**» أى لايعرف أشخاصهن، أما إذا أزددن قرباً فقد تعرف أعيانهن وفى رواية البخارى «**فنظرت فإذا سواد كثير**».

● **قوله: «فقيل لى: هذا موسى وقومه».**

وفى حديث ابن مسعود عند أحمد (حتى مر على موسى فى كبكة من بنى إسرائيل، فأعجبنى، فقلت: من هؤلاء فقيل: هذا أخوك موسى معه بنو إسرائيل).

قال ابن عثيمين(٤): وهذا يدل على كثرة أتباع موسى عليه السلام وقومه الذين أرسل إليهم. أهـ.

قوله: «**ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لى: انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم فقيل لى: هذه أمتك**».

وفى حديث ابن مسعود: «**فإذا الأفق قد سد بوجوه الرجال**» وهذا يؤيد قول من قال: إنهم فى هذه الحالة قد قربوا منه فعرف أعيانهم ويؤيده مارواه أحمد: «**فرأيت أمتى قد ملئوا السهل والجبل فأعجبنى. كثرتهم وهيئتهم فقيل أرضيت يامحمد؟! قلت: نعم أى رب.**

قال ابن عثيمين(٥): وهذا أعظم من السواد الأول؛ لأنَّ أمة النبى ﷺ أكثر بكثير من أمة موسى عليه السلام.

● **قوله: «ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنّة بغير حساب ولا عذاب».**

---

(١) الفتح ١١/ ٤١٥و ٤١٦.
(٢)، (٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الطهارة (٢/ ١٣٧/ ٣).
(٤) القول المفيد ١/ ١٢٢.
(٥) القول المفيد ١/ ١٢٣.

قال النووى: معناه ومع هؤلاء سبعون ألفاً من أمتك فكونهم من أمته لاشك فيه، وأما تقديره فيحتمل أن يكون معناه وسبعون ألفاً من أمتك غير هؤلاء وليسوا مع هؤلاء فيحتمل أن يكون معناه فى جملهم سبعون ألفاً، ويؤيد ذلك رواية البخارى «**ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفاً**» والله أعلم أهـ.

قال ابن حجر[1]: والمراد بالمعية المعنوية فإن السبعين ألفا المذكورين من جملة أمته، لكن لم يكونوا فى الذين عرضوا إذ ذاك فأريد الزيادة فى تكثير أمته بإضافة السبعين ألفاً إليهم. أهـ.

● **قوله: «بغير حساب ولا عذاب»**.

قال سليمان آل الشيخ[2]: قلت: وما قاله يعنى الحافظ ليس بظاهر فإن فى رواية ابن فضيل: «**ويدخل الجنة من هؤلاء من أمتك سبعون ألفاً**».

وقد ورد فى حديث أبى هريرة فى «الصحيحين» وصف السبعين ألفاً بِأَنَّهُمْ تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ[3].

وفيهما عنه مرفوعاً: «**إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الجَنَّةَ على صُورةِ القَمَرِ والذين عَلَى آثارِهم كَأَحسنِ كَوْكَبٍ دُرى فى السَّماءِ إِضاءةً**»[4]. وجاء فى أحاديث أخر أن مع السبعين ألفاً زيادة عليهم.

فروى أحمد والبيهقى فى البعث حديث أبى هريرة فى السبعين ألفاً فذكره وزاد. قال «**فاستَزدتُ ربِّى فزادَنى معَ كُل ألف سَبعينَ ألفاً**»[5]. قال الحافظ: وسنده جيد وفى الباب عن أبى أيوب عند الطبرانى[6]، وعن حذيفة عند أحمد[7]، وعن أنس عند البزار[8]، وعن ثوبان عند ابن أبى عاصم[9] قال: فهذه طرق يقوى بعضها بعضاً. قال: وجاء فى أحاديث أخر أكثر من ذلك.

---

(١) فتح البارى ١١/٤١٦.
(٢) تيسير العزيز الحميد ٧٦ و ٧٧.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٨١١) ومسلم فى الإيمان (٢/ ٩١/ ٣٦٩) وانظر «فتح المجيد» (ح١٠٤).

(٤) تقدم قبله.

(٥) رواح أحمد فى «مسنده» (٢/ ٣٥٩)، وانظر «فتح المجيد» (ح١٠٥) بتخريجنا.

(٦) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٤١٣)، والطبرانى فى «الكبير» (٤/ ١٢٧/ ٣٨٨٢) بإسناد ضعيف.

(٧) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٣٩٣) بإسناده فيه ابن لهيعة وهو ضعيف وحسنه الهيثمى فى «المجتمع» (١٠/ ٦٨ - ٦٩).

(٨) ذكره الهيثمى فى «المجتمع (١٠/ ٤٨) ونسبه البزار. وبإسناد فيه متروك.

(٩) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (١٠/ ٤٠٧) ونسبه لأحمد، الطبرانى بدون لفظ الزيادة.

فأخرج الترمذى وحسنه والطبرانى وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى أمامة رفعة: «وَعَدَنى رَبِّى أَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِى سبْعِينَ أَلفاً مَعَ كُلِ أَلف سَبعينَ كذا أَلفاً لا حِسَابَ عَليهِم وَلاَ عَذاب، وثَلاثَ حَثيَاتٍ مِن حَثيَاتِ رَبِّى»[1].

وروى أحمد وأبو يعلى من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أُعْطِيتُ سَبعينَ ألفاً يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَاب، وُجوهُهُمْ كَالقَمَرِ لَيلَةَ البَدْرِ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلبِ رَجلٍ وَاحِد، فَاستَزدتُ رَبِّى عَزَّ وَجَلَّ فزادنى مَعَ كُلِ واحدٍ سبعينَ ألفاً»[2]. قال الحافظ وفى سنده راويان، أحدهما: ضعيف الحفظ والآخر لم يسم.

قلت: وفيه أن كل أمة تحشر مع نبيها.

قال ابن حجر[3]: وقد وقع فى رواية ابن فضيل «**ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفا بغير حساب**» وفى رواية عبثر بن القاسم «**هؤلاء أمتك، ومن هؤلاء من أمتك سبعون ألفاً**» والإشارة بهؤلاء إلى الأمة لا إلى خصوص من عرض، ويحتمل أن تكون مع بمعنى من فتأتلف الروايات. أ هـ.

قال ابن عثيمين[4]: أى: لا يُعذَّبون ولا يُحاسبون كرامةً لهم، وظاهره أنه لا فى قبورهم ولا بعد قيام الساعة. اهـ.

قوله: «ثم نهض فدخل منزله».

قال ابن حجر: وفى رواية «**فتفرق الناس ولم يبين لهم**» أى تركهم ودخل منزله بغير بيان لسبب دخول هؤلاء الجنة بغير حساب.

قال سليمان آل الشيخ[5]: ثم نهض، أى قام.

قوله: «فخاض الناس فى أولئك».

قال النووى[6]: هو بالخاء والضاد المعجمتين، أى تكلموا وتناظروا. قال: وفى هذا إباحة المناظرة فى العلم والمباحثة فى نصوص الشرع على جهة الإستفادة وإظهار الحق أهـ.

---

(1) رواه أحمد (٥/ ٢٦٨) والترمذى (٢٤٣٧). وابن ماجه (٤٢٨٦) قال الترمذى: حسن غريب.

(2) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٦)، وأبو يعلى فى مسنده (١٠٧) بإسناد فيه رجل لم يسم.

(3) الفتح ١١/ ٤١٦.

(4) القول المفيد ١/ ١٢٣

(5 ـ 6) شرح مسلم النووى (٣/ ٩٥ ـ ٩٥) وانظر تيسير العزيز الحميد ٧٨.

قلت: فمن طلب العلم للجدل أو للتباهى أو للانتصار للأهواء؛ فليتبوأ مقعده من النار، لما روى أبو داود عن أبى هريرة مرفوعاً **«من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»**(*). وفى الحديث **«من تعلم العلم ليمارى به السفهاء أو يباهى العلماء»** - وفيه - **«فليتبوا مقعده من النار»**.

وفيه عمق علم السلف لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعلم، وفيه حرصهم على الخير؛ ذكره المصنف. أهـ

قال ابن عثمين(1): هذا الخوض للوصول إلى الحقيقة نظرياً وعملياً حتى يكونوا منهم.

● قوله: **«فقال بعضهم: فلعلَّهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ»**.

قال ابن عثيمين(2): «يحتمل أنَّ المراد الصحبة المطلقة، ويؤيده ظاهر اللفظ.

ويحتمل أنَّ المراد الذين صحبوه فى هجرته، ويؤيده أنَّه لو كان المراد الصحبة المطلقة؛ لقالوا: نحن؛ لأنَّ المتكلم هم الصحابة، ويدل على هذا قول الرسول ﷺ لخالد بن الوليد: **«لاتسبوا أصحابى»**(3)؛ فإنَّ المراد بهم الذين صحبوه فى هجرته، لكن يمنع منه أنَّ المهاجرين لا يبلغون سبعين ألفاً.

ويمنع الاحتمال الأول: أنَّ الصحابة أكثر من سبعين ألفاً، ويحتمل أنَّ المراد من كان مع الرسول ﷺ إلى فتح مكة؛ لأنَّه بعد فتح مكة دخل الناس فى دين الله أفواجاً.

وهذه المسألة تحتاج إلى مراجعة أكثر. أهـ

قلت: فقال بعضهم لعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ وقيل أنها الصحبة الخاصة الذين صحبوه قبل الهجرة وهذا هو الراجح أى منذ بعثته حتى الهجرة، فهم يعنون الصحبة الخاصة وليست المطلق، ويدل على ذلك قوله لخالد بن الوليد **«لاتسبوا أصحابى»** فهى الصحبة الخاصة أى من صحبوه فى هجرته أو صحبة معنية كبيعة الرضوان أو فى بدر أو صحبوه فى المواضع التى قطع لأصحابه فيها بالمغفرة ففى الحديث: **«لعل الله اطلع**

---

(1) القول المفيد ١/ ١٢٣ و ١٢٤.

(2) القول المفيد ١/ ١٢٣.

(3) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣/ ٣٦٧)، ومسلم فى الفضائل (٨/ ٣٣٣/ ٢٢٢) عن أبى سعيد به.

(*) أخرجه أبو داود (٣٦٦٤) وانظر تمام تخريجه «رياض الصالحين» بتخريجنا (ح١٣٩٤).

إلى أهل بدر فغفر لهم». وقال تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ فهذه هى الصحبة الخاصة كأبى بكر وعمر.

قوله: «وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا فى الإسلام ولم يشركوا بالله».

قال ابن عثيمين[1]: أى: من ولد بعد البعثة وأسلم، وهؤلاء كثيرون، ولو قلنا: ولدوا فى الإسلام من الصحابة ما بلغوا سبعين ألفاً.

قوله: «وذكروا أشياء».

قال ابن حجر[2]: وفى رواية ابن فضيل «فأفاض القوم فقالوا: نحن الذين آمنا بالله واتبعنا الرسول، فنحن هم، أو أولادنا الذين ولدوا فى الإسلام فإنا ولدنا فى الجاهلية، فبلغ النبى ﷺ فخرج فقال» وفى رواية حصين بن نمير «فقالوا: أما نحن فولدنا فى الشرك ولكنا آمنا بالله وبرسوله، ولكن هؤلاء هم أبناؤنا» وفى حديث جابر «وقال بعضنا: هم الشهداء»[3] وفى رواية له «من رق قلبه للإسلام»[4]. أهـ .

قال الفقير: وحاصل كلام الصحابة فى هؤلاء أنهم هم الذين لم يصابوا بلوثة من لوثات الشرك، وأنهم هم الذين حققوا التوحيد بقيامهم بأعمال ذروة سنام الإسلام، ولذلك قال الإمام محمد بن عبدالوهاب :وفيه عمق علم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بالعمل أى لن يحققوا مقام التوحيد إلا بالعمل .

قوله: «فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: ما الذى تخوضون فيه؟ فأخبروه».

قال ابن عثيمين[5]: أى: أخبروه بما قالوا وما جرى بينهم.

● **قوله: «فقال: هم الذين لايسترقون ».**

قال ابن حجر[6]: اتفق على ذكر هذه الأربع معظم الروايات فى حديث ابن عباس وإن كان عند البعض تقديم وتأخير، وكذا فى حديث عمران بن حصين عند مسلم[7]،

---

(١) القول المفيد ١/ ١٢٤ .

(٢) الفتح ١١/٤١٦ .

(٣) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (١٠/٤٠٧) ونسبه للبزار وقد تقدم.

(٢) ذكره الهيثمى فى «المجتمع» (١٠/٤٠٧) ونسبه للبزار عن شيخه عمر بن إسماعيل بن مجالد وهو مجمع على ضعفه. اهـ.

(٥) القول المفيد ١/ ١٢٤ .

(٦) الفتح ١١/ ٤١٦ و٤١٧ .

(٧) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (٢/ ٩٢/ ٣٧٢).

وفى لفظ له سقط **«ولا يتطيرون»** هكذا فى حديث ابن مسعود(١)، وحديث جابر(٢).

ووقع فى رواية سعيد بن منصور عند مسلم **«ولا يرقون»** بدل **«ولا يكتوون»**(٣).

وقد أنكر الشيخ تقى الدين ابن تيمية هذه الرواية وزعم أنها غلط من راويها، واعتل بأن الراقى يحسن إلى الذى يرقيه فكيف يكون ذلك مطلوب الترك؟!

وأيضاً فقد رقى جبريل النبى ﷺ(٤) ورقى النبى أصحابه(٥) وأذن لهم فى الرقى وقال **«من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل»**(٦) والنفع مطلوب.

قال: وأما المسترقى فإنه يسأل غيره ويرجو نفعه، وتمام التوكل ينافى ذلك.

قال: وإنما المراد وصف السبعين بتمام التوكل فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يكويهم ولا يتطيرون من شىء.

وأجاب غيره بأن الزيادة من الثقة مقبولة وسعيد بن منصور حافظ وقد اعتمده البخارى ومسلم واعتمد مسلم على روايته هذه وبأن تغليط الراوى من إمكان تصحيح الزيادة لا يصار إليه.

والمعنى الذى حمله على التغليط موجود فى المسترقى لأنه اعتل بأن الذى لايطلب من غيره أن يرقيه تام التوكل فكذا يقال له والذى يفعل غيره به ذلك ينبغى أن لا يمكنه منه لأجل تمام التوكل، وليس فى وقوع ذلك من جبريل دلالة على المدعى ولا فى فعل النبى ﷺ له أيضاً دلالة لأنه فى مقام التشريع وتبيين الأحكام. أهـ .

قال سليمان آل الشيخ(٧): وهو خطأ من وجوه:

الأول: أن هذه الزيادة لا يمكن تصحيحها إلا بحملها على وجوه لايصح حملها عليها

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٤٠٣، ٤١٧، ٤٥٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (٢/ ٩٢/ ٣٧٤).

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٧١٦) ونسبه لعبد بن حميد فى «مسنده» عن زيد بن أسلم مرسلاً. ثم نسبه لابن مردويه، والبيهقى فى «الدلائل» عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ.

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٧٤٥)، ومسلم فى السلام (١٤/ ١٨٣ - النووى) عن عائشة رضى الله عنها. وانظر «الطب النبوى للذهبى» (٥٥٩ - بتحقيقنا).

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم فى السلام (٤/ ١٨٦ - النووى) عن جابر به.
وانظر «الطب النبوى» للذهبى (٤٣٥ - بتحقيقنا).

(٧) تيسير العزيز الحميد ٧٨ و ٧٩.

كقول بعضهم: المراد لا يرقون بما كان شركاً، أو احتمله، فإنه ليس فى الحديث ما يدل على هذا أصلاً وأيضاً فعلى هذا لايكون للسبعين مزية على غيرهم؛ فإن جملة المؤمنين لا يرقون بما كان شركاً.

ثم قال سليمان آل الشيخ: الثاني: قوله: فكذا يقال الخ لايصح هذا القياس، فإنه من أفسد القياس وكيف يقاس من سأل وطلب على من لم يسأل؟! مع أنه قياس مع وجود الفارق الشرعى، فهو فاسد الاعتبار، لأنه تسوية بين ما فرق الشارع بينهما. **بقوله: «مَنِ اكْتَوَى أَوْ اسْتَرقَى فَقَدْ بَرِىءَ مِنَ التَّوَكُّلِ»**(1) رواه أحمد والترمذى وصححه وابن ماجة، وصححه ابن حبان والحاكم أيضاً وكيف يجعل ترك الإحسان إلى الخلق سبباً للسبق إلى الجنان؟ وهذا بخلاف من رقى أو رقى من غير سؤال، فقد رقى جبريل النبى ﷺ(2). ولا يجوز أن يقال: إنه عليه السلام لم يكن متوكلاً فى تلك الحال.

الثالث: قوله: ليس فى وقوع ذلك من جبريل عليه السلام، الخ، كلام غير صحيح بل هما سيدا المتوكلين، فإذا وقع ذلك منهما دل على أنه لا ينافى التوكل فاعلم ذلك. أهـ.

قلت: هناك وجه من الوجوه يمكن حمل اللفظ عليه، وهذا الوجه صحيح ومعتبر، ويمكن أن يُحمل على أنهم لايرقون الرقى التى تقدح فى كمال توكلهم على الله مثال: كأن تجر هذه الرقية الراقى لغرور أو عجب، فالراقى يكون عالج كماً كبيراً من الحالات، فمجرد أن يضع يده ويقرأ الفاتحة يشفى المرقى ويبرء بإذن الله تعالى، فيعجب الراقى بنفسه، ويصير يعتمد على أسبابه ويده، فهذا قدح فى تمام توكله على الله، وكان أول الأمر تام التوكل على الله سبحانه وتعالى، ثم نقص توكله وأصبح فيه شئ وثقة فى نفسه لافى ربه سبحانه وتعالى، إذاً هم حينما يرقون يكونون فى حال رقيتهم لغيرهم كما ملى التوكل على ربهم.

وهناك وجه آخر يمكن أن يحُمل اللفظ عليه، وهو: الذين لايرقون، أى: لايرقون الرقى الظنية، بمعنى: أنه مردد، ويعلم أن السبب ضعيف وظنى الشفاء، فعندما يرقى، يرقى بعدم اكترث، وعدم إهتمام، فتكون الرقية قادحة فى كمال التوكل وليس فى أصل التوكل.

---

(1) رواه أحمد فى «مسنده» (٤/ ٢٤٩، ٥١) والترمذى (٢٠٥٥) وابن ماجة (٣٤٨٩) وابن حبان فى «صحيحه» (٧/ ٦٢٩ - الإحسان) عن المغيرة بن شعبة.

(2) تقدم قريباً.

وهناك وجه ثالث: وهو لأنه أعان المرقى على عدم التوكل فى بعض الصور كما تقدم فجوزى بجزاء من جنس عمله، كمن حجم صائماً، وهو صائم، قال ﷺ: **«أفطر الحاجم والمحجوم»**.

والخلاصة فى هذا الموضع:

(لايرقون) (١) أن يرقى فيعتمد على نفسه ولا يفوض الأمر كله لله أو يغتر أو يعجب بأسبابه.

(٢) لايرقون الرقى الظنية، فكلما كان السبب قوى كان التوكل على الله قوى والعكس، وضربنا مثل، لشخص ترك دابته بالخارج، وآخر عقلها بعقال شديد، وثالث عقلها بعقال ضعيف، وآخر لم يعقلها، وتوكلوا جميعاً، فلاشك أن أعلاهم توكلاً الذى عقلها بعقال شديد.

والصواب فى هذه المسألة والراجح: أن هذه اللفظة صحيحة، وأنه لايصار لتخطئة الراوى إلا إذا تعذر الجمع بين ما قاله باقى الحفاظ، أو إذا تعذر حملت هذه اللفظة على المحمل الشرعى، أما إذا لم يتعذر حملها على معنى صحيح - كما تقدم - فلا يصار لتخطئة الحافظ سعيد بن منصور الذى اعتمد عليه مسلم فى هذه الرواية، والبخارى فى غيرها.

قال ابن حجر[١]: ويمكن ان يقال إنما ترك المذكورون الرقى والاسترقاء حسما للمادة لأن فاعل ذلك لا يأمن أن يكل نفسه إليه وإلا فالرقية فى ذاتها ليست ممنوعة وإنما منع منها ما كان شركاً أو احتمله ومن ثم قال ﷺ **«اعرضوا علىَّ رقاكم، ولا بأس بالرقى ما لم يكن شرك»**[٢] ففيه إشارة إلى علة النهى، وقد نقل القرطبى عن غيره أن استعمال الرقى والكى قادح فى التوكل بخلاف سائر أنواع الطب، وفرق بين القسمين بأن البرء فيهما أمر موهوم وما عداهما محقق عادة كالأكل والشرب فلا يقدح، قال القرطبى وهذا فاسد من وجهين: أحدهما أن أكثر أبواب الطب موهوم.

والثانى أن الرقى بأسماء الله تعالى تقتضى التوكل عليه والالتجاء إليه والرغبة فيما عنده والتبرك بأسمائه، فلو كان ذلك قادحاً فى التوكل لقدح الدعاء إذ لا فرق بين الذكر والدعاء، وقد رُقى النبى ﷺ ورَقى وفعله السلف والخلف، فلو كان مانعاً من اللحاق

---

(١) فتح البارى ٤١٧/١١.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى السلام (١٤/ ١٨٧ - النووى) عن عوف بن مالك به.
وأنظر «الطب النبوى» للذهبى (٤٣٤ - بتحقيقنا).

بالسبعين أو قادحاً فى التوكل لم يقع من هؤلاء وفيهم من هو أعلم وأفضل ممن عداهم.

وتعقب بأنه بنى كلامه على أن السبعين المذكورين أرفع رتبة من غيرهم مطلقاً، وليس كذلك لما سأبينه.

وجوز أبو طالب بن عطية فى «موازنة الأعمال» أن السبعين المذكورين هم المراد بقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ فإن أراد أنهم من جملة السابقين فمسلم وإلا فلا.

وقد أخرج أحمد وصححه ابن خزيمة وابن حبان من حديث رفاعة الجهنى قال «أقبلنا مع رسول الله ﷺ» فذكر حديثاً وفيه **«وعدنى ربى أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفاً بغير حساب، وإنى لأرجو أن لا يدخلوها حتى تبوؤا أنتم ومن صلح من أزواجكم وذرياتكم مساكن فى الجنة»**(١).

فهذا يدل على أن مزية السبعين بالدخول بغير حساب لا يستلزم أنهم أفضل من غيرهم، بل فيمن يحاسب فى الجملة من يكون أفضل منهم وفيمن يتأخر عن الدخول ممن تحققت نجاته وعرف مقامه من الجنة يشفع فى غيره من هو أفضل منهم، وفى حديث أم قيس بنت محصن أن السبعين ألفاً ممن يحشر من مقبرة البقيع بالمدينة(٢) وهى خصوصية أخرى. أهـ

قال شيخ الإسلام(٣): «... فمدح هؤلاء بأنهم لا يسترقون؛ أى: لايطلبون من أحد أن يرقيهم، والرقية من جنس الدعاء؛ فلا يطلبون من أحد ذلك، وقد روى فيه: **«ولا يرقون»**، وهو غلط؛ فإن رقياهم لغيرهم ولأنفسهم حسنة، وكان النبى ﷺ يرقى نفسه وغيره، ولم يكن يسترقى؛ فإن رقية نفسه وغيره من جنس الدعاء لنفسه ولغيره،

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ١٦)، وابن ماجه (٤٢٨٥)، وابن حبان فى «صحيحه» (١/ ٢١٧) ورواية ابن ماجه مختصرة.

وذكره الهيثمى فى «المجمع» (١٠/ ٤٠٨) ونسبه للطبرانى والبزار وقال: رجال بعضهم عنه الطبرانى والبزار رجال الصحيح.

(٢) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٢٥/ ١٨١/ ٤٤٥) وقال الهيثمى فى «المجتمع» (٤/ ١٣): وفيه من لم أعرفه.

(٣) انظر حاشية القول المفيد ١/ ١٢٥، وانظر «مجموع الفتاوى»(١/ ١٨٢).

وهذا مأمور به؛ فإن الأنبياء كلهم سألوا الله ودعوه كما ذكر الله ذلك فى قصة آدم وإبراهيم وموسى وغيرهم».

قال ابن عثيمين[1]:

قوله «لايسترقون». واستفعل بمعنى طلب الفعل، مثل: استغفر؛ أى: طلب المغفرة، واستجار: طلب الجوار، وهنا استرقى؛ أى: طلب الرقية، أى لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليهم؛ لما يلى:

١ - لقوة اعتمادهم على الله.

٢ - لعزَّة نفوسهم عن التذليل لغير الله.

٣ - ولما فى ذلك من التعلُّق بغير الله. اهـ.

قال الفقير: وقد يقال أنهم لايسترقون الرقى التى تتنافى وكمال التوكل وهى الرقى ظنية الشفاء، أما قطعية الشفاء فهى سبب قوى الأخذ به مع التوكل ينم عن غاية التوكيل عليه سبحانه وتعالى.

*** كيف نجمع بين دليل حصين بن عبد الرحمن «لا رقيه إلا من عين أو حمة» وقوله النبى ﷺ: «لايسترقون»؟.**

وجه الجمع: أنهم لا يسترقون الرقى ظنية الشفاء فهى سبب للشفاء ضعيف، أما إذا كان الرقية قطعية الشفاء وتعينت سبيلاً لشفاء هذا الداء طلبوا من يرقيهم كما فعل حصين بن عبد الرحمن حينما رقى من الحمى لأنه لارقية أشفع ولا أنفع من رقية العين أو الحمى كما تقدم.

ومثال للرقية ظنية الشفاء شخص عنده روماتيزم فى ساقه، إذا رقيناه هل سيذهب الروماتيزم؟ إحتمال يذهب واحتمال ألا يذهب، فلذلك هى ظنية الشفاء بخلاف الملدوغ أو المسحور.

ومثال للرقية قطعية الشفاء:

قول النبى ﷺ: **«العين حق ولو كان شىء سابق القدر لسبقته العين»**. والحديث فى الصحيح. وقال فى الجارية التى رأى فى وجهها تغيراً وسواداً ـ سفعة ـ فقال: **«استرقوا لها فإن بها النظرة»** وهو فى الصحيح أيضاً وسيأتى فى الرقى فالرسول ﷺ طلب الرقية وطلب من يرقى لما كانت الرقية قطعية الشفاء، وعينت سبيلاً للشفاء من هذا الداء وهو الحسد.

(١) القول المفيد ١/ ١٢٥.

وأقر رقية الحمى كما فى حديث أبى عباس فى الصحيح فى الرقية بفاتحة الكتاب أن نفرًا من أصحاب النبى مروا بماء فيه لديغ فعرض لهم رجل من أهل الماء فقال: هل فيكم من راق... الحديث وفيه أن النبى ﷺ قال: **«إن أحق ما أخذتم عليه كتاب الله»** فهذا مفسر لحديث: **«لا رقية إلا من عين أوحمه»** فلا رقية أنفع ولا أقطع ولا أشفى من عين أو حمه لأنها تعينت سبيلاً للشفاء كما فعل حصين ولذلك لم ينكر عليه سعيد بن جبير، فطلب حصين لها لا يتنافى مع كمال التوكل على الله - عز وجل - لأنه قال: **«لايسترقون»** إلى قوله: **«وعلى ربهم يتوكلون»** والدافع لترك الاسترقاء هنا هو كمال التوكل.

● **متى لايتنافى الاسترقاء مع كمال التوكل؟**

إذا كانت الرقية فى هذه الحالة قطعية الشفاء فهذا لا يتنافى مع كمال التوكل فهو هنا أخذ بالأسباب، والأخذ بالأسباب من التوكل.

مثال الرجل الذى سأل النبى يعقل ناقته ويتوكل أم يتركها ويتوكل؟ فقال له: **«اعقلها وتوكل»**.

وسيأتى تفصيل وتوسع فى هذا عند شرح الباب السابع: ماجاء فى الرقى والتمائم.

● **قوله: «لايكتوون»**.

قال ابن حجر: فى التعليق على تبويب البخارى لهذا الحديث باب (من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو) قال: كأنه أراد الكى الجائز للحاجه، وأن الأولى تركه إذا لم يتعين، وأنه إذا جاز كان أعم أن يباشر الشخص ذلك بنفسه أوبغيره لنفسه أو لغيره.

وعموم الجواز مأخوذ بنسبة الشفاء إليه فى حديث جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ **«إن كان فى شىء من أدويتكم شفاء ففى شرطة محجم، أو لذعة نار، وما أحب أن أكتوى»**(1).

وفضل تركه: **«وما أحب أن أكتوى»**. أهـ.

قال الفقير: [الراجح] أنه أخذ فضل من لم يكتوى من قوله ﷺ من حديث

(1) أخرجه البخارى (٥٦٨٣)، ومسلم فى السلام (١٤/ ١٩٢ - النووى).
وأنظر «الطب النبوى» للذهبى (٢٧١) وفتح المجيد (ح ١٩٦) بتحقيقنا.

السبعين ألفاً، حيث قال: «لايكتوون». وأماحديث عمران مرفوعاً: «نهى ﷺ عن الكى، فأكتوينا فما أفلحنا، ولا أنجحنا»(١) وفى لفظ: «فلم يصلحنا ولم ينجحا».

قال ابن حجر: بعد أن جود سنده: والنهى فيه محمول على الكراهة، أو على خلاف الأولى، لما يقتضيه مجموع الأحاديث، وقيل: أنه خاص بعمران؛ لأنه كان فيه الباسور، فنهاه عن كيه، فلما اشتد كواه، فلم ينجح. اهـ.

قلت: وفيه حالة ثالثة: ترك الكى (مندوب) عندما يكون الكى ظنى الشفاء فيكون تركه مندوباً وثواب تركه هنا أن يدخل فى زمرة السبعين ألفاً وقد باشر النبى ﷺ الكى فى أسعد بن زرارة وأقر أنساً قال أنس: «اكتويت فى زمن النبى». وفى حاله الفعل أو مباشرته لم يقدح فى كمال توكله لأن هذا الكى كان متعيناً سبيلاً للشفاء، بل أقول: إذا تعين سبيلاً للشفاء فلزم أو استحب الكى على خلاف بين أهل العلم هل تعاطى الدواء واجب أم مندوب؟.

وقال ابن قتيبة الكى نوعان:

[الأول]: كى للصحيح لئلا يعتل.

فهذا الذى قيل فيه: لم يتوكل من اكتوى؛ لأنه يريد أن يدفع القدر والقدر لا يدافع.

[والثانى]: كى الجرح، إذا نغل - أى فسد -، والعضو إذا قطع، فهو الذى يشرع التداوى به فإن كان لأمر محتمل فهو خلاف الأولى لما فيه من تعجيل التعذيب بالنار لأمر غير محقق. أهـ.

قلت: ثم ذكر ما قاله ابن قتيبة أن الكى نوعان: كى الصحيح لئلا يعتل - مثل التطعيم - فهو صحيح فيكتوى حتى لايعتل - فهذا الذى قيل فيه: «لم يتوكل من اكتوى» قلت: يغنى - توكلاً كاملاً - فهو صحيح والمرض محتمل.

قال ابن قتيبة: «لأنه يريد أن يدفع القدر، والقدر لا يدافع».

قلت: وهذه مصيبة أخرى أنه يريد دفع القدر ولكن إذا كان قصده أنه يأخذ بالأسباب معتقد أن قدر الله نافذ فهذا ليس فيه شيء لكن يقدح فى كمال توكله.

---

(١) [صحيح] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ٤٤٤)، وأبو داود (٣٨٦٥)، والنسائى فى «الكبير» (٧٦٠٢)، والترمذى (٣٤٩)، وابن ماجة (٣٤٩٠) من رواية الحسن عن عمران به.
وانظر «الطب النبوى» (٥٠٠ - بتحقيقنا).

ثم قال: «والثانى كى الجرح إذا فسد» يعنى إذا قُطع يده ولم يتعين شفاؤه إلا بالكى فهذا يشرع التداوى فيه، ثم قال: «إذا كان الكى لا مر يحتمل فهذا خلاف الأولى لما فيه من التعجيل بالتعذيب بالنار لأمر غير محقق» فذكر علة أخرى. وهذا الفهم من ابن قتيبة يؤيد أنهم لايكتوون الكى الظنى وهذا يؤيد ماذهبنا إليه.

قال ابن حجر: وحاصل الجمع أن الفعل يدل على الجواز، وعدم الفعل لايدل على المنع، بل يدل على أن تركه أرجح من فعله، وكذا الثناء على تاركه.

وأما النهى عنه فإما على سبيل الاختيار والتنزيه، وإما عما لايتعين طريقاً إلى الشفاء. والله أعلم. أهـ.

قال الفقير: قول ابن حجر: «وحاصل الجمع أن الفعل يدل على الجواز» إلا أن هذا الجواز مشروط بأنه ما فعل إلا فى حالتين يتعين فيهما الكى.

وقلنا ذلك جمعاً بين الروايات لأنه نهى: «وعدم الفعل لايدل على المنع بل يدل على أن تركه أرجح» وكذا الثناء على تاركه «وأما النهى عنه فاءما على سبيل الاختيار والتنزيه وإما عما لايتعين طريقاً للشفاء» فأثنى عليهم لأنهم تركوا المرجوح فليس لأن هذه الأسباب محرمة بل لأنها خلاف الأولى، وذهب الحافظ إلى أنه إذا اكتوى فى حالة لايتعين فيها الكى فكأنه فعل محرماً وليس مكروها، أما إذا تعين فهذا مندوب، وأما إذا كان محتملاً فهذا خلاف الأولى، وأما إذا لم يتعين فهو محرم، إلا أنه يعكر عليه أن عمران بن الحصين لم يفهم هذا. فعلى هذا الفهم قلنا: نورد الإيرادات التى تمسك بها بعض العلماء فى أن هذا الحديث أصل فى كراهة الرقى والكى من بين سائر الأدوية. فبعض الصوفية قالوا بكراهة التداوى نهائياً لأنه يقدح فى التوكل على الله والبعض قال: إن التداوى مشروع إلا الكى والرقى.

وأجاب العلماء على ذلك بأجوبة فإذا حملنا الأحاديث على ماذهبنا إليه لعلمنا أن الأحاديث لاتنهى عن كى أورقى، وسعيد بن جبير لم ينكر على حصين بن عبدالرحمن حينما ارتقى وقال: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع» على الرغم من أنه راوى حديث: «لا يرقون ولايسترقون ولا يكتوون» فلو كان يعلم النهى أصلاً عن الكى لأنكر عليه.

لكن تتمة للموضوع نورد الشبه والردود:

كره بعض الناس الرقى والكى من سائر الأدوية، فأجاب العلماء بأجوبة منها:

الجواب الأول:

ما قاله الطبرى والمازرى وطائفة من أهل العلم أنه محمول على من جانب اعتقاد الطبائعيين فى أن الأدوية تنفع بطبعها.

فكأنه لايكتوون الكى الذى فيه اعتقادات جاهلية ولا يرقون الرقى التى فيها اعتقادات جاهلية بأن الأدوية تنفع بنفسها وليست بقدر الله وهذا الكلام يرده أن السبعين ألفاً لهم ميزة عن بقية المسلمين، لأن معظم المسلمين يعتقدون أن الشافى هو الله والمقصود من كلام الطبرى أنه غير صحيح أن نقول بأن الرقى والكى مكروه عن سائر الأدوية سواء هو منطقى أو لا. لكن هذه تأويلات تبين أن هذا الفهم خاطئ.

الجواب الثانى: أن المراد بترك الرقى والكى الاعتماد على الله فى دفع الداء والرضا بقدره.

فأنا راضٍ بقدرك وعلامة رضاى أنى لا أتسبب فى رفع هذا القدر كما قال بعض السلف وهو يُعاد فى مرضه ويشفعون عليه فقال: «أحبه له أحبه لى» فأرادوا أن يمعنوا فى الرضا فلم يباشروا أى سبب يدفع هذا القدر.

قالوا: «والرضا بقدر لا القدح فى جواز ذلك» يعنى لم يقدحوا فى جواز ذلك، وقلنا: إن الترك فى حالات وليس فى كل حالة: ولو كان فى كل شيء إذن لعطلنا الأسباب وكانت دعوة للتواكل. قال: «لا القدح فى جواز ذلك لثبوته فى الأحاديث وعن السلف الصالح لكن مقام الرضا والتسليم أعلى من تعاطى الأسباب». ولهذا ذهب الخطابى وطائفة من العلماء ورجحه النووى فقال: «وحاصله أن هؤلاء كمال تفويضهم إلى الله عز وجل فلم يتسببوا فى دفع ما أوقعه بهم ولا شكوا فى فضيلة هذا ورجحان صاحبها، أما تطيب النبى ﷺ ففعله ليبين لنا الجواز والله أعلم.

إلا أن ابن حجر رحمه الله قال: والحق أن من وثقه بالله وأيقين أن قضاءه عليه ماضٍ وأنه راضٍ بقضاءه خيره وشره، لايقدح فى توكله تعاطيه الأسباب القطعية اتباعاً لسنته». فسنة النبى ﷺ مضرب المثل فى الأخذ بالأسباب فقد حارب النبى ﷺ بين درعين ولبس على رأسه المغفر وأقعد الرماة على فم الشعب وخندق حول المدينة وأذن فى الهجرة للحبشة وهاجر للمدينة، وتعاطى أسباب الأكل والشرب وادخر لأهله قوت سنة كما هو ثابت فى الصحيح، ولم ينتظر أن تمطر عليه السماء ذهباً وقد كان أحق بذلك من غيره، وقال للذى سأل أعقل ناقتى أم أدعها وأتوكل؟ قال: **«اعقلها وتوكل»** فدل على أن الاحتراز لايدفع التوكل والله أعلم.

فكلام النووى والخطابى محمول على أنه إذا لم تتعين الأدوية سبيلاً للشفاء وإلا إذا تعينت فمستحب لهن أن يتعاطوا الأسباب وإذا قلت بالأ مر بالتداوى فى قوله النبى: **«تداووا عباد الله»** والأمر يحمل على الوجوب فيصبح تعاطى الأسباب واجباً ولا أعلم أحداً من العلماء حمل هذا الحديث على الوجوب والذى يؤكد أن الكى والرقية فى الحديث أن السبعين ألفاً لا يكتوون ولا يسترقون الرقى والكى الظنى الذى يؤكد ذلك قول النبى ﷺ فى ذات الحديث **«ولا يتطيرون»** كيف ذلك؟ فربطه بالطيرة الكى والرقية المنفية يدل على الكى الظن والرقية الظنية كالطيرة تماماً بتمام. فالطيرة أمر ظنى فكان الجاهليون إذا أرادوا أمراً قاموا للطير فإن ذهب يمنة تيمنوا، وفعلوا وإن ذهب يسرة تشائموا ورجعوا.

هذا الكلام ظنى فمن الممكن أن تطير جهة اليمن ويحصل الشر والعكس فكونها طارت جهة اليمين وحصل الخير أحياناً فهذا أمر محتمل وظنى.

الطيرة: هى التشاؤم وهى من الأمور الجاهلية وهناك أحاديث لاتخلوا من ضعف إلا أنه ربما بجمع الطرق تحسن ومنها **«ثلاثة لايسلم منهن أحد الطيرة والظن والحسد»**.

قال سليمان آل الشيخ[(١)]: قوله: **«ولا يكتوون»** أى لا يسألون غيرهم أن يكويهم، كما لا يسألون غيرهم أن يرقاهم استسلاماً للقضاء وتلذذاً بالبلاء. أما الكى فى نفسه فجائز كما فى «الصحيح».

عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ بعث إلى أُبى بن كَعْبٍ طَبيباً، فَقَطَعَ لَهُ عِرْقاً وَكَوَاهُ.[(٢)]

وفى «صحيح البخارى» عن أنسٍ: أَنهُ كُوِيَ مِنْ ذَاتِ الجَنْبِ والنبى ﷺ حَيّ[(٣)].

وروى الترمذى وغيره عن أنسٍ: **أَنَّ النبى ﷺ كَوَى أَسْعَدَ بنَ زَرَارَةَ منَ الشوْكَةِ**[(٤)].

(١) تيسير العزيز الحميد ٧٩.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى السلام (٧/ ٤٤٨/ ٧٣) وانظر فتح «المجيد» (ح ١١٢) بتخريجنا.

(٣) [صحيح] رواه البخارى (٥٧٢١) وانظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد (ح١١٣) والطب النبوى للذهبى بتخريجنا.

(٤) [المحفوظ مرسل] رواه الترمذى (٢٠٥٠) قال الترمذى: حسن غريب، وانظر «فتح المجيد» (ح١١٤) بتخريجنا).

وفى «صحيح البخارى»: عـن ابنِ عبَّاسٍ مرفوعاً: « **الشفاءُ فى ثلاثٍ: شَربَةُ عسَلٍ، وَشَرطَةُ مُحجَمٍ، وكَيَّةُ نَارٍ. وأنهى أُمتى عَنِ الكَىِّ**»[(١)].

وفى لفظ: «**وما أُحبُّ أن أكْتوِىَ**»[(٢)].

قال ابن القيم: فقد تضمنت أحاديث الكى أربعة أنواع: **أحدها**: فعله، **والثانى**: عدم محبته له. **والثالث**: الثناء على من تركه. **والرابع**: النهى عنه. ولا تعارض بينهما بحمد الله، فإن فعله له يدل على جوازه؛ وعدم محبته له لا يدل على المنع منه. وأما الثناء على تاركيه فيدل على أن تركه أولى وأفضل. وأما النهى عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهية. أهـ

قال ابن عثيمين[(٣)]:

والصحيح:

١ - أن ما علم أو غلب على الظن نفعه مع احتمال الهلاك بعدمه؛ فهو واجب.

٢ - ما غلب على الظن نفعه، لكن ليس هناك هلاك محقق بتركه؛ فهو أفضل.

٣ - ما تساوى فيه الأمران؛ فتركه أفضل.

● **مسألة**:

قال ابن عثيمين: وإذا طَلبَ منك إنسان أن يرقيك؛ فهل يفوتك كمال إذا لم تمنعه؟

الجواب: لا يفوتك؛ لأنَّ النبى ﷺ لم يمنع عائشة أن ترقيه[(٤)]، وهو أكمل الخلق توكّلاً على الله وثقةً به، ولأنَّ هذا الحديث: «**لايسترقون...**» إلخ إنَّما كان فى طلب هذه الأشياء، ولايخفى الفرق بين أن تحصل هذه الأشياء بطلب وبين أن تحصل بغير طلب أهـ

[قلت]: قوله: ﴿ولا يكتوون﴾: لا يطلبون الكى من غيرهم بعكس لا يكوون: لا يكوون أنفسهم لماذا؟ لأن الكى فى هذه الحالة لا يتعين سبيلاً للشفاء؟ بل كان الشفاء به محتملاً أو بعيدًا فلم يعذب نفسه ولم يحرق نفسه بدواء المصلحة فيه محتملة، وحسمًا

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٦٨٠) وانظر «الطب النبوى» (٤٩٧) وفتح المجيد (ح ١١٥) بتحقيقنا.

(٢) تقدم قريباً عن جابر.

(٣) انظر القول المفيد (١/١٢٩).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٠١٦)، ومسلم فى السلام (١٤/١٨٢ - النووى) وانظر «الطب النبوى» (٥٦٣ - بتحقيقنا).

للمادة وسداً للذرائع ولكمال توكله على الله لم يأخذ بسبب ضعيف، وترك الكى فى هذه الحالة.

● **لماذا كان هذا التأويل لقوله: ﴿لا يكتوون﴾؟**

الجواب من وجوه:

النبى ﷺ باشر الكى كما قال ابن القيم فى الطب وأقره ونهى عنه وكرهه ؟فمرة أقره ومرة باشره ومرة نهى عنه ومرة كرهه.

قال النبىﷺ: **«الشفاء فى ثلاث: شربة عسل وشرطة محجم وكية نار»**.

والحديث فى الصحيح. وقال النبى: **«وما أحب أن أكتوى»**. وفى رواية: **«نهى عن الكى»** وفى رواية: **«أنهى أمتى عن الكى»** فالنهى هنا نهى كراهة. فلما نهى كان النهى للكراهة فقوله: **«وما أحب أن أكتوى»** أو: «إنى أنهى أمتى عن الكى» لأن النهى أول ما يحمل على التحريم، ويصرف من التحريم إلى الكراهة بقرينة، وهنا توجد قرينة وهى قوله ﷺ **«الشفاء فى ثلاث...»** الحديث.

فقوله ﷺ: «الشفاء فى ثلاث: شربة عسل أو شرطة محجم أو كية نار» يجيز النبى ﷺ الكى فى بعض الأحيان بغير كراهة إذا تعين سبيلاً للشفاء كما قال الشراح. ككى الجرح إذا فسد فلا يلتئم إلا بالكى أو شخص قُطع عضو منه، ولا سبيل لغلق الجرح إلا بالكى «فهو جائز بغير كراهة» أو مستحب والدليل: «الشفاء فى ثلاثة».

ولما باشر عندما تعين سبيلاً للشفاء فجائز بغير كراهة لأن النبى ﷺ لا يفعل الكراهة ففعله يدل على أنه جائز لذلك فإن الأصوليين يكرهون أن يسموا فعل النبى ﷺ مكروهًا وإن كان لابد فيسمى [خلاف الأولى].

فإذا لم يتعين سبيلاً للشفاء جائز لكن مع الكراهة لأنه ظنى الشفاء ولأنه عذب نفسه بغير فائدة، بل الفائدة ظنية محتملة ودليله قوله: **«وما أحب أن أكتوى»** وقوله: **«أنهى أمتى عن الكى»**، والثناء على تارك الكى وقوله فى الحديث **«لا يكتوون»**.

ومن لم يتركه فى هذه الحالة هل يحرم عليه؟

الجواب: لا يحرم: لكن الأفضل له والمستحب ترك الكى فى هذه الحالة لأنه بالترك سيدخل فى السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب.

ويكره له الكى فى هذه الحالة لأن الشفاء به ظنى وسيحرمه من الدخول فى السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب.

٣- وإذا استوى الطرفان هل يشفى أم لا ؟ هل يكتوى أيضًا؟

الجواب: أن الأولى تركه لكمال التوكل.

● علاقة الكى والرقى بالطيرة فى الحديث:

قال الفقير: ليبين ويؤكد أن الكى والرقية فى الحديث المقصود بهما الكى الظنى والرقى الظنية ويؤكد ذلك قوله: **«لا يتطيرون»**.

كيف ذلك؟

الجواب: أنه ربط بالطيرة الكى والرقية المنفية، يدل على الكى الظنى والرقية الظنية، كالطيرة تمامًا بتمام، فالطيرة أمر ظنى فكان أهل الجاهلية إذا أرادوا أمرًا قاموا للطير فإن ذهب يمنة تيمنوا واستبشروا وفعلوا ، وإن ذهب يسرة تشاءموا ورجعوا ، هذا كله أمر ظنى، فمن الممكن أن تطير جهة اليمين ويحصل لهم الشر والعكس، فكونها طارت جهة اليمين وحصل الخير أحيانًا فهذا أمر محتمل وظنى. وخلاصة القول:

لماذا فصل العلماء هذا التفصيل بالنسبة للرقى والكى إلى [قطعية الشفاء وظنية الشفاء]؟

قال الفقير: الجواب من وجوه:

(١) للجمع بين الأحاديث

(٢)لاختلاف الناس فى درجات الإيمان.

(٣) لكلمة «ولا يتطيرون»

والطيرة ظنية.

إذن هؤلاء السبعين ألف لم يتعلقوا بظنون أصلاً ولكن تعلقوا بقطعيات استمدوا قطعيتها من الشرع أو من الواقع الذى لا يخالف الشرع (الطب- التجربة).

فالقاسم المشترك بين الرقى والكى والطيرة المنفى عنهم أن الجميع ظنى الدلالة على المطلوب. فالجاهلية لا تتعلق إلا بظنون ولا تتعلق إلا بأمانى .

(٤) ولقوله أيضًا: «وعلى ربهم يتوكلون»

لصدق التجائهم إليه وصدق توكلهم عليه لم يأخذوا إلا بأسباب قطعية قوية لا تقدح فى كمال توكلهم لهذا لم يأخذوا بأقوال أو أسباب بدعية أو حتى ظنية «تضعف كمال توكلهم على الله عز وجل.

التوكل على الله أن نعتقد قول الله تعالى ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ والتوكل لا يكمل إلا بأخذ سبب قوى ويضعف إذا كان السبب ضعيفًا ويفنى ويتلاشى بالكلية إذا لم يكن ثمة سبب.

ولهذا أمرنا النبى ﷺ بالتداوى كأسباب للعلاج وهذا الحديث (السبعين ألف) لا ينفى التداوى ولكن يثبت التداوى بالقطعيات لمن آمن برب السموات. أصل التداوى حتى بالظنى مباح ولكنه مكروه إذا كان يقدح فى كمال التوكل.

● قوله: «ولا يتطيرون».

قال ابن حجر[(١)]: والمراد أنهم لايتشاءمون كما كانوا يفعلون فى الجاهلية. أهـ

قال ابن عثيمين[(٢)]:

قوله: «ولا يتطيرون».

مأخوذ من الطير، والمصدر منه تطيّر، والطيرة اسم المصدر، وأصله: التشاؤم بالطير، ولكنه أعمُّ من ذلك؛ فهو التشاؤم بمرئى، أو مسموع، أو زمان، أو مكان.

وكانت العرب معروفة بالتَّطيُّر، حتى لو أراد الإنسان منهم خيراً ثم رأى الطير سنحت يميناً أو شمالاً حسب ما كان معروفاً عندهم، تجده يتأخَّر عن هذا الذى أراده.

ومنهم من إذا سمع صوتاً أو رأى شخصاً تشاءم.

ومنهم من يتشاءم فى شهر شوال بالنسبة للنكاح، ولذا قالت عائشة رضى الله عنها: «عقد علىَّ رسول الله ﷺ فى شوال، وبنى بى فى شوال؛ فأيكنَّ كان أحظى عنده»[(٣)].

---

(١) الفتح ١١/ ٤١٧.

(٢) القول المفيد ١/ ١٢٦.

(٣) أخرجه مسلم فى النكاح (٥/ ٢٢٥ـ ٢٢٦ / ٧٣٧).

ومنهم من يتشاءم بيوم الأربعاء، أو بشهر صفر.

وهذا كله مما أبطله الشرع؛لضرره على الإنسان عقلاً وتفكيراً وسلوكاً، وكون الإنسان لايبالى بهذه الأمور، هذا هو التوكّل على الله، ولهذا ختم المسألة بقوله: **«وعلى ربهم يتوكلون»**.

قال الفقير: هناك تشاؤم شرعى (من الجائز أن يتشاءم المرء به) إذا كان التشاؤم قطعى السبب.

● الأدلة من القرآن:

الدليل الأول: قال تعالي: **﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ...﴾** فهذا قول الكفار للرسل، فقالت الرسل: **﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾**.

فأثبتوا أن هناك تطير، لكن ليس بالرسل، بل تطير بالكفر والكفار، يعني: **﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾** وماذا معهم؟ الكفر، فجاز التشاؤم بالكفر.

وهناك تشاؤم غير مشروع، بل هو ممنوع، وهو ماكان سببه ظني، وليس له أساس شرعي، فهو ظنى الدلالة، والثمرة أنه ليس عليه آثاره من علم، فهذا هو المحرم أو الشرك.

الدليل الثاني: قال تعالى: **﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾** فشؤمهم عند الله هو عذابهم، فلما كان كفرهم شؤم على الأرض، فكان جزاؤهم الشؤم يوم القيامة حيث أفسدوا فى الأرض.

● الأدلة من السنة:

قوله ﷺ: **«إن من شقاء المرء فى الدنيا سوء الدار والمرأة والدابة»** والحديث عند الطبرانى من حديث أسماء(1)، وأصله فى الصحيح من حديث ابن عمر قال: **«ذكروا** الشؤم عند النبى ﷺ، فقال النبى ﷺ **«إن كان الشؤم فى شيء ففى الدار والمرأة والفرس»**(2) وكذلك أثبت اليُمن فى نفس الثلاثة، فقال ﷺ: **«من سعادة ابن ادم ثلاثة: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح»**(3).

(1، 2، 3) [صحيح] البخارى مع اللفتح (9/ 40، 41/ 5094).

والحديث فى المسند وغيره وصححه ابن حبان من حديث سعد مرفوعًا.

فإذا كانت الزوجة صالحة فيسعد، وإن كانت غير ذلك فيا شؤمه وويله منها، فالمرأة نفسها وعاء للُيمن والشؤم، **وسيأتى فى التبرك المشروع وجود البركة فى بعض النساء،** كما قالت عائشة رضى الله عنها: «ما رأيت امرأة أكثر بركة على أهلها من جويرية» لأنها أُعتق بسبب زواجها من النبى ﷺ الكثير، فكان هذا من بركتها، وسبب البركة كان سبب شرعي، وخير لمسه أهلها، وكذلك الشؤم تكون نكد على زوجها وأهلها.

أما الدار فيكون شؤم بأن تكون بعيدة عن المسجد لا يسمع الآذان، أو يكون فى الطابق السادس فيكسل عن النزول للمسجد ويصلى فوق، أو ضيقة فلا يضيف الضيفان عنده، أو لا يعرف يستر عورته عن أولاده، وغير ذلك بما يحرمه من تحصيل خير كثير.

فالتشاؤم بالسيئات وأسبابها من التشاؤم المشروع، أما التشاؤم التى بأسباب ليس عليها علم شرعى فهذا ممنوع، فمثلاً شخص حدثت له مصيبة، فقال: هذا بشؤم ذنبى فهذا مشروع مشروع، وأما إذا كان خارج للسعى على رزقه، ولم يفتح عليه الله فقال: أنها أغلقت أبواب الرزق فى وجهى اليوم لأنى رأيت الإسعاف ، أو قطة سوداء، أو غير ذلك، فهذا ممنوع، ولكن يجوز أن يقول أنها لأنى كنت ألعب طاولة أو شاهدت التلفاز، أو لأنى سببت الدين فى الصباح، فهذا الاعتقاد شيء طيب.

مثال: أصحاب الجنة الذين هموا بذنب ولم يفعلوه، ولكن حرمهم الله الرزق حيث قال تعالى: **﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾** وهذا مصداق ما جاء فى الحديث : **«إن العبد ليحرم الرزق قد كان هيء له بالذنب يصيبه»** فلو رجع شؤم حرمان الرزق لذنب ارتكبه فهذا الشؤم المشروع وعن ابن مسعود «أن المؤمن يرى ذنبه كالجبل يخشى أن يقع عليه أما المنافق يرى ذنبه كالذبابة وقفت على أنفه فقال لها هكذا».

فلكون الرجل يرى ذنبه كالجبل، ويخاف أن يعاقبه الله وينتظر ذلك فى نفسه أو فى أولاده، أو يسلط عليه الظلمة، وغير ذلك فهذه ظاهرة صحة الإيمان

وفى الحديث: **«فإذا تشاءمت فلا ترجع»** فأى أمر تتشاءم منه إذا كان شؤم ظنى أما إذا كان قطعى مثلاً: تشاءمت بالمعصية، فهل يجوز التشاؤم بالمعصية أم لا؟ نعم يجوز **﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ قَالُوا...﴾**.

قالت الرسل: طائركم معكم ، أي: شؤمكم معكم، وهو شركهم ومعصيتهم، فلك

أن تتطير بالمعصية والمخالفة كيف ذلك؟توقن أن الله آخذك بهذا الذنب، فتستغفر وتخشى وفي الحديث «**علم عبدى أن له رب يأخذ بالذنب**» كيف علم ذلك؟ علم ذلك بذنبه فهل هذا الشوم قطعي؟ نعم لأنه منضبط بضابط شرعي، فيرجع عن فعله لعل الله أن يغفره له.

فالرسول يقول: «**فإذا تطيرت فلا ترجع**» فإذا تطيرت تطيرًا جاهليًا، مثل قطة سوداء، أو بوليس النجدة ، أو شخص بعينه، فهذا تشاؤم ظني، فإذا كنت متوكلاً على الله حق التوكل فلا ترجعك هذه الظنون عن أمور أنت مطالب بها فأنت مطالب بالخروج لطلب الرزق، أو بالخروج للدعوة أو لطلب العلم، وأنت ممتثل فلما ترجع، ترجع لأمر جاهلي، فيكون تحاكم لأمر جاهلي.

قال النبي ﷺ: «**فإذا تطيرت فلا ترجع، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق**» وهذا مرسل ، أو معضل، لكن له شاهد من حديث أبي هريرة عند البيهقي في الشعب، وأخرج أيضًا ابن عدى عن أبى هريرة بسند لين مرفوعًا «**إذا تطيرتم فامضوا وعلى الله فتوكلوا**» كما قال الله تعالى في وصف الرسل ﴿**وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا**﴾ فلم يتشاءموا بالكفرة ولم يرجعهم هذا الأذى أن يرجعوا لأنهم متوكلون ومهتدون ، يعتقدون أن ما يفعلونه أمورًا شرعية، وكيف يتنازلون عنها من أجل أمور شركية أو جاهلية وقد بين ابن القيم في «مدارج السالكين» أن أساس الأمور كلها هدايتك للحق ثم توكلك على الحق سبحانه وتعالى» فهذا رأس كل خير، فتوقن أن ما أنت عليه حق ومعك أدلتك، فإذا عرض لك عارض فانظر فيه هل لك أن تتشاءم به، فإن كان جاهلى فليس لك أن تتشاءم به، وليس لك أن ترجع عن هدى وليس لك إلا أن تتوكل على الله عز وجل ، وفي الحديث «**إذا تطيرتم فامضوا وعلى الله فتوكلوا**» وعن ابن مسعود مرفوعًا «**الطيرة شرك، وما منا إلا، ولكن يذهبه الله بالتوكل**» . فهى شرك، لأن فيها صرف عبادة لغير الله ، وفيها نوع تحكم وتحاكم لغير الله، وقد يكون أكبر أو أصغر على التفصيل.

وقد بين أيضًا الحافظ ابن حجر أن في الخبر جعل ذلك شركًا لاعتقادهم أن هذه الطيرة تجلب نفعًا أو تدفع ضرًا، فهذا الاعتقاد إن كانوا يعتقدون أن هذه الطيرة تنفع كنفع الله عز وجل، أو تدفع ضرًا كدفع الله، فهذا شرك أكبر، ولابد إما أن كانوا يعتقدون أن النافع على الحقيقة هو الله، وأن بيده النفع ودفع الضر، ولكن هذه قد تكون أسباب فهذا شرك أصغر لأنهم أخذوا بأسباب غير شرعية فوقعوا في شرك أصغر.

وسيأتى تفصيل وبيان لمسائل الطيرة، وما يتعلق بها فى الباب السابع والعشرين إن شاء الله تعالى .

● **قوله: «وعلى ربهم يتوكلون».**

قال الفقير: معنى التوكل:

قال الإمام أحمد : التوكل عمل القلب.

وقيل: هو علم القلب بكفاية الرب للعبد.

وقيل: انطراح القلب بين يدى الرب كانطراح الميت بين يدى الغاسل بقلبه كيف يشاء.

قال بشر الحافي: يقول أحدهم توكلت على الله يكذب على الله لو توكل على الله رضى بما يفعل الله.

وسئل يحيى بن معاذ: متى يكون الرجل متوكلاً فقال: إذا رضى بالله وكيلاً.

ومنهم من يفسره بالثقة بالله والطمأنينة إليه والسكون إليه .

روى أبو نعيم فى «الحلية» أن بشرًا سُئل عن التوكل فقال:

اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب، فقال له السائل فسره لنا فقال:

اضطراب بلا سكون: رجل تضطرب جوارحه وقلبه ساكن إلى الله لا إلى عمله، وسكون بلا اضطراب رجل ساكن إلى الله بلا حركة وهذا عزيز(١).

وقيل التوكل أن يستوى عندك الإكثار والإقلال.

● **حقيقة التوكل: قال ابن رجب:**

حقيقة التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل فى استجلاب المنافع ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، ووكلت الأمور كلها إليه وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطى ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه.

قال سعيد بن حبيب: التوكل جماع الإيمان، وقال وهب بن منبه: الغاية القصوى التوكل.

قال الحسن: أن توكل العبد على ربه أن يعلم أن الله هو ثقته ، وفى الحديث عن ابن عباس عن النبى ﷺ «من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله».

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الجزء (٢) ص ٧٧٥.

فائدة:

قال ابن رجب: المتوكل على الله حق التوكل لا يأتى بالتوكل ويجعله سببًا لحصول الكفاية له من الله بالرزق وغيره، فإنه لو فعل ذلك لكان كمن أتى بسائر الأسباب لاستجلاب الرزق والكفاية بها وهذا نوع نقص في تحقيق التوكل. وإنما التوكل حقيقة هو أن يعلم أن الله قد ضمن لعبده رزق وكفايته فيصدق الله فيما ضمنه ويثق بقلبه ويحقق الاعتماد عليه فيضمنه من الرزق من غير أن يخرج التوكل فخرج الأسباب فى استجلاب الرزق والرزق مقسوم لكل أحد بر وفاجر مؤمن وكافر ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**﴾ ﴿**وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ**﴾.

فما دام العبد حيًا فرزقه على الله، وقد ييسره الله له بكسب، وبغير كسب فمن توكل على الله لطلب الرزق فقد جعل التوكل سبب وكسبًا ومن توكل عليه لثقته بضمانه، فقد توكل عليه ثقة به وتصديقًا بوعده. اهـ.

ومعنى هذا الكلام السابق أنه لا يصلح توكل بدون مباشرة الأسباب ولا الركون للأسباب بدون توكل بل لابد من السعى والتوكل هذا معنى حديث «اعقلها وتوكل»(*).

قال ابن رجب : فى جامع العلوم والحكم:

واعلم أن تحقيق التوكل لا ينافى السعى فى الأسباب التى قدر الله سبحانه وتعالى المقدورات بها، وجرت سنته فى خلقه بذلك فإن الله أمر بتعاطى الأسباب مع أمره بالتوكل ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ فالسعى فى الأسباب بالجوارح طاعة له والتوكل بالقلب عليه إيمان به . قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ**﴾ ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ**﴾ ﴿**إِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ**﴾ .

قال سهل التستري: من طعن فى الحركة (السعى والكسب) فقد طعن فى السُّنة، ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان، فالتوكل حال النبى ﷺ، والكسب سنته، فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته .

(*) الترمذى من ح أنس وقال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ونقل عن يحيى بن القطان أنه منكر لكن معناه صحيح صحيح.

والأعمال التى عملها العبد ثلاثة أقسام:

الأول: الطاعات التى أمر الله بها وجعلها سببًا للنجاة من النار ودخلوها الجنة، فهذا لابد من فعله مع التوكل على الذين فيه والاستعانة به عليه، فإنه لا حول ولا قوة إلا به، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فمن قصر فى شيء فى واجب عليه استحق العقوبة فى الدنيا والآخرة.

الثاني: ما أجرى الله العادة به فى الدنيا وأمر عباده بتعاطيه كالأكل عند الجوع، والشرب عند العطش، والاستظلال من الحر، والتدفؤ من ا لبرد فهذا واجب على المرء تعاطى أسبابه ومن قصر فيه حتى تضرر بتركه مع القدرة على استعماله فهو مفرط يستحق العقوبة ، ولكن الله سبحانه قد يقوى بعض عباده ما لا يقوى عليه غيره كالوصال للنبى فى الصيام.

الثالث: ما أجرى الله به العادة فى الأعم الأغلب، وقد يخرق العادة فى ذلك لمن شاء من عباده فقوله ﷺ: «**لو توكلتم على الله حق توكله**» يبين أن الناس يؤتون من قلة تحقيق لتوكل، ووقوفهم مع الأسباب الظاهرة بقلوبهم ومساكنتهم لها، فلو حققوا التوكل على الله بقلوبهم لساق إليهم أرزاقهم مع أدنى سبب، كما يسوق إلى الطير أرزاقها بمجرد الغدو والرواح، وهو نوع من الطلب، والسعى لكنه طلب يسير، وربما حرم الإنسان رزقه بالذنب يصيبه كما تقدم فى الحديث: «**إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**»

درجات التوكل(1):

ذكر ابن القيم: **الدرجة الأولى:** معرفة بالرب وصفاته من قدرته وكفايته وقيومته وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته .

فكل من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف كان توكله أصح وأقوى.

الدرجة الثانية: إثبات فى الأسباب والمسببات. نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة فالتوكل من أعظم الأسباب التى يحصل بها المطلوب ويندفع بها المكروه فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل ، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها.

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب فى مقام توحيد التوكل:

(1) مدارج السالكين.

فإنه لايستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده بل حقيقة التوكل توحيد القلب. وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل.

والتوكل لايتم إلا برفض الأسباب عن القلب وتعلق الجوارح بها.

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله واستناده إليه وسكونه إليه المتوكل كالطفل الرضيع فى إعتماده وسكونه وطمانيته بثدى أمه لايعرف غيره وليس فى قلبه إلتفات إلى غيره.

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله عز وجل.

فعلى قدر حسن ظنك بربك رجائك له يكون توكلك عليه.

الدرجة السادسة: استسلام القلب له وانجذاب دواعية كلها إليه أن يكون العبد بين يدى الله كالميت بين يدى الغاسل.

الدرجة السابعة: التفويض هو روح التوكيل ولبه وحقيقته وهو القاء أموره كلها إلى الله وإنزالها به طلباً واختياراً لاكرهاً واضطراراً.

بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره كل أموره إلى أبيه.

الدرجة الثامنة: الرضا ثمرة التوكل:

فإذا توكل العبد حق التوكل رضى بما يفعله وليكن. (وكيله) يقول ابن القيم.

وكان شيخنا أى ابن تيمية يقول: المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله والرضى بعده فمن توكل على الله قبل الفعل ورضى بالمقضى له بعد الفعل فقد قام بالعبودية.

قلت: أى ابن القيم: وهذا معنى قوله ﷺ: «اللهم انى استخيرك بعلمك واستقدرتك بقدرتك واسألك من فضلك العظيم. فهذا توكل وتفويض.

قوله: «فإنك تعلم ولا أعلم وتقدر ولا أقدر وانت علام الغيوب».

فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة وتوسل إليه سبحانه بصفاته التى هى أحب ما توسل إليه بها المتوسلون.

ثم مسألة ربه أن يقضى له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته وان يصرفه عنه إن كان فيه مضرته.

فلم يبق عليه إلا الرضى بما تقضيه له فقال: **«واقدر لى الخير حيث كان ثم رضى به»**.

● **فائدة مناسبة ذكر هذه الصفة بعد الخصال المتقدم ذكرها:**

قال ابن حجر[(١)]:

قوله (وعلى ربهم يتوكلون) يحتمل أن تكون هذه الجملة مفسرة لما تقدم من ترك الإسترقاء والاكتواء والطيرة، ويحتمل أن تكون من العام بعد الخاص لأن صفة كل واحدة منها صفة خاصة من التوكل وهو أعم من ذلك.

وقال القرطبى وغيره: قالت طائفة من الصوفية لايستحق اسم التوكل إلا من لم يخالط قلبه خوف غير الله تعالى، حتى لو هجم عليه الأسد لاينزعج، وحتى لا يسعى فى طلب الرزق لكون الله ضمنه له. وأبى هذا الجمهور .

وقالوا: يحصل التوكل بأن يثق بوعد الله ويوقن بأن قضاءه واقع، ولا يترك اتباع السنة فى ابتغاء الرزق مما لابد له منه من مطعم ومشرب وتحرز من عدو بإعداد السلاح وإغلاق الباب ونحو ذلك، ومع ذلك فلا يطمئن إلى الأسباب بقلبه بل يعتقد أنها لاتجلب بذاتها نفعاً ولا تدفع ضراً، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى والكل بمشيئته، فإذا وقع من المرء ركون إلى السبب قدح فى توكله، وهم مع ذلك فيه على قسمين: واصل وسالك، فالأول صفة الواصل وهو الذى لا يلتفت إلى الأسباب ولو تعاطاها، وأما السالك فيقع له الالتفات إلى السبب أحياناً إلا أنه يدفع ذلك عن نفسه بالطرق العلمية والأذواق الحالية إلى أن يرتقى إلى مقام الواصل.

وقال أبو القاسم القشيرى: التوكل محله القلب، وأما الحركة الظاهرة فلا تنافيه إذا تحقق العبد أن الكل من قبل الله، فإن تيسر شيء فبتيسيره وإن تعسر فبتقديره.

ومن الأدلة على مشروعية الإكتساب حديث أبى هريرة رفعه «**أفضل ما أكل الرجل من كسبه، وكان داود يأكل من كسبه**» فقد قال تعالى: ﴿**وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَخُذُوا حِذْرَكُمْ**﴾. وأما قول القائل كيف تطلب مالا تعرف مكانه فجوابه أنه يفعل السبب المأمور به ويتوكل على الله فيما يخرج عن قدرته فيشق الأرض مثلاً ويلقى الحب ويتوكل على الله فى إنباته وإنزال الغيث له، ويحصل السلعة مثلاً وينقلها ويتوكل على الله فى إلقاء الرغبة فى قلب من يطلبها منه، بل ربما كان التكسب واجباً كقادر على الكسب يحتاج عياله للنفقة فمتى ترك ذلك كان عاصياً.

(١) الفتح ١١/٤١٧ - ٤١٩.

وسلك الكرمانى فى الصفات المذكورة مسلك التأويل فقال: **قوله «لايكتوون» معناه** إلا عند الضرورة مع اعتقاد أن الشفاء من الله لا من مجرد الكى، وقوله **«ويسترقون»** معناه بالرقى التى ليست فى القرآن والحديث الصحيح كرقى الجاهلية وما لايؤمن أن يكون فيه شرك، وقوله: **«ولا يتطيرون»** أى لا يتشاءمون بشىء فكأن المراد أنهم الذين يتركون أعمال الجاهلية فى عقائدهم.

● **إشكال وجوابه.**

قال ـ أى الكرمانى ـ: فإن قيل إن المتصف بهذا أكثر من العدد المذكور فما وجه الحصر فيه؟.

وأجاب باحتمال أن يكون المراد به التكثير لا خصوص العدد.

قلت يعنى ابن حجر: الظاهر أن العدد المذكور على ظاهره، فقد وقع فى حديث أبى هريرة وصفهم بأنهم **«تضىء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر»**(١) وفى بدء الخلق عند البخارى من طريق عبد الرحمن بن أبى عمرة عن أبى هريرة رفعه **«أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر، والذين على آثارهم كأحسن كوكب درى فى السماء إضاءة»**(٢).

وأخرجه مسلم من طرق عن أبى هريرة: منها رواية أبى يونس وهمام عن أبى هريرة **«على صورة القمر»**.

وله من حديث جابر **«فتنجو أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر سبعون ألفاً لايحاسبون»**(٣).

سؤال: هل هذه نذارة أم بشارة؟

الجواب: (قال الفقير): أنها نذارة، وليس بشارة، لأنه لو لم يكن إلا هذا العدد الذى يدخل الجنة بغير حساب، فنقطع بأننا جميعاً سنحاسب، ورذا كان هذه العدد فقط هو الذى يدخل الجنة بغير عذاب فنقطع جميعاً أننا سنعذب، لكن اقتضت حكمة الحكيم حيث أن شرعه أيضاً **﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾** أننا لانقطع بجنة أو نار ولا نقنط أحداً من رحمة الله، بل نسير كما كان سلفنا بين الخوف والرجاء. فنحن لانرجو لدرجة التفريط، ولا نقنط لدرجة الإفراط واليأس والقنوط من رحمة الله عز وجل، بل نكون بين الخوف والرجاء، وهذان هما الجناحان اللذان بهما ندخل الجنة إن شاء الله.

---

(١)، (٢) تقدم تخريجهما.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (٤٧٢/ ٣١٦).

وهذا الحديث ليس به رجاء بل به خوف. وفيه أننا نقطع الآن أننا داخلون جهنم جميعاً إن لم يكن من السبعين ألفاً، لكن بالاستقراء والجمع لطرق هذا الحديث ولغيره من الطرق كما فعل ابن حجر فى شرح الحديث، حيث قال: وقد وقع فى أحاديث أخرى أن مع السبعين ألفاً زيادة عليهم، ففى حديث أبى هريرة عند أحمد والبيهقى فى البعث من رواية سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال **«سألت ربى فوعدنى أن يدخل الجنة من أمتى»**(١).

فذكر الحديث نحو سياق حديث سعيد بن المسيب عن أبى هريرة ثانى أحاديث الباب وزاد **«فاستزدت ربى فزادنى مع كل ألف سبعين ألفاً»** وسنده جيد.

وفى الباب عن أبى أيوب عند الطبرانى(٢) وعن حذيفة عند أحمد(٣) وعن أنس عند البزار(٤) وعن ثوبان عند ابن أبى عاصم(٥) فهذه طرق يقوى بعضها بعضاً.

وجاء فى أحاديث أخرى أكثر من ذلك: فأخرج الترمذى وحسنه والطبرانى وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى أمامة رفعه **«وعدنى ربى أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفاً مع كل ألف سبعين ألفاً لاحساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حثيات من حثيات ربى»**(٦).

وفى صحيح ابن حبان أيضاً والطبرانى بسند جيد من حديث عتبة بن عبد نحوه بلفظ **«ثم يشفع كل ألف فى سبعين ألفاً، ثم يحثى ربى ثلاث حثيات بكفيه»** وفيه «فكبر عمر، فقال النبى ﷺ: **«إن السبعين ألفاً يشفعهم الله فى آبائهم وأمهاتهم وعشائرهم وإنى لأرجو أن يكون أدنى أمتى الحثيات»**(٧) وأخرجه الحافظ الضياء وقال: لا أعلم له علة.

قلت يعنى ابن حجر: علته الاختلاف فى سنده، فإن الطبرانى أخرجه من رواية أبى سلام حدثنى عامر بن زيد أنه سمع عتبة، ثم أخرجه من طريق أبى سلام أيضاً فقال: «حدثنى عبد الله بن عامر أن قيس بن الحارث حدثه أن أبا سعيد الأنمارى حدثه» فذكره وزاد «قال قيس فقلت لأبى سعيد: سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قال: وقال رسول الله ﷺ: **وذلك يستوعب مهاجرى أمتى ويوفى الله بقيتهم من أعرابنا»**.

---

(١) تقدم تخريجه. (٢ - ٦) تقدم تخريجهم.

(٧) أخرجه ابن حبان فى «صحيحه» (٩/ ١٨٤ - ١٨٩ - الإحسان) والطبرانى فى «الكبير» (/ ٣١٢ ١٧/ ١٢٦).

وذكره الهيثمى فى «المجمع» (١٠/ ٤٠٩) ونسبه للطبرانى فى «الأوسط» والكبير».

وفى رواية لابن أبى عاصم قال أبو سعيد **«فحسبنا عند رسول الله ﷺ فبلغ أربعة آلاف ألف وتسعمائة ألف»** يعنى من عدا الحثيات.

وقد وقع عند أحمد والطبرانى من حديث أبى أيوب نحو حديث عتبة بن عبد وزاد **«والخبيئة ـ بمعجمة ثم موحدة وهمزة وزن عظيمة - عند ربى»**(1).

وورد من وجه آخر ما يزيد على العدد الذى حسبه أبو سعيد الأنمارى، فعند أحمد وأبى يعلى من حديث أبى بكر الصديق نحوه بلفظ **«أعطانى مع كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً»**(2) وفى سنده راويان أحدهما ضعيف الحفظ والآخر لم يسم. وأخرج البيهقى فى «البعث» من حديث عمرو بن حزم مثله وفيه راو ضعيف أيضاً، واختلف فى سنده وفى سياق متنه. وعند البزار من حديث أنس بسند ضعيف نحوه(3)، وعند الكلاباذى فى «معانى الأخبار» بسند واه من حديث عائشة «فقدت رسول الله ﷺ ذات يوم فاتبعته فإذا هو فى مشربة يصلى، فرأيت على رأسه ثلاثة أنوار، فلما قضى صلاته قال: **«رأيت الأنوار»**؟ قلت: نعم. قال: **إن آتيا أتانى من ربى فبشرنى أن الله يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفاً بغير حساب ولا عذاب، ثم أتانى فبشرنى أن الله يدخل من أمتى مكان كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفاً بغير حساب ولا عذاب، ثم أتانى فبشرنى أن الله يدخل من أمتى مكان كل واحد من السبعين ألفاً المضاعفة سبعين ألفاً بغير حساب ولا عذاب، فقلت يارب لا يبلغ هذا أمتى قال أكملهم لك من الأعراب ممن لايصوم ولايصلى»**.

قال الكلاباذى: المراد بالأمة أولا أمة الإجابة، وبقوله آخراً أمتى أمة الإتباع، فإن أمته ﷺ على ثلاثة أقسام:

أحدها: أخص من الآخر أمة الأتباع.

ثم أمة. الإجابة ثم أمة الدعوة.

فالأولى أهل العمل الصالح والثانية مطلق المسلمين والثالثة من عداهم ممن بعث إليهم، ويمكن الجمع بأن القدر الزائد على الذى قبله هو مقدار الحثيات، فقد وقع عند أحمد من رواية قتادة عن النضر بن أنس أوغيره عن أنس رفعه **«إن الله وعدنى أن يدخل الجنة من أمتى أربعمائة ألف»**، فقال أبو بكر: زدنا يارسول الله، فقال: هكذا وجمع

(1 - 3) تقدم تخريجهم.

كفيه، فقال: زدنا. فقال وهكذا. فقال عمر حسبك أن الله إن شاء أدخل خلقه الجنة بكف واحدة، فقال النبي ﷺ: «صدق عمر»(١) وسنده جيد لكن اختلف على قتادة في سنده اختلافاً كثيراً. ا. هـ.

سؤال: لماذا لم يذكر الرسول الله ﷺ هذه الزيادة ابتداءً وذكر هذه البشارة بعد هذا التدريج وهذه المرحلية؟

الجواب:

قال الفقير: السبعون ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ولكن يحتمل أن يكون بينهم وبين الزمرة الأولى حوالى خمسمائة سنة، فهم لايعذبوا ووجبت لهم الجنة ورأوا مقاعدهم فيها، ونجو من النار، ولكنهم لن يدخلوا في الأول، فأول زمرة كما ثبت في الصحيح في كتاب الرقاق: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر: سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب» وهم السابقون، كأبي بكر وعمر، ومن كان على شاكلتهم، ولكن هناك أناس سيدخلون الجنة حساب أيضاً، والنبي ﷺ بشرهم، ولكن عملهم لايساوي عمل أبي بكر وعمر، فهل هم سيدخلون الجنة مع أول زمرة؟!.

الجواب: لا. مثال: الرجل الذي أسلم فدعى إلى الجهاد فقال: ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن آكل هذه الثمرات فرمى التمرات، وحارب وقاتل وقتل، ودخل الجنة. فالنبي ﷺ ذكر أنه دخل الجنة، ولم يعمل خيراً قط، فبالله عليك، هذا هو النبي ﷺ بشره بالجنة، وإن قلنا لن يدخل النار ولا عذاب عليه ولا حساب، فهل هذا الرجل سيكون في الزمرة الأولى مثل أبي بكر وعمر. صحيح أن هذا فضل الله يؤتيه من يشاء، والله يضاعف حتى يصير كأبي بكر وعمر؟! هذا لايتصور. والشاهد على هذا من الحديث أن النبي ﷺ: «إني لأرجو أن يكون أدنى أمتي الحثيات» إذن فهناك درجة دنيا من الذين سيدخلون الجنة بغير حساب إذن أهل الإيمان تتفاوت درجاتهم «السابقون» «الأبرار»... وغيرهم، فهل هؤلاء كلهم يدخلون الجنة في أن واحد؟

الجواب: لا، ليس من الممكن أن ينعم هذا مثل ذلك أبداً، ولكن في النهاية كلهم سيدخلون الجنة، ولكن بحسب الدرجات، وإلا لم يكن النبي ﷺ يقول: «فقراء أمتي سيدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عاماً».

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٦٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥٩٠) وصححه الألباني - رحمه الله - في «ظلال الجنة».

فقد يقول قائل ولكنهم كلهم سيدخلون الجنة وليس هناك شيء فى أن ينتظر خمسمائة سنة؟ سبحانه الله!! هذا الانتظار فى حد ذاته عذاب.

ولكن هذا من كمال فضله وكمال عدله - عز وجل - تأخير هؤلاء وتقديم هؤلاء، فهذا من عدله تبارك وتعالى، ولهذا لم يذكر النبى ﷺ هذا التفضيل ابتداءً، بل ذكره بهذا التدرج لهذا التفاوت فى العمل ودرجات الآخرة. والله أعلم.

قال سليمان آل الشيخ(١):

قوله: (وعلى ربهم يتوكلون) ذكر الأصل الجامع الذى تفرعت عنه هذه الأفعال وهو التوكل على الله، وصدق الالتجاء إليه، والاعتماد بالقلب عليه، الذى هو خلاصة التفريد، ونهاية تحقيق التوحيد الذى يثمر كل مقام شريف من المحبة والخوف والرجاء، والرضى به رباً وإلهاً، والرضى بقضائه. بل ربما أوصل العبد إلى التلذذ بالبلاء، وعده من النعماء فسبحانه من يتفضل على من يشاء بما يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لايباشرون الأسباب أصلاً كما يظنه الجهلة، فإن مباشرة الأسباب فى الجملة أمر فطرى ضرورى لا انفكاك لأحد عنه حتى الحيوان البهيم، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى: **﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾** أى كافيه إنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها توكلاً على الله، كالاسترقاء، والاكتواء فتركهم له ليس لكونه سبباً لكن لكونه سبباً مكروهاً، لاسيما المريض يتشبث بما يظنه سبباً لشفائه بخيط العنكبوت. أما نفس مباشرة الأسباب، والتداوى على وجه لا كراهية فيه، فغير قادح فى التوكل؛ فلا يكون تركه مشروعاً.

كما فى «الصحيحين»: عن أبى هريرة مرفوعاً: «مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إلا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً»(٢).

وعن أسامة بن شريك قال: كنت عند النبى ﷺ وجاءت الأعْرَابُ، فَقَالوا: يَارسُولَ اللهِ! أَنَتَدَاوَى؟ فَقَالَ: **«نَعَمْ يَا عِبَادَ اللهِ تَدَاووا، فإِن اللهَ عزَّ وجلَّ لم يَضَعْ دَاءً إلا وَضَعَ لَهُ**

---

(١) تيسير العزيز الحميد: ٨٠ و ٨١.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٦٧٨).

وانظر «الطب النبوى» للذهبى (٣٨٨) وفتح المجيد (ح١١٧) بتحقيقنا.

شفاءً، غَيْرَ دَاء وَاحِد» قالوا: مَـا هُوَ؟ قال: **«الهَـرَمَ»** رواه أحمد(1) قال ابن القـيم: فقد تضمـنت هذه الأحاديـث إثبات الأسباب والمسببات، وإبطـال قول من أنكـرها والأمر بالتـداوي؛ وأنه لا ينافى الـتوكل كما لا يـنافيه دفـع داء الجوع والعطش والحـر والبرد بأضدادها، بـل لاتتم حقيقـة التوحيد إلا بمبـاشرة الأسباب التى نـصبها الله مقتـضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً، وان تعطيلها يقدح بمباشرته فى نفس التوكل، كما يقدح فى الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن معطلـها أن تركها أقوى من التوكل، فإنَّ تركها عجز ينافى التـوكل الذى حقيقته اعـتماد القلب على الله فـى حصول ما ينفع العـبد فى دينه ودنياه، ودفع مـا يضره فى دينه ودنياه. ولا بـد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلاً للأمر والحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً ولا توكله عجزاً. وقد اختلف الـعلماء فى التداوي؛ هل هـو مباح وتركه أفضل، أو مسـتحب أو واجب؟ فالمشـهور عن أحمـد الأول لهذا الحديـث وما فى معـناه، ولكن عـلى ما تقـدم لا يتم الاستدلال به علـى ذلك؛ والمشهور عند الشـافعى الثاني، حتى ذكـر النووى فى «شرح مسلم» أنه مذهبهم ومذهب جمهور السلف وعامة الخلف. واختاره الوزير أبو المظفر قال: ومذهب أبى حنـيفة أنه مؤكد حتى يدانـى به الوجوب قال: ومذهب مالـك أنه يستوى فعلـه وتركه فإنـه قال: لا بأس بالتـداوى ولا بأس بتركـه. وقال شيخ الإسـلام: ليس بواجب عند جماهير الأئمة إنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعى وأحمد». أهـ

قال ابن عثيمين: فانتفاء هذه الأمور عنهم يدل على قوة توكُّلهم.

وهل هذه الأشياء تدل على أنَّ من لم يتَّصف بها فهو مذموم، أو فاته الكمال؟

الجواب: أنَّ الكمـال فاته إلا بالنسـبة للتّطيُّـر؛ فإنَّه لا يجوز؛ لأنَّه ضـرر وليس له حقيقة أصلاً.

أما بالنسبة لطلب العلاج؛ فالظاهر أنه مثله لأنَّه عام، وقد يقال: إنَّه لولا قوله: **«ولا يسترقون»**؛ قلـت: إنَّه لا يدخـل؛ لأنَّ الاكتـواء ضرر محـقق: إحراق بـالنـار، وألم للإنسان، ونفعه مرتجى، لكن كلمة **«يسترقون»** مشكلة؛ فالرقية ليس فيها ضرر، إن لم تنفع لم تـضر، وهنا نقول: الدواء مثلـها؛ لأنَّ الدواء إذا لم ينفع لم يـضر، وقد يضر أيضاً؛ لأنَّ الإنسان إذا تناول دواء وليس فيه مرض لهذا الدواء فقد يضره.

---

(1) [صحيح] أخرجه أحـمد فى «مسـنده» (٤/ ٢٧٨)، وأبو داود (٣٨٥٥)، والنسـائى فى «الـكبرى» (٧٥٥٣).

وانظر «الطب النبوى» للذهبى (٣٩٠) وفتح المجيد (ح١١٨) بتحقيقنا.

وهذه المسألة تحتاج إلى بحث، وهل نقول مثلاً، ما تُؤكِّد منفعته إذا لم يكن فى الإنسان إذلال لنفسه؛ فهو لا يضر، أي: لا يفوت المرء الكمال به، مثل الكسر وقطع العضو مثلاً، أو كما يفعل الناس الآن فى الزائدة وغيرها.

ولو قال قائل بالاقتصار على ما فى هذا الحديث، وهو أنَّهم لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون، وأنَّ ما عدا ذلك لايمنع من دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب؛ للنصوص الواردة بالأمر بالتداوى والثناء على بعض الأدوية؛ كالعسل[1] والحبة السوداء[2]؛ لكان له وجه[3].

● **شبهات تشتبه بالتوكل:**

قال الفقير: فعلى هذا قوله «**وعلى ربهم يتوكلون**» جامع لهذه الخصال، «**لايكتوون ولا يسترقون ولايتطيرون**» فالجامع لها «**وعلى ربهم يتوكلون**»، والتوكل على الله يُتوقف على أن تفهم هذه الآية، قال تعالى: ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ وبينا شيئاً من صور التوكل من كلام ابن القيم، وهناك فى صور التوكل المرضى، وصور التوكل الذى اشتبه على الناس أنها توكل، منها: أنه يثق بالسبب، ولاستمرار السبب يكون ثقته بالسبب، وهو يعتقد أنه متوكل على الله، وذكر أن بعض السلف كان قد جاور زمزم فترة كبيرة حتى جاء له رجل، وقال له: رذا غارت زمزم فماذا ستفعل؟ فقال له: جزاك الله خيراً لقد كنت أعبد زمزم هذه الفترة.

فجلوسة جانب زمزم ليس ثقة فى الله، وإنما لأنه ماء زمزم، فهو واثق أنها لن تجف أو تغور، فثقته كانت فى استمرار السبب، لكن لو كان السبب هو، وظن أنه سينقطع فسيظهر لنا، أكان متوكلاً أم متواكلاً؟

مثال: الموظف كل يوم يقول: أنه متوكل على الله، ولكن هو نائم ومطمئن أنه آخر الشهر سوف يقبض الراتب، فالثقة والرضا فى السبب، وعدم انقطاعه، لكن لو كان هذا الرجل أرزقى، يخرج يتوكل على الله فى عمله، فهنا سوف يظهر، هل هو نائم مطمئن راضياً على الرزق، أم ساخط على الله سبحانه وتعالى؟

---

(١) تقدم تخريجه عن جابر، وابن عباس.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٦٨٨)، ومسلم فى السلام (١٤/ ٢٠١ - النووى) عن أبى هريرة. وانظر «الطب النبوى» للذهبى (١٦٩- بتخريجنا).

(٣) تقدم من كلام الشيخ سليمان.

ذكر ابن القيم فى «مدارج السالكين»: صورة، وستأتى فى باب ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ومن هذه الصور: العلم بحقيقة التوكل، فقد يظن أحدنا أنه نظراً لأنه علم حقيقة التوكل، فيظن أنه بذلك متوكل، مثلنا عندما عرفنا حقيقة التوحيد، وكيفية تحقيقه، فهل نحن بالعلم فقط حققنا التوحيد؟ لا، لأن العلم شيء، والتطبيق شيء آخر، فإياك أن تظن لأنك تعرف معنى التوكل أنك متوكل، لأن هذا العلم يستلزم عمل، فمن علم مثلاً أن الفاتحة - إذا كان يرى - أنها شرط فى صحة الصلاة، ولم يأت بها، فهل تصح صلاته؟ لاتصح، فالعلم ليس له قيمة بدون العمل.

كذلك ذكرنا علامة التوكل الحقيقي، وعلامة التوكل الزائف.

فعلامة التوكل هو أن تأخذ بالأسباب مع عدم ثقتك بها، وإنما بمسبب الأسباب الذى وضع الحكم فى هذه الأسباب، فغرق بين التفويض والأخذ بالأسباب. فالتفويض: هو عدم الثقة فى السبب، تفويض الحول والقوة لله، وفيه خلط الناس فناس قالوا: لكى نفوض لن نأخذ بالأسباب، وهذا هو المتواكل، الذى قال فيه الإمام أحمد - رحمه الله: «رجل جهل العلم» وذلك عندما قيل له عن رجل قال: اجلس فى بيتى وسيأتينى رزقي».

وقد قال الرسول ﷺ: «**وجعل رزقى تحت ظل رمحي**» فليس هناك وظيفة أصعب من ذلك حيث كان متعرضًا للموت فى كل لحظة.

وذكر فى الطير التى هى كاملة التوكل قال ﷺ« تغدو خماصًا وتروح بطانًا» فذكر أنها تغدو، وتروح، وليس فى منازلها تجلس، ويأتى الرزق، فالتفويض أن تأخذ بالسبب ولا تثق فيه، وإذا فرطت ولم تأخذ بالسبب فأنت متواكل، فى حين أنه لو كان يجوز ترك السبب لأحد لجاز لنبينا ﷺ الذى كان يأخذ بالأسباب، وترك قوت سنة لأهله، وكان يحارب مخالفًا بين درعين فكان له درع، فلو جاز ترك السبب لأحد لجاز تركه لنبينا ﷺ ، ولما أخذ به ﷺ كان ذلك كمال التفويض لله وثمرة ذلك، الرضا عن الله بعد حصول النتائج، والدليل على ذلك حديث دعاء الاستخارة، وفيه التفويض لله بالعلم والقدرة والحكمة، وفيه «**واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به**» فأيًا كانت النتائج أرضنى بها يا رب.

وأيضًا إذا استرقى أو اكتوى شخص ما، وكانت قطعية الشفاء ثم لم يشف فماذا ستكون النتيجة ؟ هل سيرضى أم سيسخط؟ إذا كان محسن سيرضى، كما فى حديث

أبى سعيد «أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال: أخى يشتكى بطنه ، فقال: **اسقه عسلاً**، ثم أتاه الثانية فقال: **اسقه عسلاً**، ثم أتاه الثالثة فقال: **اسقه عسلاً**، ثم أتاه فقال: فعلت، فقال: صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلاً فسقاه فبرأ»(١).

فعندما نفعل السبب، وثقتنا فى الله ولم يتم الأمر فصدق الله وكذبت أعضاءنا ، وإنما إذا ما مرض شخص، وجاء له أخ، وقال: لا تأخذ هذا الدواء لأنه ظنى الشفاء وليس قطعى فتوكل على الله واتركه، فتركه وزاد الألم عليه، فيقول: سامحك الله لو كنت أخذ الدواء ، ولو . . . ، ولو. . . ، وهنا دخل لو، ودخل عمل الشيطان، وهو الجزع وعدم الرضا، وذلك لأنه فى الأصل لم يتوكل على الله حق توكله وكان صورة عدم توكله أنه لم يجتهد، وأخذ بالسبب الضعيف، وقال: أخذت بالسبب وفوضت أمرى لله، فهذا اشتباه ثالث، وصورة ثالثة من صور التواكل التى تعرض للمتوكلين الذين يظنون أنهم متوكلون.

مثال: الطالب الذى يفتح الكتاب نصف ساعة للمذاكرة، والأولى أن يذاكر عشر ساعات، ويقول: لقد أخذتُ بالسبب، فهذا سبب الكسالى، ويقول: لماذا لم أنجح؟ فهذا غير متوكل، ولكن التوكل كما فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز..**» الحديث(٢) .

فالمؤمن النشيط فى الأخذ بالسبب القوى أحب لله من الضعيف الكسلان الذى يأخذ بالأسباب الضعيفة.

مثال: لو أن رجلاً يعمل (نقاشًا)(٣)، فخرج متوكلاً على الله ، وذهب للعمل، ثم وجد أن الكهرباء انقطعت من محل العمل، فقال (بركة يا جامع)(٤) ورجع.

أو أرسل مساعده فى العمل إلى المحل، لشراء أدوات العمل كالغراء أو غيرها، فوجد المحل مغلق ، فقال: نعمل غدًا، فهذا غير متوكل، وفى الحقيقة إنما هو يريد أن ينام، والتوكل إنما هو أن يبحث هنا وهناك، ومجتهد حتى يأخذ بأقوى الأسباب ومثال آخر: شخص سائق سيارة، خرج للعمل وذهب يشغل السيارة فلم تتحرك، فرجع، فهذا تواكل.

---

(١) [صحيح] البخارى مع الفتح (١٠/١٤٦/ ح ٥٦٨٤).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم (٨/٤٦٦/ح ٢٦٦٤)، وانظر كتابى «قفوا الأثر فى شرح بلوغ المرام من كلام ابن حجر».

(٣ - ٤) وضعنا هذه الألفاظ للتسهيل.

فهذه الأمور يشتبه على الناس، ولكن المتوكل الذى يطلب العون من الله، ولم يعجز، ويحاول بكل السبل حتى إذا فاته شيء من الخير لا يقول: لو أنى فعلت كذا وكذا، فمثلاً: السائق الذى رجع ونام، لو اتصل به رجل ثري، وقال له: إننى كنت منتظرك توصلني، ففى هذه الحالة سيندم، ويقول: لو فعلت كذا وكذا فى السيارة وذهبت، كنت سأكسب كذا وكذا من المال ، وربما يصاب بالجزع والضيق، وهو بذلك لم يكن متوكلاً، فالمتوكل لا ينظر للنتائج، فهو راض بكل شيء ، وهؤلاء المتوكلون حققوا التوحيد على أكمل وجهه، حيث تجده راضيًا، لا تجد عليه غم ولا هم، ولا بؤس، ولذلك كان ابن تيمية ـ برغم أنه كان أكثر الناس فى زمانه بلاءًا - حكى ابن القيم أنه كان لا يُرى إلا مبتسمًا، ويقول: كان إذا ضاقت بنا الدنيا ذهبنا ننظر فى وجهه ، فيذهب ما أصابنا فى صدورنا.

● **قوله: «فقام عكاشة بن محصن»**.

قال ابن حجر(١): بضم المهملة وتشديد الكاف ويجوز تخفيفها يقال عكش الشعر ويعكش إذا التوى حكاه القرطبى، وحكى السهيلى أنه من عكش القوم إذا حمل عليهم وقيل العكاشة بالتخفيف العنكبوت، ويقال أيضاً لبيت النمل. ومحصن بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الصاد المهملتين ثم نون آخره هو ابن حرثان بضم المهملة وسكون الراء بعدها مثلثة من بنى أسد بن خزيمة ومن حلفاء بنى أمية. كان عكاشة من السابقين إلى الإسلام وكان من أجل الرجال وكنيته أبو محصن وهاجر وشهد بدراً وقاتل فيها، قال ابن إسحق بلغنى أن النبى ﷺ قال: **«خير فارس فى العرب عكاشة»** وقال أيضاً: قاتل يوم بدر قتالاً شديداً حتى انقطع سيفه فى يده فأعطاه رسول الله ﷺ جزلاً من حطب فقال **«قاتل بهذا»** فقاتل به فصار فى يده سيفاً طويلاً شديد المتن أبيض فقاتل به حتى فتح الله فكان ذلك السيف عنده حتى استشهد فى قتال الردة مع خالد ابن الوليد سنة اثنتى عشرة)(٢) أهـ.

● **قوله: «فقال ادع الله أن يجعلنى منهم»**.

قال ابن حجر(٣): وعند البيهقى من طريق محمد بن زياد عنه ـ وساق مسلم سنده ـ قال «فدعا» ووقع فى رواية حصين بن نمير ومحمد بن فضيل «قال: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال له: **«نعم»** ويجمع بأنه سأل الدعاء أولاً فدعا له ثم استفهم قيل أجبت.

(١) الفتح ١١/٤١٩.
(٢) ذكره ابن الأثير فى «أسد الغابة» (٤/٦٨).
(٣) الفتح ١١/٤١٩.

● **قوله: «فقال أنت منهم».**

قال ابن عثيمين(١): وقوله الرسول الله ﷺ هذا هل هو بوحى من الله إقراري، أووحى إلهاميّ، أو وحى رسول؟

مثل هذه الأمور يحتمل أنها وحى إلهامي، أو بواسطة الرسول، أو وحى إقرارى بمعنى أن الرسول يقولها، فإذا أقرّه الله عليه؛ صارت وحياً إقرارياً.

لكن رواية البخاري: «**اللهم اجعله منهم**» تدل على أن الجملة: «**أنت منهم**» خبر بمعنى الدعاء. أهـ

قوله: «ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم».

قال ابن حجر(٢): **قوله: «ثم قام إليه رجل آخر».**

(وقع فيه من الاختلاف هل قال «ادع لى» أو قال «أمنهم أنا» كما وقع فى الذى قبله. ووقع فى حديث أبى هريرة الذى بعده «رجل من الأنصار» وجاء من طريق واهية أنه سعد بن عبادة أخرجه الخطيب فى المبهمات» من طريق أبى حذيفة إسحق بن بشر البخارى أحد الضعفاء من طريقين له عن مجاهد أن رسول الله ﷺ لما انصرف من غزاة بنى المصطلق، فساق قصة طويلة وفيها أن النبى ﷺ قال: «**أهل الجنة عشرون ومائة صف؛ ثمانون صفاً منها أمتى وأربعون صفاً سائر الأمم، ولى مع هؤلاءسبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب» «قيل من هم»** فذكر الحديث، وفيه «**فقال: اللهم اجعل عكاشة منهم**، قال فاستشهد بعد ذلك. ثم قام سعد بن عبادة الأنصارى فقال يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم» الحديث، وهذا مع ضعفه وإرساله يستبعد من جهة جلالة سعد بن عبادة، فإن كان محفوظاً فلعله آخر باسم سيد الخزرج واسم أبيه ونسبته، فإن فى الصحابة كذلك آخر له فى مسند بقىّ بن مخلد حديث، وفى الصحابة سعد بن عمارة الأنصارى فلعل اسم أبيه تحرف). أهـ.

● **قوله: «سبقك بها عكاشة».**

قال ابن حجر(٣): اتفق جمهور الرواة على ذلك إلا ما وقع عند ابن أبى شيبة والبزار وأبى يعلى من حديث أبى سعيد فزاد: فقام رجل آخر فقال ادع الله أن يجعلنى منهم وقال فى آخره: «**سبقك بها عكاشة وصاحبه، أما لو قلتم لقلت ولو قلت**

(١) القول المفيد ١/١٢٩ - ١٣٠

(٢) الفتح ١١/ ٤٢٠.

(٣) فتح البارى ١١/ ٤٢٠ و ٤٢١.

لوجبت»[1] وفى سنده عطية وهو ضعيف.

● **الحكمة فى قوله ﷺ: «سبقك بها عكاشة».**

وقد اختلفت أجوبة العلماء فى الحكمة فى قوله: «**سبقك عكاشة**» فأخرج ابن الجوزى فى «كشف المشكل» من طريق أبى عمر الزاهد أنه سأل أبا العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب عن ذلك فقال: كان منافقاً، وكذا نقله الدارقطنى عن القاضى أبى العباس البرتى بكسر الموحدة وسكون الراء بعدها مثناة فقال: كان الثانى منافقاً، وكان ﷺ لايسأل فى شيء إلا أعطاه، فأجابه بذلك. ونقل ابن عبدالبر عن بعض أهل العلم نحو قول ثعلب، وقال ابن ناصر قول ثعلب أولى من رواية مجاهد لأن سندها واه واستبعد السهيلى قول ثعلب بما وقع فى مسند البزار من وجه آخر عن أبى هريرة «فقام رجل من خيار المهاجرين» وسنده ضعيف جداً مع كونه مخالفاً لرواية الصحيح أنه من الأنصار.

وقال ابن بطال: معنى قوله: «**سبقك**» أى إلى إحراز هذه الصفات وهى التوكل وعدم التطير وما ذكر معه، وعدل عن قوله: «**لست منهم أو لست على أخلاقهم**» تلطفاً بأصحابه ﷺ وحسن أدبه معهم.

وقال ابن الجوزى: «يظهر لى أن الأول سأل عن صدق قلب فأجيب، وأما الثانى فيحتمل أن يكون أريد به حسم المادة، فلو قال للثانى نعم لأوشك أن يقوم ثالث ورابع إلى مالا نهاية وليس كل الناس يصلح لذلك.

وقال القرطبي: لم يكن عند الثانى من تلك الأحوال ما كان عند عكاشة، فلذلك لم يجب إذ لو أجابه لجاز أن يطلب ذلك كل من كان حاضراً فيتسلسل، فسد الباب بقوله ذلك، وهذا أولى من قول من قال كان منافقاً لوجهين:

أحدهما: أن الأصل فى الصحابة عدم النفاق فلا يثبت ما يخالف ذلك إلا بنقل صحيح.

والثانى: أنه قل أن يصدر مثل هذا السؤال إلا عن قصد صحيح ويقين بتصديق الرسول، وكيف يصدر ذلك من منافق؟ وإلى هذا جنح ابن تيمية. وصحح النووى أن النبى ﷺ علم بالوحى أنه يجاب فى عكاشة ولم يقع ذلك فى حق الآخر.

---

(١) ذكره الهيثمى فى «المجتمع» (٤٠٧/١٠) ونسبه للبزار وقال: وفيه عطيه وهو ضعيف وقد وثقه ومحمود بن بكر لم أعرفه.

فيهِ مسائِلُ

الأولى: مَعْرِفَةُ مَرَاتِبَ النَّاسِ فِى التَّوْحِيدَ.

وقال السهيلى: الذى عندى فى هذا أنها كانت ساعة إجابة علمها ﷺ واتفق أن الرجل قال بعد ما انقضت، ويبينه ما وقع فى حديث أبى سعيد «ثم جلسوا ساعة يتحدثون» وفى رواية ابن إسحق بعد قوله سبقك بها عكاشة «وبردت الدعوة» أى انقضى وقتها.

قلت ـ أى ابن حجر: فتحصل لنا من كلام هؤلاء الأئمة على خمسة أجوبة والعلم عند الله تعالى. ثم وجدت لقول ثعلب ومن وافقه مستنداً وهو ما أخرجه الطبرانى ومحمد بن سنجر فى مسنده وعمر بن شبة فى «أخبار المدينة» من طريق نافع مولى حمنة عن أم قيس بنت محصن وهى أخت عكاشة أنها «خرجت مع النبى ﷺ إلى البقيع فقال: **يحشر من هذه المقبرة سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب كأن وجوهم القمر ليلة البدر**، فقام رجل فقال: يارسول الله، وأنا؟ قال وأنت. فقام آخر فقال أنا؟ قال: **سبقك بها عكاشة** قال قلت لها: لم لم يقل للآخر؟ فقالت: أراه كان منافقاً»(١) فإن كان هذا أصل ما جزم به من قال كان منافقاً فلا يدفع تأويل غيره إذ ليس فيه إلا الظن. أهـ

قال ابن عثيمين(٢):

قوله: «فيه مسائل».

أى: فى هذا الباب مسائل: قلت : أى فوائد.

● **المسألة الأولى: معرفة مراتب الناس فى التوحيد.**

وهذه مأخوذة من قوله: **«يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب» ثم قال: «هم الذين لايسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيّرون»**.اهـ

[قلت]: فائدة من الباب كله أن الناس منهم من حقق التوحيد فيدخل الجنة بغير حساب، ومنهم من لم يحققه كاملاً فيدخل الجنة بعد الحساب.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) القول المفيد ١/ ١٣١ - ١٣٨.

الثانية: مَا مَعْنَى تَحْقِيقه.

الثالثة: ثَنَاؤُهُ سُبْحَانَهُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ بِكَوْنِهِ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

الرابعة: ثَنَاؤُهُ عَلَى سَادَاتِ الأَوْلِيَاءِ بِسَلَامَتِهِم مِنَ الشِّرْكِ.

● **الثانية: ما معنى تحقيقه؟**

أى: تحقيق التوحيد، وسبق لنا فى أول الباب أنَّ تحقيقه: تخليصه من الشرك.

[قلت]: معنى تحقيقه: أن يأتى بالإيمان بشروطه مع انتفاء موانعه الشروط التى ذكره العلماء السبعة أو أكثر العلم ، اليقين ، الصدق، المحبة ، الانقياد ، الإخلاص ، القبول.

فالعلماء عندما وضعوا هذه الشروط قالوا العلم المنافى للجهل، واليقين المنافى للشك ، والصدق المنافى للجهل ، والانقياد المنافى للإعراض ، والقبول المنافى للرد والإخلاص المنافى للشرك.

فلماذا لم يقولوا المحبة المنافية للكره؟ وذلك لأن الله عز وجل لا يكره حتى الكافر لا يكره .

فلذلك قالوا المحبة المنافية لضدها كما قال الشاعر:

تعصى الإله وأنت تزعم حبه

وفيه: أن المحب لمن أحب مطيع .

فإذا أطاع الله أتى بما يضاد هذه المحبة.

فهذه هى الشروط النافعة عند الله تعالى.

● **الثالثة: ثناؤه - سبحانه - على إبراهيم بكونه لم يك من المشركين.**

وهو ظاهر فى الآية الكريمة: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾(1)؛ فإنَّ هذه الآية لاشك أنها سيقت للثناء على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإذا كان مناط الثناء انتفاء الشرك عنه؛ دل ذلك على أنَّ كل من انتفى عنه الشرك فهو محل ثناء من الله ـ سبحانه وتعالى قلت: ومن لم ينتف عنه الشرك فهو محل ذم من الله تعالى.

● **الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك.**

---

(٢) النحل: ١٢٠.

الخامسة: كَوْنُ تَرْكِ الرُّقْيَةِ وَالكَيِّ مِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ.

السادسة: كَوْنُ الجَامِعِ لِتِلْكَ الخِصَالِ هُوَ التَّوَكُّلَ.

السابعة: عُمْقُ عِلْمِ الصَّحَابَةِ بِمَعْرِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَنَالُو ذَلِكَ إِلاَّ بِعَمَلٍ.

لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾، وهذه الآية فى سياق آيات كثيرة ابتدأها الله بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾[1]؛ فهؤلاء هم سادات الأولياء، وكلام المؤلف من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، أى: الأولياء السادات، وليس يريد - رحمه الله - السادات من الأولياء، بل يريد الأولياء الذين هم سادات الخلق.

● **الخامسة: كون ترك الرقية والكى من تحقيق التوحيد.**

لقوله: «**الذين لايسترقون ولا يكتوون**»؛ فالمراد بقول المؤلف: «**الرقية والكى**»: الاسترقاء والاكتواء. اهـ

[قلت]: قوله: (كون ترك الرقية والكى من تحقيق التوحيد).

الدليل (لا يسترقون ولا يكتون) لكن الرقية التى تقدح فى كمال التوحيد على النحو الذى بيناه وهى الرقية والكى الظنية أو الضعيفة أو التى لم تتعين سبيلاً للشفاء- أما إذا تعينت وكانت سببًا قويًا فى الشفاء وأخذ بها المتوكل على الله ذلك علامة على قوة توكله.

● **السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل.**

الجامع لتلك الخصال، والخصال هى: ترك الاسترقاء، وترك الاكتواء، وترك التطيُّر، يعنى أن العامل لهذه الأشياء هو قوة التوكل على الله - عز وجل -.

● **السابعة: عمق علم الصحابة لمعرفة أنَّهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل.**

أى: لم ينل هؤلاء السبعون ألفاً هذا الثواب إلا بعمل، ووجهه أنَّ الصحابة خاضوا فيمن يكون له هذا الثواب العظيم وذكروا أشياء اهـ.

---

(١)

الثامنة: حِرْصُهُمْ عَلَى الخَيْرِ.

التاسعة: فَضِيلَةُ هَذِهِ الأمَّةِ بالكميَّةِ والكَيْفيَّةِ.

العاشرة: فَضِيلَةُ أَصْحَابِ مُوسَى.

الحادية عشرة: عَرْضُ الأمَمِ عَلَيْهِ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-.

قلت: وهذه الاشياء القاسم المشترك بينها أنها عمل وعمل غير عادى مثل الشهادة أو السبق إلى الإسلام أو فى الإسلام، أو الصُحبة، . . .

وهذا يدل على أنهم فهموا أنهم لن ينالوا ذلك إلا بعمل.

● **الثامنة: حرصهم على الخير.**

وجهه خوضهم فى هذا الشىء؛ لأنَّهم يريدون أن يصلوا إلى نتيجة حتى يقوموا بها. اهـ.

قلت: وأيضاً سؤالهم النبى أن يدعوا لهم بهذه الدرجة.

● **التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكميَّة والكيفيَّة.**

أما الكمية؛ فلأن النبى ﷺ رأى سواداً عظيماً أعظم من السواد الذى كان مع موسى، وأما الكيفيَّة؛ فلأن معهم هؤلاء الذين لايسترقون ولايكتوون ولا يتطيَّرون وعلى ربهم يتوكّلون. اهـ

● **العاشرة: فضيلة أصحاب موسى.**

وهو مأخوذ من قوله: «**إذ رفع لى سواد عظيم**»، ولكن قد يقال: إنَّ التعبير بقول: كثرة أتباع موسى أنسب لدلالة الحديث؛ لأنَّ الحديث يقول: «**سواد عظيم فظننت أنَّهم أمتى**»، وهذا يدل على الكثرة. اهـ

قلت: أى فضيلة أصحاب موسى فى الكم دون الكيف.

● **الحادية عشرة: عرض الأمم عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.**

وهذا له فائدتان.

الفائدة الأولى: تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، حيث رأى من الأنبياء من ليس معه إلا الرجل والرجلان، ومن الأنبياء من ليس معه أحد؛ فيتسلى بذلك عليه الصلاة والسلام، ويقول: ﴿ **مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ** ﴾.

الثانية عشرة: أَنَّ كُلَّ أُمَّة تُحْشَرُ وَحْدَهَا مع نَبِيِّهَا.

الثالثة عشرة: قِلَّةُ مَنِ اسْتَجَابَ للأَنْبِيَاءِ.

الرابعة عشرة: أَنَّ مَنْ لَمْ يُجِبْهُ أَحدٌ يَأتِي وَحْدَهُ.

الخامسة عشرة: ثَمَرَةُ هَذَا العِلْم، وَهُوَ عَدَمُ الاغْتِرَارِ بِالكَثْرةِ،

الفائدة الثانية: بيان فضيلته عليه الصلاة والسلام وشرفه، حيث كان أكثرهم أتباعاً وأفضلهم؛ فصار فى عرض الأمم عليه هاتان الفائدتان. اهـ.

قلت : بل فى ذات العرض تشريفًا له أيضا.

● **الثانية عشرة: أنَّ كل أمة تحشر وحدها مع نبيها.**

لقوله: «**رأيت النبى ومعه الرجل والرجلان**»، ولولا أنَّ كل نبى متميز عن النبى الآخر؛ لاختلط بعضهم ببعض، ولم يعرف الأتباع من غير الأتباع، ويدل على ذلك قوله سبحانه تعالى: ﴿**وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا**﴾(١)؛ فإنه يدل على أنَّ كل أمة تكون وحدها.

قلت: والأولى الاستدلال بقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**﴾. اهـ

● **الثالثة عشرة: قلة من استجاب للأنبياء.**

وهو واضح من قوله: «**والنبى ومعه الرجل والرجلان، والنبى وليس معه أحد**».

● **الرابعة عشرة: أنَّ من لم يجبه أحد يأتى وحده.**

لقوله: «**والنبى وليس معه أحد**».

● **الخامسة عشرة: ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة.. إلخ.**

فإنَّ الكثرة قد تكون ضلالاً، قال الله تعالى: ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾(٢). اهـ

---

(١) الجاثية :٢٨

(٢) المؤمنون: ٥٧ - ٦١.

السادسة عشرة: الرُّخْصَةُ فِي الرُّقْيَةِ مِنَ العَيْنِ والحُمَة.

السابعة عشرة: عُمْقُ عِلْمِ السَّلَف؛ لِقَوْلِه: «قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلى مَا سَمِعَ، وَلَكِنْ كَذَا»؛ فَعُلِمَ أَنَّ الحَدِيثَ الأوَّلَ لا يُخَالِفُ الثَّانِي.

قلت: ولقوله تعالى ﴿**وماأكثر الناس وحرصت بمؤمنين**﴾ وقوله﴿**وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن جدنا أكثرهم لفاسقين**﴾.

ثم ابن عثيمين: وأيضاً الكثرة من جهة أخرى إذا اغترَّ الإنسان بكثرته وظنَّ أنه لن يغلب أو أنه منصور؛ فهذا أيضاً سبب للخذلان اهـ.

قلت: لقوله تعالى: ﴿**ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغنى عنكم من الله شيئاً**﴾ ثم قال: فالكثرة إن نظرنا إلى أن أكثر أهل الأرض ضلاّل لا تغتر بهم، فلا تقل: إنَّ الناس على هذا، كيف أنفرد عنهم؟

كذلك أيضاً لا تغترّ بالكثرة إذا كان معك أتباع كثيرون على الحق؛ فكلام المؤلف له وجهان.

الوجه الأول: أن لانغترّ بكثرة الهالكين فنهلك معهم.

الوجه الثاني: أن لانغتر بكثرة الناجين فيلحقنا الإعجاب بالنفس وعدم الزهد فى القلة، أى أن لا نزهد بالقلة؛ فقد تكون القلة خيراً من الكثرة.

- **السادسة عشرة: الرخصة فى الرقية من العين والحُمة.**

مأخوذة من قوله: «**لا رقية إلا من عين أو حُمة**». اهـ

قلت: وكأن المصنف يرى أن الأصل عدم الرقية لأن الرقص هى إباحة فعل حرام أوترك واجب لسبب اقتضى ذلك(١).

- **السابعة عشرة**: عمق علم السلف؛ لقوله: «**قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا وكذا**»؛ فعلم أنَّ الحديث الأول لا يخالف الثانى.

لأنَّ قوله: لارقية إلا من عين أو حُمة لا يخالف الثانى؛ لأنَّ الثانى إنَّما هو فى الاسترقاء، والأول فى الرقية؛ فالإنسان إذا أتاه من يرقيه ولم يمنعه؛ فإنه لا ينافى قوله: «**ولا يسترقون**»؛ **لأن هناك ثلاث مراتب**:

---

(١) انظر حاشيتى على شرح الورقات ص ٥٧ ط نزار الباز.

الثامنة عشرة: بُعْدُ السَّلَفَ عَنْ مَدْحِ الإِنْسَانِ بِما لَيْسَ فِيه.

التاسعة عشرة: قَوْلُهُ (أَنْتَ مِنهُم) عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّة.

العشرون: فَضِيْلَةُ عُكَّاشَةَ.

المرتبة الأولى: أن يطلب من يرقيه، وهذا قد فاته الكمال.

المرتبة الثانية: أن لا يمنع من يرقيه، وهذا لم يفته الكمال؛ لأنَّه لم يسترق ولم يطلب.

المرتبة الثالثة: أن يمنع من يرقيه، وهذا خلاف السنة؛ فإن النبى ﷺ لم يمنع عائشة أن ترقيه(١)، وكذلك الصحابة لم يمنعوا أحداً أن يرقيهم؛ لأنَّ هذا لا يُؤثر فى التوكّل. اهـ

قلت: لأنهم لم يختلفوا فدل ذلك على عمق علمهم لأن الخلاف أصله جهل أوهوى(٢).

● **الثامنة عشرة: بُعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه.**

يؤخذ من قوله: «**أما إنى لم أكن فى صلاة ولكنى لدغت**»؛ لأنه إذا كان رأى الكوكب الذى انقض استلزم أن يكون يقظاناً، واليقظان: إما أن يُصلى، وإمّا أن يكون له شغل آخر، وإما يكون لديه مانع من النوم.

● **التاسعة عشرة: قوله: «أنت منهم» علم من أعلام النبوة.**

يعنى: دليلاً على نبوة الرسول ﷺ، وكيف ذلك؟ لأنَّ عُكَّاشة بن محصن رضى الله عنه بقى محروساً من الكفر حتى مات على الإسلام، فيكون فى هذا علم، يعنى: دليلاً من دلائل نبوة الرسول ﷺ، هذا إذا قلنا: إنَّ الجملة خبرية وليست جملة دعائية، فإن قلنا: إنها جملة دعائية؛ فقد نقول أيضاً: فيه علم من أعلام النبوة، وهو أن الله استجاب دعوة الرسول ﷺ، لكن استجابة الدعوة ليست من خصائص الأنبياء؛ فقد تجاب دعوة من ليس بنبى، وحينئذٍ لا يمكن أن تكون علماً من أعلام النبوة إلا حيث جعلنا الجملة خبرية محضة.

● **العشرون: فضيلة عُكَّاشة.**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) مؤدى قول شيخ الإسلام وانظر «النكت المتممة لمقدمة ابن تيمية» للمؤلف.

بكونه ممن يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وهل نشهد له بذلك؟ نعم؛ لأنَّ الرسول ﷺ شهد له بها.

● **الحادية والعشرون: استعمال المعاريض.**

وفى المعاريض مندوحة عن الكذب، وذلك لقول الرسول ﷺ: **«سبقك بها عُكاشة»**؛ فإن هذا فى الحقيقة ليس هو المانع الحقيقى، بل المانع ما أشرنا إليه فى الشرح: إما أن يكون هذا الرجل منافقاً فلم يُرد النبى ﷺ أن يجعله مع الذين يدخلون الجنَّة بغير حساب ولا عذاب، وإمّا خوفاً من انفتاح الباب؛ فيسأل هذه المرتبة من ليس من أهلها.

● **الثانية والعشرون: حسن خلقه ﷺ.**

وذلك لأنه ردَّ هذا الرجل وسدَّ الباب على وجه ليس فيه غضاضة على أحد ولا كراهة.

● ● ●

باب ٣
الخوف من الشرك

- مناسبة هذا الباب للبابين قبله: -

قال ابن عثيمين[1]: مناسبة هذا الباب للبابين قبله.

فى الباب الأول ذكر المؤلف رحمه الله تحقيق التوحيد، وفى الباب الثانى ذكر أن من حقق التوحيد دخل الجنه بغير حساب ولا عذاب، وثلّث بهذا الباب رحمه الله تعالى، لأن الإنسان يرى أنه قد حقق التوحيد وهو لم يحققه، ولهذا قال بعض السلف: «ماجاهدت نفسى على شىء مجاهدتها على الإخلاص».

قلت: وهو نظير قول سفيان الثورى: «ما عالجت شيئاً أشد علىَّ من نيتى» ثم قال ابن عثيمين: ذلك أن النفس متعلقة بالدنيا تريد حظوظها من مال أوجاة أو رئاسه وقد تريد بعمل الآخرة الدنيا، وهذا نقص فى الإخلاص، وقل من يكون غرضه الآخرة فى كل عمله، ولهذا أعقب المؤلف رحمه الله ما سبق من البابين بهذا الباب، وهو الخوف من الشرك. اهـ.

قال الفقير: لماذا أتى المصنف بهذا الباب بعد الأبواب السابقة؟

الجواب: لعدة فوائد منها

الفائدة الأولى: بعد أن بين التوحيد ورغب فيه رهب من ضده والدليل **﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾** فقبل النذارة لابد من البشارة، وقبل الترهيب لابد من الترغيب؛ وذلك لقول الله تعالى؛ ولفعل الرسول، وكذلك كان هذا منهج الأمة سواء من الأمم السابقة أو من هذه الأمة حيث لم يتقدموا بعبادة لربهم إلا رغبة فيما عند الله من ثواب ورهبة من العقاب. . يقول الله تعالى فى وصف من قام بهذا المنهج من الموحدين **﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾**.

الفائدة الثانية: ولأنه بالضد تيبين الضد، فلا يُعرف الخير إلا بالشر ولا يعرف الإسلام إلا بالجاهلية كما قال عمر. «لاينقض الإسلام عروة عروة إلا من نشأ فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية». كيف ذلك؟

أى: إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الشرك والجاهلية. لذلك كان النبى ﷺ يحمد

(١) القول المفيد ١/ ١٣٩ و ١٤٠.

ذلك فى بعض أصحابه بل يقره على ذلك أن يتعرف على الشر أو الجاهلية كما ثبت فى الصحيحين من حديث حذيفة «كان الناس يسألون الرسول ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى وفى رواية «كى ما أعرفه فأتقيه» فحينما تتعلم الشرك أو تدرسه إنما لأمرين :ـ

كى تعرفه فتتقيه، أو حتى لا تقع فيه بجهل.

الفائدة الثالثة: هو أن تنكر لأنك لو لم تعرف الشرك والجاهلية ربما ترض به ولا تنكره فأقل ما يقال عنك أنك ناقص الإيمان لأن النبى ﷺ قال **«وليس وراء ذلك حبة خردل من إيمان»**. فلكى تنكر بالقلب ـ وهو أقل درجات الإنكار ـ فلابد أن تعرف الشرك فتنكره أو تعرف فضائل التوحيد. والله أعلم.

- مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ[1]:

لما كان الشرك أعظم ذنب عصى الله به، ولهذا رتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه من إباحة دماء أهله وأموالهم وسبى نسائهم وأولادهم، وعدم مغفرته من بين الذنوب إلا بالتوبة منه نبه المصنف بهذه الترجمة على أنه ينبغى للمؤمن أن يخاف منه ويحذره ويعرف أسبابه ومبادئه وأنواعه لئلا يقع فيه، ولهذا قال حذيفة: كان الناس يسالون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه[2]؛ رواه البخارى وذلك أن من لم يعرف إلا الخير قد يأتيه الشر ولا يعرف أنه شر فاما أن يقع فيه، وإما أن لا ينكره كما ينكره الذى عرفه، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية.

قال شيخ الإسلام: وهو كما قال عمر فإن كمال الإسلام هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتمام ذلك بالجهاد فى سبيل الله، ومن نشأ فى المعروف فلم يعرف غيره فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عنده من علمه، ولا يكون عنده من الجهاد لأهله ما عند الخبير بهم؛ ولهذا يوجد الخبير بالشر وأسبابه إذا كان حسن القصد عنده من الاحتراز عنه والجهاد لهم ما ليس عند غيره. ولهذا كان الصحابة أعظم إيماناً وجهاداً

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٨٢ و ٨٣.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٧٠٨٤).

ممن بعدهم لكمال معرفتهم بالخير والشر، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر لما علموه من حسن حال الإيمان والعمل الصالح، وقبح حال الكفر والمعاصي. اهـ.

قال حامد بن محمد بن حسن[١]: باب في بيان ما يدل على أن الخوف من الشرك من لوازم المسلم.

وذلك لما كان الشرك أظلم الظلم كما قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ** ﴾[٢].

وأنه أعظم الظلم قال تعالى عن لقمان في وصيته لابنه: ﴿**يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾. وفي الحديث وقد رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث الحارث الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وأنه كاد أن يبطيء بها فقال له عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم، فقال يحيى أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب، فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ له المسجد وقعدوا على الشرف، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم بهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن مثل من أشرك به كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق فقال: هذه داري وهذا عملي فاعمل وأدّلي فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك الحديث**[٣].

فأي ظلم أعظم من أن يخلقك ربك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً في أحسن صورة ورزقك من كل نعمة ودفع عنك كل نقمة فتشكر غيره وتعبد غيره كما في الحديث القدسي: «**أنا والثقلين في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري، خيري إليهم نازل، وشرهم إلي صاعد**»[٤] الحديث.

فالشرك أقبح المنكرات وأعظم الذنب كما في البخاري، قال رجل: يارسول الله أي الذنب أعظم؟ وفي آخر: أكبر بدل أعظم، قال: «**أن تدعو لله نداً وهو خلقك**». قال ثم

---

(١) فتح الله الحميد المجيد ١٦٤ و ١٦٥.

(٢) الأحقاف: ٦،٥.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٣٠، ٢٠٢) الترمذي (٢٨٦٣ و ٢٨٦٤).

(٤) تقدم تخريجه.

أي؟ قال: **«أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»**. ثم قال: أي؟ قال: **«أن تزني»** وفى رواية: **«أن تزانى بحليلة جارك»**[٢] فأنزل الله تصديقها **﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ ﴾**[٣].

وأنه أكبر الكبائر. فى البخارى ثنا عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أكبر الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، وشهادة الزور ثلاثاً أو قول الزور»**[٤]. فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. وأنه أبغض المعاصى إليه تعالى وأكرهها عنده وأشد عقوبة ومقتاً.

قال ناصر السعدى[٥]: فإذا كان الشرك ينافى التوحيد ويوجب دخول النار والخلود فيها وحرمان الجنة إذا كان أكبر ولا تتحقق السعادة إلا بالسلامة منه كان حقاً على العبد ان يخاف منه أعظم خوف وأن يسعى فى الفرار منه ومن طرقه ووسائله وأسبابه ويسأل الله العافية منه كما فعل ذلك الأنبياء والأصفياء وخيار الخلق. وعلى العبد أن يجتهد فى تنمية الإخلاص فى قلبه وتقويته وذلك بكمال التعلق بالله تألهاً وإنابة وخوفاً ورجاءًا وطمعاً وقصداً لمرضاته وثوابه فى كل ما يفعله العبد وما يتركه من الأمور الظاهرة والباطنة فإن الإخلاص بطبيعته يدفع الشرك الاكبر والأصغر وكل من وقع منه نوع من الشرك فلضعف إخلاصه.

وقال نحوه الشيخ: عبد الله بن جار الله[٦].

●●●

- **شرح الترجمة:**

قال ناصر السعدى: وهو ـ يعنى الشرك ـ نوعان: شرك أكبر جليّ، وشرك أصغر خفيّ.

---

(١) النساء: ٤٨.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) الفرقان: ٦٨ - ٧٠.

(٤) تقدم تخريجه أيضاً.

(٥) القول السديد ٢٥.

(٦) الجامع الفريد (٢٥).

وَقَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[1].

●

فأما الشرك الأكبر: فهو أن يجعل لله نداً يدعوه كما يدعو الله أو يخافه أو برجوه أو يحبه كحب الله، أو يصرف له نوعاً من انواع العبادة فهذا الشرك لايبقى مع صاحبه من التوحيد شيء وهذا المشرك الذى حرم الله عليه الجنة ومأواه النار.

ولا فرق فى هذا بين أن يسمى تلك العبادة التي صرفها لغير الله عبادة أو يسميها توسلاً أو يسميها بغير ذلك من الأسماء فكل ذلك شرك أكبر لأن العبرة بحقائق الاشياء ومعانيها دون ألفاظها وعباراتها. وأما الشرك الأصغر: فهو جميع الأقوال والأفعال التى يتوسل بها إلى الشرك كالغلو فى المخلوق الذى لايبلغ رتبة العبادة فالحلف بغير الله ويسير الرياء ونحو ذلك»[1] اهـ.

قال ابن باز: أى باب وجوب الخوف من الشرك فيجب على المؤمن أن يخاف من الشرك والمعاصى ويبتعد عنها وخاصه الشرك ولا يأمن من ذلك على نفسه.

والشرك هو تشريك غير الله فى العبادة أياً كانت ولذلك سمى شركاً، والعبادة حق الله وحدة[2]. اهـ.

●●●

قوله [وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية]

● مناسبة الآية للباب:

قال عبد الله بن جار الله[3]: مناسبة الآية للباب. أنها جاءت مخوفة ومحذرة من الشرك، وأبانت أن الله لايغفر هذا النوع من المعاصى. اهـ

قال القرعاوى[4] **مناسبة الآية للباب.**

حيث دلت الآيه الكريمه على أن الله لا يغفر الشرك لصاحبه، فأوجب ذلك الخوف منه والحذر اهـ.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.

---

(١) القول السديد ٢٤ و٢٥.

(٢) التعليق المفيد ٥٧.

(٣) الجامع الفريد ٢٦.

(٤) الجديد ٥٥.

قال صاحب الإعراب[1]:كلام مستأنف مسوق لبيان ما تستحيل المغفرة بدونه اهـ.

قال ابن عثيمين[2]: لانافيه: أن يشرك به: فعل مضارع مقرون بأن المصدرية فيُحول الى مصدر تقديره إن الله لا يغفر الإشراك به، أو لا يغفر إشراكًا به فالشرك لايغفره الله أبداً، لأنه جناية على حق الله الخاص وهو التوحيد ا.هـ.

ثم قال صاحب الإعراب: وإن واسمها، وجملة لايغفر خبرها وأن وما في حيزها مصدر مؤول في محل نصب مفعول به ليغفر وبه متعلقان بيشرك.

﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ الواو عاطفة ويغفر معطوف على المنفى فهو مثبت، والأحسن أن تكون استئنافية ويغفر مستأنف مرفوع دفعاً للالتباس، وما اسم موصول مفعول به ودون ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول وذلك مضاف إليه والاشارة للاشراك المفهوم من يشرك ولمن متعلقان بيغفر وجملة يشاء لا محل لها لأنها صلة الموصول. اهـ.

● تفسير القرآن بالقرآن:

قال الشنقيطي[3]: ذكر في هذه الآية الكريمة أنه تعالى لايغفر الإشراك به وأنه يغفر غير ذلك لمن يشاء وأن من أشرك به فقد افترى إثماً عظيماً.

وذكر في مواضع أخر: أن محل كونه لايغفر الإشراك به إذا لم يتب المشرك من ذلك، فإن تاب غفر له كقوله: ﴿**إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا**﴾[4] الآيه فإن الاستثناء راجع لقوله: ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ**﴾[5] وما عطف عليه: لأن معنى الكل جمع في قوله: ﴿**وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا**﴾[6] الآيه. وقوله: ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ**﴾[7] وذكر في موضع آخر: أن من أشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً عن الحق، وهو قوله في هذه السورة الكريمة أيضاً: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ**

(١) اعراب القرآن ٢/ ٢٣٣.

(٢) القول المفيد: (١/ ١٤٠).

(٣) أضواء البيان ١/ ٢٥٩ و ٢٦٠.

(٤) الفرقان: ٧٠.

(٥) الفرقان: ٦٨.

(٦) الفرقان: ٦٨

(٧) الأنفال: ٣٨.

أن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾[1] وصرح بأن من أشرك بالله فالجنة عليه حرام ومأواه النار بقوله: **﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾**[2] وقوله: **﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾**[3].

وذكر في موضع آخر: أن المشرك لا يرجى له خلاص، وهو قوله: **﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾**[4]. وصرح في موضع آخر: بأن الإشراك ظلم عظيم بقوله عن لقمان مقرراً له: **﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾**[5].

وذكر في موضع آخر: أن الأمن التام والاهتداء، إنما هما لمن لم يلبس إيمانه بشرك، وهو قوله: **﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾**[6] وقد صح عنه ﷺ أن معنى بظلم بشرك أ.هـ.

● ما جاء في سبب النزول:

وعن ابن عمر قال: «لما نزلت **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ. . . ﴾** الآية. فقام رجل فقال: والشرك يا نبي الله؟ فكره ذلك النبي ﷺ فقال: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾** الآية[7].

عن أبي مجلز قال: «لما نزلت هذه الآية **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾**[8] الآيه». قام النبي ﷺ على المنبر فتلاها على الناس، فقام اليه رجل قال: والشرك بالله؟ فسكت

(١) النساء: ١١٦

(٢) المائدة: ٧٢.

(٣) الأعراف: ٥٠.

(٤) الحج: ٣١.

(٥) لقمان: ١٣.

(٦) الأنعام: ٨٢.

(٧) ذكره السيوطي في «الدر» (٢/٥٥٨) ونسبه لابن جرير، وابن أبي حاتم.
وانظر «فتح القدير» (٣٤٨٢ ـ بتخريجنا).

(٨) الزمر/ ٥٣.

مرتين أو ثلاثاً، فنزلت هذه الآية ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ فأثبتت هذه فى الزمر وأثبتت هذه فى النساء[١].

● **سبب النزول:** -

●● **قال البغوى[٢]: قال الكلبى**: نزلت فى وحشى بن حرب وأصحابه، وذلك أنه لما قتل حمزة، كان قد جعل له على قتله أن يعتق، فلم يوف له بذلك، فلما قدم مكة ندم على صنيعه هو وأصحابه، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ إنا قد ندمنا على الذى صنعنا، وإنه ليس يمنعنا عن الإسلام إلا أنا سمعناك تقول وأنت بمكة ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ**﴾ الآيات، وقد دعونا مع الله إلهاً آخر وقتلنا النفس الذى حرم الله، وزنينا، فلولا هذه الآيات لاتبعناك، فنزلت: ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾ الآيتين، فبعث بهما رسول الله ﷺ إليهم، فلما قرأوا كتبوا إليه إن هذا شرط شديد، نخاف أن ألا نعمل صالحاً، فنزلت: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ** ﴾ قوله تعالى: ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ فبعث بها إليهم، فبعثوا إليه: إنا نخاف أن لا نكون من أهل المشيئة، فنزلت، ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ**﴾، فبعث بها إليهم، فدخلوا فى الإسلام، ورجعوا إلى النبى ﷺ، فتقبل منهم. وذكر تمام الأثر[٣]. اهـ.

وقال فى الموضع الثانى: عن الضحاك عن ابن عباس: نزلت فى شيخ من الأعراب[٤]. فذكر قصته اهـ.

وكذلك ذكر ابن الجوزى[٥]: أن فى سبب نزولها هذين القولين.

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه لابن المنذر وانظر «فتح القدير» (٣٤٨٣ ـ بتخريجنا).

(٢) معالم التنزيل (٢/ ٨٥) (٢/ ١٥٧، ١٥٨).

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٦٢٠) وسبه للطبرانى وابن مردويه، والبيهقى فى «شعب الإيمان» بسند لين.

(٤) ذكره الحافظ فى تخريج الكشاف (٣٠٤) وقال هو منقطع ولم ينسبه لأحد.

(٥) زاد المسير (٢/ ١٢١).

وقال الرازى[1] بعد أن ذكر قصة وحشى وأصحابه فى سبب النزول: -

وطعن القاضى فى هذه الرواية وقال إن من يريد الإيمان لا يجوز منه المراجعة على هذا الحد؛ ولأن قوله: ﴿**إن الله يغفر الذنوب جميعاً**﴾ لو كان على إطلاقه لكان ذلك إغراء لهم بالثبات على ما هم عليه.

والجواب عنه: لا يبعد أن يقال: إنهم استعظموا قتل حمزة وإيذاء الرسول إلى ذلك الحد، فوقعت الشبهة فى قلوبهم أن ذلك هل يغفر لهم أم لا، فلهذا المعنى حصلت المراجعة. وقوله هذا إغراء بالقبيح، فهو إنه إنما يتم على مذهبه، أما على قولنا: إنه تعالى فعال لما يريد، فالسؤال ساقط والله أعلم. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من السنة: أولاً: بالمرفوع:

● وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ **«ما من عبد يموت لايشرك بالله شيئاً إلا حلت له المغفرة، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه، إن الله استثنى فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾**[2].

● عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: **«من وعده الله على عمل ثواباً فهو منجزه له، ومن وعده على عمل عقابا فهو بالخيار»**[3].

● عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: **«ذنب لايغفر، وذنب لا يترك، وذنب يغفر. فاما الذى لايغفر فالشرك بالله، وأما الذى يغفر فذنب بينه وبين الله عز وجل، وأما الذى لايترك فظلم العباد بعضهم بعضاً»**[4].

● عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: **«الدواوين عند الله ثلاثة. ديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وديوان لايترك الله منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله. فاما الديوان الذى لا يغفره الله فالشرك، قال الله ﴿مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ وقال الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾، وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه، من**

(١) التفسير الكبير (٥/ ٥/ ١٢٨).

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابى يعلى وابن أبى حاتم فانظر الأخير بتخريجنا.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى يعلى.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه للطبرانى.

صوم يوم تركه، أو صلاة تركها، فإن الله يغفر ذلك ويتجاوز عنه إن شاء، وأما الديوان الذى لايترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضا، القصاص لا محالة»(١).

● وعن أبى ذر: قال أتيت رسول الله ﷺ فقال: «ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة». قلت: وإن زنى وإن سرق؟! قال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق؟! قال: وإن زنى وإن سرق ثلاثا، ثم قال فى الرابعة: على رغم أنف أبى ذر»(٢).

● وعن أبى ذر عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقول: ياعبدى ما عبدتنى ورجوتنى فإنى غافر لك على ما كان فيك، ويا عبدى لو لقيتنى بقراب الأرض خطايا ما لم تشرك بى شيئاً لقيتك بقرابها مغفرة»(٣).

وعن أبى ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات لا يعدل بالله شيئاً ثم كانت عليه من الذنوب مثل الرمال غفر له»(٤).

● وعن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة»(٥).

● وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: من علم أنى ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالي، ما لم يشرك بى شيئاً»(٦).

● وعن سلمة بن نعيم قال: قال رسول الله ﷺ «من لقى الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق».

● وعن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له دخل الجنة. قلت: وإن زنى وإن سرق؟! قال: وإن زنى وإن سرق: قلت: وإن زنى

---

(١) أخرجه أحمد ف« مسنده» (٦/ ٢٤٠)، وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٦٦٤٣)، والحاكم فى المستدرك» (٤/ ٥٧٥)، والبيهقى فى «الشعب» (٧٤٧٣).

وانظر «تفسيره ابن أبى حاتم بتخريجنا.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٤٨٧) بنحوه، ومسلم فى الإيمان (١/ ٣٧١/ ١٥٤) وتقدم تخريجه.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٣٠٣) ونسبه لأحمد، وابن مردويه

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الوضع السابق ونسبه لابن مردويه.

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٧٩) بإسناد ضعيف فيه عطية العوض.

(٦) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (١١/ ٢٤١/ ١١٦١٥)، والحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٢٦٢) وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٣٠٣) وزاد نسبته للبيهقى فى «الأسماء والصفات».

وإن سرق؟! قال: **وإن زنى وإن سرق**. قلت: وإن زنى وإن سرق؟! قال: **وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبى الدرداء**. قال: فخرجت لأنادى بها فى الناس، فلقينى عمر فقال: ارجع فان الناس إن علموا بهذه اتكلوا عليها. فرجعت، فأخبرته ﷺ فقال: صدق عمر»(١).

وعن **أبى أيوب الأنصارى** قال: «جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: «إن لى ابن أخ لا ينتهى عن الحرام قال: وما دينه؟ قال: يصلى ويوحد الله. قال: استوهب منه دينه فإن أبى فابتعه منه. فطلب الرجل ذلك منه فأبى عليه، فأتى النبى ﷺ فأخبره فقال: وجدته شحيحا على دينه. فنزلت: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾(٢).

وعن ابن عمر قال: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا ﷺ: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ وقال: انى أدخرت دعوتى شفاعتى لأهل الكبائر من أمتي، فامسكنا عن كثير مما كان فى أنفسنا، ثم نطقنا بعد ورَجَوْنا(٣).

● ثانياً: تفسير الآية بالموقوف:

وعن ابن عمر قال: كنا لا نشك فيمن أوجب الله له النار فى كتاب الله حتى نزلت علينا هذه الآية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ فلما سمعنا هذا كففنا عن الشهادة وأرجأنا الأمور إلى الله(٤).

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٦/ ٤٤٢) بإسناد فيه ابن لهيعة وهو ضعيف.

(٢) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٤/ ١٧٧/ ٤٠٦٣).

قال الهيثمى فى «المجمع» (٧/ ٥): وفيه واصل بن السائب وهو ضعيف

وانظر «فتح القدير» (٣٤٨٠ ـ بتخريجنا).

(٣) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (٧/ ٥) ونسبه لابى يعلى وقال: رجاله رجال الصحيح غير حرب بن سريح وهو ثقة.

وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٣٠٢) وزاد نسبته لابن الضريس، وابن المنذر، وابن عدى قال: نسبه صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٣٠٢) ونسبه إليه فانظره بتخريجنا.

وعن ابن عمر قال: كنا معشر أصحاب النبى ﷺ لانشك فى قاتل النفس، وآكل مال اليتيم، وشاهد الزور، وقاطع الرحم، حتى نزلت هذه الآية: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾** فامسكنا عن الشهادة[١].

وعن المعتمر بن سليمان بن عتبة البارقى قال: حدثنا إسماعيل بن ثوبان قال: شهدت فى المسجد قبل الداء الأعظم، فسمعتهم يقولون **﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا﴾** إلى آخر الآية فقال المهاجرون والأنصار: قد أوجب له النار. فلما نزلت: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾** قالوا: ما شاء الله يصنع الله ما يشاء[٢].

وعن ابن عباس قال فى هذه الآية: إن الله حرّم المغفرة على من مات وهو كافر وأرجأ أهل التوحيد إلى مشيئته فلم يؤيسهم من المغفرة[٣].

وعن على قال: أحب آية إلى فى القرآن **﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾**[٤].

● ثالثاً: تفسير الآية بأقوال التابعين ومن بعدهم:

وعن أبى الجوزاء قال: اختلفت الى ابن عباس ثلاث عشرة سنة، فما من شيء من القرآن إلا سألته عنه، ورسولى يختلف إلى عائشة، فما سمعته ولا سمعت أحدا من العلماء يقول: إن الله يقول لذنب لا أغفره[٥].

عن بكر بن عبد الله المزني: **﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾** قال: ثنيا[٦] من ربنا على جميع القرآن[٦] ا. هـ

● ذكر ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين: -

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه لابن جرير، وابن أبى حاتم، والبزاز فانظره فى ابن أبى حاتم وتخريجنا.

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن المنذر.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٣٠٢) ونسبه لأبى داود فى ناسخه وابن أبى حاتم. وانظر «فتح القدير» (٣٤٨٤ ـ بتخريجنا).

(٤) أخرجه الترمذى (٣٠٣٧) وقال: حسن غريب.

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٣٠٣) ونسبه لابن جرير.

(٦) كذا فى «الدر» وفى تفسير ابن أبى حاتم (تبينا). فانظره بتخريجنا.

● **فائدة/ ما جاء فى حكمة تكرار الآية مرتين، وفى سورة واحدة: -**

قال الرازى(١): اعلم أن هذه الآية مكررة فى هذه السورة، **وفى تكرارها فائدتان:**

الأولى: أن عمومات الوعيد وعمومات الوعد متعارضة فى القرآن، **وأنه تعالى ما أعاد آية** من آيات الوعيد بلفظ واحد مرتين، وقد أعاد هذه **الآية دالة على العفو والمغفرة بلفظ** واحد فى سورة واحدة. وقد اتفقوا على أنه لا فائدة فى التكرير إلا التأكيد، **فهذا يدل** على أنه تعالى خص جانب الوعد والرحمة بمزيد التأكيد، **وذلك يقتضى** ترجيح الوعد على الوعيد.

والفائدة الثانية: أن الآيات المتقدمة إنما نزلت فى سارق الدرع، وقوله **﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾** إلى آخر الآيات إنما نزلت فى ارتداده، **فهذه الآية إنما يحسن اتصالها لما قبلها** لو كان المراد أن ذلك السارق لو لم يرتد لم يصر محروماً عن رحمتي، ولكنه لما ارتد وأشرك بالله صار محروماً قطعاً عن رحمة الله، ثم إنه أكد ذلك بأن شرح أن أمر الشرك عظيم عند الله فقال **﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾** يعنى ومن لم يشرك بالله لم يكن ضلاله بعيداً، فلا جرم لا يصير محروماً عن رحمتي، وهذه المناسبات دالة قطعاً على دلالة هذه الآية على أن ما سوى الشرك مغفور قطعاً سواء حصلت التوبة أو لم تحصل أهـ.

قال الشوكانى(٢): بمثل كلام الفخر الرازى.

قال الطبرى: فى الموضع الأول من سورة النساء: -

يعنى بذلك جلَّ تناؤه **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾** و**﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾** فإن الله لايغفر الشرك به والكفر ويغفر مادون ذلك الشرك لمن يشاء من أهل الذنوب والآثام وإذ كان ذلك معنى الكلام فإن قوله: **﴿أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾** فى موضع نصب بوقوع يغفر عليها وإن شئت بفقد الخافض الذى كان يخفضها لو كان ظاهراً وذلك أن يوجه معناه إلى أن الله لايغفر بـ **﴿أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾** على تأويل الجزاء كأنه قيل إن الله لايغفر ذنبًا مع شرك أو عن شرك وعلى هذا التأويل يتوجه أن تكون أن فى موضع خفض فى قول بعض أهل العربية.

---

(١) «التفسير الكبير» (٦/٥/٤٦).

(٢) فتح القدير (١/٦٠٨).

ثم قال: وقد أبانت هذه الآية أن كلَّ صاحب كبيرة ففى مشيئة الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه عليها مالم تكن كبيرته شركاً بالله اهـ.

وقال في الموضع الثاني من سورة النساء: يعنى بذلك جل ثناؤه إن الله لايغفر لطعمة - بن الابيرق الذى أبى التوبة - إذا أشرك، ومات على شركه بالله، ولا لغيره من خلقه بشركهم وكفرهم به. ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ من الذنوب ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ يعنى بذلك جل ثناؤه أن طعمة لولا أنه أشرك بالله ومات على شركه لكان فى مشيئة الله على ما سلف من خيانته ومعصيته. وكان إلى الله أمره فى عذابه والعفو عنه، وكذلك حكم كل من اجترم جرماً فإلى الله أمره إلا أن يكون جرمه شركاً بالله وكفراً فإنه ممن حتم عليه أنه من أهل النار. ثم ذكر أثر السدى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ يقول: من يجتنب الكبائر من المسلمين. اهـ(1).

قال ابن الجوزى(2): والمراد من الآية: لا يغفر لمشرك مات على شركه. فى قوله (لمن يشاء) نعمة عظيمة من وجهين: [أحدهما] أنها تقتضى أن كل ميت على ذنب دون الشرك لا يقطع عليه بالعذاب، وان مات مصراً.

[والثانى] أن تعليقه بالمشيئة فيه نفع للمسلمين، وهو أن يكونوا على خوف وطمع. اهـ.

تقدم قول الطبرى فى حكم مرتكب الكبيرة فى الآية

وقال الفخر الرازى: هذه الآية من أقوى الدلائل لنا على العفو عن أصحاب الكبائر. واعلم أن الاستدلال بها من وجوه:

[الوجه الأول]: أن قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ معناه لايغفر الشرك على سبيل التفضل لأنه بالاجماع لايغفر على سبيل الوجوب، وذلك عندما يتوب المشرك عن شركه، فإذا كان قول: إن الله لايغفر الشرك هو أنه لايغفره على سبيل التفضل، وجب أن يكون قوله و﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ هو أن يغفره على سبيل التفضل؛ حتى يكون النفى والإثبات متواردين على معنى واحد. ألا ترى أنه لو قال: فلان لايعطى أحداً تفضلاً، ويعطى زائداً فإنه يفهم منه أنه يعطيه تفضلاً، حتى لو صرح وقال: لايعطى أحداً شيئاً على سبيل التفضل ويعطى أزيد على سبيل الوجوب، فكل عاقل

(1) تفسير الطبرى ٤/ ٥/ ٨٠.

(2) زاد المسير (٢/ ٦٣).

يحكم بركاكة هذا الكلام، فثبت أن قوله ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ على سبيل التفضل.

إذا ثبت هذا فنقول: وجب أن يكون المراد منه أصحاب الكبائر قبل التوبة، لأن عند المعتزلة غفران الصغيرة وغفران الكبيرة بعد التوبة واجب عقلاً، فلا يمكن حمل الآية عليه، فإذا تقرر ذلك لم يبق إلا حمل الآية على غفران الكبيرة قبل التوبة وهو المطلوب.

[الثانى]: أنه تعالى قسم المنهيات على قسمين: الشرك وما سوى الشرك، ثم إن ما سوى الشرك يدخل فيه الكبيرة قبل التوبة، والكبيرة بعد التوبة والصغيرة، ثم حكم على الشرك بأنه غير مغفور قطعاً، وعلى ما سواه بأنه مغفور قطعاً، لكن فى حق من يشاء، فصار تقدير الآية أنه تعالى يغفر كل ما سوى الشرك، لكن فى حق من شاء. ولما دلت الآية على أن كل ما سوى الشرك مغفور، وجب أن تكون الكبيرة قبل التوبة أيضاً مغفورة.

[الثالث]: أنه تعالى قال: ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ فعلق هذا الغفران بالمشيئة، وغفران الكبيرة بعد التوبة وغفران الصغيرة مقطوع به، وغير معلق على المشيئة، فوجب أن يكون الغفران المذكور فى هذه الآية هو غفران الكبيرة قبل التوبة وهو المطلوب، واعترضوا على هذا الوجه الأخير بأن تعليق الأمر بالمشيئة لا ينافى وجوبه، ألا ترى أنه تعالى قال بعد هذه الآية (بل الله يزكى من يشاء) ثم إنا نعلم أنه تعالى لا يزكى إلا من كان أهلاً للتزكية، وإلا كان كذباً، والكذب على الله محال، فكذب ههنا.

واعلم أنه ليس للمعتزلة على هذه الوجوه كلام يلتفت إليه إلا المعارضة بعمومات الوعيد، ونحن نعارضها بعمومات الوعد. وروى الواحدى فى «البسيط» باسناده عن ابن عمر قال: كنا على عهد رسول الله ﷺ إذا مات الرجل منا على كبيرة شهدنا أنه من أهل النار، حتى نزلت هذه الآية فأمسكنا عن الشهادات(1).

ثم قال الرازى: اعلم أن الله تعالى لما هدد اليهود على الكفر، وبين أن ذلك التهديد لابد من وقوعه لا محالة بين أن مثل هذا التهديد من خواص الكفر، فأما سائر الذنوب التى هى مغايرة للكفر فليست حالها كذلك، بل هو سبحانه قد يعفو عنها، فلا جرم قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾.

(1) «التفسير الكبير» (٥/ ٥/ ١٢٨و١٢٩).

*** فائدة/ فى تسمية اليهودى النصرانى مشرك ودخولهما فى الشرك المذكور فى الآية:**

قال الرازى(١): هذه الآية دالة على أن اليهودى يسمى مـشركاً فى عرف الشرع، ويدل عليه وجهان: .

الأول: أن الآية دالة على أن ما سـوى الشرك مغـفور، فلو كـانت اليهودية مـغايرة للشرك لوجب أن تكون مغفورة بحكم هذه الآية، وبالإجماع هى غير مغفورة، فدل على أنها داخلة تحت اسم الشرك.

الثانى: أن اتصال هذه الآية بما قبلهـا إنما كان لأنها تتضمن تهـديد اليهود، فلولا أن اليهودية داخلة تحت اسم الشرك، وإلا لم يكن الأمر كذلك.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا**﴾ إلى قوله ﴿**والذين أشركوا**﴾ عطف المشرك على اليهودى، وذلك يقتضى المغايرة.

قلنا: المغايرة حاصلة بسبب المفهوم اللغـوي، والاتحاد حاصل بسب المفهوم الشرعي، ولابد من المصير إلى ما ذكرناه دفعاً للتناقض. إذا ثبتت هذه المقدمة فنقول: قال الشافعى رضى الله عنه المسلم لايقتل بالذمي، وقـال أبو حنيفة: يقتل. حجـة الشافعى أن الذمى مشرك لما ذكرناه، والمشرك مـباح الدم لقوله تعالى: ﴿**فَاقْتُلوا الْمُشْرِكِينَ**﴾. فكان الذمى مباح الدم على الوجـه الذى ذكرناه ومباح الدم هو الذى لا يجب القـصاص على قاتله، ولا يتـوجه النهى عن قـتله ترك العـمل بهذا الدليل فـى حق النهي، فوجب أن يبـقى معمولاً به فى سقوط القصاص عن قاتله. اهـ.

قال القرطبى(٢): - قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ**﴾. وهذا من المحكم المتفق عليه الذى لا اختلاف فيه بين الأمة. ﴿ **وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ من المتشابه الذى قد تكلم العلمـاء فيه. قال مـحمد بن جرير الطبـرى: قد أبانت هذه الآية أن كلّ صاحب كبيرة ففى مشيئة الله تعالى إن شاء عفا عنه ذنبه، وإن شاء عاقبه عليه مالم تكن كبيرته شِرْكاً بالله تعالى - تقدم ذكره.

وقال بعضهم: قـد بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿**إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾. فأعلم أنه يشاء أن يغـفر الصغائر لمن اجتنب الكبـائر ولا يغفرها لمن

(١) «التفسير الكبير» (٥/ ٥/ ١٢٨و١٢٩).

(٢) تفسير القرطبى (٣/ ١٨١٥).

أتى الكبائر. وذهب بعض أهل التأويل إلى أن هذه الآية ناسخةٌ لِلّتى فى آخر «الفُرْقانِ». قال زيد ابن ثابت: نزلت سورة «النساء» بعد «الفرقان» بستة أشهر.

والصحيح أن لا نسخ؛ لأن النسخ فى الأخبار يستحيل اهـ.

[قلت]: وأيضاً ودعوى النسخ لاتثبت إلا بدليل صريح.

قال فى الموضع الثانى(١): قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ** ﴾ رد على الخوارج حيث زعموا أن مرتكب الكبير كافر.

ثم قال: **قال ابن فورك**: وأجمع أصحابنا على أنه لاتخليد إلا للكافر وأن الفاسق من أهل القبلة إذا مات غير تائب فإنه إن عُذب بالنار فلا محالة أنه يخرج منها بشفاعة الرسول، أو بإبتداء رحمة من الله تعالي. أ.هـ.

قال الشوكاني(٢): قول ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ هذا الحكم يشمل جميع طوائف الكفار، من أهل الكتاب وغيرهم، ولايختص بكفار أهل الحرب، لأن اليهود قالوا عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالوا: ثالث ثلاثة. أ. هـ.

[قلت]: ثم ذكر ماذكره الطبرى فى حكم صاحب الكبيرة إذامات ولم يتب منها.

● **فائدة/ أيهما أرجى هذه الآية، أم آية (الزمر):**

تابع ابن كثير من سبقه من المفسرين، وذكر فى الموضع الأول للآية(٣) جملة كبيرة من الأحاديث، ثم ذكرمقارنة بين الآية هذه، وبين آية تنزيل (الزمر) أيهما أرجي، فقال:

هذه الآية التى فى سورة تنزيل مشروطة بالتوبة، فمن تاب من أى ذنب، وإن تكرر منه تاب الله عليه، ولهذا قال ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** ﴾ أى بشرط التوبة، ولولم يكن كذلك لدخل الشرك فيه، ولايصح ذلك، لأنه تعالى قد حكم ههنا بأنه لايغفر الشرك، وحكم بأنه يغفر ماعداه

---

(١) تفسير القرطبى (٣/١٩٥٦).

(٢) فتح القدير (١/ ٥٦٥).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٤٨١) - (١/ ٥٢٧).

لمن يشاء، أى ولم يتب صاحبه، فهذه أرجى من تلك من هذا الوجه، والله أعلم أ.هـ.

فأطال ابن كثير فى الموضع الأول للآية، واختصر فى الموضع الثاني[1] فى تفسيرها.

● ذكر أقوال شراح التوحيد فى الآية

قال ابن تيمية ـ رحمه الله[2]: «وأعظم الذنوب عند الله الشرك به، وهو ـ سبحانه ـ لايغفر أن يشرك به، ويغفرمادون ذلك لمن يشاء، والشرك منه جليل ودقيق وخفى وجلي».

وقال فى «الرد على البكري»[3] «وقد يقال: الشرك لايغفر منه شيء لا أكبر ولاأصغر على مقتضى القرآن، وإن كان صاحب الشرك ـ أى: الأصغر ـ يموت مسلماً، لكن شركه لايغفر له، بل يعاقب عليه وإن دخل بعد ذلك الجنة».

وقال ابن القيم: فى «إغاثة اللهفان»[4]: «فأما نجاسة الشرك؛ فهى نوعان: نجاسة مغلظة، ونجاسة مخففة؛ فالمغلظة: الشرك الأكبر الذى لايغفره الله، فإن الله لايغفر أن يشرك به، والمخففة: الشرك الأصغر كيسير الرياء»[*]. ا.هـ

قال سليمان آل الشيخ[5]: فتبين بهذا أن الشرك أعظم الذنوب، لأن الله تعالى أخبر أنه لايغفره أى إلا بالتوبة منه، وماعداه فهو داخل تحت مشيئة الله إن شاء غفره بلاتوبة وإن شاء عذب به. وهذا يوجب للعبد شدة الخوف من هذا الذنب الذى هذا شأنه عند الله، وإنما كان كذلك لأنه أقبح القبح وأظلم الظلم إذ مضمونه تنقيص رب العالمين، وصرف خالص حقه لغيره، وعدل غيره به كما قال تعالى ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[6].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٨١) - (١/ ٥٢٧).

(٢) جامع الرسائل (٢/ ٢٥٤).

(٣) (ص ١٤٦).

(٤) (١/ ٩٨).

(*) انظر حاشية القول المفيد (١/ ١٤٠، ١٤١).

(٥) انظر تيسير العزيز الحميد ٨٣ و ٨٤.

(٦) الأنعام: ١.

ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر مناف له من كل وجه، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين، والاستكبار عن طاعته والذل له، والانقياد لأوامره الذي لا صلاح للعالم إلا بذلك. فمتى خلا منه خرب وقامت القيامة.

كما قال ﷺ: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتى لايقالُ في الأَرْضِ اللهُ اللهُ»(1) رواه مسلم. ولأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس في خصائص الإلهية من ملك الضر والنفع، والعطاء والمنع الذي يوجب تعلق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل وأنواع العبادة كلها بالله وحده. فمن علق ذلك لمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فضلاً عن غيره شبيهاً بمن له الخلق كله، وله الملك كله وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله. فأزمَّة الأمور كلها بيديه سبحانه، ومرجعها إليه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، الذى إذا فتح للناس رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم، فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات، ومن خصائص الآلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، ولذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والاستعانة وغاية الحب مع غاية الذل كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لله وحده، ويمتنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره، فمن فعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثل له ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه أنه لا يغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة، هذا معنى كلام ابن القيم وفي الآية رد على الخوارج المكفرين بالذنوب وعلى المعتزلة القائلين بأن أصحاب الكبائر يدخلون النار ولابد، ولا يخرجون منها، وهم أصحاب المنزلة بين المنزلتين.

ووجه ذلك أن الله تعالى جعل مغفرة ما دون الشرك معلقة بالمشيئة، ولا يجوز أن يحمل هذا على التأكيد، فإن التائب لا فرق في حقه بين الشرك وغيره كما قال تعالى فى الآية الأخرى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾(2) فهنا عمم وأطلق، لأن المراد به التائب، وهناك خص وعلق لأن المراد به ما لم يتب. قاله شيخ الإسلام. اهـ.

---

(1) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (1/ 455/ 234) أنس به.
وانظر «فتح المجيد (ح 120) بتخريجنا).
(2) الزمر (53).

وبنحو هذا القول قال عبد الرحمن آل الشيخ[1].

قال حامدٌ بن محمدٍ بن حسن[2]: واعلم أن الشرك أكبر وأصغر:

- **فالأكبر**: يحبط الأعمال كلها ويخرج الإنسان من إسلامه، قال الله تعالى خطاباً للنبى ﷺ وتنبيها لعبادة: ﴿ **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾.

- **وأما الأصغر**: فيحبط العمل الذى هو فيه؛ كالرياء والسمعة، وكثيراً ما يجرى فى الإنسان إلا من عصمه الله وحماه نسأل الله حمايته من كل ما يكره. اهـ.

وقال عبد الله بن جار الله[3]: تفيد الآية أن الشرك أعظم الذنوب. اهـ.

وقال ابن باز[4]: فيه - يعنى قوله الله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ** ﴾ بيان عظم الشرك وخطورته أما الشرك فقد قال تعالى: ﴿ **إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ** ﴾. اهـ.

قال ابن عثيمين[5]: فالشرك لايغفره الله أبداً، لانه جناية على حق الله الخاص وهو التوحيد.

أما المعاصى، كالزنا والسرقه، فقد يكون للإنسان فيها حظ نفس بما نال من شهوة، أما الشرك؛ فهو اعتداء على حق الله تعالى وليس للإنسان فيه حظ نفسٍ، وليس شهوة يريد الإنسان أن ينال مراده، ولكنه ظلم، ولهذا قال الله تعالى ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾[6]. ا.هـ.

هل المراد بالشرك هنا الأكبر أم مطلق الشرك؟

قال ابن عثيمين؟ قال بعض العلماء: إنه مطلق يشمل كلّ شرك ولو أصغر؛ كالحلف بغير الله، فإنَّ الله لايغفره، أمَّا بالنسبة لكبائر الذنوب؛ كالسرقة، والخمر؛ فإنَّها تحت المشيئة، فقد يغفرها الله، وشيخ الإسلام ابن تيمية المحقِّق في هذه المسائل

(١) فتح المجيد (١/ ٩٣) وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤/ ٤٧٥، ٤٧٦).

(٢) فتح الله الحميد المجيد (١٦٦). (٣) الجامع الفريد (٢٥).

(٤) التعليق المفيد (٤٧).

(٥) القول المفيد ١/ ١٤٠ و ١٤١.

(٦) لقمان (١٣).

اختلف كلامـه في هذه المسألة؛ فمرةً قـال: الشرك لا يغفره الله ولو كان أصـغر، ومرة قال: الشـرك الذي لايغفـره الله هو الشرك الأكـبر وعلى كل حـال؛ فيجـب الحذر من الشرك مطلقاً؛ لأنَّ العموم يحتـمل أن يكون داخلاً فيه الأصغر؛ لأنَّ قوله: ﴿ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ أن وما بعدها في تأويل مـصدر، تقديره: إشراكاً به؛ فهـو نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم[1] .ا. هـ

قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾.

المراد بالدون هنا: ما هو أقل من الشرك، وليس ما سوى الشرك.

قال القرعاوى[2]: الفوائد (يعنى من الآية):-

(١) - من مات على الشرك الأكبر وجبت له النار.

(٢) من مات على التـوحيد وعنده كـبائر، فمغـفرة ذنوبه تحت مشيئة الله سبـحانه وتعالى.

(٣) فى الآية رد على الخـوارج الذين يكفرون بالـذنوب، وعلى المعتـزلة الذين يرون تخليد صاحب الكبائر فى النار.

(٤) إثبات صفة المشيئة.

● ● ●

(١) القول المفيد ١/ ١٤٠ و ١٤١.

(٢) الجديد (٥٥).

وقَالَ الخَلِيلُ عَلَيْه السَّلاَمُ: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾(١).

- مناسبة الآية للباب وللتوحيد:

قال سليمان آل الشيخ(٢): فإذا كان إبراهيم - عليه السلام - يسأل الله أن يجنبه ويجنب بنيه عبادة الأصنام، فما ظنك بغيره؟. كما قال إبراهيم التيمى: ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟! رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم، وهذا يوجب للقلب الحي أن يخاف من الشرك لا كما يقول الجهال: إن الشرك لايقع فى هذه الأمة، ولهذا أمِنوا الشرك فوقعوا فيه، وهذا وجه مناسبة الآية للترجمة.

وقال حامد بن محمد بن حسن(٣) **أيضاً**: واعلم أنه كلما زادت معرفة العبد بالله وعلمه به وبأحكامه وعقابه وثوابه كان خوفه أشد.

- قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾. ولما كان إمام الحنفاء إبراهيم ومحمد سيد المرسلين، أعلم الناس بالله، كان خوفهم أشد وأعظم وطلبهم من الله النجاة أكثر.

- قال الخليل عليه السلام ﴿ **وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ** ﴾.

- وقال ﷺ ﴿ **رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا** ﴾.

- وقال يوسف: ﴿ **تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾.

- وقال سليمان: ﴿ **رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ** ﴾ اهـ.

وقال عبد الله بن جار الله(٤): مناسبتها للباب هى أنه إذا كان خليل الرحمن الذى كان يكسر الأصنام بيده اشتد خوفه على نفسه، وعلى بنيه من الشرك بسبب الافتتان بالأصنام فسأل الله له ولبنيه وقاية عبادتها فنحن أولى منه لضعف إيماننا. اهـ.

وقال ابن باز(٥): لأن سيد الأنبياء بعد نبينا كان يخاف من الشرك فوجب التأسى بهم، وأن نكون أولى بالخوف منهم اهـ.

---

(١) ابراهيم: ٣٥.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٨٥.

(٣) فتح الله الحميد المجيد (١٦٦).

(٤) الجامع الفريد (٢٦).

(٥) التعليق المفيد (٤٧، ٤٨).

وقال ابن عثيمين[1]: فإبراهيم عليه السلام يخاف الشرك على نفسه، وهو خليل الرحمن، وإمام الحنفاء، فما بالك بنا نحن إذن؟! اهـ.

وبنحو ذلك قال القرعاوى[2]: أن إبراهيم مع قوة إيمانه يخشى على نفسه وأبنائه من الشرك، فأوجب علينا ذلك أن نخاف منه من باب أولى اهـ.

قوله: [وقال الخليل عليه السلام **﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾** الآية]

الإعراب[3]: **«واجنبنى وبنىَّ أن نعبد الأصنام»**.

واجنبني فعل دعاء والنون للوقاية والياء مفعوله وبنىَّ عطف على الياء أو مفعول معه وأن نعبد أن وما بعدها فى تأويل مصدر منصوب ينزع الخافض كما قال الراغب أى عن أن نعبد والجار والمجرور متعلقان باجنبنى والأصنام مفعول به لنعبده. ا.هـ.

● **ماجاء في تفسير الآية بالقران:**

قال الشنقيطي[4]: لم يبين هنا هل أجاب دعاءُ نبيه إبراهيم هذا ولكنه بيَّن فى مواضع آخر أنه أجاب فى بعض ذريته دون بعض كقوله: **﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾**[5] وقوله **﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾**[6] وروى بن جرير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله - ﷺ - تلا قول إبراهيم **﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**[8] وقال عيسى: **﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**[9] فرفع يديه ثم قال: **«اللهم أمتى»**، وبكى. فقال الله تعالى: **«ياجبرائيل اذهب إلى محمد وربك أعلم فاسأله ما يبكيه»** فاتاه جبرائيل فسأله، فأخبره رسول الله - ﷺ - ما قال. فقال الله: **«ياجبرائيل؛ اذهب إلى محمد وقل له إنّا سنرضيك فى أمتك ولانسؤك»**. اهـ.

(١) القول المفيد (١/ ١٤٢).

(٢) الجديد (٥٧).

(٣) إعراب القرآن ٥/ ١٩٨.

(٤) أضواء البيان ٣/ ٨٣.

(٥) الصافات: ١١٣.

(٦) الزخرف: ٢٨.

(٧) ابراهيم: ٣٦.

(٨) المائدة: ١١٨.

(٩) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» تفسير الطبرى (١٣/ ١٥١ و ١٥٢)

● **ماجاء فى تفسير الآية بالسنة:**

أولاً : بالمرفوع

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنى دعوت للعرب، فقلت: اللهم من لقيك منهم مؤمناً موقناً بك مصدقاً بلقائك، فاغفر له أيام حياته، وهى دعوة أبينا إبراهيم، ولواء الحمد بيدى يوم القيامة، ومن أقرب الناس إلى لوائى يومئذ العرب**»(١).

● **ثانياً : بأقوال السلف:**

وعن مجاهد فى قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ قال: فاستجاب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام دعوته في ولده، فلم يعبد أحد من ولده صنما بعد دعوته، وجعل هذا البلد آمنا، ورزق أهله من الثمرات، وجعله إماما، وجعل من ذريته من يقيم الصلاة، وتقبل دعاءه، وأراه مناسكه وتاب عليه(٢).

وعن إبراهيم التيمى قال: ما يأمن البلاء بعد قول إبراهيم **﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾**(٣).

وعن سفيان بن عيينة قال: لم يعبد أحد من ولد إسماعيل الأصنام لقوله **﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾** قيل: فكيف لم يدخل ولد اسحق وسائر ولد ابراهيم؟ قال: لأنه دعا لأهل هذا البلد أن لايعبدوا الأصنام ودعا لهم بالأمن. فقال: **﴿ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾** ولم يدع لجميع البلدان بذلك. وقال: **﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾** فيه وقد خص أهله وقال: **﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾**(٤). اهـ(٥).

● **ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين: -**

---

(١) ذكره السيوطي فى « الدر» (٤/ ١٦٠) ونسبة للحكيم الترمذي.

(٢) ذكره السيوطي في الدر (٥/ ٤٦) ونسبه لابن جرير

(٣) إبراهيم: ٣٤. والأثر ذكره السيوطي في «الدر في الموضع السابق ونسبه لابن جرير وابن ابي حاتم

(٤) ابراهيم: ٣٧.

(٥) ذكره السيوطي في الدر (٥/ ٤٦).

● **قوله (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا).**

- **قال الطبرى**(١): يقول تعالى ذكره: واذكر يامحمد إذ قال إبراهيم (رب اجعل هذا البلد آمنا) يعنى الحرم بلداً آمناً أهله، وسكانه. اهـ.

- **قال البغوى**(٢): (آمناً) ذا أمن يؤمن فيه. اهـ.

- **وقال الزمخشرى**(٣): بنحو ذلك.

- **وقال ابن الجوزى**(٤): البلد: صدر القرى، والبالد: المقيم بالبلد، والبلدة: الصدر، ووضعت الناقة بلدتها: إذا بركت، والمراد بالبلد هاهنا مكة.

ومعنى (آمنًا) ذا أمن، وأمن البلد مجاز، والمراد: أمن من فيه. وفى المراد بهذا الأمن ثلاثة أقوال: -

(أحدها) أنه سأله الأمن من القتل.

(الثانى) من الخسف والقذف.

(الثالث) من القحط والجدب. اهـ.

- **وقال القرطبى**(٥): (أمناً) يعنى مكة. اهـ كما قال الطبرى.

- **وقال ابن كثير**(٦): يذكر تعالى فى هذا المقام محتجاً على مشركى العرب بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لاشريك له، وأن إبراهيم الذى كانت عامرة بسببه آهله تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿ رب اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً ﴾ وقد استجاب الله له، فقال: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ الآية وقال: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾. اهـ.

قال الشوكانى(٧): وقدم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده؛ لأنه إذا انتفى الأمن لم يفرغ الإنسان لشيء آخذ من أمور الدين والدنيا. أهـ

---

(١) تفسير الطبرى (٧/١٣/٥١).
(٢) معالم التنزيل (٣/ ٣٨٢).
(٣) الكشاف (٢/ ٣٠٤).
(٤) زاد المسير (١/ ١٢٤، ١٢٥).
(٥) تفسير القرطبى (٥/ ٣٥٩٧).
(٦) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٢).
(٧) فتح القدير (٣/ ١١٣).

[قلت] : وتقدم في البـاب الذي قبل هذا أن الأمن وسيلة لا غاية في تحـقيق العبادة والدعوة والأمـر بالمعروف والـنهى عن المـنكر، وإقامـة شعائر الله، ولايـكون أمن إلا بتمكين كما قال تعالي ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ فأنظر هذا الموضع في الباب السابق.

● **ذكر الفخر الرازى مسألة تتعلق بالأمن فقال:**

المسألة الثالثة: اختلفوا في الأمن المسئول فى هذه الآية على وجوه

(أحدها) سأله الأمن من القحط لأنه أسكن أهله بواد غير ذي زرع ولا ضرع .

(وثانيها) سأله الأمن من الخسف والمسخ .

(وثالثها) سأله الأمـن من القتل وهو قـول أبى بكر الرازى، واحتـج عليه بأنه عـليه السلام سألـه الأمن أولاً، ثم سأله الرزق ثانـياً، ولو كان الأمن المطلـوب هو الأمن من القحط لكان سؤال الرزق بعده تكراراً فقال في هذه الآية ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ وقال في آية أخرى ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ ثم قال في آخر القصة ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ إلى قوله ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ واعلم أن هـذه الحجة ضعيـفة فإن لقائـل أن يقول: لعـل الأمن المسئول هـو الأمن من الخسف والمسخ، أو لعلـه الأمن من القحط، ثم الأمن من القحط قـد يكون بحصول ما يحتاج إليه من الأغذيـة وقد يكون بالتوسعة فيها فهو بالـسؤال الأول طلب إزالة القحط وبالسؤال الثاني طلب التوسعة العظيمة.

المسئلة الرابعة: اختلفوا فـي أن مكة هل كانت آمنة مـحرمة قبل دعوة إبراهيـم عليه السلام أو إنما صـارت كذلك بدعوته فقـال قائلون: إنها كـانت كذلك أبداً لقولـه عليه السلام «إن الله حرم مكـة يوم خلق السموات والأرض». وأيضـاً قال إبراهيم ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ وهذا يقتضي أنها كانت محرمة قبل ذلك، ثم إن إبراهيم عليه السـلام أكده بهذا الدعاء، وقال آخرون: إنها إنما صارت حرماً آمناً بدعـاء إبراهيم عليه السلام وقبله كـانت كسائر البلاد والدليل عليـه قوله عليه السلام: «**اللهم إني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة**»

(والقول الثالث) إنها كانت حراماً قبل الدعوة بوجه غير الوجه الذي صارت به حراماً بعد الدعوة

(فالأول) يمنع الله تعالى من الاصطلام وبما جعل في النفوس من التعظيم

(والثاني) بالأمر على ألسنة الرسل.

قوله (واجنبنى):

- **قال الطبرى**[1]: يقال منه: جنبته الشر، فأنا أجنبه جنباً وجنبته تجنيباً وأجنبته ذلك فأنا أجنبه اجناباً، ومن جنبت قول الشاعر:

وتنفض معهد شفقاً عليه وتجنبه فلا يصئى الصعابا

ومعنى ذلك، أبعدنى، وبنى من عبادة الأصنام. اهـ.

- **وكذا قال البغوى**[2].

- **وقال الزمخشرى**[3]: وقرئ وأجنبنى، وفيه ثلاث لغات: جنبه الشر، وجنبه وأجنبه فأهل الحجاز يقولون جنبنى شره بالتشديد، وأهل نجد: جنبنى وأجنبنى والمعنى ثبتنا وأدمنا على اجتناب عبادتها. اهـ.

- **وبنحوه قال ابن الجوزى**[4]، وأما الفخر الرازى[5] فنقل ما قاله الزمخشرى نصاً: وتبعهم القرطبى[6] حيث قال: اجعلنى جانباً عن عبادتها. اهـ.

● **ما جاء فيها من كلام شراح التوحيد:-**

- **قال سليمان آل الشيخ**[7]: أى اجعلنى وبنى فى جانب عن عبادة الأصنام، وباعد بينى وبينها.

- وبنحوة قال باقى الشراح متابعين للمفسرين.

---

(١) تفسير الطبرى (٧/ ١٣/ ١٥٠).

(٢) معالم التنزيل (٣/ ٣٨٣).

(٣) الكشاف (٢/ ٣٠٤).

(٤) زاد المسير (٤/ ٢٧٨).

(٥) التفسير الكبير» (١٠/ ١٣/ ١٣٩).

(٦) تفسير القرطبى: (٥/ ٣٥٩٧).

(٧) تفسير العزيز الحميد (٨٥).

قال ابن عثيمين[1]: (اجنبهى) أبلغ مما لو قال: امنعنى، وبنىَّ من عبادة الأوثان، لأنه إذا كان فى جانب عنها كان أبعد. اهـ.

قوله: (وبَنِيَّ).

- **قال الزمخشرى**[2]: أراد بنيه من صلبه، وسئل ابن عيينة كيف عبدت العرب الأصنام فقال: ما عبد أحد من ولد إسماعيل صنماً، واحتج بقوله: (واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام). اهـ.

- **قال القرطبى**[3]: بنيه من صُلبه وكانوا ثمانية، فما عبد أحد منهم صنماً، وقيل: هو دعاء لمن أراد الله أن يدعو له. اهـ.

- **قال ابن كثير**[4]: ينبغى لكل داعٍ أن يدعو لنفسه ولو الديه ولذريته. اهـ.

- **وقال الشوكانى**[5]: قيل أراد بنيه من صلبه وكانوا ثمانية - كقول القرطبى -، وقيل: أراد من كان موجوداً حال دعوته من بنيه، وقيل: أراد جميع ذريته ما تناسلوا، ويؤيد ذلك ما قيل من أنه لم يعبد أحد من أولاد إبراهيم صنماً. اهـ.

وبنحو ذلك قال السعدى[6].

● **ما جاء فيها من كلام شراح التوحيد:**

- **قال سليمان آل الشيخ**[7]: قيل أراد بذلك بنيه وبناته من صلبه، ولم يذكر البنات لدخولهم تبعاً فى البنين، وقد استجاب الله دعاءه. . . .

ثم قال: وهذا يوجب للقلب الحي أن يخاف من الشرك. اهـ كما تقدم كلامه فى مناسبة الباب.

- وباقى الشراح تابعوا المفسرين على هذا.

- **وقال ابن عثيمين**[8]: وقيل: المراد ذريته وما توالد من صلبه، وهو الأرجح؛ وذلك للآيات التى دلت على دعوته للناس من ذريته، ولكن كان من حكمة الله أن

---

(1) القول المفيد (1/ 142).
(2) الكشاف (2/ 304).
(3) تفسير القرطبى (5/ 3597).
(4) تفسير ابن كثير (2/ 522).
(5) فتح القدير (3/ 113)
(6) تيسير الكريم الرحمن (2/ 471).
(7) تيسير العزيز الحميد (84 - 85).
(8) «القول المفيد» (1/ 142).

لاتجاب دعوته فى بعضهم، كما أن الرسول ﷺ: دعا أن لايجعل بأس أمته بينهم، فلم يجب الله دعاءه[1].

وأيضاً يمنع من الأول - بنوه لصلبه - أن الآية بصيغة الجمع، وليس لإبراهيم من الأبناء سوى إسحاق وإسماعيل. اهـ .

وسيأتى تفصيل المسألة فى الإشكال الأول.

قوله: (الأصنام).

● ماجاء فيها من كلام المفسرين.

- قال ابن جرير الطبرى[2]:-

والأصنام جمع صنم والصنم هو التمثال المصور كما قال رؤبة بن العجاج فى صفة امرأة.

وهنانة كالزون يجلى صنمه تضحك عن أشنب عذب ملثمه.

عن مجاهد ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾ قال: فاستجاب الله لإبراهيم دعوته فى ولده قال: فلم يعبد أحد من ولده صنمًا بعد دعوته[3].

والصنم التمثال المصور مالم يكن صنما فهو وثن اهـ.

قال الزمخشرى[4]: إنما كانت أنصاب حجارة لكل قوم قالوا البيت حجر، فحيثما، نصبنا حجراً فهو بمنزلة البيت، فكانوا يدورون بذلك ويسمونه الدوار، فاستحب أن يقال: طاف بالبيت ولايقال دار بالبيت. اهـ.

- وذكر القرطبى[5] أثر إبراهيم التيمى المتقدم فى أول تفسير الآية حيث قال: من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول: ﴿ **وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾ كما عبدها أبى وقومى. اهـ.

---

(١)[صحيح] أخرجه مسلم في الفتن (٩/ ٢٤٠٠/ ١٩) عن ثوبان.

(٢) «تفسير الطبرى» (٧/ ١٣/ ١٥).

(٣) تقدم تخريجه قريباً

(٤) «الكشاف» (٢/ ٣٠٤) .

(٥) «تفسير القرطبى» (٥/ ٣٥٩٧).

● ماجاء في تفسير الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد

- **قال سليمان آل الشيخ(*)**: الصنم: ما كان منحوتاً على صورة البشر. والوثن: ما كان على غير ذلك. ذكره الطبرى. اهـ. وتقدم المعنى

ثم قال: والظاهر أن الصنم ما كان مصوراً على أى صورة، والوثن بخلافه كالحجر والبنية، وإن كان الوثن قد يطلق على الصنم، ذكر معناه غير واحد، ويروى عن بعض السلف ما يدل عليه. اهـ.

وبنحو من هذا قال عبد الله بن جار الله(١):

قال ابن باز(٢): والمشركون كانوا أقساماً: منهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد غير الأصنام كالشجر والبحر والشمس والقمر، وكلهم يجمعهم صرف العبادة لغير الله عز وجل ويطلق على الصنم وثن. اهـ.

قال ابن عثيمين(٣): فإبراهيم عليه السلام يخاف الشرك على نفسه، وهو خليل الرحمن وإمام الحنفاء؛ فما بالك بنا نحن إذن؟!

فلا تأمن الشرك، ولا تأمن النِّفاق، إذ لا يأمن النفاق إلا منافق، ولا يخاف النفاق إلا مؤمن، ولهذا قال ابن أبي مُلَيْكَة: «**أدركت ثلاثين من أصحاب النبى ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه**»(٤).

وها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه خاف على نفسه النفاق؛ فقال لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه الذي أَسَرَّ إليه النبي ﷺ بأسماء أناس من المنافقين؛ فقال له عمر رضي الله عنه: «**أنشدك الله؛ هل سماني لك رسول الله ﷺ مع من سمى من المنافقين؟. فقال حذيفة رضي الله عنه: لا، ولا أزكي بعدك أحداً**»(٥) أراد عمر بذلك زيادة الطمأنينة، وإلا فقد شهد له النبي ﷺ بالجنة.

ولا يقال: إن عمر رضي الله عنه أراد حث الناس على الخوف من النفاق ولم يخفه على نفسه؛ لأن ذلك خلاف ظاهر اللفظ، والأصل حمل اللفظ على ظاهره، ومثل هذا

(*) تيسير العزيز الحميد

(١) الجامع الفريد(٢٦)

(٢) التعليق المفيد (٤٨).

(٣) القول المفيد (١/ ١٤٢ و ١٤٣)

(٤) [معلق] علقه البخاري في الإيمان (١/ ١٣٥ الفتح)

(٥)

القول يقول بعض العلماء فيما يضيفه النبي ﷺ إلى نفسه في بعض الأشياء، يقولون: هذا قصد به التعليم، وقصد به أن يبيِّن لغيره، كما قيل: إن الرسول ﷺ لم يقل: رب اغفر لي لأنّ له ذنباً، ولكن لأجل أن يعلِّم الناس الاستغفار، وهذا خلاف الأصل، وقول بعضهم: إنه جهر بالذكر عقب الفريضة ليعلم الناس الذكر، لا لأن الجهر بذلك من السنة ونحو ذلك أه.

● **إشكالات فى الآيه وأجوبتها: -**

● **اشكال أول وجوابه:**

قال البغوى[1]: فإن قيل: قد كان إبراهيم معصوماً من عبادة الأصنام، فكيف يستقيم السؤال؟! وقد عبد كثير من بنيه الأصنام؟! فأين الإجابة؟!.

الجواب: قيل: الدعاء فى حق إبراهيم لزيادة العصمة والتثبيت، وأما دعاؤه لبنيه فأراد بنيه من صلبه، ولم يعبد منهم أحد الصنم.

وقيل: إن دعاءه لمن كان مؤمناً من بنيه. اهـ.

● **وجعل الفخر الرازى هذا الاشكال من جزئين:**

الأول: أن الأنبياء عليهم السلام لا يعبدون الوثن البتة، وإذا كان كذلك فما الفائدة فى قوله ﴿ **وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ** ﴾.

الثانى: أنه طلب من الله أن لا يجعل أبناءه من عبدة الأصنام والله تعالى لم يقبل دعاءه، ولأن كفار قريش كانوا من أولاده، مع أنهم كانوا يعبدون الأصنام.

فان قالوا: إنهم ما كانوا أبناء إبراهيم وإنما كانوا أبناء أبنائه، والدعاء مخصوص بالأبناء، فنقول: فإذا كان المراد من أولئك الأبناء أبناءه من صلبه، وهم ما كانوا إلا إسماعيل وإسحاق، وهما كانا من أكابر الأنبياء، وقد علم أن الأنبياء لا يعبدون الصنم، فقد عاد السؤال في أنه ما الفائدة في ذلك الدعاء؟

● **الجواب: عن السؤال** قال الزجاج: معناه ثبتنى على اجتناب عبادتها كما قال ﴿**وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ**﴾ أي ثبتنا على الاسلام.

ولقائل أن يقول: السؤال باق لأنه لما كان من المعلوم أنه تعالى يثبت الأنبياء عليهم السلام على الاجتناب من عبادة الأصنام فما الفائدة في هذا السؤال؟

(١) «معالم التنزيل» (٣/ ٣٨٣).

والصحيح عندى في الجواب وجهان:

[الأول]: أنه عليه السلام وإن كان يعلم أنه تعالى يعصمه من عبادة الاصنام إلا أن ذكر ذلك هضماً للنفس وإظهارا للحاجة والفاقة إلى فضل الله في كل المطالب.

[والثانى]: أن الصوفية يقولون: إن الشرك نوعان: شرك جلي وهو الذي يقول به المشركون، وشرك خفي وهو تعليق القلب بالوسايط وبالأسباب الظاهرة. والتوحيد المحض هو أن ينقطع نظره عن الصوفيّة ولا يرى متصرفا سوى الحق سبحانه وتعالى فيحتمل أن يكون قوله: ﴿ **وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ** ﴾ المراد منه أن يعصمه عن هذا الشرك الخفي والله أعلم بمراده.

● **والجواب عن السؤال الثانى من وجوه:**

(الأول): قال صاحب الكشاف: قوله (وبني) أراد بنيه من صلبه والفائدة في هذا الدعاء عين الفائدة التى ذكرناها في قوله (واجنبنى)

(والثانى) قال بعضهم أراد من أولاده وأولاد أولاده كل من كانوا موجودين حال الدعاء ولا شبهة أن دعوته مجابة فيهم.

(الثالث) قال مجاهد: لم يعبد أحد من ولد ابراهيم عليه السلام صنما، والصنم هو التمثال المصور وما ليس بمصور فهو وثن. وكفار قريش ما عبدوا التمثال وانما كانوا يعبدون أحجاراً مخصوصة وأشجارا مخصوصة؛ وهذا الجواب ليس بقوي، لأنه عليه السلام لا يجوز أن يريد بهذا الدعاء إلا عبادة غير الله تعالى والحجر كالصنم في ذلك

(الرابع): أن هذا الدعاء مختص بالمؤمنين من أولاده والدليل عليه أنه قال في آخر الآية ﴿**فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي**﴾ وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فانه ليس منه، ونظيره قوله تعالى لنوح: ﴿ **إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ** ﴾.

(والخامس): لعله وإن كان عمم في الدعاء إلا أن الله تعالى أجاب دعاءه في حق البعض دون البعض وذلك لا يوجب تحقير الأنبياء عليهم السلام، ونظيره قوله تعالى فى حق إبراهيم عليه السلام ﴿ **قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾. اهـ.

● **فائدة في الرد على المعتزلة:**

قال الفخر الرازى: احتج أصحابنا بقوله: ﴿ **وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ** ﴾ على

أن الكفر والإيمان من الله تعالى، وتقرير الدليل أن إبراهيم عليه السلام طلب من الله أن يجنبه ويجنب أولاده من الكفر فدل ذلك على أن التبعيد من الكفر والتقريب من الإيمان ليس إلا من الله تعالى، وقول المعتزلة إنه محمول على الألطاف فاسد، لأنه عدول عن الظاهر.

● **إشكال آخر وجوابه**: أن إبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يجعل مكة آمنا، وما قبل الله دعاءه، لأن جماعة خربوا الكعبة وأغاروا على مكة.

● **والجواب عن السؤال من وجهين**:

الأول: أنه نقل أنه عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة ذكر هذا الدعاء، والمراد منه: جعل تلك البلدة آمنة من الخراب.

والثاني: أن المراد جعل أهلها آمنين، كقوله: ﴿**واسأل القرية**﴾ أى أهل القرية، وهذا الوجه عليه أكثر المفسرين: وعلى هذا التقدير فالجواب من وجهين:

الوجه الأول: ما اختصت به مكة من حصول مزيد في الأمن، وهو أن الخائف كان إذا التجأ الى مكة أمن، وكان الناس مع شدة العدواة بينهم يتلاقون بمكة فلا يخاف بعضهم بعضا، ومن ذلك أمن الوحش فإنهم يقربون من الناس إذا كانوا بمكة، ويكونون مستوحشين عن الناس خارج مكة، فهذا النوع من الأمن حاصل في مكة فوجب حمل الدعاء عليه.

والوجه الثاني: أن يكون من قوله: ﴿ **اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا** ﴾ أي بالأمر والحكم بجعله آمناً وذلك الأمر والحكم حاصل لا محالة.

● **اشكال آخر وجوابه**:

قال الزمخشرى(١): فإن قلت: أى فرق بين قوله: ﴿ **رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا** ﴾ وبين قوله: ﴿ **اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا** ﴾؟.

الإجابة: قلت: قد سأل فى الأول أن يجعله من جملة البلاد التى يأمن أهلها ولايخافون. وفى الثانى أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف فاجعله آمنا. اهـ.

---

(١) الكشاف (٢/ ٣٠٤).

وَفي الحَديثَ: «أَخْوَفُ ما أَخَافُ عَلَيْكُم الشِّرْكَ الأَصْغَرَ» فَسُئِلَ عَنْهُ؟ فقال: «الرِّيَاءُ»(١).

وكذا قال الفخر الرازى(٢): إنما قال في هذه السورة ﴿**بَلَدًا آمِنًا**﴾ على التنكير وقال في سورة إبراهيم ﴿**اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا**﴾ على التعريف لوجهين

(الأول) أن الدعوة الأولى وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلداً، كأنه قال: اجعل هذا الوادي بلداً آمناً لأنه تعالى حكى عنه أنه قال: ﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ**﴾ فقال: ههنا اجعل هذا الوادي بلداً آمناً، والدعوة الثانية وقعت وقد جعل بلداً، فكأنه قال: اجعل هذا المكان الذي صيرته بلداً ذا أمن وسلامة، كقولك: جعلت هذا الرجل آمناً

(الثانى) أن تكون الدعوتان وقعتا بعدما صار المكان بلداً، فقوله: ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا**﴾ تقديره: اجعل هذا البلد بلداً آمناً، كقولك: كان اليوم يوماً حاراً، وهذا إنما تذكره للمبالغة في وصفه بالحرارة، لأن التنكير يدل على المبالغة، فقوله: ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا**﴾ معناه: اجعله من البلدان الكاملة في الأمن، وأما قوله ﴿**اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا**﴾ فليس فيه إلا طلب الأمن لا طلب المبالغة.

● ● ●

هكذا أورد المصنف هذا الحديث مختصراً غير معرف، وقد رواه الإمام أحمد والطبراني، وابن أبي الدنيا، والبيهقي في «الزهد»، وهذا لفظ أحمد قال: حدثنا يونس، ثنا ليث عن يزيد، يعني ابن الهاد، عن عمرو عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» قالوا: وما الشرك الأصغر يارسول الله؟ قال: «**الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء**».

---

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩)، والبيهقى فى «الشعب» (٥/ ٣٣٣/ ٦٨٣١).

من طريق عبد الرحمن بن أبى الزناد، عن عمرو بن أبى عمرو، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود به.

وأخرجه أحمد أيضاً فى (٥/ ٤٢٨).

قال: حدثنا يونس، قال: ثنا ليث، عن يزيد بن الهاد، عن عمرو عن محمود بن لبيد به.

قال الهيثمى فى «المجمع» (١/ ١٠٢): رجاله رجال الصحيح.

وزنظر «فتح المجيد» (ح١٢٣) بتخريجنا).

وأنظر كتابنا «قفو الأثر شرح بلوغ المرام بكلام ابن حجر»

(٢) التفسير الكبير (١٠/ ١٣/ ١٣٩) (٢/ ١/ ٦٠)

قال المنذري ومحمود بن لبيد رأى النبي ﷺ ولم يصح له منه سماع فيما أرى.

وذكر ابن أبي حاتم أن البخاري قال: له صحبة. قال: وقال أبي: لا تعرف له صحبة.

ورجح ابن عبد البر والحافظ أن له صحبة وقال رجل: روايته عن الصحابة، وقد رواه الطبراني بإسناد جيد عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج. وقيل إن حديث محمود هو الصواب دون ذكر رافع.

مات محمود سنة ست وتسعين. وقيل: سنة سبع، وله تسع وتسعون سنة[1] اهـ.

قوله: [وفي الحديث: «أخوف ما أخاف عليكم...» الحديث]

● **مناسبة الحديث للباب:**

[قلت] مناسبته ظاهرة، ومع ذلك فقد صرح بعض الشراح بذلك.

فقال عبد الله بن جار الله[2]: علاقة الحديث بالباب أنه إذا كان الشرك الأصغر مخوفاً على الصحابة مع كمال إيمانهم فينبغي لك أيها المسلم أن تخاف من الأكبر والأصغر لضعف الإيمان. اهـ.

قال القرعاوى[3]: حيث دلَّ الحديث على أنَّ النبى - ﷺ - يخاف على أصحابه مع قوة إيمانهم؛ من الشرك الأصغر فنحن مع ضعف إيماننا وقلة معرفتنا يجب أن نخاف من الشركين الأصغر والأكبر من باب أولى.

❊ كلام شراح التوحيد فى الحديث:

●**قوله: (وفى الحديث):**

قال ابن عثيمين[4]: **الحديث**: ما أضيف إلى الرسول.

والخبر: ما أضيف إليه وإلى غيره.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٨٥)

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٢٦).

(٣) الجديد (٥٦).

(٤) القول المفيد (١/ ١٤٤).

والأثر: ما أضيف إلى غير الرسول ﷺ؛ أي: إلى الصحابي فمن بعده، إلا إذا قُيّد فقيل: وفي الأثر عن رسول الله ﷺ؛ فيكون على ما قُيّد به اهـ.

●**قوله: (أخوف ما أخاف عليكم):**

قال ابن عثيمين[1]: الخطاب للمسلمين؛ إذ المسلم هو الذي يُخاف عليه الشرك الأصغر، وليس لجميع الناس. أهـ

قال القرعاوى[2]: أى أشد شيئاً أخافه عليكم. اهـ.

قوله: (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر).

قال سليمان آل الشيخ[3]: هذا من رحمته ﷺ لأمته وشفقته عليهم، وتحذيره مما يخاف عليهم، فإنه ما من خير إلا دلهم عليه وأمر به، وما من شر إلا وأخبرهم به وحذرهم عنه.

كما قال ﷺ فيما صح عنه: **«إنه لم يكُنْ نبيٌّ قَبْلي إلاَّ كَانَ حقّاً عَلَيْهِ أنْ يَدلَّ أُمّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلمهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ عَنْ شَرِ مَا يَعْلمهُ لَهُمْ»**[4].

ولما كانت النفوس مجبولة على محبة الرياسة والمنزلة في قلوب الخلق إلا من سلم الله، كان هذا أخوف ما يخاف على الصالحين، لقوة الداعي إلى ذلك، والمعصوم من عصمه الله، وهذا بخلاف الداعي إلى الشرك الأكبر، فإنه إما معدوم في قلوب المؤمنين الكاملين، ولهذا يكون الإلقاء في النار أسهل عندهم من الكفر. وإما ضعيف. هذا مع العافية، وإما مع البلاء، فـ ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**﴾. فلذلك صار خوفه ﷺ على أصحابه من الرياء أشد لقوة الداعي وكثرته، دون الشرك الأكبر لما تقدم، مع أنه أخبر أنه لابد من وقوع عبادة الأوثان في أمته، فدل على أنه ينبغي للإنسان أن يخاف على نفسه الشرك الأكبر إذا كان الأصغر مخوفاً الصالحين من الصحابة مع كمال إيمانهم، فينبغي للإنسان أن يخاف الأكبر لنقصان إيمانه ومعرفته بالله، فهذا وجه إيراد المصنف له هنا مع أن الترجمة تشمل النوعين. أهـ.

---

(١) القول المفيد(١/ ١٤٤)

(٢) الجديد (٥٧).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٨٥ - ٨٦).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم (١٨٤٤).

وأنظر تمام تخريجه في «فتح المجيد» (ح١٢٦) بتخريجنا

وقال حامد بن محمد[1]: وثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه يقول: «**قال الله أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى فأنا برىء منه، وهو كله للذى أشرك**»[2].

واعلم أن من حكمة الله وعدله يعامل الذى يقصد غيره فى عمل أو قول بنقيض قصده، وذلك لأنه تعالى ينظر إلى العامل، فإن كان عمله لله خالصاً يجازيه به، وإن أشرك معه غيره يرجعه إذاً خائباً خاسراً، قال تعالى: ﴿**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا**﴾[3] وأيضاً يريد المرائى أن يعظم فى أعين الناس بعمله أو قوله فيرائى الله به فيسقط من عين الله أولاً ثم من عيونهم.

وفى الحديث عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سمع سمع الله به، ومن راءى راءى الله به**»[4] أخرجاه فى الصحيحين. اهـ.

قال السعدى[5] **فى قوله: (الشرك الأصغر)** هو جميع الأقوال والأفعال التى يتوسل بها إلى الشرك كالغلو فى المخلوق الذى لايبلغ رتبة العبادة كالحلف بغير الله ويسير الرياء ونحو ذلك. اهـ.

وسيأتى تفصيل ذلك وضوابط الشرك الأصغر وكذلك الأكبر فى باب الرقى والتمائم.

●**قوله: (فسئل عنه؟ فقال الرياء):**

قال ابن حجر [6]: الرياء: بكسر الراء وتخفيف التحتانية والمد، وهو مشتق من الرؤية، والمراد به: إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدوا صاحبها.

والسُّمْعَة: مشتقة من سمع، والمراد بها نحو ما فى الرياء، لكنها تتعلق بحاسة السمع والرياء بحاسة البصر.

---

(١) فتح الله الحميد المجيد (١٦٧).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الزهد (٢/ ٥٩٢ ـ الحلبي)
وأنظر «رياض الصالحين» (١٦١٩ ـ بتخريجنا). وتقدم تخريجه

(٣) طه: (١١١)

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم في الزهد (١٨ / ١١٦ ـ النووي).
وأنظر «كتابنا فقه الخطابة. وانظر «رياض الصالحين» (١٦٢٢ ـبتخريجنا)

(٥) القول السديد (٢٤).

(٦) فتح البارى (١١/ ٣٤٤، ٣٤٥).

وقال الغزالى: المعنى طلب المنزلة فى قلوب الناس؛ بأن يريهم الخصال المحمودة. والمرائى هو العامل

وقال ابن عبد السلام: الرياء: أن يعمل لغير الله. والسمعة: أن يخفى عمله لله، ثم يحدث به الناس.

ثم قال فى شرح قوله ﷺ: «من سمع سمع الله به ومن يراءى يراءى الله به».

قال: ولابن المبارك فى «الزهد» من حديث ابن مسعود: «من سمع سمع الله به، ومن يراءى راءى الله به، ومن تطاول تعاظماً خفضه الله، ومن تواضع تخشعاً رفعه الله»(١).

وعند الطبرانى من حديث جابر: «ومن كان ذا لسانين فى الدنيا جعل الله له لسانين من نار يوم القيامة» (٢)

قال الخطابى: معناه من عمل عملاً على غير إخلاص، وإنما يريد أن يراه الناس ويسمعوه؛ جُوزى على ذلك بأن يشهر الله، ويفضحه، ويظهر ما كان يبطنه. وقيل: من قصد بعمله الجاه والمنزلة عند الناس، ولم يرد به وجه الله، فإن الله، يجعله حديثاً عند الناس الذين أراد نيل المنزلة عندهم، ولا ثواب له فى الأخيرة.

ومعنى يرائى يطلعهم على أنه فعل ذلك لهم لا لوجهه

ومنه قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ إلى قوله: ﴿مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقيل: المراد من قصد بعمله أن يسمعه الناس ويروه ليعظموه وتعلو منزلته عندهم حصل له ما قصد، وكان ذلك جزاء عمله، ولايثات عليه فى الآخرة.

وقيل: المعنى: من سمعّ بعيوب الناس وأذاعها أظهر الله عيوبه وسمّعه المكروه.

وقيل: المعنى من نسب إلى نفسه عملاً صالحاً لم يفعله وادعى خيراً لم يصنعه فإن الله يفضحه ويظهر كذبه.

وقيل: المعنى من يرائى الناس بعمله أراه الله ثواب ذلك العمل وحرمه إياه.

وقيل معنى سمّع الله به شهره، أو ملأ أسماع الناس بسوء الثناء عليه فى الدنيا أو فى القيامة بما ينطوى عليه خبث السريرة.

---

(١) بنحوه أخرجه ابن المبارك في الزهد» (١٤٠) عن ابن عمر .

(٢) الذي في الطبراني إنما هو عن أنس أخرجه في الأوسط» (٨ / ٣٦٥ / ٨٨٨٥).

[قلت: ـ ابن حجر ـ] ورد فى عدة أحاديث التصريح بوقوع ذلك فى الآخر، فهو المعتمد.

ثم قال: وفى الحديث استحباب إخفاء العمل الصالح، لكن قد يستحب إظهاره ممن يقتدى به على إرادته الاقتداء به، ويقدر ذلك بقدر الحاجة.

قال ابن عبد السلام: يستثنى من استحباب إخفاء العمل من يظهر ليقتدى به أو لينتفع به ككتابة العلم، ومنه حديث سهل: «لتأتمو بى ولتعلموا صلاتى» قال الطبرى: كان ابن عمر وابن مسعود وجماعة من السلف يتهجدون فى مساجدهم ويتظاهرون بمحاسن أعمالهم ليقتدى بهم.

قال: فمن كان إماماً يستن بعمله عالماً بمالله عليه قاهراً لشيطانه استوى ما ظهر من عمله وما خفى لصحة قصده، ومن كان بخلاف ذلك، فالإخفاء فى حقه أفضل وعلى ذلك جرى عمل السلف اهـ.

- **قال عبد الله بن جار الله**(١): الرياء، مأخوذ من الرؤية، وهو أن يتظاهر الإنسان بالأعمال الصالحة ليحمده الناس، وخافه النبى ﷺ على أصحابه، لأنه أكثر موافقة للنفس ومحبة لها، وأسهل للنفوذ إليها. اهـ.

- **قال ابن باز**(٢): وله شواهد قوية - لهذا الحديث - تدل على وجوب الحذر من الرياء، وأنه خطير ويبتلى به الصلحاء، لأنه قد يرائى بصلاته وزكاته وأمره بالمعروف ونهية عن المنكر.

- **قال ابن عثيمين**(٣): قوله: «**الرياء**» مشتقٌ من الرؤية مصدر راءى يرائي، والمصدر رياءً؛ كقاتل يقاتل قتالاً.

والرِّياء: أن يعبد الله ليراه الناس فيمدحوه على كونه عابداً، وليس يريد أن تكون العبادة للناس؛ لأنه لو أراد ذلك؛ لكان شركاً أكبر، والظاهر أنَّ هذا على سبيل التمثيل، وإلاّ؛ فقد يكون رياءً، وقد يكون سماعاً، أى يقصد بعبادته أن يسمعه الناس فيثنوا عليه، فهذا داخل في الرياء فالتعبير بالراء من باب التعبير بالأغلب.

---

(١) الجامع الفريد (٢٧).

(٢) التعليق المفيد (٤٨).

(٣) القول المفيد (١/ ١٤٥، ١٤٦).

أمَّا إن أراد بعبادته أن يقتدي الناس به فيها؛ فليس هذا رياءً، بل هذا من الدعوة إلى الله - عز وجل -، والرسول ﷺ يقول: «**فعلت هذا لتأتموا بي وتعلموا صلاتي**»(١).

والرياء ينقسم باعتبار إبطاله للعبادة إلى قسمين:

الأول: أن يكون في أصل العبادة، أي ما قام يتعبد إلاَّ للرياء؛ فهذا عمله باطل مردود عليه لحديث أبي هريرة في «الصحيح» مرفوعاً، قال الله تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معي فيه غير تركته وشركه**»(٢).

الثاني: أن يكون الرّياء طارئاً على العبادة، أي أصل العبادة لله، لكن طرأ عليها الرياء؛ فهذا ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يدافعه؛ فهذا لايضرّه.

مثاله: رجل صلى ركعة، ثم جاء أناس في الركعة الثانية، فحصل في قلبه شيء بأن أطال الركوع أو السجود أو تباكى وما أشبه ذلك، فإن دافعه؛ فإنه لايضره لأنه قام بالجهاد.

وإن استرسل معه؛ فكل عمل ينشأ عن الرياء، فهو باطل؛ كما لو أطال القيام، أو الركوع، أو السجود، أو تباكى؛ فهذا كل عمله حابط، ولكن هل هذا البطلان يمتد إلى جميع العبادة أم لا؟

نقول: لا يخلو هذا من حالين:

الحال الأول: أن يكون آخر العبادة مبنياً على أولها، بحيث لا يصحّ أولها مع فساد آخرها؛ فهذه كلها فاسدة.

وذلك مثل الصلاة؛ فالصلاة مثلاً لايمكن أن يفسد آخرها ولا يفسد أولها، وحينئذ تبطل الصلاة كلها إذا طرأ الرياء في أثنائها ولم يدافعه.

الحال الثانية: أن يكون أول العبادة منفصلاً عن آخرها، بحيث يصحّ أولها دون آخرها، فما سبق الرياء؛ فهو صحيح، وما كان بعده؛ فهو باطل.

مثال ذلك: رجل عنده مئة ريال، فتصدق بخمسين بنية خالصة، ثم تصدق بخمسين بقصد الرياء؛ فالأولى مقبولة، والثانية غير مقبولة؛ لأنَّ آخرها منفك عن أولها.

(١) [متفق عليه] أخرجه (٩١٧)، ومسلم في المساجد (٥ / ٢٣ ـ لنووي).
وأنظر «منار السبيل» (١٠٦ ـبتخريجنا)

(٢) تقدم قريباً

فإن قيل: لو حدث الرياء في أثناء الوضوء؛ هل يلحق بالصلاة فيبطل كله، أو بالصدقة فيبطل ما حصل فيه الرياء فقط.

فالجواب: يحتمل هذا وهذا؛ فيلحق بالصلاة لأن الوضوء عبادة واحدة ينبني بعضها علي بعض، ليس تطهير كل عضو عبادة مستقلة، ويلحق بالصدقة لأنه ليس كالصلاة من كل وجه ولا الصدقة من كل وجه؛ لأننا إذا قلنا ببطلان ما حصل فيه الرياء، فأعاد تطهيره وحده لم يضر؛ لأن تكرار غسل العضو لا يبطل الوضوء ولو كان عمداً، بخلاف الصلاة؛ فإنه إذا كرر جزءً منها كركوع أو سجود لغير سبب شرعي؛ بطلت صلاته، فلو أنه بعد أن غسل يديه رجع وغسل وجهه؛ لم يبطل وضوؤه، ولو أنه بعد أن سجد رجع وركع؛ لبطلت صلاته، والترتيب موجود في هذا وهذا، لكن الزيادة في الصلاة تبطلها، والزيادة في الوضوء لاتبطله، والرجوع مثلاً إلى الأعضاء الأولى لا يبطله أيضاً، وإن كان الرجوع في الحقيقة لا يعتبر وضوءً لأنَّه غير شرعي، وربما يكون بالأولى غسل وجهه على أنه واحدة، ثم غسل يديه، ثم قال: الأحسن أن أكمل الثلاثة في الوجه أفضل، فغسل وجهه مرتين، وهو سيرتّب أي سيغسل يديه ثم وجهه؛ فوضوؤه صحيح.

ولو ترك التسبيح ثلاث مرَّات في الركوع، وبعدما سجد قال: فوتُّ على نفسي فضيلةً، سأرجع لأجل أن أسبح ثلاثة مرَّات؛ فتبطل صلاته؛ فالمهمُّ أن هناك فرقاً بين الوضوء والصلاة، ومن أجل هذا الفرق لا أبتُّ فيها الآن حتى أراجع وأتأمل إن شاء الله تعالى(١). أهـ

[قلت] : وسيأتي في الباب الخامس والثلاثين (ماجاء في الرياء) فانظره.

(١) القول المفيد (١/ ١٤٥ : ١٤٨).

وَعَنْ ابـنِ مَسْعُودٍ (رضيَ اللهُ عَنْهُ؛ أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِن دُونِ الله نداً دَخلَ النَّارَ) رواهُ البُخَارِيُّ[(١)].

قوله : [وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺقال: من مات وهويدعو من دون الله نداً دخل النار»]

هذا الحديث رواه البخارى فى كتاب التفسير باب: **(ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله).**

ولفظه: «عن عبد الله: قال النبى - ﷺ -كلمةٌ وقلت أخري: قال النبيُّ - ﷺ - **«من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار» وقلت أنا : من مات وهو لايدعو لله نداً دخل الجنة»**. وأخرجه أيضاً في كتاب الجنائز/ باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لاإله إلا الله، ولفظه قال رسول الله ﷺ :**«من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار»** وقلت أنا من مات لايشرك بالله شيئاً دخل الجنَّة].

وأخرجه فى كتاب الإيمان والنذور فى باب إذا قال والله لا أتكلم اليوم فصلى أوقرأ أو سبح أو كبر أو حمد أوهلل فهو على نيته. . . . ولفظه ما ذكره فى كتاب التفسير.

● **مناسبة الحديث للباب:**

قال القرعاوى: حيث دلَّ الحديث على أن من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار فأوجب ذلك أن نخاف من الشرك[(٢)].

● **قوله: (من).**

قال ابن عثيمين: هذه شرطية تفيد العموم للذكر والأنثى[(٣)].

● **قوله: «من مات وهو يدعو من دون الله نداً»**

● **الجمع بين ألفاظ الحديث.**

فى رواية للبخارى: (من مات يشرك بالله) قال ابن حجر: فى رواية أبى حمزة عن

---

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى فى «التفسير» / باب: **﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا﴾** (٨/٢٥/ح ٤٤٩٧) وطرفه فى (ح ١٢٣٨) ومسلم فى «الإيمان» / باب: من مات لايشرك بالله. . . (١/ ٣٦٩/ ح ٩٢) بلفظ. «من مات يُشرك بالله شيئاً دخل النار». من حديث ابن مسعود.

وأخرجه أحمد في «مسنده» (١ / ٣٨٢، ٤٤٣، ٤٦٤)

وأنظر «فتح المجيد» (ح ١٢٨) بتخريجنا)

(٢) الجديد ٦٠.

(٣) القول المفيد ١/ ١٤٨.

الأعمش فى تفسير البقرة: «**من مات وهو يدعو من دون الله نداً**» وفى أوله: «**قال النبى ﷺ كلمة وقلت أنا أخرى**»، ولم تختلف الروايات فى الصحيحين فى أن المرفوع الوعيد والموقوف الوعد. وزعم الحميدى فى «الجمع» وتبعه مغلطاى فى شرحه ومن أخذ عنه أن فى رواية مسلم من طريق وكيع وابن نمير بالعكس بلفظ: «**من مات لايشرك بالله شيئاً دخل الجنة، وقلت أنا من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار**» وكأن سبب الوهم فى ذلك ما وقع عند أبى عوانة والإسماعيلى من طريق وكيع بالعكس، لكن بين الإسماعيلى أن المحفوظ عن وكيع كما فى البخارى، قال: وإنما المحفوظ أن الذى قلبه أبو عوانة وحده وبذلك جزم ابن خزيمة فى صحيحه، والصواب رواية الجماعة، وكذلك أخرجه أحمد من طريق عاصم وابن خزيمة من طريق يسار وابن حبان من طريق المغيرة كلهم عن شقيق، وهذا هو الذى يقتضيه النظر لأن جانب الوعيد ثابت بالقرآن وجاءت السنة على وفقه فلا يحتاج إلى استنباط، بخلاف جانب الوعد فإنه فى محل البحث إذ لايصح حمله على ظاهره. وكأن ابن مسعود لم يبلغه حديث جابر الذى أخرجه مسلم بلفظ «قيل: يارسول الله ما الموجبتان؟ قال: **من مات لايشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار**»(١).

وقال النووي: الجيد أن يقال سمع ابن مسعود اللفظتين من النبي ﷺ ولكنه في وقت حفظ إحداهما وتيقنها ولم يحفظ الأخرى فرفع المحفوظة وضم الأخرى إليها، وفى وقت بالعكس، قال: فهذا جمع بين روايتي ابن مسعود وموافقته لرواية غيره فى رفع اللفظتين. انتهى.

وهذا الذى قال محتمل بلاشك، لكن فيه بعد مع اتحاد مخرج الحديث، فلو تعدد مخرجه إلى ابن مسعود لكان احتمالا قريباً مع أنه يستغرب من انفراد راو من الرواة بذلك دون رفقته وشيخهم ومن فوقه، فنسبة السهو إلى شخص ليس بمعصوم أولى من هذا التعسف.

(فائدة) حكى الخطيب فى «المدرج» أن أحمد بن عبد الجبار رواه عن أبى بكر بن عياش عن عاصم مرفوعاً كله وأنه وهم فى ذلك.

وفى حديث ابن مسعود دلالة على أنه كان يقول بدليل الخطاب، ويحتمل أن يكون أثر ابن مسعود أخذه من ضرورة انحصار الجزاء فى الجنة والنار.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في الإيمان (٢ / ٩٢ ـ النووي)
وأنظر «رياض الصالحين» (٤١٥ ـ بتخريجنا)

وفيه إطلاق الكلمة على الكلام الكثير(١).

قال سليمان آل الشيخ: قال ابن القيم: الند: الشبه. يقال: فلان ند فلان ونديده، أي مثله انتهى.

وهذا كما قال تعالى: ﴿**فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾(٢) وقال تعالى: ﴿**وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**﴾(٣) أي من مات وهو يدعو لله نداً، أي يجعل لله نداً فيما يختص به تعالى ويستحقه من الربوبية والإلهية دخل النار، لأنه مشرك، فإن الله تعالى هو المستحق للعبادة لذاته، لأنه المألوه المعبود الذي تألهه القلوب وترغب إليه، وتفرغ إليه عند الشدائد، وما سواه فهو مفتقر إليه، مقهور بالعبودية له، تجري عليه أقداره وأحكامه طوعاً وكرهاً، فكيف يصلح أن يكون نداً؟ قال الله تعالى: ﴿**وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ**﴾(٤) وقال: ﴿**إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا**﴾(٥) الآيتان: وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾(٦) فبطل أن يكون له نديد من خلقه، تعالى عن ذلك علواً كبيراً: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾(٧).

واعلم أن دعاء الند على قسمين: أكبر وأصغر، فالأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو الشرك الأكبر. والأصغر كيسير الرياء، وقول الرجل ما شاء الله وشئت، ونحو ذلك.

فقد ثَبَتَ أَنَّ النبي ﷺ لمَّا قالَ لَهُ رَجُل: مَا شاءَ الله وَشِئْتَ. قَالَ: «أَجعلتني لله نداً؟! بَل مَا شَاءَ الله وَحْدَهُ»(٨) رواه أحمد وابن أبي شيبة، والبخاري في «الأدب المفرد» والنسائي، وابن ماجه، وقد تقدم حكمه في باب فضل التوحيد(٩).

---

(١) الفتح ٨/ ١٣٤. (٢) البقرة: ٢٢. (٣) الزمر: ٨.

(٤) الزخرف: ١٥. (٥) مريم: ٩٣. (٦) فاطر: ١٥.

(٧) المؤمنون: ٩١، ٩٢.

(٨) يتقدم تخريجه

وأنظر تمام تخريجه أيضاً في «فتح المجيد» (ح ١٢٩) بتخريجنا

(٩) تيسير العزيز الحميد (٨٦ و ٨٧).

قال ابن عثيمين: قوله: «يدعون من دون الله نداً».

أي: يتخذ لله نداً سواء دعاه دعاء عبادة أم دعاء مسألة؛ لأنَّ الدعاء ينقسم إلى قسمين:

الأول: دعاء عبادة، مثاله: الصوم، والصلاة، وغير ذلك من العبادات، فإذا صلى الإنسان أو صام؛ فقد دعا ربه بلسان الحال أن يغفر له، وأن يجيره من عذابه، وأن يعطيه من نواله، وهذا في أصل الصلاة، كما أنَّها تتضمَّن الدعاء بلسان المقال.

ويدلّ لهذا القسم قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي** ﴾[(١)]؛ فجعل الدعاء عبادة، وهذا القسم كلّه شرك، فمن صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله؛ فقد كفر كُفراً مُخرجاً له عن الملَّة، فلو ركع لإنسان أو سجد لشيء يعظِّمه كتعظيم الله في هذا الركوع أو السجود؛ لكان مشركاً، ولهذا منع النبي ﷺ من الانحناء عند الملاقاة لما سئل عن الرجل يلقى أخاه أن ينحني له؟ قال: «لا»[(٢)].

خلافاً لما يفعله بعض الجهَّال إذا سلَّم عليك انحنى لك؛ فيجب على كلّ مؤمن بالله أن ينكره؛ لأنَّه عظَّمك على حساب دينه.

الثاني: دعاء المسألة؛ فهذا ليس كُلّه شركاً، بل فيه تفصيل، فإن كان المخلوق قادراً على ذلك؛ فليس بشرك؛ كقولك: اسقني ماء لمن يستطيع ذلك. قال ﷺ: «**من دعاكم فأجيبوه**»[(٣)]، وقال تعالى: ﴿ **وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ** ﴾[(٤)].

فإذا مدَّ الفقير يده، وقال: ارزقني؛ أي: أعطني؛ فهو جائز، كما قال تعالى: ﴿**فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ**﴾، وأما إن دعا المخلوق بما لا يقدر عليه إلا الله؛ فإن دعوته شرك مخرج عن الملَّة.

مثال ذلك: أن تدعو إنساناً أن يُنزِّل الغيث معتقداً أنَّه قادر على ذلك.

---

(١) غافر آيه: ٦٠.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/١٩٨)، والترمذى](٢٧٢٨)، وابن ماجة (٣٧٠٢). قال الترمذى: حديث حسن

وانظر «رياض الصالحين» (٨٩٠ ـ بتخريجنا).

(٣) [صحيح] أخرج مسلم فى النكاح (٩/٢٣٦ ـ النووى) عن أبى هريرة بلفظ «إذا دعى أحدكم فليجب».

(٤) النساء: ٨.

والمراد بقول الرسول ﷺ: «**من مات وهو يدعو لله نداً**» المراد الندّ في العبادة، أما الندّ في المسألة، ففيه التفصيل السابق.

ومع الأسف؛ ففي بعض البلاد الإسلامية من يعتقد أن فلاناً المقبور الذي بقي جثّة أو أكلته الأرض ينفع أو يضرّ، أو يأتي بالنَّسل لمن لا يولد لها، وهذا ـ والعياذ بالله ـ شرك أكبر مُخرج من الملّة، وإقرار هذا أشد من إقرار شرب الخمر والزِّنا واللواط، لأنَّه إقرار على كفر، وليس إقراراً على فسوق فقط.

قوله: «**دخل النار**».

أي: خالداً، مع أن اللفظ لايدلّ عليه؛ لأن دخل فعل، والفعل يدلّ على الإطلاق.

وأيضاً قال الله تعالى: ﴿**إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾(١)، وإذا حُرِّمت الجنَّة؛ لزم أن يكون خالداً في النار أبداً؛ فيجب أن نخاف من الشِّرك ما دامت هذه عقوبته؛ فالمُشرك خَسِرَ الآخرة؛ لأنَّه في النار خالدٌ، وخَسِرَ الدنيا أيضاً؛ لأنَّه لم يستفد منها شيئاً، وقامت عليه الحجة، وجاءه النذير، ولكنه خسر ـ والعياذ بالله ـ، ما استفاد شيئاً من الدنيا، قال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ**﴾(٢)، وقال الله ـ عز وجل ـ ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾(٤).

فخسر نفسه؛ لأنَّه لم يستفد منها شيئاً، وخسر أهله؛ لأنَّهم إن كانوا من المؤمنين فهم في الجنة، فلا يتمتع بهم في الآخرة، وإن كانوا في النار فكذلك؛ لأنَّه كلما دخلت أمة لعنت أختها، والشرك خفي جداً؛ فقد يكون في الإنسان وهو لايشعر إلا بعد المحاسبة الدقيقة، ولهذا قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء ما جاهدتها على الإخلاص».

فالشرك أمره صعب جداً ليس بالهيِّن، ولكن ييسر الله الإخلاص على العبد وذلك بأن يجعله الله نصب عينيه، فيقصد بعمله وجه الله لايقصد مدح الناس أوذمَّهم أو

---

(١) المائدة آية: ٧٢.
(٢) فاطر: ٣٧.
(٣) الحج: ١١.
(٤) الزمر: ١٥.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (مَنْ لَقِيَ اللهَ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً؛ دَخَلَ الجَنَّةَ. وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً؛ دَخَلَ النَّارَ)[١].

ثناءهم عليه، فالناس لاينفعونه أبداً، حتى لو خرجوا معه لتشييع جنازته لم ينفعه إلا عمله، قال - ﷺ - **يخرج مع الميت أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله»**.

وكذلك أيضاً من المهم أنَّ الإنسان لايفرحه أن يقبل الناس قوله لأنَّه قوله، لكن يفرحه أن يقبل الناس قوله إذا رأى أنه الحق لأنه الحق، لا أنه قوله: وكذا لايحزنه أن يرفض الناس قوله لأنه قوله؛ لأنه حينئذ يكون قد دعا لنفسه، لكن يحزنه أن يرفضوه لأنه الحق، وبهذا يتحقق الإخلاص.

فالإخلاص صعب جداً. إلا أنَّ الإنسان إذا كان متجهاً إلى الله اتجاهاً صادقاً سليماً على صراطٍ مستقيم؛ فإنَّ الله يعينه عليه وييسره له[٢].

●●●

قوله : [ولمسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: ...إلخ»].

● مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوى[٣]: حيث دلَّ الحديث الشريف على أنّ كل من مات على الشرك دخل النار فأوجب ذلك علينا أن نخاف من الشرك بجميع أنواعه.

● قوله: [ولمسلم عن جابر]

قال سليمان آل الشيخ[٤]: جابر هو ابن عبد الله بن عمرو بن حرام - بمهملتين - الأنصاري ثم السلمي بفتحتين، صحابي جليل مكثر، ابن صحابي، له ولأبيه مناقب مشهورة رضي الله عنهما. مات بالمدينة بعد السبعين، وقد كف بصره وله أربع وتسعون سنة.

● قوله: (من).

قال ابن عثيمين: شرطية تفيد العموم، وفعل الشرط: «لقي» وجوابه قوله: «دخل

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الإيمان» / باب: من مات لايشرك بالله (١/ ٣٧٠/ ح ٩٣) وأحمد فى «مسنده» (٣/ ٣٢٥، ٣٤٥، ٣٧٤) وابن خزيمة فى كتاب «التوحيد» (٣٦٢). من حديث جابر.
وانظر «فتح المجيد» (ح ١٣٠) بتخريجنا.

(٢) القول المفيد ١/١٤٨ : ١٥٢.

(٣) الجديد ٦١.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٨٧ و ٨٨.

الجنه» وهذا الدخول لا ينافى أن يعذَّب بقدر ذنوبه إن كانت عليه ذنوب، لدلالة نصوص الوعيد على ذلك وهذا إن لم يغفر الله له؛ لانه داخل تحت المشيئة[1].

● **قوله [من لقى الله لايشرك به شيئاً].**

قال ابن عثيمين: قوله: «**لايشرك**».

فى محل نصب على الحال من فاعل «لقي».

قوله: «**شيئا**» نكرة فى سياق الشرط؛ فيعم أي شرك حتى ولو أشرك مع الله أشرف الخلق، وهو الرسول - ﷺ - دخل النار. فكيف بمن يجعل الرسول ﷺ أعظم من الله، فيلجأ إليه عند الشدائد ولا يلجأ إلى الله بل ربما يلجأ إلي ما دون الرسول ﷺ وهناك من لا يبالى بالحلف بالله صادقاً أم كاذباً، ولكن لايحلف بقوميته إلا صادقاً، ولهذا اختلف فيمن لايبالى بالحلف بالله، ولكنه لايحلف بملته أو بما يعظمه الاصادقاً فلزمته يمين، هل يحلف بالله أو يحلف بهذا فقيل: يحلف بالله ولو كذب، ولانعان على الشرك، وهو الصحيح: وقيل: يحلّف بغير الله؛ لأن المقصود الوصول إلى بيان الحقيقة، وهو إذا كان كاذباً لايمكن أن يحلف، لكن نقول: إن كان صادقاً حلف وحصل الشرك[2]. أهـ.

● **مسألة:**

هل يلزم من دخول النار الخلود لمن أشرك؟

قال ابن عثيمين: هذا بحسب الشرك، إن كان الشرك أصغر، فإنَّه لا يلزم من ذلك الخلود فى النار، وإن كان أكبر، فإنه يلزم منه الخلود فى النار.

لكن لو حملنا الحديث على الشرك الأكبر فى الموضعين فى قوله: «**من مات لايشرك بالله شيئاً دخل الجنة**».[3] وفى قوله: «**ومن لقى الله يشرك به شيئاً دخل النار**»[4] قلنا: من لقى الله لايشرك به شيئاً دخل الجنة، وإن عُذِّب قبل الدخول فى النار بما يستحق، فيكون مآله إلى الجنَّة، ولا حاجة إلى أن نقول، ولننظر إلى النصوص الأخرى الدالة على أنه يُعذِّب، لأنهَّ دخلها دخولاً مطلقاً مخلَّداً، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار، ولا حاجة أن نقسِّم ونقول، دخولاً مطلقاً، أو مطلق دخول.

(١) القول المفيد ١/ ١٥٢.

(٢) القول المفيد ١/ ١٥٣.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

فيه مَسَائِلُ

الاولى: الخَوْفُ مِنَ الشِّرْكِ.

الثانية: أَنَّ الرِّيَاءَ مِنَ الشِّرْكِ.

الثالثة: أَنَّهُ مِنَ الشِّرْكِ الأَصْغَرِ.

أمَّا إذا قسَّمنا الشرك إلى قسمين، أصغر وأكبر، فإننا أيضاً نقسِّم الدخول إلى قسمين دخول مطلق، ومطلق الدخول[1]. اهـ.

فيه مسائل:

● **الأولى: الخوف من الشرك.**

قال ابن عثيمين[1]:

لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾، ولقوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ أ.هـ.

[قلت]: قوله (الخوف من الشرك) أتى بها المصنف من قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لا ....﴾ أى معصية تغفر إلا الشرك وكذلك عن قوله ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾.

إذا كان إمام الحنفاء والموحدين خش على نفسه ونبيه من الشرك الأكبر الظاهر فمن باب أولى نحن نخاف على أنفسنا.

وكذلك قوله **«من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار»** **«ومن مات وهو يشرك بالله شيئاً دخل النار»**

● **الثانية: أن الرياء من الشرك.**

لحديث: **«أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»**. فسئل عنه فقال: **«الرياء»** وقد سبق بيان أحكامه بالنسبة إلى إبطال العبادة.

● **الثالثة: أنه من الشرك الأصغر**؛ لأنَّ النبي ﷺ لما سئل عنه قال: «الرياء»، فسماه شركاً أصغر.

وهل يمكن أن يصل إلى الأكبر؟

ظاهر الحديث لايمكن؛ لأنَّه قال: «الشرك الأصغر»، فسئل عنه؛ فقال: «الرياء».

---

(١) القول المفيد ١/ ١٥٤.

الرابعة: أَنَّهُ أخْوَفُ مَا يُخَافُ مِنْهُ عَلَى الصَّالِحِينَ.

الخامسة: قُرْبُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ.

السادسة: الجَمْعُ بَيْنَ قُرْبِهِمَا فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ.

السابعة: أَنَّهُ مَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ النَّارَ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْبَدِ النَّاسِ.

الثامنة: المَسْأَلَةُ العَظِيمَةُ سُؤَالُ الخَلِيلِ لَهُ وَلِبَنِيهِ وِقَايَةَ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ.

لكن في عبارات ابن القيم ـرحمه الله ـ أنه إذا ذكر الشرك الأصغر قال: كيسير الرياء؛ فهذا يدل على أن كثيره ليس من الأصغر، لكن إن أراد بالكميَّة؛ فنعم؛ لأنَّه لو كان يرائي في كل عمل لكان مشركاً شركاً أكبر لعدم وجود الإخلاص في عمل يعمله، أما إذا أراد الكيفية؛ فظاهر الحديث أنَّه أصغر مطلقاً أ. هـ.

[قلت]: وسيأتى فى (باب: ما جاء فى الرياء) تفصيلاً لما أُجمل هنا فى هذا الموضع

- **الرابعة: أنَّه أخوف ما يخاف منه على الصالحين.**

وتؤخذ من قوله: **«أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، ولأنَّه قد يدخل في قلب الإنسان من غير شعور لخفائه وتطلُّع النفس إليه، فإنَّ كثيراً من النفوس تحبّ أن تمدح بالتعبد لله.**

- **الخامسة: قرب الجنة والنار.**

لقوله: **«من لقي الله لايُشرك به شيئاً؛ دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً؛ دخل النار»**

أ.هـ. **قلت**: ويؤيده أيضاً قوله تعالي **﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ الآية.**

- **السادسة: الجمع بين قربهما في حديث واحد.**

«من لقي الله لايُشرك به شيئاً... »الحديث.

- **السابعة: أنَّ من لقيه يُشرك به شيئاً دخل النار، ولو كان من أعبد الناس.**

تؤخذ من العموم في قوله: **«من لقي الله»**؛ لأنَّ «من» للعموم، لكن إن كان شركه أكبر؛ لم يدخل الجنة وإن كان أعبد الناس؛ لقوله تعالى: **﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾**، وإن كان أصغر؛ عُذِّب بقدر ذنوبه ثم دخل الجنة.

قلت: وعلي هذا فمقصد المصنف ـ رحمه الله ـ بقوله: «دخل النار» أى مخلد بغير خروج أو مؤقت ثم يخرج

- الثامنة: المسألة العظيمة سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام.

التاسعة: اعْتِبَارُهُ بِحَالِ الأكْثَرِ؛ لِقَوْلِه: ﴿رَبِّ إنَّهنَّ أضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاس﴾.

العاشرة: فِيه تَفْسِيرُ (لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ) كَمَا ذَكَرَهُ البُخَارِيُّ.

الحادية عشرة: فَضِيلَةُ مَنْ سَلِمَ مِنَ الشِّرْكِ.

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾.

[قلت]: فإذا كان خليل الله وأبو الأنبياء، وهو مع ذلك يخشى على نفسه، فنحن من باب أولى أن نخاف الشرك..

● **التاسعة: اعتباره بحال الأكثر لقوله: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ ﴾.**

وفيه إشكال؛ إذ المؤلف يقول: بحال الأكثر، والآية: ﴿ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ ﴾، وفرق بين كثير وأكثر، ولهذا قال تعالى في بني آدم: ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾(١)؛ فلم يقل على أكثر الخلق، ولا على الخلق؛ فالآدميون فُضِّلوا على كثير ممن خلق الله، وليسوا أكرم الخلق على الله، ولكنه كرَّمهم.

[قلت]: وتقدم الكلام على الأكثرية - فى الباب الذى قبل هذا - أنها لا تدل على الحق، وأنها ليست فى ذاتها حجة على الناس إنما الحجة قول الله وقول رسوله يفهم السلف الصالح، ولاتدل - الكثرة - على حق أو باطل، ولا تدل على صلاح ولا فساد المنهج، وتقدم فى حديث السبعين ألف (وفيه): «والنبى وليس معه أحد» فانظره تجد فوائد جمة، والله الموفق للصواب.

● **العاشر: فيه تفسير لا إله إلا الله كما ذكره البخاري.**

الظاهر أنها تؤخذ من جميع الباب؛ لأن لا إله إلا الله فيها نفي وإثبات أ.هـ.

[قلت]: وسيأتى تفسير الشهادتين

ما يتعلق بها من أحكام فى الباب الخامس.

● **الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك.**

لقوله: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾، وقوله: ﴿من لقي الله لايشرك به شيئاً؛ دخل الجنه﴾. اهـ(٢).

● ● ●

---

(١) ابراهيم: ٣٦. (٢) الإسراء آية: ٧٠.

(٣) القول المفيد ١/ ١٥٥: ١٥٨.

٤ بابُ: الدُّعاءُ إلى شَهادةِ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ

● ويحتوي على :ـ

١ـ مناسبة الباب لما قبله من الأبواب ولكتاب التوحيد.

٢ـ شرح الترجمة

[٣] **قول الله تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾** مناسبتها للباب، وتفسيرها، وكلام شراح التوحيد عليها.

٤ـ قوله: **﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾** وذكر تفسيرها.

٥ـ شروط ومواصفات الداعي ـ الذي يدعو على بصيرة.

[٦] **حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن... الحديث.**

(١) مناسبته للباب.

(٢) فائدة قوله «**فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله**» من كلام شيخ الإسلام.

(٣)شبهات لبعض الجماعات والرد عليها من كلام الحافظ قوله: «**فليعرفوا الله**».

(٤) مسألة/ لماذا ذكر المصنف هذه الروايات (**شهادة أن لا إله إلا الله**) وفي رواية «**إلى أن يوحدوا الله**».

(٥) فائدة/ حكم الدعوة إلى الله، وأدلة ذلك.

(٦) إشكال/ عدم ذكر الصوم والحج في حديث بعث معاذ، وجواب ذلك.

[٧] **حديث سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلاً... الحديث».**

(١) مناسبته للباب.

(٢) شرح ألفاظه

(٣) فائدة/ اختصاص علي ـ رضي الله عنه ـ بهذه البشارة.

(٤) فائدة دعوية/ من قوله «**انفذ على رسلك**».

(٥) فائدة دعوية/ من قوله «**خير لك من حمر النعم**».

٨ـ مسائل الباب

●●●

٤ باب: الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

● **مناسبة الباب لما قبله من الأبواب ولكتاب التوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ:(١) لما بين المصنف ـ رحمه الله ـ الأمر الذى خلقت له الخليقة وفضله وهو التوحيد، وذكر الخوف من ضده الذى هو الشرك، وأنه يوجب لصاحبه الخلود فى النار، نبه بهذه الترجمة على أنه لاينبغى لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه كما يظن الجهال؛ ويقولون: اعمل بالحق واترك الناس وما يعنيك من الناس، بل يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن، كما كان ذلك شأن المرسلين وأتباعهم إلى يوم الدين، وكما جرى للمصنف وأشباهه من أهل العلم والدين والصبر واليقين.

وإذا أراد الدعوة إلى ذلك، فليبدأ بالدعوة إلى التوحيد الذى هو معنى شهادة أن: لا إله إلا الله، إذ لاتصح الأعمال إلا به فهو أصلها الذى تبنى عليه، ومتى لم يوجد لم ينفع العمل بل هو حابط، إذ لاتصح العبادة مع الشرك، كما قال تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ**﴾(٢).

وقال عبدالرحمن آل الشيخ(٣)**: بعد أن نقل قول سليمان آل الشيخ السابق:** يجب عليه أن يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، كما هو سبيل المرسلين وأتباعهم، كما قال الحسن البصرى لما تلا هذه الآية ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ فقال: هذا حبيب الله هذا ولى الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله؛ أجاب الله فى دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً فى إجابته، وقال إننى من المسلمين. هذا خليفة الله. أهـ(٤).

قال ناصر السعدى:(٥) وهذا الترتيب الذى صنعه المؤلف فى هذه الأبواب فى غاية المناسبة فإنه ذكر فى الأبواب السابقة وجوب التوحيد فضله والحث عليه وعلى تكميله والتحقق به ظاهراً وباطناً والخوف من ضده وبذلك يكمل العبد نفسه.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٨٨و٨٩).
(٢) سورة التوبة آية (١٧)
(٣) فتح المجيد (١/ ١٠١).
(٤) أخرجه ابن جرير (٢٤/ ٧٥).
(٥) القول السديد ٢٥ ـ ٢٩.

ثم ذكر فى هذا الباب تكميله لغيره بالدعوة إلى شهادة (أن لا إله إلا الله) فإنه لايتم التوحيد حتى يكمل العبد جميع مراتبه، ثم يسعى إلى تكميل غيره - وهذا هو طريق جميع الأنبياء - فإنهم أول ما يدعون قومهم إلى عبادة الله وحده لاشريك له وهى طريقة سيدهم وإمامهم ﷺ لأنه قام بهذه الدعوة أعظم قيام ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن - لم يفتر ولم يضعف حتى أقام الله به الدين وهدى به الخلق العظيم ووصل دينه ببركة دعوته إلى مشارق الأرض ومغاربها - وكان يدعو بنفسه ويأمر رسله وأتباعه أن يدعوا إلى الله وإلى توحيده قبل كل شىء لأن جميع الأعمال متوقفة فى صحتها وقبولها على التوحيد.

فكما أن على العبد أن يقوم بتوحيد الله فعليه أن يدعو العباد إلى الله بالتى هى أحسن - وكل من اهتدى على يديه فله مثل أجورهم من غير أن ينتقص من أجورهم شىء.

وإذا كانت الدعوة إلى الله، وإلى شهادة أن لا إله إلا الله فرضاً على كل أحد كان من الواجب على كل أحد بحسب مقدوره.

فعلى العالم من بيان ذلك والدعوة والإرشاد والهداية أعظم مما على غيره ممن ليس بعالم.

وعلى القادر ببدنه ويده أو ماله أو جاهه وقوله أعظم مما على من ليست له تلك القدرة.

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ورحم الله من أعان على الدين ولو بشطر كلمة - وإنما الهلاك فى ترك ما يقدر عليه العبد من الدعوة إلى هذا الدين أهـ.

قال عبدالله بن جار الله:(1) لما ذكر المؤلف رحمه الله وجوب التوحيد وفضله وما يوجب الخوف من ضده نبه بهذا الباب على أنه لاينبغى لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه، بل يجب عليه أن يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة كما هو سبيل المرسلين وأتباعهم. أهـ.

قال ابن عثيمين(2): هذا الترتيب الذى ذكره المؤلف من أحسن ما يكون؛ لأنه لما ذكر توحيد الإنسان بنفسه ذكر دعوة غيره إلى ذلك؛ لأنَّه لايتم الإيمان إلا إذا دعا إلى

(1) الجامع الفريد (29)

(2) القول المفيد (1/159).

التوحيد، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[1].

فلابدّ مع التوحيد من الدعوة إليه، وإلاّ؛ كان ناقصاً، ولاريب أنَّ هذا الذى سلك سبيل التوحيد لم يسلكه إلاّ وهو يرى أنه أفضل سبيل، وإذا كان صادقاً فى اعتقاده؛ فلابدّ أن يكون داعياً إليه، والدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله من تمام التوحيد، ولايتم التوحيد إلا به.

قال الفقير: فبعد أن بين المصنف فى أول الكتاب معنى التوحيد، وأنه هو توحيد العبادة، وأنه هو حق الله على العبد، وأنه ما خلق الجن والإنس إلا لذلك، ثم بين فضل التوحيد، سواء كان كاملاً أو ناقصاً وذلك فى باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب، ثم بين أيضاً فى باب آخر فضل التوحيد. الكامل، وكيف أن صاحبه يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، ثم رهب من الشرك الذى هو ضد التوحيد، وبين أن الله عزوجل يغفر ما دونه لمن يشاء حتى وإن كان كبيرة فهى تحت خطر المشيئة وهى مغفورة ـ إن شاء الله ـ فتبين من ذلك أن الشرك أكبر من هذه الكبائر، لأنه لو كان يساويها أو يقاربها لغفر كما غفرت هذه الكبائر حتى وإن كانت قتلاً للنفس بغير حق، ثم بينت فصولاً وأصولاً متعلقة بهذا الباب (باب الخوف من الشرك) فإن المصنف بعد أن رغب ورهب وبين فضل التوحيد، بل وبين حقيقته وماهيته بقى للداعى أن يتحرك، أو للذى تعلم بقى له أن يتحرك بهذا الذى تعلمه، وبقى أن يدعو الناس إلى فهم وما تعلم، وما أيقن ما استيقن، فلذلك ناسب أن يبوب المصنف هذا الباب (باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله) بعد هذه الابواب. والله المستعان.

● شرح الترجمة:

● ماذا أراد المصنف بهذا الباب:

ـ **قال سليمان آل الشيخ**[2]: نبه بهذه الترجمة على أنه لاينبغى لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه كما يظن الجهال. أهـ. وتقدم نص كلامه سابقاً.

ـ **قال حامد بن محمد بن حسن**[3]: باب فى بيان ما يدل على أن الدعاء إلى

(١) سورة العصر

(٢) تيسير العزيز الحميد (٨٨).

(٣) فتح الله الحميد المجيد (١٧٣).

شهادة أن لا إله إلا الله هو أحسن الأقوال، وهو الطريقة المرضية عند الله، وهو سبيل الرسول ﷺ ومن تبعه من الكتاب والسنة. أهـ.

ـ **قال ابن باز**[2]: أي باب وجوب فضيلة الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله؛ لأنها أختها، فمراد المؤلف الدعوة إلى التوحيد، وإلى اتباع الرسول وهذا واجب على العلماء وفرض عليهم. أهـ.

●●●

وقول الله تعالى: **﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾**.

ـ مناسبة الآية للباب:

قال سليمان آل الشيخ[3]: ويظهر ذلك إذا كان قوله: **﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾** عطفاً على الضمير في **﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾** فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة إلى الله تعالى، وإن كان عطفاً على الضمير المنفصل فهو صريح في أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون من عداهم، والتحقيق أن العطف يتضمن المعنيين، فأتباعه هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله. أهـ.

قال عبدالله بن جار الله[4]: ومناسبة الآية للباب أن الدعوة إلى الله على بصيرة وعلم هي طريق الرسول ﷺ وأتباعه فعلينا أن نفعل ذلك لنكون من أتباعه. أهـ.

قال القرعاوي[5]: حيث دلت الآية أن سبيل النبيّ ﷺ ومن أتبعه هي الدعوة إلى دين الله وهذا متضمن الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

الإعراب[6]:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ هذه مبتدأ وسبيلي خبر وجملة أدعو الله تفسير للسبيل وإلى الله متعلقان بأدعو ويجوز أن تكون الجملة حالية من الياء والأول أولى وعلى بصيرة متعلقان بأدعو أو بمحذوف حال من فاعل أدعو وأنا تأكيد لفاعل أدعو المستتر ومن اتبعني عطف على فاعل أدعو المستتر ويجوز أن يكون من مبتدأ وخبره محذوف أي ومن اتبعني يدعو أيضاً ويجوز أن يكون أنا مبتدأ مؤخراً وعلى

(1) يوسف (١٠٨).

(2) «التعليق المفيد» (٥١).

(3) تيسير العزيز الحميد ٨٩.

(4) الجامع الفريد (ط مكتبة الهدى ص٢٧).

(5) الجديد ٦٣.

(6) إعراب القرآن/ ٦٨.

بصيرة خبراً مقدماً ومن اتبعني عطفاً على ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وسبحان مفعول مطلق لفعل محذوف أى وأسبح سبحان الله وما الواو حرف عطف وما نافية حجازية وأنا اسمها ومن المشركين خبرها.

[قلت] قول الله عزوجل: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. لذلك قال الله تعالى فى هذا الذى دعا على بصيرة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. دعا إلى الله على علم وعمل، بعد أن دعى إلى الله فأجاب.

كما قال الله تعالى: ﴿ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ فدُعِىَ فأجاب. ثم دعا الناس إلى ما أجاب الله فيه. ثم هو فى حال دعوته إلى الناس عمل صالحاً وقال إننى من المسلمين.

كما قالها بلسان المقال قالها بلسان الحال.

ولذا أثنى الله عليه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ ...﴾.

استجاب ودعا وعمل صالحاً فيما أجاب الله فيه. كما تقدم ذلك فى أثر الحسن البصرى الذى أخرجه الطبرى بسند صحيح(١).

ما جاء فى تفسير قوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ من المأثور.

عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ قال: دعوتى(٢).

عن الربيع بن أنس رضى الله عنه مثله(٣).

عن ابن عباس رضى الله عنهما ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ قال: صلاتى(٤).

عن ابن زيد رضى الله عنه فى قوله ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ قال: أمرى وسنتى ومنهاجى(٥).

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٢٠٤٧) وذكره السيوطى فى «الدر» (٤/ ٧٥) ونسبه لابن أبى حاتم فانظره بتخريجنا.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن جرير، وأبى الشيخ.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ.

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٢٠٤٨) وذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه إليه ولابن جرير.

● **تفسير الآية من أقوال المفسرين**

قال الطبرى(١): يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يامحمد هذه الدعوة التى أدعو إليها، والطريقة التى أنا عليها، من الدعاء إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، دون الآلهة والأوثان، والإنتهاء إلى طاعته، وترك معصيته ﴿سَبِيلِي﴾ وطريقتى ودعوتى. أهـ.

قال البغوى(٢): قوله تعالى ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَٰذِهِ﴾ الدعوة التى أدعو إليها، والطريقة التى أنا عليها. أ هـ كذا قال بنحو كلام الطبرى المتقدم ذكره.

قال الزمخشرى(٣) بنحو من هذا وزاد: ﴿سَبِيلِي﴾ والسبيل والطريق يذكران ويؤنثان، ثم فسر سبيله بقوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾. أ هـ.

● **وكذا قال ابن الجوزى**(٤) كقول الزمخشرى.

وقال الرازى(٥): قال المفسرون: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم هذه الدعوة التى أدعو إليها. والطريقة التى أنا عليها سبيلى وسنتى ومنهاجى، وسمى الدين سبيلا لأنه الطريق الذى يؤدى إلى الثواب، ومثله قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾.

واعلم أن السبيل فى أصل اللغة الطريق. وشبهوا المعتقدات بها لما أن الإنسان يمر عليها إلى الجنة. أ هـ.

وقال القرطبى(٦): قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ ابتداء وخبر، أى قل يا محمد هذه طريقى وسنتى ومنهاجى.

قال الربيع: دعوتى، وقال مقاتل: دينى، والمعنى واحد.

أى الذى أنا عليه وادعو إليه يؤدى إلى الجنة. أ هـ.

وقال ابن كثير(٧): ﴿سَبِيلِي﴾ هى الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، يدعوا إلى الله بها.

وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعى إليه رسول الله ﷺ على بصيرة. أهـ.

قال الشوكانى(٨): اسم الإشارة مبتدأ وخبره سبيلى، وفسر ذلك بقوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾. أهـ. وهذا القول بنحو ما قال الزمخشرى والقرطبى.

(١) تفسير الطبرى (٧/١٣/٥٢).
(٢) معالم التنزيل (٣/٣٣٢).
(٣) الكشاف (٢/٢٧٧).
(٤) زاد المسير (٤/٢٢٧).
(٥) التفسير الكبير (٩/ ١٨ / ٢٢٩).
(٦) تفسير القرطبى (٥/٣٥٠٣).
(٧) تفسير ابن كثير (٢/٤٧٨).
(٨) فتح القدير (٣/٦١).

قال فى الظلال[1]: ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ واحدة مستقيمة، لا عوج فيها ولاشك ولاشبه. أ هـ.

[قلت] إفراد ﴿سَبِيلِي﴾ يشهد له قوله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾. والله أعلم.

● تفسير الآيه من كلام شُرَّاح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ[2]: بعد أن ذكر قول ابن كثير: قلت: فتبين وجه المطابقة بين الآية والترجمة.

قيل: ويظهر ذلك إذا كان قوله ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عطفاً على الضمير فى ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة إلى الله تعالى. وإن كان عطفاً على الضمير المنفصل فهو صريح فى أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به ودون من عداهم، والتحقيق أن العطف يتضمن المعنيين، فأتباعه هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله. أهـ. وتقدم كلامه فى مناسبة الباب.

قال حامد بن محمد بن حسن[3]: قلت: فيها فوائد:

الأولى: قوله: ﴿قُلْ﴾ دل على أنه لا إله إلا هو لأنه إذا عرفت أن الرسول ﷺ هو أفضل الخلق وأعلاهم درجة عند الله وأحبهم إليه ومع ذلك مأمور منهى، يتبع ما يؤمر به ويتجنب ما ينهى عنه فدل ذلك على أنه العبد وأن الآمر الناهى هو المعبود لا إله إلا هو.

الثانية: قوله: ﴿هَذِهِ﴾ دل على أن الدين المرضى واحد كما قال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[4].

الثالثة: قوله: ﴿سَبِيلِي﴾، دل على أن ما للرسول ﷺ سبيل إلا القرآن فمن عمل بغير ما جاء به الرسول ﷺ فقد ضل، قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[5].

---

(١) الظلال (٤/ ٢٠٣٤).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٨٩).

(٣) فتح الله الحميد المجيد (١٧٨).

(٤) الأنعام (١٥٣).

(٥) النساء (٦٥).

الرابعة: قوله: ﴿أَدْعُو﴾ دل أن أنه مرسل إلى الخلق يدعوهم إلى الله.

الخامسة: قوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ دل على أن الدعوة تتنوع إلى: الدعوة إلى النفس ليعظم ويوقر ويصرف وجوه الناس إليه ويعطى ويملك وغير ذلك والكل باطل إلا الدعوة التى لوجه الله الكريم. أ هـ.

قال ابن باز(١): الخطاب للنبى ﷺ ولأمته، أى: قل هذه طريقتى ومحجتى التى أنا عليها من توحيد الله والإخلاص له وإيتاء الزكاة وغيرها، وهذا هو سبيل الله وصراطه، وهو الإسلام والهدى والإيمان. أ هـ.

قول الله عزوجل (إلى الله):

قال ابن عثميين(٢): لأن الدعاة إلى الله ينقسمون إلى قسمين:

١ـ داعٍ إلى الله.

٢ـ داعٍ إلى غيره.

فالداعى إلى الله تعالى هو المخلص الذى يُريد أن يُوصل الناس إلى الله تعالى.

والداعى إلى غيره قد يكون داعياً إلى نفسه، يدعو إلى الحق لأجل أن يُعظَّم بين الناس ويُحترم، ولهذا تجده يغضب إذا لم يفعل الناس ما أمر به، ولا يغضب إذا ارتكبوا نهياً أعظم منه، لكن لم يدع إلى تركه.

وقد يكون داعياً إلى رئيسه كما يوجد فى كثير من الدول من علماء الضلال من علماء الدول، لا علماء الملل، يدعون إلى رؤسائهم.

من ذلك لما ظهرت الاشتراكية فى البلاد العربية قام بعض علماء الضلال بالاستدلال عليها بآيات وأحاديث بعيدة الدلالة، بل ليس فيها دلالة؛ فهؤلاء دعوا إلى غير الله.

ومن دعا إلى الله ثم رأى الناس فارّين منه؛ فلا ييأس، ويترك الدعوة، فإن الرسول ﷺ قال لعلى: «**انفذ على رسلك؛، فوالله؛ لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**»(٣)، يعنى: أن اهتداء رجل واحد من قبائل اليهود خير لك من حمر النعم، فإذا دعا إلى الله ولم يُجَبْ؛ فليكن غضبه من أجل أنَّ الحق لم يُتَّبع، لا لأنَّه لم يُجَبْ، فإذا كان يغضب لهذا؛ فمعناه أنه يدعو إلى الله، فإذا استجاب واحد؛ كفى، وإذا لم يستجب أحد؛ فقد أبرأ ذمته أيضاً، وفى الحديث: «**والنبى وليس معه أحد**»(٤).

---

(١) التعليق المفيد (٥١).
(٢) القول المفيد (١/ ١٦٠ ـ ١٦١).
(٣)سيأتى تخريجه.
(٤) تقدم تخريجه.

ثم إنه يكفى من الدعوة إلى الحق والتحذير من الباطل أن يتبين للناس أنَّ هذا حق وهذا باطل؛ لأنَّ الناس إذا سكتوا عن بيان الحق، وأُقرَّ الباطل مع طول الزمن؛ ينقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً.

قوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾.

● التفسير بالمأثور عن التابعين

* اخرج ابن جرير وابن أبى حاتم، عن قتادة رضى الله عنه فى قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أى على هدى ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[(١)].

● تفسير الآيه من اقوال المفسرين

● **قال الطبرى**[(٢)]: أدعو إلى الله وحده لاشريك له، ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ بذلك، ويقين علم منى به، (أنا)، ويدعو إليه على بصيرة أيضاً. أهـ.

● **وزاد البغوى**[(٣)]: البصيرة: هى المعرفة التى يميز بها بين الحق والباطل. أهـ.

● **وقال الزمخشرى**[(٤)]: أدعو إلى دينه مع حجة واضحة غير عمياء. أهـ.

● **وقال ابن الجوزى**[(٥)]: قال ابن الأنبارى، وكل مسلم لايخلو من الدعاء إلى الله عزوجل، لأنه إذا تلا القرآن، فقد دعا إلى الله بما فيه، ويجوز أن يتم الكلام عند قوله ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ ثم ابتدأ قال: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾. أهـ.

● **وقال الرازى**[(٦)]: ادعو الله على بصيرة وحجة وبرهان أنا ومن اتبعنى إلى سيرتى وطريقتى وسيرة أتباعى الدعوة إلى الله، لأن كل من ذكر الحجة وأجاب عن الشبهة فقد دعا بمقدار وسعه إلى الله وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط وهو أن يكون على بصيرة مما يقول وعلى هدى ويقين، فإن لم يكن كذلك فهو محض الغرور أهـ.

وقال القرطبى[(٧)]: ﴿بَصِيرَةٍ﴾ يقين وحق، ومنه (فلان مستبصر بهذا). أهـ.

وبنحو هذه الأقوال قال ابن كثير[(٨)]، والشوكانى[(٩)] وزاد.

وفى هذا دليل على أن كل متبع لرسول الله ﷺ حق عليه أن يقتدى به فى الدعاء إلى الله، أى الدعاء إلى الإيمان به وتوحيده، والعمل بما شرعه لعباده. أهـ.

---

(١) الدر المنثور (٤/ ٧٦).
(٢) تفسير الطبرى (٧/ ١٣/ ٥٢).
(٣) معالم التنزيل (٣/ ٣٣٢).
(٤) الكشاف (٢/ ٢٧٧).
(٥) زاد المسير (٤/ ٢٢٧).
(٦) التفسير الكبير (٩ / ١٨/ ٢٢٩).
(٧) تفسير القرطبى (٥/ ٣٥٠٣).
(٨) فتح القدير (٣/ ٦١).
(٩) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٩).

● **تفسير الآيه من كلام شراح التوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ(١): وفي الآية مسائل نبه عليها المصنف.

منها: التنبيه على الإخلاص، لأن كثيراً ولو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه.

ومنها: أن البصيرة من الفرائض، ووجه ذلك أن اتباعه ﷺ واجب، وليس أتباعه حقاً إلا أهل البصيرة، فمن لم يكن منهم فليس من أتباعه، فتعين أن البصيرة من الفرائض.

ومنها: دلائل حسن التوحيد أنه تنزيه الله عزّوجلّ عن المسبة.

ومنها: أن من أقبح الشرك كونه مسبة لله.

ومنها: إبعاد المسلم عن المشركين لايصير معهم ولو لم يشرك، وكل هذه الثلاث في قوله: ﴿**سُبْحَانَ اللَّهِ**﴾ الآية. أهـ.

قال حامد بن محمد بن حسن(٢): قوله: ﴿**عَلَىٰ بَصِيرَةٍ**﴾ دل على أن العلم لايستلزم البصيرة بل رب عالم ليس له بصيرة في الدعوة على ما يريد الله من الداعي وعلى ما مشى عليه رسول الله ﷺ.

ثم قال: الحاصل أن البصيرة عليها مدار الدعوة إلى الله وقد ذكر عن الرسول ﷺ أن الداعي ينبغي له أن يكون عليماً فيما يأمر به، عليماً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، وقال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾(٣)، وقال تعالى لموسى وهارون لما أرسلهما إلى فرعون: ﴿**فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ**﴾(٤). وقال الرسول ﷺ: «**ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا ذهب عن شيء إلا شأنه**»(٥) وقال ﷺ: «**يسروا ولاتعسروا، وسكّنوا ولاتنفروا**»(٦).

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٨٩).
(٢) فتح الله الحميد المجيد (١/ ١٠٢،١٠٣).
(٣) آل عمران/ ١٥٩.
(٤) طه/ ٤٤
(٥) [صحيح] أخرجه مسلم في البر والصلة (١٦/ ٤٦ ـ النووي) عن عائشة به.
وانظر «رياض الصالحين» (٦٣٦ ـ بتخريجنا).
(٦) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٦٩) ومسلم في الجهاد والسير (١٢/ ٤٢ ـ النووي) عن أنس به وانظر «رياض الصالحين» (٦٣٨ ـ بتخريجنا).

وقد وصف الله إبراهيم عليه السلام بالحلم فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾[1]. هذا ومن البصيرة تقديم الأهم فالأهم فى الدعوة كالطبيب الحاذق إذا رأى فى شخص مرضاً فى الرأس ومرضاً فى الأصبع بدأ بتداوى مرض الرأس، لأن الرأس هو الأصل لحياته وفيه الحواس العشرة فلو اختل الرأس لاختلت كلية الإنسانية، وأما الأصبع لو عدم من أصله ما اختل من الإنسانية شىء.

فينبغى أن يكون الداعى كالطبيب الحاذق الذى يداوى الأضر قبل الضار، فكذلك الداعى يبدأ بالتوحيد قبل الصلاة وبالصلاة قبل الزكاة، وبالزكاة قبل الصوم والحج، وبأركان الإسلام والإيمان قبل سائر الأعمال، كما أرشد رسول الله ﷺ معاذاً. أهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ[2]: قال فى «شرح المنازل» يريد أن تصل باستدلالك إلى أعلى درجات العلم وهى البصيرة التى تكون نسبة المعلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئى إلى البصر وهذه هى الخصيصة التى اختص بها الصحابة من سائر الأمة، وهى أعلى درجات العلماء قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾...... إلخ. أهـ[3].

[قلت] «وكلمة المرئى فى بعض النسخ مصحفة» المائى.

هذه نسبة المعلوم فيها إلى القلب واضحة جداً ومؤثرة جداً فيه لأنه لم يتعلم فقط بل تعلم وعمل. فهذا نسبة المعلوم فيه كنسبة المرئى إلى البصر.

كذلك سائر العلوم بالنسبة لقلبه يراها كما يرى البصر الأمور المرئية له.

فهذه هى البصيرة. فهل يتصور أن يصل إلى البصيرة بعلم فقط؟!

بل لابد لكى يصل إليها من ثمرة العلم وهى العمل.

يشهد لهذا الفهم قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

قال ابن عثيمين[4]: قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾.

أى: علم؛ فتضمنت هذه الدعوة الإخلاص والعلم؛ لأنَّ أكثر ما يفسد الدعوة عدم الإخلاص، أو عدم العلم، وليس المقصود بالعلم فى قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ العلم بالشرع فقط، بل يشمل: العلم بالشرع، والعلم بحال المدعو، والعلم بالسبيل الموصل إلى المقصود، وهو الحكمة.

---

(١) هود/٧٥.

(٢) فتح المجيد (١/ ١٠٢ ـ ١٠٣).

(٣) المدارج (٢/ ٤٨١ ـ ٤٨٢).

(٤) القول المفيد (١/ ١٦١ ـ ١٦٢).

فيكون بصيراً بحكم الشرع، وبصيراً بحـال المدعو، وبصيراً بالطريق الموصلة لتحقيق الدعوة، ولهذا قال النبى ﷺ لمعاذ: «إنَّك تأتى قوماً أهل كتاب»(١).

وهذه ليست كلها من العلم بالحكم الشـرعى؛ لأنَّ علمى أنَّ هذا الرجل قابل للدعوة باللِّين، وهذا قابل للدعوة بالشدَّة، وهذا عنده علم يمكن أن يقـابلنى بالشبهات أمر زائد على العلم بالحكم الشرعى، وكذلك العلم بالطرق التى تجلب المدعـوين كالترغيب بكذا والتشجيع؛ كقوله ﷺ: «من قتل قتيلاً؛ فله سلبه»(٢). أو بالتأليف؛ فالنبى ﷺ أعطى المؤلفة قلوبهم فى غزوة حنين إلى مئة بعير.

فهـذا كله من الحكمة؛ فالجـاهل لايصلح للدعوة، وليس محـموداً، وليست طريقـته طريقة الرسول ﷺ، لأن الجاهل يفسد أكثر مما يصلح. أهـ.

فصل فى شروط ومواصفات الداعى

ذكر ابن باز فى رسالته «الدعوة إلى الله» شروط ومواصفات الداعى من وحى هذه الآية منها:ـ

الصفة الأولى: أن يكون مخلصا: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ.....﴾.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ......﴾.

﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

فلا تدعو لنفسك أو لسمعة أو لشهرة.........

أو تبتغى وجه غير الله أو....... أو جدال أو مباهة.........

لا لنفس ولا حزب ولافرقة......هذا هو الأمر الأول.

الصفـة الثانية: على بصـيرة: قال ابن باز: أن تكون على بيـنة دعوتك، أى على علم، لاتكن جاهلاً بما تدعو إليه ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ فلابد من العلم، فالعلم فريضة، فإياك أن تدعو على جهالة، وإيـاك أن تتكلم فيما لاتعلم، فالجاهل يفسد ولا يصلح، ويهدم ولايبنى.... والبصـيرة هو ما قاله الله ورسوله، فـلابد من بصيرة وهى العلم، فعلى طالب العلم وعلى الداعـية أن يتبصر فيـما يدعو إليه وأن ينظر فيـما يدعو إليه ودليله، فإن ظهر له الحق وعـرفه ودعا إلى ذلك سواء كان ذلك فعلاً أو تركـاً فيدعو إلى الفـعل إذا كان طاعة لـله ورسوله ويدعـو إلى ترك مانهى الله عنه ورسـوله على بينة وبصيرة. ا هـ. والبصيرة ليست هى العلم فقط.

[قلت]: بل البصـيرة هى العلم والعمل لأن البصـيرة نظر القلب كما قـال ابن القيم «أن تكون نسبة العلوم إلى القلب كنسبة المرئى إلى البصر» وقد سبق.

---

(١) [صحيح] أخرج مسلم فى الجهاد (٦/١٣٠/٤١).

(٢) سيأتى تخريجه.

فالبصـيرة ثمرة العلم أى العلم والعمل ولـذلك قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾.

فدعا على بصيرة وعلم وعمل. ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾.

أى على علم وعمل ـ على ثمرة العلم ـ كما قال الأمام أحمد رحمه الله:

وهل العلم إلا ما وصل إليه معروف أى: الإسكافى.

أحد عبـاد أهل السنة يقول ذلك لأنه يقصد أن العلم ما وصل إليـه معروف من زهد وعبادة وعمل فهل العلم إلا ذلك المعروف.

كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى كتاب «**اقتضاء العلم للعمل**»:

العلم علمان علم اللسان وعلم القلب فعلم المنافق فى لسانه وعلم المؤمن فى قلبه.

وقال القرطبى فى تفسير الآية ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ ذم الله تعالى الذى ينسى نفسه فى حـال اهتمـامه بالناس، وهذا لايكون دافـعاً لأن نتـرك الأمر بالمعـروف ولكن دافع لإصلاح النفس والاهتمام بها كاهتمامنا بالناس وإلا نحترق نحن عياذا بالله.

وحذر الرسول ﷺ من هذا الصنف ففى الحديث «**إن أخوف ما أخاف عليكم بعدى كل منافق عليم اللسان**»(١) ...علمه فى لسانه فقط. أمـا المؤمن فعلمه فى قلبه، الذى هو محل البصيرة أى: علم وعمل ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

لذلك نعى الله عزوجل على طوائف من الدعاة الذين كانوا على علم. ولم يعملوا بما علموا ودعوا إلى هذا العلم دون عمل.

وقال الله عن شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ونعى على طائفة أخرى قائلاً: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. ولذلك أشترط فى الداعى العلم.

وأنا أقول البصيرة «العلم والعمل» لكن فى الحقيقة هذا الشرط ليس شرط صحة وإنما هو شرط كمال. يعنى قد يصح أن يدعو الداعى إلى شيء لايعمله.

لكن الذى ذم أنه نسى نفسه، دعا الناس إلى شيء ثم هو لم يعمل به.

وكما **قال القرطبى** فى تفسير هذه الآية ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ اعلم وفقك الله تعالى

(١) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (١٧/ ٢٩٥/ ٨١٥).

أن التوبيخ فى الآية بسبب ترك الفعل لا بسبب الأمر بالبر، ولهذا ذم الله تعالى فى كتابه قوماً كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بها. أهـ[1]. فإنه لم ينه أو يقبح الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولأنه محمود على كل حال سواء عمل الداعى أو لم يعمل ولكن الذى ذم هو أنه يدعو إليه ولايعمل به.

وفى الصحيح أن النبى ﷺ قال: يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان، مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمراً بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر آتيه[2].

لكن هذا ليس شرط أن تدعو بما تعمل بل يجوز أن تدعو وإن كنت مقصراً فقديماً قال الشاعر:

لئن لم يعظ العاصين من هو مذنب ... فمن يعظ العاصين بعد محمد

لأنه لايتصور معصوم إلا هو ﷺ فإن كان يشترط للداعى أن يكون معصوماً من الذنب ما دعا أحد بعد النبى ﷺ.

وأيضا كما قال الشاعر:

من ذا الذى ما ساء قط ... ومن له الحسنى فقط

وهو مؤدى كلام الحسن وعمر بن عبدالعزيز رحمهما الله أيضا قال: «**ود الشيطان وتمنى أن لو ظفر بذلك**».

أى ود الشيطان أن يظن الناس أنه لايدعو إلا معصوم فلا يدعو أحد ويتركون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ويعطلون هذه الفريضة ويعطلون هذا الواجب فود الشيطان لو ظفر بذلك.. وقال ذلك الحسن لمطرف بن عبدالله بن الشخير.

خطب عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ يوماً فقال فى موعظته: إني لاقول هذه المقالة، ولا أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندى، فأستغفر الله وأتوب إليه.

وكتب إلى بعض نوابه على بعض الأمصار كتاباً يعظه فيه، وقال فى آخره: «وإنى لأعظك بهذه، وإني لكثير الإسراف على نفسى، غير محكم لكثير من أمرى، ولو أن

---

(١) تفسير القرطبى (١/ ٣١٢/ ٣١٤١).

(٢) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٣٢٦٧)، ومسلم فى الزهد (١٨/ ١١٧ ـ النووى).

وانظر «رياض الصالحين» (٢٠٠ ـ بتخريجنا). وأنظر «كتابنا فقه الخطابة»

المرء لايعظ أخاه حتى يحكم نفسه إذاً تواكل الخير، وإذاً لرفع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإذاً لأُستحلت المحارم، وقل الواعظون والمسارعون لله بالنصيحة فى الأرض، والشيطان وأعوانه يودون أن لا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر، وإذا أمرهم أحد أو نهاهم عابوه، بما فيه وبما ليس فيه»(*).

قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.

والناس فى هذه البصيرة طرفان ووسط. عند جانب العلم.

هناك من يدعو بجهل ويقول.

«بلغوا عنى ولو آية»[1] ويتمسك بهذا الحديث حجة على ذلك. ويقول: لا داعى لأن أتعلم لكى أدعو ـ فهذا النشاط فى الدعوة شىء طيب أن يرغب الناس فى الدعوة، ولكن القبيح أن يرغبهم فى الدعوة على جهل . فهذا طرف أول وهذه سيئة.

والطرف الآخر قال: لا ندعو حتى نتعلم. وعندهم العلم لايقصدون به من كان فى درجة الوعاظ أو طلبة العلم. ولعلى أظنهم يقصدون أن نكون فى درجة العلماء حتى ندعوا فهذا طرف آخر. وسيئة أخرى.

والوسطية وأهل السنة هما الحسنة بين السيئتين.

قالوا للناس ادعو وليس شرط فى الدعوة أن تكونوا علماء

بل شرط فى الدعوة أن تعلم ماتدعوا إليه وبه.

وأيضاً لم يشترطوا للدعوة العلم المطلق بل دعوا وندبوا إلى العلم مع الدعوة ولم يشترطوا للدعوة كمال العلم، وأجابوا على الطائفتين بأجوبة ـ أما الطائفة الأولى فقالوا: أن النبى ﷺ لم يقصد بهذا الحديث أن يرخص للجاهل فى الدعوة وإلا فهذا الحديث يصطدم مع قوله تعالى: «﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ.....﴾.

فلابد من الجمع بين الحديث والآية بوجه من وجوه الجمع وهو أن الرسول ﷺ يشجع على الدعوة ولو من القليل مما عندك من العلم. فأنت عندك علم كثير. فبلغ عنه ولو آية مما عندك من الآيات التى تحفظها.

ولا يقول ﷺ: احفظ آية فقط ثم ادعو، أو احفظ حديث فقط ثم ادعو.

(*) راجع فى هذا كله كتابى «فقه الخطابة وزاد الخطيب» فصل: «لايشترط للداعى أو الواعظ العصمة من الذنوب».

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٤٦١) عن عبدالله بن عمرو وانظر «رياض الصالحين» (١٣٨٣ ـ بتخريجنا).

كما قال ﷺ: «اتق النار ولو بشق تمرة»[1] يعنى معنى ذلك يتصدق بشق تمرة؟! ويقول صاحب هذا الرأى أن النبى ﷺ قال ذلك **فالجواب**: هو أيضاً ﷺ كان يقول: **«تصدق ولاتحقرن من المعروف شيئاً»** وإن كنت فقيراً فتصدق ولو بشق تمرة.

وإن كنت غنياً وعلمت ذلك فانظر ما الذى يقيك من النار وما تنفقه.

فكأن هذا الحديث يقول «**بلغوا**» ويحثهم على الدعوة والتبليغ ولو بآية.

وأجابوا على الآخرين: بأنه من الصحابة رضى الله عنهم من دعا قومه وكان لم يتعلم بعد فروع الإسلام وفروع الدين.

الجواب: أن الصحابة رضى الله عنهم كان منهم من تعلم الأصول ثم دعا بها. وأخذ يدعو الناس إلى أصول التوحيد وقواعده، ولم يشترط له الرسول ﷺ أن يكون عالماً. ومثال هذا «**أبو ذر رضى الله عنه**».

ولا يعكر على هذا أنه بعث معاذا إلى اليمن وهو أعلم الصحابة؛ لأن معاذاً ذهب إلى اليمن لأهل الكتاب لعلماء بنى إسرائيل. لذلك قال له النبى ﷺ: **«إنك تأتى قوماً أهل كتاب»**[2] فناسب أن يكون الداعى فى هذا الموضع على قدر كبير من العلم.

فالحاصل: أن الناس بالنسبة للعمل على البصيرة طرفان ووسط.

أيضاً من يقول أنا طالب علم لكن مقصر فى العمل فلن أُعلِّم. فهذا نحذره لأن الرسول ﷺ قال فيهم **«من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»**[3].

فمن كان عنده علم ويكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة.

فيقول أنا مقصر. فنقول له: أصلح من نفسك ولكن لاتترك الدعوة.

فالتقصير ليس سبباً لترك هذا الأمر فليس شرط فى الدعوة أن تكون معصوماً.

وطرف آخر: يدعو دون عمل أبداً ويقول ليس مهم العمل.

مثال: خطيب مسجد يجلس على المقهى ويلعب الطاولة، ثم يذهب ليكون إماماً للمسجد.

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٦٠٢٣)، ومسلم فى الزكاة (١٠/١٠١ - النووى).
وانظر «رياض الصالحين» (١٤١ - بتخريجنا).

(٢) سيأتى تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/٢٦٣، ٣٠٥)، وأبوداود (٣٦٥٨)، والترمذى (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦١).
وانظر كتابى «فقه الخطابة وزاد الخطيب».

والطرف الثانى: وهو الحسنة بين السيئتين وهو من يدعو ويقر بالتقصير فى حال دعوته مع النهوض بنفسه لإصلاحها وجبر نقصه وجبر التقصير الذى يقع منه.

الصفة الثالثة: الصبر على الدعوة.

قال ابن باز: من الأخلاق التى ينبغى لك أن تكون عليها أيها الداعية أن تكون حليماً فى دعوتك رفيقاً محتملاً صبوراً كما فعل الرسل عليهم الصلاة والسلام، وإياك والعجلة، إياك والعنف والشدة، عليك بالصبر، عليك بالحلم، عليك بالرفق فى دعوتك. أهـ.

الصبر على المدعوين والرفق بهم، والحلم بهم.

ولكن أحيانا يحتاج الداعى أن يشد على واحد من المدعوين وهذا بخلاف مالا يصبر عليها.

فالأول يحتاج إلى شىء من الشدة فى مرحلة أكبر لدى طلبه للعلم.

فالرسول ﷺ أغلظ العقوبة على الثلاثة الذين خلفوا وأما المنافقون قال لهم: «اذهبوا غفر الله لكم»(١) قال **ذلك لمنافق؟!**.

وآخر آلان له الكلام - والرسول ﷺ شد على عمر وقال له «**هلا تركتم لى صاحبى**». وأبو بكر يقول يارسول الله أنا الذى كنت أظلم، لأن عمر يتحمل الشدة ولكن للرفق واللين ثمرة بالمدعوين. كما ذكر ابن القيم فى زاد المعاد «سيرة رسول الله» فإنه ذكر قصة البيعة الأولى، كيف أنهم كانوا ستة أوثمانية، ثم جاءوا فى العام القادم.

إثنى عشر فقط أى بعد سنة كاملة دعوا ستة فقط».

وفى حديث السبعين يأتى النبى وليس معه أحد(٢).

الصفة الرابعة لم يذكرها الشيخ ابن باز، ولعله يراها داخلة فى البصيرة لكن لأهميتها أفردتها وهى:

(١) العلم بواقع المدعوين وأحوالهم.

حتى أنصحهم بما يليق بهم ولكل مقام مقال.

فالجهل بحال المدعوين كالجهل فى أساليب الدعوة بل كالجهل بالأدلة على الدعوة. وأيضاً لايقل خطورة عن الجهل بالحكمة أوبالكتاب والسنة.

---

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٨/ ٤٤)، ومسلم فى الذكر والدعاء والإستغفار (١٧/ ٨٧ - النووى) وانظر «رياض الصالحين» (٢٢ - بتخريجنا).

(٢) تقدم تخريجه.

هذا ما ذكره الشيخ ابن باز فى «رسالة الدعوة إلى الله».

وقد ذكرت فى شرح كتاب زاد المعاد أن الناس أقسام ترتيبها من أعلى إلى أسفل: العالم ثم طالب العلم، ثم الداعى، ثم الواعظ، ثم القاص.

(١) **أما العالم** فهو من حصل أدوات العلم كلها مثل حفظ القرآن. الأحاديث، الأصول... إلخ(١).

(٢) **أما طالب العلم** فهو من حصل بعض أدوات العلم وفى طريقه إلى تحصيلها كلها.

(٣) **أما الداعى** فهو من حصل القدر الذى يجعله داعياً على بصيرة، فهو مرتبة دون طالب العلم ولا يدعو إلا للمسائل التى يفهمها فإنه يدعو إلى ما تعلمه فقط.

ولكن يجب أن يتعلم باب الطهارة وباب الصلاة ليعرف كيف يصلى، مثل من يتعلم فقه البيع ليعرف ما يحل وما يحرم فى البيع.

(٤) **أما الواعظ**: من حفظ أحاديث مثلا فى الترغيب والترهيب ثم ذكرنا بها.

(٥) **أما القاص**: أخص من الواعظ فهو من يحفظ حكايات وأيام الناس وقصصهم ثم يقصها، وإما أن يكون صادقاً أو كاذباً فإن كان صادقاً فهو المحمود وإن كان كاذباً فهو المذموم. فالقاص أخص من الواعظ، والواعظ أعم فعنده ما عند القاص وزيادة.

فالناس فى ذلك طرفان ووسط وقد تقدم شرحه.

قوله تعالى ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى﴾.

● التفسير بالقرآن.

كما قال تعالى ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾.(٢)

● التفسير بالمأثور.

● **عن زيد** بن أسلم فى قول الله ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى﴾ قال: وحق والله على من اتبعه أن يدعو إلى مثل مادعى إليه ويذكِّر بالقرآن، والحكمة، والموعظة الحسنة، وينهى عن معاصى الله(٣).

وذكر البغوى عن ابن عباس فى قوله ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى﴾ قال:

---

(١) انظر شروط المجتهد فى كتب الأصول وحاشيتنا على شرح الورقات.

(٢) النحل: (١٢٥)

(٣) تفسير ابن أبى حاتم (٧/٢٢٠٩/ ح ١٢٠٥٠) فانظره بتخريجنا.

يعنى أصحاب محمد ﷺ كانوا على أحسن طريقة، واقصد هداية معدن العلم وكنز الإيمان، وجند الرحمن[1].

قال عبدالله بن مسعود: من كان مستناً فليستن بمن قد مات، فإن الحى لاتؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، اختارهم الله لصحبة نبيه، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم[2]. أهـ.

قوله :﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾

● أقوال المفسرين

قال الطبرى[3] (**على بصيرة**) بذلك ويقين علم منى به (**أنا**)ويدعو إليه على بصيرة أيضاً ﴿**وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ وصدقنى وآمن بى. أهـ.

قال البغوى[1]: أى ومن آمن بى وصدقنى أيضاً يدعو إلى الله، هذا قول الكلبى، وابن زيد قال: حق على من اتبعه أن يدعو إلى مادعا إليه، ويذكر بالقرآن. أهـ. وذكر قول ابن مسعود وابن عباس السابقين فى أول تفسير الآية.

قال الزمخشرى(٤) :(**أنا**) تأكيد للمستتر فى أدعو ﴿**وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ عطف عليه، يريد أدعوا إليها أنا، ويدعو إليها من اتبعنى، ويجوز أن يكون أنا مبتدأ و(**على بصيرة**) خبر مقدماً و(**من اتبعنى**) عطفاً على (**أنا**) إخباراً مبتدأ بأنه ومن اتبعه على حجة وبرهان لاعلى هوى، ويجوز أن يكون(**على بصيرة**) حالاً من (**أدعو**) عاملة فى الرفع (**أنا ومن اتبعنى**). أهـ.

وتقدم شىء من ذلك فى مواضع من شرح الآية.

وبنحو هذا قال **ابن الجوزى**[5]، **والرازى**[6]، **والقرطبى**[7]، **وابن كثير**[8]، **والشوكانى**[9].

---

(١) معالم التنزيل (٣/ ٣٣٢).

(٢) ذكره البغوى فى «تفسيره» فى الموضع السابق.

(٣) تفسير الطبرى (٧/ ١٣/ ٥٢).

(٤) الكشاف (٢/ ٢٧٧).

(٥) زاد المسير(٤/ ٢٢٧)

(٦) التفسير الكبير(٩/ ١٣/ ٢٢٩)

(٧) تفسير القرطبى (٥/ ٣٥٠٣)

(٨) تفسير ابن كثير(٣/ ٤٧٩)

(٩) فتح القدير (٣/ ٦١)

أقوال شراح كتاب التوحيد فى تفسيرها.

تقدم قول **سليمان آل الشيخ**[1]: حيث قال فى من هم أهل الاتباع فى قوله ﴿**أَدْعُو إِلَى اللَّهِ**﴾ قال : فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة إلى الله تعالى. . هم أهل البصيرة، فأتباعه هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله.

قال عبدالرحمن آل الشيخ[2]: فالآية تدل على أن أتباعه هم أهل البصائر الداعون إلى الله تعالى ومن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة، وإن كان من اتباعه على الانتساب والدعوى . أهـ من كلام ابن القيم المتقدم.

وبنحو هذا قال **عبدالله بن جار الله**[3].

قال ابن باز[4]: فأتباعه هم أهل البصائر والعلماء الذين يدعون، ودعوتهم على بصيرة ومن لم يدع إلى سبيل الله من العلماء فليس من أتباعه على الحقيقة، فأتباعه لايسكتون، ولايدعون على جهالة كما قال تعالى ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾أى بالعلم، وهذه هى وظيفة الأنبياء كلهم والعلماء الصالحين، وهذا هو الواجب على من عنده علم ويدعو فى كل مكان فى المسجد وغيره ويصبر أهـ.

قال ابن عثيمين[5]: قوله: ﴿**أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾.

ذكروا فيها رأيين:

الأول: «أنا» مبتدأ، وخبرها «على بصيرة» ، «ومن اتبعنى» معطوفة على «أنا»؛ أى: أنا ومن اتبعنى على بصيرة؛ أى: فى عبادتى ودعوتى.

الثانى: «أنا» توكيد للواو فى قوله: «أدعو»؛ أى: أدعو أنا إلى الله ومن اتبعنى يدعو أيضاً؛ أى: قل هذه سبيلى أدعو إلى الله ويدعو من اتّبعنى، وكلانا على بصيرة.

[قلت]: وكما قال ابن القيم رحمه الله: فليس من أتباعه على الحقيقة هذا الذى لم يدعو إلى الله وأما أولى الناس بهذه الأوصاف هم صحابته رضى الله عنهم لأنهم هم الداعون إليه على بصيرة.

فليس من اتباعه على الحقيقة هذا الذى دعا إلى غير الله أو لم يدعو إلى الله يعنى أنه منتسب له بالزور وإن ادعى هذه النسبة فإن هذه الدعوة باطلة،وحتى يكون من أتباعه

(1) تيسير العزيز الحميد (٨٩).
(2) فتح المجيد (١/ ١٠٢).
(3) الجامع الفريد (٣٠).
(4) التعليق المفيد (٥٢/ ٥٣).
(5) القول المفيد (١/ ١٦٢ ـ ١٦٣).

على الحقيقة فلابد من الموافقة فى وهذه الطريقة وهى داعى على علم وعمل وإن كان العمل ليس شرطا فى صحة الدعوة ولكن هو شرط فى كمالها كما تقدم معنا فلايشترط فى الداعى العصمة من الذنوب كما لايشترط فى الداعى أن يعمل بكل ما يدعو إليه وإن كان هذا من باب الكمال الدعوى.

قوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾.

ـ **قال الطبرى**(١): يقول تعالى ذكره: وقل تنزيهاً لله، وتعظيماً له من أن يكون له شريك فى ملكه. أو معبود سواه فى سلطانه. أهـ.

ـ وكذا قال البغوى(٢):

ـ **وقال الزمخشرى**(٣): وأنزهه من الشركاء. أهـ.

ـ وقال بنحو ذلك **ابن الجوزى**(٤).

وقال الرازى(٥): وقوله: **﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾** عطف على قوله **﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾** أى قل هذه سبيلى. وقل سبحان الله. تنزيهاً لله عما يشركون. أهـ.

وقال القرطبى(٦): قوله **﴿وَسُبْحَانَ﴾** أى قل يا محمد **﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾**.

قال ابن كثير(٧): وقوله: **﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾** أى وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً **﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾**.

●كلام شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين(٨)**: قوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾.**

أى: وسبحان الله أن أكون أدعو على غير بصيرة!

---

(١) «تفسير الطبرى» (٧/١٣/٥٣).

(٢) «معالم التنزيل» (٣/٣٣٢).

(٣) الكشاف (٢/٢٧٧).

(٤) زاد المسير (٤/٢٢٧).

(٥) التفسير الكبير (٩/١٣/٢٢٩).

(٦) تفسير القرطبى (٥/٣٥٠٣).

(٧) تفسير ابن كثير (٢/٤٧٩).

(٨) القول المفيد (١/١٦٣).

وإعراب «سبحان»: مفعول مطلق عامله محذوف تقديره أسبح أهـ.

وقال القرعاوى[1]: أنزه الله، وأعظمه من أن يكون له شريك أو نديد. أهـ.

قوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

- **قال الطبرى**[2]: يقول: وأنا برىء من أهل الشرك به لست منهم، ولاهم منى أ.هـ.

- **ولم يذكر البغوى**[3] فيها شيئاً، وكذلك **الزمخشرى**[4] **وابن الجوزى**[5] **وابن كثير**[6].

- **وقال الرازى**[7]: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين اتخذوا مع الله ضداً ونداً وكفؤاً وولداً، وهذه الآية تدل على أن حرفة الكلام وعلم الأصول حرفة الأنبياء عليهم السلام وأن الله ما بعثهم إلى الخلق إلا لأجلها.

- **وقال القرطبى**[8]: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يتخذون من دون الله أنداداً. أهـ.

- **وقال الشوكانى**[9]: بنحو كلام القرطبى وقريب من لفظه.

● كلام شراح كتاب التوحيد:

- **قال حامد بن محمد**[10]: والمخالف على هذا على أنواع:-

(١) منهم من يجهل الشريعة لغفلته عما أنزل على رسوله ﷺ وأوامره ونواهيه. فهو كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا

---

(١) الجديد (٦٣).

(٢) تفسير الطبرى (٧/ ١٣/ ٥٣).

(٣) معالم التنزيل (٣/ ٣٣٢).

(٤) الكشاف (٢/ ٢٧٧).

(٥) زاد المسير (٤/ ٢٢٧).

(٦) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٩).

(٧) التفسير الكبير (٩/ ١٣/ ٢٢٩).

(٨) تفسير القرطبى (٥/ ٣٥٠٣).

(٩) فتح القدير (٣/ ٦١).

(١٠) فتح الله الحميد المجيد (١٤٧٣ـ ١٧٤).

وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

(٢) منهم من يعلم الشريعة، ولكن تعلمها للدنيا وللجاه والمنصب، لا لله تعالى: فهو كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾.

ـ وعن كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من طلب العلم ليجارى به العلماء أو يمارى به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار»(١).

ـ وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لايتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»(٢).

(٣) ومنهم من يعلم الشريعة قاصدا وجه الله لكن لايعلم غيره لأمر من الأمور وقصد من المقاصد التى ليست شرعية، فهو كما قال الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾.

(٤) ومنهم من يعلم ويتعلم لله ويعلم غيره، ولكن لايصبر على ما يصيبه فى الله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾.
ولايسلم من هذه المخاطرات إلا من تعلم الشريعة لله، وعمل بها وعلم غيره وصبر على ما أصابه فى نفسه وماله ويعلم أن لكل شىء عوضاً إذا فاته، وما من الله عوض. كما قيل:

لكل شىء إذ أفوته عوض وما من الله إن فوته عوض أهـ

ـ قال عبدالله بن جار الله(٣): يستفاد من الآية.

(١) أن الدعوة إلى الله طريق من اتبع النبى ﷺ.

(٢) التنبيه على الإخلاص فى الدعوة إلى الله.

(٣) أن البصيرة، وهى العلم من الواجبات على الداعى إلى الله.

(٤) إبتعاد المسلم عن المشركين، لأن لايصير منهم ولو لم يشرك. أهـ.

(١) أخرجه الترمذى (٢٦٥٤). وانظر «فقه الخطابة».

(٢) رواه أحمد (٢/٣٣٨) وأبو داود (٣٦٦٤) وابن ماجة (٢٥٢). وانظر كتابى (فقه الخطابة» وانظر «رياض الصالحين» (١٣٩٤ ـ بتخريجنا).

(٣) الجامع الفريد ٣٠.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذاً إِلَى اليَمَنِ؛ قَالَ لَه: «إِنَّكَ تَأْتِى قَوْماً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ. فَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيهِ شَهَادَةَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ.

(وَفِى رِوَايَةٍ: إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ)، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِى كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِن هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِم صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِن أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» أَخْرَجَاهُ[١].

ـ قال ابن عثيمين[٢]: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ محلها مما قبلها فى المعنى توكيد، لأن التوحيد معناه نفى الشرك . أهـ.

ـ قال القرعاوى[٣]: الفوائد:

فذكر خمس فوائد منها:ـ

- يجب أن تكون الدعوة قائمة على الحجة والبرهان
- وجوب البراءة من الشرك وأهله.
- لايصح العمل إلا موافقاً لما جاء به الرسول ﷺ.
- وجوب تنزيه الله عما لايليق بجلاله. أهـ.

● ● ●

قوله: [وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن].

مناسبة الحديث للباب:

ومناسبة الحديث للباب ظاهرة جلية فى قوله ﷺ: **«فليكن أول ماتدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله»**.

---

(١) القول المفيد (١/ ١٦٣). (٢) الحديد (٦٣).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى الزكاة/ باب وجوب الزكاة (٣/ ٣٠٧/ ١٣٩٥، ١٤٥٨، ١٤٩٦، ٢٤٤٨، ٤٣٤٧، ٧٣٧٢)، ومسلم فى الإيمان/ باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١/ ١٩٦ ـ ٢٠٠ ـ النووى)، وأحمد فى «مسنده» (١/ ٣٣)، وأبوداود فى الزكاة (٢/ ١٠٧/ ١٥٨٤)، والترمذى فى الزكاة (٣/ ١٢/ ٦٢٥)، والنسائى فى الزكاة (٢/ ٥/ ٢٢١٥)، وابن ماجة فى الزكاة (١/ ٥٦٨/ ١٧٨٣). عن ابن عباس به. وانظر «منار السبيل» ـ بتخريجنا ـ وأيضاً «فتح المجيد» (ح ١٣٢) بتخريجنا.

ولذلك لم ينص أحد من شراح كتاب التوحيد على المناسبة؛ لأنها مذكورة نصاً فى الحديث والله أعلم ولذا فإن **ابن عثيمين**[١] قال: والظاهر أنه يريد أن يبين أن أول مايكون هى الشهادة، وإذا كان كذلك، يكون (أول) مرفوعاً على أنه اسم يكن، أى: أول ماتدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله. أهـ.

● سبب اختيار المصنف هذه الرواية على غيرها:

قال سليمان آل الشيخ[٢]: أشار المصنف - رحمه الله - بإيراد هذه الرواية إلى التنبيه على معنى شهادة أن لا إله إلا الله، إذ معناها توحيد الله بالعبادة، وترك عبادة ما سواه فلذلك جاء الحديث مرة بلفظ **(شهادة أن لا إله إلا الله)** ومرة **(إلى أن يوحدوا الله)** ومرة **(فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله)**. أهـ.

قلت هذا الحديث أخرجه البخارى فى«صحيحه» مستشهداً به فى أكثر من كتاب وباب، ويأتى به مختصراً فى مواضع وكاملاً فى مواضع، ولأهمية ما يحويه من فوائد جعله فى:-

- **الموضع الأول**: كتاب الزكاة: باب/ وجوب الزكاة - وفيه **«ادعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله....»**.

- **الموضوع الثانى**: كتاب الزكاة: باب/ لاتؤخذ كرائم أموال الناس فى الصدقة وفيه **«فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله»**.

- **الموضع الثالث**: كتاب الزكاة: باب/ الإتقاء والحذر من دعوة المظلوم **مختصراً بدون ذكر هذه اللفظة**.

- **الموضع الرابع**: كتاب المظالم: باب/ أخذ الصدقة من الأغنياء، وترد فى الفقراء حيث كانوا وفيه **«فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»**.

- **الموضع الخامس**: كتاب المغازى: باب/ بعث أبى موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع. وفيه **«إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ»**.

- **الموضع السادس والسابع**: كتاب التوحيد: باب/ ما جاء فى دعاء النبى ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى **وفيه «إلى أن يوحدوا الله»**، والآخر مختصراً.

● الجمع بين هذه الألفاظ:

قال ابن حجر[٣]: «ووجه الجمع بينهما أن المراد بالعبادة: التوحيد، والمراد

---

(١) القول المفيد (١/ ١٦٤ - ١٦٥).

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (٩١).

(٣) فتح البارى (١٣/ ٣٦٧).

بالتوحيد: الإقرار بالشهادتين، والإشارة بقوله ذلك إلى التوحيد، وقوله: «**فإذا عرفوا الله**» أي عرفوا توحيد الله، والمراد بالمعرفة الإقرار والطواعية، فبذلك يجمع بين هذه الألفاظ المختلفة فى القصة الواحدة والله ولى التوفيق أهـ. الفتح وسيأتى تفصيل ذلك.

قوله: [وعن عبدالله بن عباس] ذكره البخارى فى «صحيحه»[1] فى فضائل الصحابة، وذكر فيه قول ابن عباس ضمنى النبى ﷺ إلى صدره، وقال: «**اللهم علمه الحكمة**» وبلفظ آخر: «**اللهم علمه الكتاب**»[2].

قال ابن حجر: هو عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم، ابن عم النبى ﷺ، يكنى أبا العباس ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، ومات بالطائف سنة ثمان وستين، وكان من علماء الصحابة، حتى كان عمر يقدمه مع الأشياخ وهو شاب.

فدعا له النبى ﷺ بتعلم الحكمة: وهى الإصابة فى القول، وقيل الفهم عن الله، وقيل: ما يشهد العقل بصحته، وقيل نور يفرق به بين الإلهام والوسواس، وقيل: سرعة الجواب، وقيل غير ذلك ودعا له «**اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل**»[3] وفى رواية «**اللهم علمه تأويل القرآن**»[4] وكان ابن عباس من أعلم الصحابة بتفسير القرآن، وروى يعقوب بن سفيان فى «تاريخه» بإسناد صحيح عن ابن مسعود قال: «**لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عاشره منا رجل**»[5] وكان يقول: «**نعم ترجمان القرآن ابن عباس**»[6] وروى يعقوب أيضاً بإسناد صحيح عن أبى وائل قال: «قرأ على ابن عباس سورة النور ثم جعل يفسرها، فقال رجل: لو سمعت هذا الديلم لأسلمت[7] أهـ. ومناقبه كثيرة، لايمل من ذكرها، فانظرها فى كتب التراجم فالمراد هنا إلقاء نبذة عنه رضى الله عنه.

قوله: [أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن]:

قال ابن حجر[8]: أى إلى جهة أهل اليمن، وهذه الرواية تقيد الرواية المطلقة بلفظ

(١) فتح البارى (٧/ ١٢٦). (٢، ٣، ٤) تقدم تخريجه

(٥) تقدم.

(٦) أخرجه ابن أبى شيبة فى «مصنفه» (٧/ ٥١٩/ ٥)، وابن جرير فى «تفسيره» (١/ ١٢)، والحاكم فى «المستدرك» (٣/ ٥٣٧).

وانظر كتابنا «النكت المتممة» (٩٢).

(٧) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١/ ٢٨)، والحاكم فى «المستدرك» (٣/ ٥٣٧).

وانظر «النكت المتممة» (٩٣).

(٨) فتح البارى (١٣/ ٣٦١).

«**حين بعثه إلى اليمن**» فبينت هذه الرواية أن لفظ اليمن من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أو من إطلاق العام وإرادة الخاص، أو لكون اسم الجنس يطلق على بعضه كما يطلق على كله.

والراجح أنه من حمل المطلق على المقيد كما صرحت به هذه الرواية، وفى «المغازى» من رواية أبى بردة بن أبى موسى «وبعث كل واحد منهما على مخلاف» قال «واليمن مخلافان».

ثم قوله: «**إلى أهل اليمن**» من إطلاق الكل وإرادة البعض، لأنه إنما بعثه إلى بعضهم لا إلى جميعهم.

ويحتمل أن يكون الخبر على عمومه فى الدعوى إلى الأمور المذكورة وإن كانت إمرة معاذ إنما كانت على جهة من اليمن مخصوصة. أهـ.

وقال أيضاً[1] (قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن) كذا جميع الطرق إلا ما أخرجه مسلم، عن أبى بكر بن أبى شيبة وأبى كريب وإسحاق بن إبراهيم ثلاثتهم عن وكيع، فال فيه: «عن ابن عباس عن معاذ بن جبل قال: بعثنى رسول الله ﷺ» فإن ثبتت هذه الرواية فهو من مرسل ابن ابن عباس، لكن ليس حضور ابن عباس لذلك ببعيد؛ لأنه كان فى أواخر حياة النبى ﷺ وهو إذ ذاك مع أبويه بالمدينة.

● **متى بعث معاذاً إلى اليمن؟**:

قال ابن حجر: وكان بعث معاذ إلى اليمن سنة عشر قبل حج النبى ﷺ كما فى رواية البخارى فى المغازى.

وقيل: سنة تسع عند مصرفه ﷺ من تبوك. رواه الواقدى بإسناده إلى كعب بن مالك، ثم ذكر ابن سعد أنه كان فى ربيع الآخر سنة عشر، وقيل بعثه عام الفتح سنة ثمان واتفقوا على أنه لم يزل على اليمن إلى أن قدم فى عهد أبى بكر، ثم توجه إلى الشام فمات بها.

● **واختلف هل كان معاذاً والياً أم قاضياً؟**

قال ابن حجر: فجزم ابن عبدالبر بالثانى، والغسانى بالأول. أهـ.

قال سليمان آل الشيخ[2]: [قلت]: الظاهر أنه كان والياً قاضياً. أهـ.

[قلت]: **وفيه أيضاً منقبة لمعاذ بن جبل رضى الله عنه** نص عليها ابن تيمية أنه ﷺ بعثه إلى اليمن مبلغاً عنه ومفقهاً ومعلماً وحاكماً وقاضياً وبعث لمن؟

---

(١) فتح البارى (٣/٤١٩).
(٢) تيسير العزيز الحميد (٩٠).

لعلماء بنى إسرائيل. لعلماء أهل الكتـاب (اليهود والنصارى) وهذا دليل على مكانة معاذ لذلك ثبت عن النبـى ﷺ أنه يقدم العلمـاء برتوة[1] ـ وأنه أعلم الأمـة بالحلال والحرام[2]، وأن ابن مسعود كان يقرأ هذه الآية ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾. فكان يقول (إن معاذاً كان أمة) بدلاً من (إبراهيم).

فقال بعض أصحاب ابن مسعود: أخطأ أبو عبدالرحمن؟ فقال له أتدرى ما الأمة وما القانت؟ أجابه ثم قال: وهكذا كان معاذ ﴿**أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا**﴾[3].

لذلك الرسول ﷺ بعثه إلى اليمن.

قوله: (قـال له: إنك تأتى قوماً من أهل الكتـاب) ورواية البخارى فى التوحـيد «إنك تقدم».

قال ابن حجر[4]: هم اليهـود، وكان ابتداء دخول اليـهودية اليمن فى زمن أسـعد ذى[*] كرب وهو تبع الأصغر كما ذكره ابن إسحاق مطولاً فى السيرة.

فقام الإسلام وبعض أهل اليمن على اليهـودية، ودخل دين النصرانية إلى اليمن بعد ذلك لما غلبت الحبشة على اليمن، وكـان منهم أبرهة صاحب الفيل الذى غزا مكة وأراد هدم الكعبة حتى أجلاهم عنها سيف بن ذى يزن، كما ذكره ابن إسحاق مبسوطاً أيضاً.

ولم يبق بعـد ذلك باليـمن أحـد من النصـارى أصـلاً إلا بنجـران وهى بين مكة واليمن، وبقى ببعض بلادها قليل من اليهود. أهـ.

وفى رواية كتاب الزكاة: «**ستأتى قوماً أهل كتاب**».

قال ابن حجر[5]: هى كالتوطئة للوصية لتستـجمع همته عليها، لكون أهل الكتاب أهل علم فى الجملة فلا تكون العناية فى مخاطبتهم كـمخاطبة الجهال من عبدة الأوثان، وليس فيـه أن جميع من يـقدم عليهم من أهل الكتـاب، بل يجوز أن يكون فـيهم من غيرهم، وإنما خصهم بالذكر تفضيلاً لهم على غيرهم. أهـ.

قلت: والرسول يقول إنك تأتى قومًا من أهل الكتاب أى (اليهود والنصارى) هذه من التوطئة والتنبيه ليـجمع همته العلمية للتصدى لهؤلاء الـعلماء الضلال المضلين (فهم إما

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم أيضا.

(٣) تقدم فى الباب الأول.

(٤) فتح البارى (١٣/ ٣٦١).

(*) وسيأتى من كلام ابن حجر أيضاً أنه (أسعد أبى كرب).

(٥) فتح البارى (٣/ ٤١٩، ٤٢٠).

ضلال وإما مضلين) فهم على أية حال علماء ذلك بأن الله سبحانه وتعالى وصفهم بالعلم.

ويقول الله عزوجل: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

فوصفهم بهذا ووصف بعضهم بقوله:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾.

وهو بلعام بن باعوراء وقصته معروفة فى كتب التفسير(١).

أن هذا الرجل كان من علماء بنى إسرائيل فَفُتِنَ (فتنه قومه بالنساء والهدايا)وقد كان أوتى اسم الله الأعظم الذى إذا ادعى به أجاب سبحانه وتعالى ورغم ذلك قال الله سبحانه وتعالى عنه ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾، نسأل الله العفو والعافية.

قال سليمان آل الشيخ(٢): فى قوله (من أهل الكتاب): قال القرطبى: يعنى اليهود والنصارى؛ لأنهم كانوا فى اليمن أكثر من مشركى العرب أو أغلب، وإنما نبهه على هذا ليتأهب لمناظرتهم، ويعد الأدلة لإمتحانهم، لأنهم أهل علم سابق بخلاف المشركين وعبدة الأوثان. ا هـ وتقدم بمعناه للحافظ ابن حجر.

[قلت]: **سليمان آل الشيخ**: وفيه أن مخاطبة العالم ليست كمخاطبة الجاهل والتنبيه على أنه ينبغى للإنسان أن يكون على بصيرة فى دينه، لئلا يبتلى بمن يورد عليه شبهة من علماء المشركين، ففيه التنبيه على الإحتراز من الشبه، والحرص على طلب العلم. أهـ.

وقال ابن عيثمين(٣) **فى قوله ﷺ: (إنك تأتى قومًا من أهل الكتاب):**

قال ذلك مرشدًا له، وهذا دليل على معرفته ﷺ بأحوال الناس، وما يعلمه من أحوالهم،ـ قلت: وهذا ما يسميه البعض الواقع أوفقه الواقع قال ابن عثيمين: فله طريقان:

١- الوحى ٢- العلم والتجربة.

ثم قال: وأخبره النبى ﷺ بذلك لأمرين:

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» وانظر «الدر المنثور» (٤/ ٢٦٦)، وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٩٠ ـ ٩١). (٣) القول المفيد (١/ ١٦٤).

[الأول]: أن يكون بصيرًا بأحوال من يدعو. قلت: كما تقدم من أن ذلك يسميه البعض فقه الواقع.

[الثاني]: أن يكون مستعدًا لهم، لأنهم أهل كتاب، وعندهم علم. اهـ.

قال ابن حجر[1]: تنبيهان:

أحدهما: كان أصل دخول اليهودية في اليمن فى زمن أسعد أبى كرب وهو تبع الأصغر كما حكاه ابن إسحق فى أوائل السيرة النبوية.

ثانيهما: قال ابن العربى فى شرح الترمذى: تبرأت اليهود فى هذه الأزمان من القول بأن العزير ابن الله وهذا لا يمنع كونه كان موجوداً فى زمن النبى ﷺ لأن ذلك نزل فى زمنه واليهود معه بالمدينة وغيرها فلم ينقل عن أحد منهم أنه رد ذلك ولا تعقبه.

والظاهر أن القائل بذلك طائفة منهم لا جميعهم بدليل أن القائل من النصارى إن المسيح ابن الله طائفة منهم لا جميعهم فيجوز أن تكون تلك الطائفة انقرضت فى هذه الأزمان كما انقلب اعتقاد معظم اليهود عن التشبيه إلى التعطيل وتحول معتقد النصارى فى الابن والأب إلى أنه من الأمور المعنوية لا الحسية، فسبحان مقلب القلوب. اهـ.

[قلت]: وتنبيه ثالث: أن الله تعالى أنزل التوراة على اليهود والإنجيل على النصارى، ومع ذلك قال ﴿أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ ولم يقل (كتابين) وكذا قال الرسول ﷺ هنا لمعاذ (**تأتى قومًا من أهل الكتاب**).

لأن عيسى عليه السلام لم يأت بشرع مستقل وإنما جاء ليحل لهم بعض الذى حرم عليهم أو ليضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت فى أعناقهم، فهو متمم لشريعة موسى عليه السلام ويسمونه ـ كما هو معلوم ولله الحمد والمنة لدى طلبة العلم من المسلمين ـ أسفار العهد القديم وأسفار العهد الجديد والسفران يسميان عندهما بالكتاب المقدس، والصليبى النصرانى مطالب أن يذعن وينقاد إلى الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) ولذلك فالله عز وجل يخاطب النصارى واليهود قائلاً: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ ولم يقل يا أهل الكتابين لأن التوراة والإنجيل كتاب واحد.

قوله: [**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**]

قال سليمان آل الشيخ[2]: قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: وقد علم بالاضطرار

(١) فتح البارى (٣/ ٤٢٠).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٩٣).

من دين الرسـول ﷺ واتفقت عليـه الأمة أن أصل الإسـلام، وأول ما يؤمـر به الخلق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فبذلك يصير الكافر مسلمًا، والعدو وليًا، والمباح دمه وماله معصـوم الدم والمال، ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل فى الإيمان، وإن قاله بلسـانه دون قلبه فـهو فى ظاهر الإسلام دون باطن الإيـمان، وفيـه البداءة فى الدعوة والتعليم بالأهم فالأهم، واستدل به من قـال من العلماء إنه لا يشترط فى صحة الإسلام النطق بالتبـرى من كل دين يخالف دين الإسلام لأن اعتقاد الشـهادتين يستلزم ذلك وفى ذلك تفصيل.

وفيه: أنه لا يحكم بإسلام الكافر إلا بالنطق بالشهادتين.

قال شيخ الإسلام: فأما الشـهادتان إذا لم يتكلم بهمـا مع القدرة فهو كافـر باتفاق المسلمين، وهو كافر باطنًا وظاهرًا عند سلف الأمة وأئمتها، وجماهير علمائها.

قلت أى سليمـان: هذا والله أعلم فيمن لا يقر بهـما أو بإحداهما أمـا من كفره مع الإقرار بهما ففيه بحث، والظاهر أن إسلامه هو توبته عما كفر به.

وفيه أن الإنسان قد يكون قارئًا عالمًا وهو لايعرف معنى لا إله إلا الله، أو يعرفه ولا يعمل به، نبه عليه المصنف.

وقال بعضهم: هذا الذى أمر به النبى ﷺ معـاذًا، هو الدعوة قبل القتال التى كان يوصى بها النبى ﷺ أمراءه.

قلت أى سليمان: فعلى هذا فـيه استحباب الدعوة قبل القتـال لمن بلغته الدعوة، أما من لم تبلغه فتجب دعوته. اهـ.

● **فائدة فى شرح بعض كلام ابن تيمية على قوله ﷺ «فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله».**

قلت: فإن ابن تيمـية بيَّن أن هذه الكلمة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محـمداً رسول الله. أول ما يؤمر بها الخلق فبذلك يسيـر الكافر مسلماً إلا إذا أتى بمناقض والعدو ولياً، والمباح دمه معصوم الدم والمال، ثم إذا كانت من القلب دخل فى الإيمان.

وإذا كانت من اللسان ولم تدخل القلـب دخل فى الإسلام الحكمى ومن هنا قال فى كتاب «الإيمان الأوسط» أن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا.

يعنى كلمة إيمان وكلمة إسلام إذا اجتمعا فى موضع واحد. افترقا فى المعنى.

كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

فهنا دل على أن الإيمان غير الإسلام.

فالإيـمان هنا الأعـمال القلبـية، والإسلام أعـمال الجـوارح الظاهرة. ومثل حـديث **«أخبرنى ما الإيمان، أخبرنى ما الإسلام»**.

وإذا افتـرقا فى حـديث (فالإسـلام هو الإيمان،والإيمـان هو الإسلام) مثـل حديث جـبـريل فى تعليم أمـور الدين[1]، وحـديث «كل المسلـم على المسلم حـرام دمـه ومال...»[2]

فهنا كلمة المسلم تشمل المسلم والمؤمن.

وحديث **«من حسن إسلام المرء تركه مالايعنيه»**[3].

أيضا من حسن إيمانه.

فمن هنا قال شيخ الإسلام.

من هنا سار الكافر مسلماً ومباح الدم معصوم الدم.... إلخ.

كما قال تعالى: **﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾**.

وهذا مقصد شيخ الإسلام. والله أعلم.

وفى رواية للبخارى **«فادعـوهم إلى أن يشـهدوا أن لا إله إلا الله وأن مـحمـداً رسول الله»**.

قال ابن حجر[4]: كذا للأكـثر، وفى أول الزكـاة بلفظ **«وأنى رسول الله»** كذا فى رواية زكريا بن إسحاق لم يختلف عليه فيها، وأما إسماعيل بن أمية ففى رواية روح بن القاسم عنه **«فأول ماتدعوهم إليه عـبادة الله، فإذا عرفوا الله»** وفى رواية الفضل بن العلاء عنه **«إلى أن يوحدوا الله، فإذا عرفوا ذلك»**.

ويجـمع بينها بأن المراد بعـبادة الله توحـيده وبتـوحيـده الشهـادة له بذلك والتنبـيه بالرسالة، ووقعت البـداءة بهما لأنهما أصل الدين الذى لايصح شىء غيـرهما إلا بهما

(١) تقدم تخريجه.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة (١٦/ ١٢١ ـ النووى) عن أبى هريرة.
وانظر «رياض الصالحين» (١٥٣٠ ـ بتخريجنا).

(٣) [ضعيف] أخرجه الترمذى (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦) وأرسله مالك فى «الموطأ» (٢/ ٦٨٩/ ٣).
وانظر «السلسبيل» (١١٨٤ ـ بتخريجنا).

(٤) فتح البارى (٣/ ٤٢٠).

فمن كان منهم غير موحد فالمطالبة متوجهة إليه بكل واحدة من الشهادتين على التعيين، ومن كان موحداً فالمطالبة بين الإقرار بالوحدانية والإقرار بالرسالة، وإن كانوا يعتقدون ما يقتضى الإشراك أو يستلزمه كمن يقول ببنوة عزير أو يعتقد التشبيه فتكون مطالبتهم بالتوحيد لنفى ما يلزم من عقائدهم.

واستدل به من قال من العلماء إنه لايشترط التبرى من كل دين يخالف دين الإسلام خلافاً لمن قال إن من كان كافراً بشيء وهو مؤمن بغيره لم يدخل فى الإسلام إلا بترك اعتقاد ما كفر به.

والجواب أن اعتقاد الشهادتين يستلزم ترك اعتقاد التشبيه ودعوى بنوة عزير وغيره فيكتفى بذلك.

واستدل به على أنه لايكفى فى الإسلام الاقتصار على شهادة أن لا إله إلا الله حتى يضيف إليها الشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة وهو قول الجمهور.

وقال بعضهم: يصير بالأولى مسلماً ويطالب بالثانية. وفائدة الخلاف تظهر بالحكم بالردة. أهـ.

- **من استدل بهذا الحديث على أن أول واجب المعرفة أو النظر أو القصد إليه. والرد على ذلك كله.**

وفى رواية البخارى فى التوحيد «**فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله فإذا عرفوا ذلك**».

قال ابن حجر[1]: فى الزكاة من طريق إسماعيل بن أمية عن يحيى بن عبدالله بلفظ «**فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله فإذا عرفوا الله**» وكذا أخرجه مسلم عن الشيخ الذى أخرجه عنه البخارى.

وقد تمسك به من قال أول واجب المعرفة كإمام الحرمين واستدل بأنه لايتأتى الإتيان بشيء من المأمورات على قصد الإمتثال، ولا الانكفاف عن شيء من المنهيات على قصد الإنزجار إلا بعد معرفة الآمر والناهى.

واعترض عليه بأن المعرفة لاتتأتى إلا بالنظر والاستدلال، وهو مقدمة الواجب فيجب فيكون أول واجب النظر.

---

(١) فتح البارى (١٣/ ٣٦٠).

وذهب إلى هذا طائفة كابن فورك.

وتعقب بأن النظر ذو أجزاء يترتب بعضها على بعض، فيكون أول واجب جزأ من النظر وهو محكى عن القاضى أبى بكر بن الطيب وعن الأستاذ أبى إسحق الاسفراينى أول واجب القصد إلى النظر.

وجمع بعضهم بين هذه الأقوال بأن من قال أول واجب المعرفة أراد طلباً وتكليفاً، ومن قال النظر أو القصد أراد امتثالاً لأنه يسلم أنه وسيلة إلى تحصيل المعرفة، فيدل ذلك على سبق وجوب المعرفة.

وفى «كتاب الإيمان» من أعرض عن هذا من أصله وتمسك بقوله تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ وحديث «**كل مولود يولد على الفطرة**» فإن ظاهر الآية والحديث أن المعرفة حاصلة بأصل الفطرة، وأن الخروج عن ذلك يطرأ على الشخص لقوله عليه الصلاة والسلام «**فأبواه يهودانه وينصرانه**»(١) وقد وافق أبو جعفر السمنانى وهو من رءوس الأشاعرة على هذا وقال: إن هذه المسئلة بقيت فى مقالة الأشعرى من مسائل المعتزلة؛ وتفرع عليها أن الواجب على كل أحد معرفة الله بالأدلة الدالة عليه، وأنه لايكفى التقليد فى ذلك انتهى.

● **الناس فى هذه المسألة طرفان ووسط. فطرف اكتفى بالتقليد وحرم النظر، والطرف الآخر بالغ فى النظر حتى كفَّر العوام الذين لم يؤهلوا للنظر**

قال ابن حجر(٢): قرأت فى جزء من كلام شيخ شيخنا الحافظ صلاح الدين العلائى ما ملخصه: أن هذه المسألة مما تناقضت فيها المذاهب وتباينت.

بين مفّرط ومفرط ومتوسط.

فالطرف الأول: قول من قال يكفى التقليد المحض فى إثبات وجود الله تعالى ونفى الشريك عنه، وممن نسب إليه إطلاق ذلك عبيد الله بن الحسن العنبرى وجماعة من الحنابلة والظاهرية، ومنهم من بالغ فحرم النظر فى الأدلة واستند إلى ما ثبت عن الأئمة الكبار من ذم الكلام.

والطرف الثانى: قول من وقف صحة إيمان كل أحد على معرفة الأدلة من علم الكلام، ونسب ذلك لأبى إسحق الأسفرينى.

---

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (١٣٨٥)، ومسلم فى القدر (١٦/ ٢٧ـ النووى) عن أبى هريرة به وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٤٠٥) وتقدم تخريجه.

(٢) فتح البارى (١٣/ ٣٦١، ٣٦٢).

وقال الغزالى: أسرفت طائفة فكفروا عوام المسلمين، وزعموا أن من لم يعرف العقائد الشرعية بالأدلة التى حرروها فهو كافر، فضيقوا رحمة الله الواسعة وجعلوا الجنة مختصة بشرذمة يسيرة من المتكلمين.

وذكر نحوه أبو المظفر بن السمعانى وأطال فى الرد على قائله، ونقل عن أكثر أئمة الفتوى أنهم قالوا: لايجوز أن تكلف العوام إعتقاد الأصول بدلائلها، لأن فى ذلك من المشقة أشد من المشقة فى تعلم الفروع الفقهية.

وأما المذهب المتوسط، فذكره وسأذكره ملخصاً بعد هذا.

وقال القرطبى فى المفهم: فى شرح حديث **«أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»**(١).

وهو فى أوائل كتاب العلم من صحيح مسلم هذا الشخص الذى يبغضه الله هو الذى يقصد بخصومته مدافعة الحق ورده بالأوجه الفاسدة والشبه الموهمة، وأشد ذلك الخصومة فى أصول الدين، كما يقع لأكثر المتكلمين المعرضين عن الطرق التى أرشد إليها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسلف أمته، إلى طرق مبتدعة واصطلاحات مخترعة وقوانين جدلية وأمور صناعية مدار أكثرها على آراء سوفسطائية، أو مناقضات لفظية ينشأ بسببها على الآخذ شبه ربما يعجز عنها، وشكوك يذهب الإيمان معها، وأحسنهم انفصالاً عنها أجدلهم لا أعلمهم، فكم من عالم بفساد الشبهة لايقوى على حلها، وكم من منفصل عنها لايدرك حقيقة علمها ثم إن هؤلاء قد ارتكبوا أنواعاً من المحال لايرتضيها البله والأطفال، لما بحثوا عن تحيز الجواهر والألوان والأحوال، فأخذوا فيما أمسك عنه السلف الصالح من كيفيات تعلقات صفات الله تعالى وتعديدها واتحادها فى نفسها، وهل هى الذات أو غيرها وفى الكلام: هل هو متحد أو منقسم.

وعلى الثانى: هل ينقسم بالنوع أو الوصف، وكيف تعلق فى الأزل بالمأمور مع كونه حادثاً، ثم إذا انعدم المأمور هل يبقى التعلق، وهل الأمر لزيد بالصلاة مثلاً هو نفس الأمر لعمرو بالزكاة إلى غير ذلك مما ابتدعوه مما لم يأمر به الشارع وسكت عنه الصحابة ومن سلك سبيلهم، بل نهوا عن الخوض فيها لعلمهم بأنه بحث عن كيفية ما لاتعلم كيفيته بالعقل، لكون العقول لها حد تقف عنده، ولا فرق بين البحث عن كيفية الذات وكيفية الصفات، ومن توقف فى هذا فليعلم أنه إذا كان حجب عن كيفية نفسه مع

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٤٥٧)، ومسلم فى العلم (٨/ ٤٧١/ ٥) عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ به.

(*) كذا فى الأصل ولعل الصواب : بها.

وجودها، وعن كيفية إدراك ما يدرك به فهو عن إدراك غيره أعجز، وغاية علم العالم أن يقطع بوجود قائل لهذه المصنوعات منزه عن الشبه مقدس عن النظير متصف بصفات الكمال، ثم متى ثبت النقل عنه بشيء من أوصافه وأسمائه قبلناه واعتقدناه وسكتنا عما عداه، كما هو طريق السلف، وما عداه لا يأمن صاحبه من الزلل، ويكفى فى الردع عن الخوض فى طرق المتكلمين ما ثبت عن الأئمة المتقدمين كعمر بن عبدالعزيز ومالك بن أنس والشافعى.

وقد قطع بعض الأئمة بأن الصحابة لم يخوضوا فى الجوهر والعرض وما يتعلق بذلك من مباحث المتكلمين، فمن رغب عن طريقهم فكفاه ضلالاً.

قال: وأفضى الكلام بكثير من أهله إلى الشك، وببعضهم إلى الإلحاد وببعضهم إلى التهاون بوظائف العبادات، وسبب ذلك إعراضهم عن نصوص الشارع وتطلبهم حقائق الأمور من غيره، وليس فى قوة العقل ما يدرك فى نصوص الشارع من الحكم التى استأثر بها.

وقد رجع كثير من أئمتهم عن طريقهم، حتى جاء عن إمام الحرمين أنه قال «ركبت البحر الأعظم، وغصت فى كل شيء نهى عنه أهل العلم فى طلب الحق فراراً من التقليد والآن فقد رجعت واعتقدت مذهب السلف» هذا كلامه أو معناه وعنه أنه قال عند موته «يا أصحابنا لاتشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أنه يبلغ بى ما بلغت ما تشاغلت به».

إلى أن قال القرطبى: ولو لم يكن فى الكلام إلا مسئلتان هما من مبادئه لكان حقيقاً بالذم:

إحداهما: قول بعضهم إن أول واجب الشك إذ هو اللازم عن وجوب النظر أو القصد إلى النظر، وإليه أشار الإمام بقوله ركبت البحر.

ثانيتهما: قول جماعة منهم إن من لم يعرف الله بالطرق التى رتبوها والأبحاث التى حرروها لم يصح إيمانه، حتى لقد أورد على بعضهم أن هذا يلزم منه تكفير أبيك وأسلافك وجيرانك، فقال لا تشنع على بكثرة أهل النار.

قال: وقد رد بعض من لم يقل بهما على من قال بهما بطريق من الرد النظرى وهو خطأ منه، فإن القائل بالمسئلتين كافر شرعاً، لجعله الشك فى الله واجباً، ومعظم المسلمين كفاراً حتى يدخل فى عموم كلامه السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وهذامعلوم الفساد من الدين بالضرورة، وإلا فلايوجد فى الشرعيات ضرورى.

وختم القرطبى كلامه بالإعتذار عن إطالة النفس فى هذا الموضع لما شاع بين الناس

من هذه البدعة حتى اغـتر بها كثير من الأغمار فوجب بذلك الـنصيحة، والله يهدى من شاء انتهى.

● **قلت: وبرغم طوله ذكرناه لحاجة طلبة العلم إليه فى هذه الأيام، ليعرفوا أصل كلام من اشتـرط لإسلام العوام تعلم التـوحيد أو تعلمـه على أيديهم، وكذلك يعـرفوا طرق الرد على هؤلاء والله المستعان**

قال ابن حجر(١): وقال الآمدى فى أبكار الأفكار: ذهب أبو هاشم من المعتزلة إلى أن من لايعرف الله بالدليل فهو كافر، لأن ضد المعرفة النكرة والنكرة كفر.

قال: وأصحابنا مجمـعون على خلافه وإنما اختلفوا فيما إذا كان الإعـتقاد موافقاً لكن عن غير دليل.

فمنهم: من قال إن صاحبه مؤمن عاص بترك النظر الواجب.

ومنهم: من اكتفى بمجرد الإعتـقاد الموافق وإن لم يكن عن دليل وسماه علماً، وعلى هذا فلا يلزم من حصول المعرفة بهذا الطريق وجوب النظر.

وقال غيره: من منع التقليد وأوجب الإستـدلال لم يرد التعمق فى طريق المتكلمين، بل اكتـفى بما لايخلو عنه من نشأ بين المسلمـين من الإستدلال بالمصـنوع على الصانع، وغايته أنه يحصل فى الذهن مقدمات ضرورية تتألق تألقاً صحيحاً وتنتج العلم، لكنه لو سئل كيف حصل له ذلك ما اهتدى للتعبير به.

وقيل الأصل فى هذا كله المنع من التـقليد فى أصول الدين وقد انفـصل بعض الأئمة عن ذلك بأن المراد بالتقليد أخـذ قول الغير بغيـر حجة، ومن قامت عليه حجـة بثبوت النبوة حتى حصل له القطع بهـا، فمهما سمعه من النبى ﷺ كان مـقطوعاً عنده بصدقه فإذا اعتقده لم يكن مقلداً لأنه لم يأخذ بقول غيـره بغير حجة، وهذا مستند السلف قاطبة فى الأخذ بما ثبت عندهم من آيات القـرآن وأحاديث النبى ﷺ فيما يتـعلق بهذا الباب، فآمنوا بالمحكم من ذلك وفوضوا أمر المتشابه منه إلى ربهم، وإنما قال من قال إن مذهب الخلف أحكم بالنسبـة إلى الرد على من لم يثبت النبوة، فـيحتاج من يريد رجـوعه إلى الحق أن يقيم عـليه الأدلة إلى أن يذعن فـيسلم أو يعاند فـيهلك، بخـلاف المؤمن فإنه لايحتـاج فى أصل إيمانه إلى ذلك، وليس سـبب الأول إلا جعل الأصل عـدم الإيمان فلزم إيجـاب النظر المؤدى إلى المعـرفـة وإلا فطريق السلف أسـهل من هذا كـما تقـدم إيضاحه من الرجوع إلى ما دلت عليه النصوص حتى يحتاج إلى ما ذكر من إقامة الحجة على من ليس بمؤمن، فاختلط الأمر على من اشترط ذلك والله المستعان اهـ.

---

(١) فتح البارى (١٣/ ٣٦٢، ٣٦٣).

شبهات أخرى والرد عليها:

ثم قال: واحتج بعض من أوجب الإستدلال باتفاقهم على ذم التقليد، وذكروا الآيات والأحاديث الواردة فى ذم التقليد، وبأن كل أحد قبل الإستدلال لا يدرى أى الأمرين هو الهدى، وبأن كل مالايصح إلا بالدليل فهو دعوى لايعمل بها، وبأن العلم إعتقاد الشىء على ما هو عليه من ضرورة أو استدلال وكل مالم يكن علماً فهو جهل، ومن لم يكن عالماً فهو ضال.

والجواب: عن الأول أن المذموم من التقليد أخذ قول الغير بغير حجة، وهذا ليس منه حكم رسول الله ﷺ فإن الله أوجب اتباعه فى كل ما يقول، وليس العمل فيما أمر به أو نهى عنه داخلاً تحت التقليد المذموم اتفاقاً، وأما من دونه ممن اتبعه فى قول قاله واعتقد أنه لو لم يقله لم يقل هو به فهو المقلد المذموم، بخلاف ما لو اعتقد ذلك فى خبر الله ورسوله فإنه يكون ممدوحاً.

وأما احتجاجهم بأن أحداً لايدرى قبل الإستدلال أى الأمرين هو الهدى فليس بمسلم، بل من الناس من تطمئن نفسه وينشرح صدره للإسلام من أول وهلة، ومنهم من يتوقف على الإستدلال، فالذى ذكروه هم أهل الشق الثانى، فيجب عليه النظر ليقى نفسه النار لقوله تعالى: ﴿**قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا**﴾ ويجب على كل من استرشده أن يرشده ويبرهن له الحق وعلى هذا مضى السلف الصالح من عهد النبى ﷺ وبعده.

وأما من استقرت نفسه إلى تصديق الرسول ولم تنازعه نفسه إلى طلب دليل توفيقاً من الله وتيسيراً. فهم الذين قال الله فى حقهم ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ الآية. وقال ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ**﴾ الآية وليس هؤلاء مقلدين لآبائهم ولا لرؤسائهم. لأنهم لو كفر آباؤهم أو رؤساؤهم لم يتابعوهم بل يجدون النفرة عن كل من سمعوا عنه ما يخالف الشريعة.

وأما الآيات والأحاديث فإنما وردت فى حق الكفار الذين اتبعوا من نهوا عن اتباعه وتركوا اتباع من أمروا باتباعه.

وإنما كلفهم الله الإتيان ببرهان على دعواهم بخلاف المؤمنين فلم يرد قط أنه أسقط اتباعهم حتى يأتوا بالبرهان. وكل من خالف الله ورسوله فلا برهان له أصلاً وإنما كلف الإتيان بالبرهان تبكيتاً وتعجيزً. وأما من اتبع الرسول فيما جاء به فقد اتبع الحق الذى أمر به وقامت البراهين على صحته، سواء علم هو بتوجيه ذلك البرهان أم لا.

وقول من قال منهم إن الله ذكر الإستدلال وأمر به: مسلم لكن هو فعل حسن

مندوب لكل من أطاقه، وواجب علـى كل من لم تسكن نفسه إلى التـصديق كمـا تقدم تقريره وبالله التوفيق ا هـ.

الرد على من زعم أن طريقة الخلف أحكم وطريقة السلف أسلم فى هذا الباب.

نقل ابن حجر: قول من قال طريـقة السلف أسلم وطريقة الخلف أحكم ثم رده بقوله أنه: ليس بمستقيم، لأنه ظن أن طريقة السلف مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غيـر فقه فى ذلك، وأن طـريقة الخلف هى إستـخراج معـانى النصوص المصـروفة عن حقائقها بأنواع المجازات، فجمع هذا القائل بين الجهل بطريقة السلف والدعوى فى طريقة الخلف، وليس الأمر كما ظن، بل السلف فى غاية المعرفة بما يليق بالله تعالى، وفى غاية التعظيم له والخضوع لأمره والتسليم لمراده، وليس من سلك طريق الخلف واثقاً بأن الذى يتأوله هو المراد ولا يمكنه القطع بصحة تأويله.

وأما قـولهم فى العلم فزادوا فى التعـريف عن ضرورة أو استـدلال وتعريف العلم، انتهى عند قوله عليـه: فإن أبوا إلا الزيادة فليزدادوا عن تيسـير الله له ذلك وخلقه ذلك المعتقد فى قلبه، وإلا فالذى زادوه هو محل النزاع فلا دلالة فيه وبالله التوفيق.

وقال أبو المظفر بن السمـعانى: تعقب بعض أهل الكلام قول من قـال إن السلف من الصـحابة والتـابعين. لم يعـتنوا بإيراد دلائل العـقل فى التـوحيـد بأنهم لم يشتـغلوا بالتعـريفات فى أحكام الحوادث وقد قـبل الفقهاء ذلك واسـتحسنوه فدونوه فى كـتبهم، فكذلك علم الكلام، ويمتـاز علم الكلام بأنه يتضمـن الرد على الملحدين وأهل الأهواء، وبه تزول الشبهة عن أهل الزيغ ويثبت اليقين لأهل الحق، وقد علم الكل أن الكتاب لم تعلم حقيته، والنبى لم يثبت صدقه إلا بأدلة العقل.

وأجاب: أما أولاً: فإن الشـارع والسلف الصالح نهـوا عن الإبتداع وأمـروا بالإتباع، وصح عن السلف أنهم نهوا عن علم الكلام وعدوه ذريعة للشك والإرتياب.

وأما الفروع فلم يثـبت عن أحد منهم النهى عنها إلا من ترك النص الصـحيح وقدم عليه القياس.

وأما من اتبع النص وقاس عليه فـلايحفظ عن أحد من أئمة السلف إنكار ذلك، لأن الحوادث فى المعاملات لاتنقضى وبالناس حاجـة إلى معرفة الحكم، فمن ثم تواردوا على إستحباب الإشتغال بذلك بخلاف علم الكلام.

وأما ثانياً: فإن الدين كمل لقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فإذا كان أكمله وأتمه وتلقاه الصحـابة عن النبى ﷺ واعتقده من تلقى عنهم واطمأنت به نفـوسهم، فأى حـاجة بهم إلى تحكيم الـعقـول والرجوع إلى قـضاياهـا وجعلهـا أصلا، والنصـوص

الصحيحة الصريحة تعرض عليها فتارة يعمل بمضمونها، وتارة تحرف عن مواضعها لتوافق العقول.

وإذا كان الدين قد كمُل فلا تكون الزيادة فيه إلا نقصاناً فى المعنى، مثل زيادة أصبع فى اليد فإنها تنقص قيمة العبد الذى يقع به ذلك.

وقد توسط بعض المتكلمين فقال: لايكفى التقليد بل لابد من دليل ينشرح به الصدر. وتحصل به الطمأنينة العلمية، ولايشترط أن يكون بطريق الصناعة الكلامية بل يكفى فى حق كل أحد بحسب ما يقتضيه فهمه إنتهى.

والذى تقدم ذكره من تقييد النصوص كاف فى هذا القدر. أهـ.

● **الخلاصة ومذهب أهل التوسط، والحسنة بين السيئتين، وأدلتهم**

قال ابن حجر(١): وقال بعضهم المطلوب من كل واحد التصديق الجزمى الذى لاريب معه بوجود الله تعالى والإيمان برسله وبما جاءوا به كيفما حصل وبأى طريق إليه يوصل، ولو كان عن تقليد محض إذا سلم من التزلزل.

قال القرطبى: هذا الذى عليه أئمة الفتوى ومن قبلهم من أئمة السلف، واحتج بعضهم بما تقدم من القول فى أصل الفطرة وبما تواتر عن النبى ﷺ ثم الصحابة أنهم حكموا بإسلام من أسلم من جفاة العرب ممن كان يعبد الأوثان، فقبلوا منهم الإقرار فأسلم بسبب وضوحه له، فالكثير منهم قد أسلموا طوعا من غير تقدم إستدلال، بل بمجرد ما كان عندهم من أخبار أهل الكتاب بأن نبياً سيبعث وينتصر على من خالفه، فلما ظهرت لهم العلامات فى محمد ﷺ بادروا إلى الإسلام، وصدقوه فى كل شىء قاله ودعاهم إليه من الصلاة والزكاة وغيرهما، وكثير منهم كان يؤذن له فى الرجوع إلى معاشه من رعاية الغنم وغيرها، وكانت أنوار النبوة وبركاتها تشملهم فلا يزالون يزدادون إيماناً ويقيناً.

وقال أبو المظفر بن السمعانى أيضاً ما ملخصه: إن العقل لايوجب شيئاً ولا يحرم شيئاً، ولاحظ له فى شىء من ذلك، ولو لم يرد الشرع بحكم، ما وجب على أحد شىء، لقوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا**﴾ وقوله: ﴿**لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾ وغير ذلك من الآيات.

فمن زعم أن دعوة رسل الله عليهم الصلاة والسلام إنما كانت لبيان الفروع، لزمه أن يجعل العقل هو الداعى إلى الله دون الرسول ويلزمه أن وجود الرسول وعدمه بالنسبة إلى الدعاء إلى الله سواء، وكفى بهذا ضلالاً. ونحن لاننكر أن العقل يرشد إلى

(١) فتح البارى (١٣/ ٣٦٥، ٣٦٦).

التوحيد وإنما ننكر أن يستقل بإيجاب ذلك حتى لايصح إسلام إلا بطريقه، مع قطع النظر عن السمعيات لكون ذلك خلاف ما دلت عليه آيات الكتاب والأحاديث الصحيحة التى تواترت ولو بالطريق المعنوى، ولو كان كما يقول أولئك لبطلت السمعيات التى لامجال للعقل فيها أو أكثرها، بل يجب الإيمان بما ثبت من السمعيات، فإن عقلناه فبتوفيق الله وإلا أكتفينا بإعتقاد حقيته على وفق مراد الله سبحانه وتعالى إنتهى.

ويؤيد كلامه ما أخرجه أبوداود عن ابن عباس «أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ أنشدك الله: آلله أرسلك أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن ندع اللات والعزى؟ قال: **نعم فأسلم**».

وأصله فى الصحيحين فى قصة ضمام بن ثعلبة[(١)].

وفى حديث عمرو بن عبسة عند مسلم أنه «أتى النبى ﷺ فقال ما [(*)] أنت؟ قال: **نبى الله**. قلت: آلله أرسلك؟ قال: **نعم**. قلت: بأى شىء؟ قال: **أوحد الله لاأشرك به شيئاً**» الحديث[(٢)].

وفى حديث أسامة بن زيد فى قصة قتله الذى قال لا إله إلا الله فأنكر عليه النبى ﷺ[(٣)] وحديث المقداد فى معناه[(٤)]. وهما عند البخارى فى «كتاب الديات».

وفى كتب النبى ﷺ إلى هرقل وكسرى وغيرهما من الملوك يدعوهم إلى التوحيد[(٥)]؛ إلى غير ذلك من الأخبار المتواترة التواتر المعنوى الدال على أنه ﷺ لم يزد فى دعائه المشركين على أن يؤمنوا بالله وحده ويصدقوه فيما جاء به عنه، فمن فعل ذلك قبل منه سواء كان إذعانه عن تقدم نظر أم لا، ومن توقف منهم نبهه حينئذ على النظر، أو أقام عليه الحجة إلى أن يذعن أو يستمر على عناده.

وقال البيهقى فى «كتاب الإعتقاد»: سلك بعض أئمتنا فى إثبات الصانع وحدوث العالم طريق الإستدلال بمعجزات الرسالة فإنها أصل فى وجوب قبول ما دعا إليه النبى ﷺ. وعلى هذا الوجه وقع إيمان الذين استجابوا للرسل.

---

(١) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٦٣)، ومسلم فى الإيمان (١/ ٢٠١/ ١٠) عن أنس به.

(٢) [**صحيح**] أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين (٣/ ٣٧٦/ ٢٩٤) وانظر «منار السبيل ـ بتخريجنا».

(٣) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٤٢٦٩)، ومسلم فى الإيمان (٢/ ١٠٠ ـ النووى).
وانظر «رياض الصالحين» (٣٩٤ ـ بتخريجنا).

(٤) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٤٠١٩)، ومسلم فى الإيمان (٢/ ٩٨ ـ النووى).
وانظر «رياض الصالحين» (٣٩٣ ـ بتخريجنا).

(٥) تقدم فى أول الكتاب.

(*) هكذا فى الأصل ولعل الصواب: من أنت؟

ثم ذكر قصة النجاشي وقول جعفر بن أبي طالب له «بعث الله إلينا رسولاً نعرف صدقه فدعانا إلى الله وتلا علينا تنزيلاً من الله لايشبهه شيء فصدقناه وعرفنا أن الذى جاء به الحق» الحديث بطوله(١).

وقد أخرجه ابن خزيمة فى «كتاب الزكاة» من صحيحه من رواية ابن إسحق وحاله معروفة وحديثه فى درجة الحسن.

قال البيهقى: فاستدلوا بإعجاز القرآن على صدق النبى، فآمنوا بما جاء به من إثبات الصانع ووحدانيته وحدوث العالم وغير ذلك مما جاء به الرسول ﷺ فى القرآن وغيره، واكتفاء غالب من أسلم بمثل ذلك مشهور فى الأخبار، فوجب تصديقه فى كل شيء ثبت عنه بطريق السمع، ولايكون ذلك تقليداً بل هو اتباع والله أعلم.

وقد استدل من اشترط النظر بالآيات والأحاديث الواردة فى ذلك، ولا حجة فيها لأن من لم يشترط النظر لم ينكر أصل النظر، وإنما أنكر توقف الإيمان على وجود النظر بالطرق الكلامية، إذ لايلزم من الترغيب فى النظر جعله شرطاً، واستدل بعضهم بأن التقليد لايفيد العلم إذ لو أفاده لكان العلم حاصلاً لمن قلد فى قدم العالم ولمن قلد فى حدوثه. وهو محال لإفضائه إلى الجمع بين النقيضين. وهذا إنما يتأتى فى تقليد غير النبى ﷺ.

وأما تقليده ﷺ فيما أخبر به عن ربه فلايتناقض أصلاً واعتذر بعضهم عن اكتفاء النبى ، والصحابة بإسلام من أسلم من الأعراب من غير نظر بأن ذلك كان لضرورة المبادىء.

وأما بعد تقرر الإسلام وشهرته فيجب العمل بالأدلة ولايخفى ضعف هذا الإعتذار والعجب أن من اشترط ذلك من أهل الكلام ينكرون التقليد وهم أول داع إليه حتى استقر فى الأذهان أن من أنكر قاعدة من القواعد التى أصلوها فهو مبتدع ولو لم يفهمها ولم يعرف مأخذها وهذا هو محض التقليد فآل أمرهم إلى تكفير من قلد الرسول عليه الصلاة والسلام فى معرفة الله تعالى والقول بإيمان من قلدهم وكفى بهذا ضلالاً وما مثلهم إلا كما قال بعض السلف: إنهم كمثل قوم كانوا سفراً فوقعوا فى فلاة ليس فيها ما يقوم به البدن من المأكول والمشروب ورأوا فيها طرقاً شتى فانقسموا قسمين فقسم وجدوا من قال لهم أنا عارف بهذه الطرق وطريق النجاة منها واحدة فاتبعونى فيها تنجو فتبعوه فنجوا، وتخلفت عنه طائفة فأقاموا إلى أن وقفوا على أمارة ظهر لهم أن فى العمل بها النجاة فعملوا بها فنجوا وقسم هجموا بغير مرشد ولا أمارة فهلكوا، فليست نجاة من اتبع المرشد بدون نجاة من أخذ بالأمارة إن لم تكن أولى منها.

ونقلت من جزء الحافظ صلاح الدين العلائى يمكن أن يفصل فيقال: من لا أهلية له لفهم شىء من الأدلة أصلاً وحصل له اليقين التام بالمطلوب إما بنشأته على ذلك أو لنور يقذفه الله فى قلبه، فإنه يكتفى منه بذلك، ومن فيه أهلية لفهم الأدلة لم يكتف منه إلا بالإيمان عن دليل، ومع ذلك فدليل كل أحد بحسبه وتكفى الأدلة المجملة التى تحصل بأدنى نظر، ومن حصلت عنده شبهة وجب عليه التعلم إلى أن تزول عنه.

قال فبهذا يحصل الجمع بين كلام الطائفة المتوسطة.

وأما من غلا فقال لايكفى إيمان المقلد فلا يلتفت إليه، لما يلزم منه من القول بعدم إيمان أكثر المسلمين، وكذا من غلا أيضاً فقال لايجوز النظر فى الأدلة لما يلزم منه من أن أكابر السلف لم يكونوا من أهل النظر أنتهى ملخصاً. أهـ كلام الحافظ.

●إشكال وجوابه

قال ابن حجر(١): واستدل بقوله: «فإذا عرفوا الله» بأن معرفة الله بحقيقة كنهه ممكنة للبشر.

الجواب: فإن كان ذلك مقيداً بما عرف به نفسه من وجوده وصفاته اللائقة من العلم والقدرة والإرادة مثلاً، وتنزيهه عن كل نقيصة كالحدوث فلابأس به، فأما ما عدا ذلك فإنه غير معلوم للبشر وإليه الإشارة بقوله تعالى: **﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾** فإذا حمل قوله فإذا عرفوا الله على ذلك كان واضحاً مع أن الإحتجاج به يتوقف على الجزم بأنه ﷺ نطق بهذه اللفظة وفيه نظر؛ لأن القصة واحدة ورواة هذا الحديث اختلفوا: هل ورد الحديث بهذا اللفظ أو بغيره؟

فلم يقل ﷺ إلا بلفظ منها، ومع إحتمال أن يكون هذا اللفظ من تصرف الرواة لايتم الإستدلال، وقد بينت فى أواخر «كتاب الزكاة» أن الأكثر رووه بلفظ **«فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك»**.

ومنهم من رواه بلفظ «فادعهم إلى أن يوحدوا الله فإذا عرفوا ذلك».

ومنهم من رواه بلفظ: **«فادعهم إلى عبادة الله، فإذا عرفوا الله»**.

ووجه الجمع بينهما أن المراد بالعبادة: التوحيد، والمراد بالتوحيد: الإقرار بالشهادتين، والإشارة بقوله ذلك إلى التوحيد.

وقوله: **«فإذا عرفوا الله»** أى عرفوا توحيد الله، والمراد بالمعرفة الإقرار والطواعية فبذلك يجمع بين هذه الألفاظ المختلفة فى القصة الواحدة وبالله التوفيق. أهـ. قلت: تقدم هذا مراراً وأعيد هنا لهذه الفائدة.

(١) فتح البارى (١٣/٣٦٦).

مسألة:

لماذا ذكر هذه الروايات فى باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

الجواب: تقدم كلام سليمان آل الشيخ فى سبب اختيار المصنف هذه الرواية على غيرها فى أول الكلام على حديث ابن عباس، وأيضاً لأن إختلاف هذه الروايات إختلاف تفسير أو تنوع فبعضهم رواه بلفظ والآخر بلفظ آخر، فهما يؤديا نفس المعنى ورغم أن المقام واحد إلا أنه ذكر الروايات جميعاً ليبين أن معنى التوحيد عند النبى ﷺ والسلف هو إفراد الله بالعبادة، فمرة يقول «**أن يوحدوا**» ومرة يقول «**إلى شهادة لا إله إلا الله**» والمعنى واحد فمعنى التوحيد هو إفراد الله بالعبادة.

وكلاهما يبين أن العبادة هى الحكم والنهى والأمر والتشريع.

مثل المسألة التى أكد عليها المصنف فى أول الكتاب وهى حق الله على العباد.

وذلك بقوله: كتاب التوحيد وحق الله على العباد وقوله الله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾.

فما هو التوحيد الذى تدعو إليه؟

وتوحيد العبادة الذى هو حق الله على العبد وإفراد الله بالعبادة كما هو مبين فى حديث معاذ ولذا أورد المصنف هذه الروايات فى هذا الباب.

هذا هو التوحيد الذى أُمرنا أن ندعوا إليه فى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾، وفى قوله: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ**﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ**﴾

ذلك لأن توحيد الله فى العبادة: هو جامع لكل أنواع التوحيد وأصوله. فالموحد فى هذا يقر بالربوبية ويقر بالأسماء والصفات فلولا أنه يعلم أنه مدبر رازق ماعبده. وما أخلص العبادة له فالخلق يقتضى الأمر وترك الأمر له والرزق يقتضى ترك الشكر له. فلما شكره وامتثل لأمره أقر أنه الخالق والرازق والمدبر وأتى بمقتضيات هذا الإفراد.

وما صَرف له هذا الأمر والنهى وهذا التوحيد إلا لعلمه بأن الله له صفات الكمال وله الكمال فى الصفات؛ ولذلك ظاهر صنيع البخارى فى كتاب التوحيد فى آخر الصحيح

يبين أن المشبه أو المعطل لايوحد فى الحقيقة لأنه إما أنه جعل له شبيه او نظير أو بتعدد نظائره وأشباهه ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

فهذا فى الحقيقة لايوحد ولما كانت الدعوة إلى إفراد الله بالعبادة هى دعوة إلى التوحيد بكل صوره وأنواعه التى فسرها العلماء ناسب أيضا أن تذكر هذه الروايات:

«فليكن أول ماتدعوهم إليه هو شهادة لاإله إلا الله».

«فليكن أول ما تدعوهم إليه هو توحيد الله».

«فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يعبدوا الله، والله أعلم».

●فائدة: فى حكم الدعوة إلى الله تعالى

ذكرنا فى مقدمة الباب أن ناصر السعدى(١) قال: إذا كانت الدعوة إلى الله، وإلى شهادة أن لا إله إلا الله فرضاً على كل أحد كان من الواجب على كل أحد بحسب مقدوره.

فعلى العالم من بيان ذلك والدعوة والإرشاد والهداية أعظم مما على غيره ممن ليس بعالم.

وعلى القادر ببدنه ويده أو ماله أو جاهه وقوله أعظم مما على من ليس له تلك القدرة. قال الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ورحم الله من أعان على الدين ولو بشطر كلمة، وإنما الهلاك فى ترك ما يقدر عليه العبد من الدعوة إلى هذا الدين. أهـ.

وقال ابن باز(٢) فى أول الباب: أى باب وجوب فضيلة الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، لأنها أختها، فمراد المؤلف الدعوة إلى التوحيد، وإلى اتباع الرسول وهذا واجب على العلماء وفرض عليهم. أهـ.

ذكر ابن باز أن الأصل أنها واجب على الكفاية، إن قام بها البعض سقطت عن الباقين شريطة أن تكون الأمة أو الطائفة التى تدعو تكفى فإذا لم تكن تكفى تعين على الجميع أن يسدوا هذا الواجب.

الجهاد واجب على الكفاية الدليل ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ الآية.

فإذا الذين نفروا لم يكفى لسد ثغر المسلمين.. تعين على الباقى أن يقوم حتى تقوم طائفة تكفى لسد هذه الأمر.

واجب الكفاية لايسقط إلا بقيام القدر الكافى بهذا الواجب لكن إذا لم يقم القدر الكافى به تعين على الباقى أن يقوموا لأداء هذا الواجب.

(١) القول السديد (٢٩).

(٢) التعليق المفيد (٥١).

ومن هذا المنطلق قال ابن باز فإن الدعـوة إلى الله عزوجل اليوم أصبحت فـرضاً عاماً وواجباً على جميع العلمـاء وعلى جميع الحكام الذين يدينون بالإسلام . أهـ. أن الدعوة إلى الله الآن واجب عـينى لأن الطائفة الأولى التـى قامت تدعـو لم تكف بعد؛ لكثـرة الإباحية والتبشـير والملل الأخرى والفساد والإفساد ولأن من قام يدعـو لم يسد هذا الثغر ولم يقم بعد بهذا الواجب على الوجه الواجب.

فلذا كانت الدعوة واجب على كل مسلم واجب عينى كل بحسب قدرته وطاقته.

● **الأدلة على وجوب الدعوة وعلى الوجوب على الكفاية:**

والآيات فى ذلك:

(١)﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾ أمر يحمل على الوجوب.

(٢) ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ...**﴾.

أمر الطائفـة من الأمة تقـوم للدعوة لتسـد حاجـة المسلمين فإذا لم تكف تـعين على المسلمين أن يقوموا لمعاونتهم.

(٣) ﴿**وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾.

وحديث معاذ: فى الباب «**وليكن أول ما تدعوهم إليه لا إله إلا الله**».

الخلاصة: أن الدعوة واجب عينى والذى لايدعو بعد سماع هذا الحكم يأثم.

يدعو فى متجره، ومصنعه ـ مدرسته ـ جامعته ـ أهله ـ قومه ـ حسب قدرته واستطاعته فإذا لم يقم بالدعوة فهو آثم.

وهذا ما ذهب إليـه الشيخ عبدالعزيز بن بـاز حيث قال: فعند قلة الدعـاة وعند كثرة المنكرات وعند غلبة الجهل كـحالنا اليوم تكون الدعوة فرض عـين على كل واحد بحسب طاقته. أهـ. ثم ذكر أننا الآن مع قلة الدعاة وإنتشـار الفساد والأفكار الشركية يجب على كل مسلم وجوباً عينياً أن يدعو على قدر استطاعته.

قوله: «فإن هم أطاعوك لذلك».

وفى رواية البخارى[1] فى الزكاة «**فإن هم أطاعوك لذلك**».

---

(١) فتح البارى (٣/ ٤٢٠ ـ ٤٢١).

قال ابن حجر: أى شهدوا وانقادوا، وفى رواية ابن خزيمة «**فإن هم أجابوا لذلك**» وفى رواية الفضل بن العلاء كما تقدم «**فإذا عرفوا ذلك**» وعدَّى أطاع باللام وإن كان يتعدى بنفسه لتضمنه معنى إنقاد، واستدل به على أن أهل الكتاب ليسوا بعارفين وإن كانوا يعبدون الله ويظهرون معرفته لكن قال حذاق المتكلمين: ما عرف الله من شبهه بخلقه أو أضاف إليه اليد أو أضاف إليه الولد(١) فمعبودهم الذى عبدوه ليس هوالله وإن سموه به.

واستدل به على أن الكفار غير مخاطبين بالفروع حيث دعوا أولا إلى الإيمان فقط، ثم دعوا إلى العمل، ورتب ذلك عليها بالفاء.

وأيضاً فإن قوله «**فإن هم أطاعوا فأخبرهم**» يفهم منه أنهم لو لم يطيعوا لايجب عليهم شىء.

وفيه نظر لأن مفهوم الشرط مختلف فى الإحتجاج به.

وأجاب بعضهم عن الأول بأنه استدلال ضعيف، لأن الترتيب فى الدعوة لايستلزم الترتيب فى الوجوب، كما أن الصلاة والزكاة لاترتيب بينهما فى الوجوب، وقد قدمت إحداهما على الأخرى فى هذا الحديث ورتبت الأخرى عليها بالفاء، ولايلزم من عدم الإتيان بالصلاة إسقاط الزكاة. وقيل: الحكمة فى ترتيب الزكاة على الصلاة أن الذى يقر بالتوحيد ويجحد الصلاة يكفر بذلك فيصير ماله فيئاً فلا تنفعه الزكاة، وأما قول الخطابى إن ذكر الصدقة أخر عن ذكر الصلاة لأنها إنما تجب على قوم دون قوم وأنها لاتكرر تكرار الصلاة فهو حسن، وتمامه أن يقال بدأ بالأهم فالأهم، وذلك من التلطف فى الخطاب لأنه لو طالبهم بالجميع فى أول مرة لم يأمن النفرة.

وقوله فى المرة الثانية «فإن هم أطاعوك لذلك».

قال ابن حجر(٢) «**فإن هم أطاعوا لك لذلك**» قال ابن دقيق العيد: يحتمل وجهين.

---

(١) قال ابن باز فى الحاشية: لاشك من شبه الله بخلقه أو أضاف إليه الولد جاهل به سبحانه ولم يقدره حق قدره، لأنه سبحانه لاشبيه له ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا. وأما إضافة اليد إليه سبحانه فمحل تفصيل، فمن أضافها إليه سبحانه على أنها من جنس أيدى المخلوقين فهو مشبه ضال، وأما من أضافها إليه على الوجه الذى يليق بجلاله من غير أن يشابه خلقه فى ذلك فهذا حق، وإثباتها لله على هذا الوجه واجب كما نطق به القرآن وصحت به السنة، وهو مذهب أهل السنة، فتنبه. والله الموفق.

(٢) فتح البارى (٣/ ٤٢١).

أحدهما: أن يكـون المراد إقـرارهم بوجـوبها عليهم والتـزامهم لهـا.

والثـاني: أن يكـون المراد الطاعة بالفعل.

وقد يرجح الأول بأن المذكور هو الإخبار بالفـريضة فتعـود الإشـارة بذلك إليها.

ويترجـح الشـانى بأنـهم لو أخبـروا بالفـريضـة فبادروا إلـى الإمتـثـال بالفعـل لكفى ولـم يشتـرط التلفظ بخلاف الـشهادتين، فـالشرط عـدم الإنكـار والإذعـان للـوجـوب. أنتهى.

والذى يظهر أن المراد القدر المشترك بين الأمرين، فمن امتثل بالإقرار أو بالفعل كفاه أو بهما فأولى، وقد وقع فى رواية الفـضل بن العلاء بعد ذكر الصلاة «**فإذا صلوا**» وبعد ذكر الزكاة «**فإذا أقروا بذلك فخذ منهم**».

قوله: «**فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة**».

قال ابن حجر[1]: **قوله**: «**خـمس صلوات**» اسـتدل به على أن الوتر ليس بفـرض أهـ.

وقال سليمان آل الشيخ[2]: لاسيما وهذا فى آخر الأمر.

وقال أيضاً: فيه أن الصلاة بعـد التوحيد والإقرار بالرسالة أعظم الواجبـات وأحبها. واستدل به على أن الكفار غـير مخاطبين بالفروع حيث دعاهم أولاً إلى التـوحيد فقط، ثم دعوا إلى العمل ورتب ذلك عليها بالفاء. أهـ.

[**قلت**]: وقد تقدم كلام الحافظ على ذلك فى قوله «فإن هم أطاعوك لذلك».

وفيه أن الصلاة أوجب الواجـبات بعد التوحيد، وليس الجهـاد بل الجهاد من وسائل نشر التوحيد.

وفيه مؤدى كلام النووى أن المطالبة بالفرائض لاتكون إلا بعد الإسلام.

وفيـه بيان لأخطاء القائـمين على تربية بعض الشـباب لبعـدهم عن مرحليـة الدعوة وتدريجهم وسيأتى فى نهاية هذا الباب مزيد تفسير لحكمة الداعى فى دعوته.

قوله: «**فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**».

وعليه بوب البخارى «**لاتؤخذ كرائم أموال الناس فى الصدقة**».

---

(١) فتح البارى (٣/ ٤٢١).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٩٣).

قال ابن حجر[1]: هذه الترجمة مقيدة لمطلق الحديث لأن فيه **«وتوقَّ كرائم أموال الناس»** بغير تقييد بالصدقة، وأموال الناس يستوى التوقى لها بين الكرائم وغيرها فقيدها فى الترجمة بالصدقة وهو بين من سياق الحديث لأنه ورد فى شأن الصدقة.

والكرائم جمع كريمة يقال ناقة كريمة أى غزيرة اللبن، والمراد نفائس الأموال من أى صنف كان.

وقيل له نفيس لأن نفس صاحبه تتعلق به وأصل الكريمة كثيرة الخير.

وقيل للمال النفيس كريم لكثرة منفعته. أهـ.

قال ابن حجر[2]: **قوله «صدقة»** وفى رواية الفضل بن العلاء «افترض عليهم زكاة فى أموالهم تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم».

ثم قال **قوله: «تؤخذ من أغنيائهم»** استدل به على أن الإمام هو الذى يتولى قبض الزكاة وصرفها إما بنفسه وإما بنائبه، فمن امتنع منها أخذت منه قهراً.

قوله: «على فقرائهم» استدل به لقول مالك وغيره إنه يكفى إخراج الزكاة فى صنف واحد، وفيه بحث كما قال ابن دقيق العيد لإحتمال أن يكون ذكر الفقراء لكونهم الغالب فى ذلك وللمطابقة بينهم وبين الأغنياء.

وقال الخطابى: وقد يستدل به من لايرى على المديون زكاة ما فى يده إذا لم يفضل من الدين الذى عليه قدر نصاب؛ لأنه ليس بغنى إذا كان إخراج ماله مستحقاً لغرمائه.

وبوب البخارى[3] **عليه فى موضع آخر: «باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد فى الفقراء حيث كانوا»**

قال ابن حجر: ظاهر حديث الباب أن الصدقة ترد على فقراء من أخذت من أغنيائهم.

وقال ابن المنير: اختار البخارى جواز نقل الزكاة من بلد المال لعموم قوله: **«فترد فى فقرائهم»** لأن الضمير يعود على المسلمين، فأى فقير منهم ردت فيه الصدقة فى أى جهة كان فقد وافق عموم الحديث انتهى.

---

(١) فتح البارى (٣/ ٣٧٨).

(٢) فتح البارى (٣/ ٤٢١).

(٣) فتح البارى (٣/ ٤١٨ ـ ٤١٩).

والذى يتبـادر إلى الذهن من هذا الحـديث عـدم النقل، وأن الضـمير يعـود على المخاطبين فيختص بذلك فقراؤهم.

لكن رجح ابن دقـيق العيد الأول وقـال: إنه وإن لم يكن الأظهر إلا أنـه يقويه أن أعيان الأشـخاص المخاطبين فى قواعـد الشرع الكلية لاتعتبـر، فلاتعتبر فى الزكـاة كما لاتعتبر فى الصلاة فلايختص بهم الحكم وإن اختص بهم خطاب المواجهة. إنتهى.

وقد اختلف العلماء فى هذه المسألة فأجاز النقل الليث وأبو حنيفة وأصحابهما، ونقله ابن المنذر عن الشافعى واختاره، والأصح عند الشافعية والمالكية والجمهور ترك النقل فلو خالف ونقل أجزأ عند المالكية على الأصح، ولم يجـزىء عند الشافعية على الأصح إلا إذا فقد المستـحقون لها، ولايبعد أنه اخـتيار البخارى لأن قوله: حيث كـانوا يشعر بأنه لاينقلها عن بلد وفيه من هو متصف بصفة الإستحقاق.

قال ابن حـجر(١): **قـوله: «فإياك وكـرائم أمـوالهم»** كرائم منصوب بفـعل مضمر لايجوز إظهاره.

قال ابن قتيبة: ولايجوز حذف الواو، والكرائم جمع كريمـة أى نفيسة وتقدم بأعلاه ففـيه ترك أخـذ خيـار المال، والنكتة فـيه أن الزكـاة لمواساة الفـقراء فـلايناسب ذلك الإجحاف بمال الأغنياء إلا إن رضوا بذلك أهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٢): فيه أنه يحرم على العـامل أخذ كرائم المال فى الزكاة، بل يأخذ الوسط، ويـحرم على صاحب المال إخـراج شر المال بل يخـرج الوسط، فإن طابت نفسه بإخراج الكريمة جاز أهـ.

قال ابن حـجر(٣): **قـوله «واتق دعـوة المظلوم»** أى تجنب الظلم لئـلا يدعـو عليك المظلوم. وفيـه تنبيه على المنع من جـميع أنواع الظلم، والنكتة فى ذكـره عقب المنع من أخذ الكرائم الإشارة إلى أن أخذها ظلم.

وقال بعضهم: عطف واتق على عامل إياك المحذوف وجوباً، فالتقدير اتق نفسك أن تتـعرض للكرائم، وأشـار بالعطف إلى أن أخذ الـكرائم ظلم، ولكنه عمم إشـارة إلى التحرز عن الظلم مطلقاً. أهـ.

---

(١) فتح الباري (٣/ ٤٢٠).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٩٣).

(٣) فتح الباري (٣/ ٤٢١ ـ ٤٢٢).

قال سليمان آل الشيخ[1]: **قوله: «فإنه»** أى الشأن: «إذ ليس بينها وبين الله حجاب» أى لاتحجب عن الله تعالى، بل ترفع إليه فيقبلها وإن كان عاصياً.

كما فى حديث أبى هريرة عند أحمد مرفوعاً: «**دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه**»[2] إسناده حسن.

قاله ابن حجر وقال أبو بكر بن العربى: هذا وإن كان مطلقاً فهو مقيد بالحديث الآخر أن الداعى على ثلاث مراتب: إما أن يعجل له ما طلب وإما أن يدخر له أفضل منه، وإما أن يدفع عنه من السوء مثله وهذا كما قيد مطلقاً قوله: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ**﴾ بقوله تعالى: ﴿**فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ**﴾ وفى والحديث أيضاً قبول خبر الواحد العدل ووجوب العمل به، وأن الإمام يبعث العمال لجباية الزكاة وأنه يعظ عماله وولاته ويأمرهم بتقوى الله ويعلمهم ما يحتاجون إليه، وينهاهم عن الظلم، ويعرفهم قبح عاقبته والتنبيه على التعليم بالتدريج، ذكره المصنف.

● **إشكال:**

قال سليمان آل الشيخ[3]: **واعلم** أنه لم يذكر فى هذا الحديث ونحوه الصوم والحج، مع أن بعث معاذ كان فى آخر الأمر كما تقدم، فأشكل ذلك على كثير من العلماء.

قال شيخ الإسلام: أجاب بعض الناس أن الرواة اختصر بعضهم الحديث وليس الأمر كذلك، فإن هذا طعن فى الرواة لأن هذا إنما يقع فى الحديث الواحد مثل حديث عبدالقيس[4] حيث ذكر بعضهم الصيام وبعضهم لم يذكره. فأما الحديثان المفصلان فليس الأمر فيهما كذلك.

ولكن عن هذا جوابان:

●**أحدهما**: أن ذلك بحسب نزول الفرائض، وأول ما فرض الله الشهادتان ثم الصلاة، فإنه أمر بالصلاة فى أول أوقات الوحى، ولهذا لم يذكر وجوب الحج فى عامة

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٩٤).

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/٣٦٧).

(٣) تيسير العزيز الحيمد(٩٥).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٣٩٨)، ومسلم فى الإيمان (١/٢١٢/٢٣) عن ابن عباس.

الأحاديث إنما جاء فى الأحاديث المتأخرة. قلت: وهذا من الأحاديث المتأخرة ولم يذكر فيها الجواب(*).

الثانى: أنه كان يذكر فى كل مقام ما يناسبه، فيذكر تارة الفرائض التى يقاتل عليها كالصلاة والزكاة، ويذكر تارة الصلاة والصيام إن لم يكن عليه زكاة، ويذكر تارة الصلاة والزكاة والصيام. فإما أن يكون قبل فرض الحج كما فى حديث عبدالقيس ونحوه، وإما أن يكون المخاطب بذلك لاحج عليه.

وأما الصلاة والزكاة فلهما شأن ليس لسائر الفرائض، ولهذا ذكر الله تعالى فى كتابه القتال عليهما لأنهما عبادتان ظاهرتان بخلاف الصوم، فإنه أمر باطن وهو مما ائتمن عليه الناس، فهو من جنس الوضوء والإغتسال من الجنابة ونحو ذلك مما يؤتمن عليه العبد، فإن الإنسان يمكنه أن لاينوى الصوم وأن يأكل سراً، كما يمكنه أن يكتم حدثه وجنابته، بخلاف الصلاة والزكاة؛ وهو ﷺ يذكر فى الإعلام الأعمال الظاهرة التى يقاتل الناس عليها، ويصيرون مسلمين بفعلها، فلهذا علق ذلك بالصلاة والزكاة دون الصيام، وإن كان واجباً كما فى آيتى «براءة» فإن «براءة» نزلت بعد فرض الصيام بإتفاق الناس. وكذلك لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن لم يذكر فى حديثه الصيام لأنه تبع وهو باطن ولاذكر الحج لأن وجوبه خاص ليس بعام، وهو لايجب فى العمر إلا مرة واحدة. أنتهى ملخصاً. أهـ.

وقال ابن حجر(١): قال شيخنا شيخ الإسلام: إذا كان الكلام فى بيان الأركان لم يخل الشارع منه بشىء كحديث ابن عمر «**بنى الإسلام على خمس**»(٢) فإذا كان فى الدعاء إلى الإسلام اكتفى بالأركان الثلاثة الشهادة والصلاة والزكاة، ولو كان بعد وجود فرض الصوم والحج كقوله تعالى: ﴿**فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ**﴾ فى موضعين من براءة مع أن نزولها بعد فرض الصوم والحج قطعاً، وحديث ابن عمر «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة»(٣) وغير ذلك من

(١) فتح البارى (٣/ ٤٢٢).

(٢) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٤٥١٥)، ومسلم فى الإيمان (١/ ١٧٧ ـ النووى) وانظر «رياض الصالحين» (١٠٧٧ ـ بتخريجنا).

(٣) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٢٥)، ومسلم فى الإيمان (١/ ٢١١ ـ النووى).
وانظر «رياض الصالحين». (٣٩١ ـ بتخريجنا) وفتح «المجيد» (ح ١٧٧) بتخريجنا.

(*) هكذا فى الأصل ولعل الصواب: الوجوب.

الأحاديث قال: والحكمة فى ذلك أن الأركان الخمسة: اعتقادى وهو الشهادة، وبدنى وهو الصلاة، ومالى وهو الزكاة اقتصر فى الدعاء إلى الإسلام عليها لتفرع الركنين الأخيرين عليها فإن الصوم بدنى محض والحج بدنى مالى، وأيضا فكلمة الإسلام وهى شاقة على الكفار، والصلاة شاقة لتكرارها والزكاة شاقة لما فى جبلة الإنسان من حب المال، فإذا أذعن المرء لهذه الثلاثة كان ما سواها أسهل عليه بالنسبة إليها، والله أعلم.

فوائد: قال ابن حجر(١):

[الفائدة الأولى] وفى حديث ابن عباس من الفوائد غير ما تقدم: الإقتصار فى الحكم بإسلام الكافر إذا أقر بالشهادتين، فإن من لازم الإيمان بالله ورسوله التصديق بكل ما ثبت عنهما والتزام ذلك، فيحصل ذلك لمن صدق بالشهادتين.

وأما ما وقع من بعض المبتدعة من إنكار شىء من ذلك فلايقدح فى صحة الحكم الظاهر، لأنه إن كان مع تأويل فظاهر، وإن كان عناداً قدح فى صحة الإسلام، فيعامل بما يترتب عليه من ذلك كإجراء أحكام المرتد وغير ذلك.

[الفائدة الثانية] وفيه: قبول خبر الواحد ووجوب العمل به، وتعقب بأن مثل خبر معاذ حفته قرينة أنه فى زمن نزول الوحى فلا يستوى مع سائر أخبار الآحاد.

[وقد ذكر الحافظ فى باب إجازة خبر الواحد ما يغنى].

[الفائدة الثالثة] وفيه: أن الكافر إذا صدق بشىء من أركان الإسلام كالصلاة مثلاً يصير بذلك مسلماً، وبالغ من قال كل شىء يكفر به المسلم إذا جحده يصير الكافر به مسلماً إذا أعتقده، والأول أرجح كما جزم به الجمهور، وهذا فى الإعتقاد أما الفعل كما لو صلى فلا يحكم بإسلامه وهو أولى بالمنع لأن الفعل لاعموم له، فيدخله إحتمال العبث والإستهزاء.

[الفائدة الرابعة] وفيه: وجوب أخذ الزكاة ممن وجبت عليه، وقهر الممتنع على بذلها ولو لم يكن جاحداً، فإن كان مع امتناعه ذا شوكة قوتل، وإلا فإن أمكن تعزيره على الإمتناع عزر بما يليق به، وقد ورد عن تعزيره بالمال حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده مرفوعاً ولفظه «**ومن منعها ـ يعنى الزكاة ـ فإنا آخذوها، وشطر ماله عزمة من**

(١) فتح البارى (١٣/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨).

عزمات ربنا»(١) الحديث أخرجه أبو داود والنسائى وصححه ابن خزيمة والحاكم، وأما ابن حبان فقال فى ترجمة بهز بن حكيم لولا هذا الحديث لأدخلته فى «كتاب الثقات» وأجاب من صححه ولم يعمل به بأن الحكم الذى دل عليه منسوخ وأن الأمر كان أولاً كذلك ثم نسخ.

وضعف النووى هذا الجواب من جهة أن العقوبة بالمال لاتعرف أولاً حتى يتم دعوى النسخ ولأن النسخ لايثبت إلا بشرطه كمعرفة التاريخ ولايعرف ذلك، واعتمد النووى ما أشار إليه ابن حبان من تضعيف بهز وليس بجيد لأنه موثق عند الجمهور حتى قال إسحق بن منصور عن يحيى بن معين: بهز بن حكيم عن أبيه عن جده صحيح إذا كان دون بهز ثقة.

وقال الترمذى: تكلم فيه شعبة وهو ثقة عند أهل الحديث، وقد حسن له الترمذى عدة أحاديث، واحتج به أحمد وإسحق والبخارى خارج الصحيح وعلق له فى الصحيح.

وقال أبو عبيدة الآجرى عن أبى داود وهو عندى حجة لاعند الشافعى فإن اعتمد من قلد الشافعى على هذا كفاه ويؤيده إطباق فقهاء الأمصار على ترك العمل به فدل على أن له معارضاً راجحاً.

وقول من قال بمقتضاه يعد فى ندرة المخالف.

[الفائدة الخامسة] وقد دل خبر الباب أيضا على أن الذى يقبض الزكاة الإمام أو من أقامه لذلك، وقد أطبق الفقهاء بعد ذلك على أن لأرباب الأموال الباطنة مباشرة الإخراج، وشذ من قال بوجوب الدفع إلى الإمام وهو رواية عن مالك، وفى القديم للشافعى نحوه على تفصيل عنهما فيه أهـ.

[قلت] وفيه أيضاً فوائد أخرى بخلاف ما تقدم فيها:

١ـ تقدم أن ابن حجر قال: «واستدل به من قال من العلماء أن لايشترط التبرى من كل دين يخالف دين الإسلام خلافاً لمن قال: إن من كان كافراً بشىء وهو مؤمن بغيره لم يدخل الإسلام إلا بترك اعتقاد ما كفر به.

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ٢، ٤)، وأبو داود (١٥٧٥)، والنسائى (٢٥١٥ ـ السيوطى).
وانظر «السلسبيل» (٩٧٨ ـ بتخريجنا) والكلام عليه.

قال ابن حجر: والجواب أن اعتقاد الشهادتين يستلزم ترك إعتقاد التشبيه ودعوة بنوة عزير وغيره، فيكتفى بذلك اهـ.

[قلت]: وهذا الجواب غير مطابق لأن الذى يقول بهذا القول ـ أى اشتراط التبرى من كل أعتقاد تسبب فى كفره ـ إنما اشترط ذلك زيادة على الإقرار بالشهادتين فيبقى قول العلماء واستدلالهم بغير تعقب، والله الموفق.

٢ـ أن الكفار غير مخاطبين بفروع الشريعة. حيث دعوا أولاً إلى الإيمان فقط ثم دعوا إلى العمل «وفيه نظر لأن مفهوم الشرط مختلف فى الإحتجاج به وتقدم تفصيل الرد على ذلك».

٣ـ الدعاء إلى التوحيد قبل القتال، وتوجيه الإمام عامله فيما يحتاج إليه من الأحكام وغيرها.

٤ـ بعث السعاة لأخذ الزكاة.

٥ـ إيجاب الزكاة فى مال الصبى والمجنون لعموم قوله «من أغنيائهم» قاله عياض وفيه بحث.

٦ـ أن الزكاة لاتدفع إلى الكافر «لعود الضمير» فى فقرائهم إلى المسلمين سواء قلنا بخصوص البلد أو بالعموم.

٧ـ أن الفقير ليس عليه زكاة.

٨ـ أن من ملك نصاباً لايعطى من الزكاة لأنه غنى.

٩ـ قال البغوى: وفيه أن المال إذا تلف قبل التمكن سقطت الزكاة.

١٠ـ قبول الإسلام بغير إشتراط نظر كما قالت الرافضة وغيرهم من المتفلسفة ولايشترط أيضاً قراءة فى التوحيد حتى يقبل إسلامه.

١١ـ إجابة دعوة المظلوم وإن كان ظالماً.

١٢ـ وفيه دليل لمن قال: عدم وجوب الوتر.

١٣ـ وفيه أنه لايحكم بالإسلام إلا بالنطق بالشهادتين وهذا مذهب أهل السنة كما تقدم تفصيل ذلك.

١٤ـ حرمة كرائم المال على الساعى ويحرم على صاحب المال إخرج شره.

قـــال: وَلَهُمَا عَنْ سَهْلِ بنِ سَعْد (رَضِيَ الله عَنْهُ): أَن رَسُولَ الله ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُه، يَفْـــتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْه، فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُم، أَيُّهُمْ يُعْـطَاهَا، فَلَمَّا أَصْـبَحُوا، غَدَوا عَلَى رَسُـــولِ الله ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا. فَقَالَ: أَيْنَ عَلِيُّ بـنُ أَبِي طَالِب؟» فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْه. فَأَرْسَلُوا إِلَيْه، فأُتـى بِه، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيه، وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الـــرَّايَةَ، فَقَالَ: (انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِم، ثُمَّ ادْعُهُم إِلَى الإِسْلاَمِ، وأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِم مِنْ حَقِّ الله تَعَالَى فِيه، فَوَالله، لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيـرٌ لَكَ مِنْ حُمُرِ النَّعَمِ»[1] (يَدُوكُونَ)، أَيْ: يَخُوضُونَ[1].

مناسبة الحديث للباب:

قال عـبد الله بـن جار الله[2]: الشاهـد من الحديث للبـاب قوله: **(ثم ادعـهم إلى الإسلام)** أهـ.

قال ابن باز[3]: قوله **(ثم ادعهـم إلى الإسلام)** ولوكانـوا قد دعوا من قـبل من باب إقامة الحجة وكمال المعذرة. اهـ.

قال قرعاوي[4]: مناسبة الحديث للباب حـيث دل الحديث على أن أول ما يبتدئ به الداعي الدعوة إلى الإسلام وأول ركن في الإسلام هما الشهادتان اهـ.

● هذا الحديث أخرجه البخاري في «صحيحه» مـستشهدًا به في أكثر من موضع، لأهمية ما يحويه من فوائد فيها:

الموضع الأول: كتاب الجهاد والسير/ باب: دعوة اليهود والنصارى، وعلى ما يقاتلون عليه؟

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري فـي «الجهاد» / باب: فضل من أسلم على يديه رجل (١٦٨/٦/ ح ٣٠٠٩) (ح٤٢٠٩، ٤٢١٠) ومـسلم في «الفـضائل» / باب فـضـائل على بن أبي طالب (١٧٦/١٥/٥، ١٧٧، ١٧٩ - النووي) وأحمـد في «مسنده» (٥/ ٣٣٣). والترمـذي في «المناقب» / باب: مناقب على بن أبي طالب رضي الله عنه من حديث سهل بن سعد.

وانظر «لمعة الاعتقاد» (ص ٤٧ «وفتح المجيد» (ح ١٣٩) بتخريجنا).

(٢) الجامع الفريد (٣٢). (٣) التعليق المفيد (٥٤).

(٤) الجديد (٧٠).

الموضع الثانى: كتاب الجهاد والسير/ باب: فضل من أسلم على يديه رجل.

الموضع الثالث: كتاب فضائل الصحابة/ باب: مناقب على بن أبى طالب.

الموضع الرابع: كتاب المغازى/ باب: غزوة خيبر.

وذات الحديث من حديث سلمة بن الأكوع أخرجه البخارى فى ثلاث مواضع.

قال سليمان آل الشيخ(١): **قال شيخ الإسلام:** هذا الحديث أصح ما روى لعلى رضى الله عنه من الفضائل أخرجاه فى «الصحيحين» من غير وجه.

(قوله: عن سهل): هو سهل بن سعد بن مالك بن خالد الأنصارى الخزرجى الساعدى أبو العباس صحابى شهير. وأبوه صحابى أيضًا. مات سنة ثمان وثمانين وقد جاوز المائة.

قوله: [يوم خيبر]

قال ابن حجر(٢): وهى مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على ثمانية برد من المدينة من جهة الشام وذكر أبو عبيد البكرى أنها سميت باسم رجل من العماليق نزلها. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٣): وقوله: قال يوم خيبر، أى فى غزوة خيبر. فى الصحيحين، واللفظ لمسلم عن سلمة بن الأكوع قال: كان على رضى الله عنه قد تخلف عن النبى ﷺ فى خيبر، وكان رمدًا، فقال: أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ؟! فخرج على رضى الله عنه فلحق بالنبى ﷺ؛ فلما كان مساء الليلة التى فتحها الله عزّ وجلّ فى صباحها قال رسول الله ﷺ: **«لأعطين الراية أو ليأخذن بالراية غداً رجل يحبه الله ورسوله»** أو قال: **«يحب الله ورسوله يفتح الله عليه»** فإذا نحن بعلى وما نرجوه. فقالوا: هذا على: فأعطاه رسول الله ﷺ الراية، ففتح الله عليه(٤). وهذا يبين أن عليًا رضى الله عنه لم يشهد أول خيبر، وأنه عليه السلام قال هذه المقالة مساء الليلة التى فتحها الله فى صباحها.

قوله [لأعطين الراية] قال ابن القيم(٥): كانت له راية سوداء يقال لها: العُقاب،

(١) تيسير العزيز الحميد (٩٦).

(٢) فتح البارى (٧/ ٥٣٠).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٩٦).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٧٠٢)، ومسلم فى الفضائل (٨/ ١٨٩/ ٣٥).

(٥) زاد المعاد (١/ ١٣١، ١٣٢).

وفى سنن أبى داود عن رجل من الصحابة قال: رأيت راية رسول الله ﷺ صفراء(١)، وكانت له ألوية بيضاء، وربما جعل فيها الأسود. اهـ.

وعقد البخارى: (باب ما قيل فى لواء النبى ﷺ).

قال ابن حجر(٢): اللواء بكسر اللام والمد هى الراية، ويسمى أيضًا العلم، وكان الأصل أن يمسكها رئيس الجيش ثم صارت تحمل على رأسه.

وقال أبو بكر بن العربى: اللواء غير الراية، فاللواء ما يعقد فى طرف الرمح ويلوى عليه، والراية ما يعقد فيه ويترك حتى تصفقه الرياح.

وقيل اللواء دون الراية، وقيل اللواء العلم الضخم. والعلم علامة لمحل الأمير يدور معه حيث دار، والراية يتولاها صاحب الحرب.

وجنح الترمذى إلى التفرقة فترجم بالألوية وأورد حديث جابر «أن رسول الله ﷺ دخل مكة ولواؤه أبيض»(٣).

ثم ترجم للرايات وأورد حديث البراء «أن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء مربعة من نمرة»(٤).

وحديث ابن عباس «كانت رايته سوداء ولواؤه أبيض»(٥) أخرجه الترمذى وابن ماجه، وأخرج الحديث أبو داود والنسائى أيضًا.

ومثله لابن عدى من حديث أبى هريرة، ولأبى يعلى من حديث بريدة، وروى أبو داود من طريق سماك عن رجل من قومه عن آخر منهم: «رأيت راية رسول الله ، صفراء(٦).

ويجمع بينها باختلاف الأوقات، وروى أبو يعلى عن أنس رفعه «أن الله أكرم أمتى بالألوية» إسناده ضعيف.

---

(١) أخرجه أبوداود (٢٥٩٣) من طريق سماك عن رجل من قومه عن أخر منهم قال . . . فذكره.

(٢) فتح البارى (٦/ ١٤٧).

(٣) أخرجه أبوداود (٢٥٩٢)؛ والترمذى (١٦٧٩) وابن ماجة (٢٨١٧) استغربه الترمذى.

(٤) أخرجه أبوداود (٢٥٩١)، والترمذى (١٦٨٠) وقال الترمذى: حسن غريب.

(٥) أخرجه الترمذى (١٦٨١)، وابن ماجة (٢٨١٨) وقال الترمذى: حسن غريب.

(٦) تقدم قريباً.

وروى أبو الشيخ من حديث ابن عباس «كان مكتوبًا على رايته: لا إله إلا الله محمد رسول الله» وسنده واه.

وقيل كانت له راية تسمى العقاب سوداء مربعة، وراية تسمى الراية البيضاء، وربما جعل فيها شيء أسود اهـ.

قوله: (لأعطين الراية غدًا) قال ابن حجر[1]: وقع في هذه الرواية اختصار وهو عند أحمد والنسائي وابن حبان والحاكم من حديث بريدة بن الحصيب قال: «لما كان يوم خيبر أخذ أبو بكر اللواء فرجع ولم يفتح له، فلما كان الغد أخذه عمر فرجع ولم يفتح له، وقتل محمود بن مسلمة، فقال النبي ﷺ: **«لأدفعن لوائي غدًا إلى رجل»** الحديث[2].

وعند ابن إسحق نحوه من وجه آخر، وفي الباب عن أكثر من عشرة من الصحابة سردهم الحاكم في «الإكليل» وأبو نعيم والبيهقي في «الدلائل».

وفي رواية البخاري: (لأعطين الراية غدًا أو ليأخذن غدًا) قال ابن حجر[3]: هو شك من الراوي، وفي حديث سهل الذي بعده **«لأعطين هذه الراية غدًا رجلا»** بغير شك، وفي حديث بريدة **«إني دافع اللواء غدًا إلى رجل يحبه الله ورسوله»**[4] والراية بمعنى اللواء وهو العلم الذي في الحرب يعرف به موضع صاحب الجيش، وقد يحمله أمير الجيش، وقد يدفعه لمقدم العسكر، وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادفهما، لكن روى أحمد والترمذي من حديث ابن عباس «كانت راية رسول الله ﷺ سوداء ولواؤه أبيض»[5] ومثله عند الطبراني عن بريدة، وعند ابن عدي عن أبي هريرة وزاد «مكتوبًا فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله» وهو ظاهر في التغاير، فلعل التفرقة بينهما عرفية، وقد ذكر ابن إسحق وكذا أبو الأسود عن عروة أن أول ما وجدت الرايات يوم خيبر، وما كانوا يعرفون قبل ذلك إلا الألوية» اهـ.

قال ابن عثيمين[6]**:- قوله: «الراية».**

العَلَم، وسُمِّي راية؛ لأنَّه يُرى، وهو ما يتخذه أمير الجيش للعلامة على مكانه.

---

(١). فتح الباري (٧/ ٥٤٤، ٥٤٥).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٣٥٣) والنسائي في الكبرى (٨٤٠٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٤٣٧).

(٣) فتح الباري (٧/ ٥٤٤، ٥٤٥).

(٤) تقدم تخريجه قريباً.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) القول المفيد (١/ ١٦٧، ١٦٨).

واللواء قيل: إنه الراية، وقيل: ما لُوِى أعلاه، أو لـوى كلّه؛ فيكون الفرق بينهما: أن الرَّاية مـفلولة لاتُطوى، واللواء يُطوى إما أعـلاه أو كله، والمقصـود منهمـا الدلالة، ولهذا يُسمى عَلَمًا. اهـ.

قال ابن عثيمين[1]: **قـوله: «لأعطينَّ»** هذه جـملة مُؤكَّدة بثلاث مُؤكِّدات: القـسم المقدر، واللام، والنون، والتقدير: والله لأعطينَّ.

قوله: «غداً».

يُراد به ما بعد اليوم، والأمس يراد به ما قبله.

والأصل أنه يراد بالغـد ما يلى يومـك، ويُراد بالأمس الذى يليه يومك، وقـد يُراد بالغد ما وراء ذلك، قال تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[2]؛ أى: يوم القيامة.

وكذلك بالأمس قد يُراد به ما وراء ذلك؛ أى: ما وراء اليوم الذى يليه يومك اهـ.

فائدة: قلت: فى اختصاص على دون غيره من الصحـابه بهذه البشارة مع أنهم جميعًا يحبون الله ورسوله ويحبهم الله ورسوله منقبة عظيمة.

فقـد يقول قائل فـلماذ خص الرسول ﷺ عليـاً ان كان قد أحـب وبشر غيـره بهذه البشارة والمنقـبة كهذا الرجل الذى كان، كـثيرًا ما يؤتى به فى شـرب الخمر ويجلد هذا الرجل - شارب الخـمر - ومع ذلك قال ﷺ فى حقـه انه يحب الله ورسوله[3] وكذلك سـائر الصحـابة من باب أولى فلـماذا خص عليّا فى هذه الحـالة بهـذه الخـصيـة وهذه المنقبة؟. وهل هذا الاختصاص يعنى أنه أفضل الصحابة؟!

الجواب: بالإختصار أن الخصوصية لاتعنى الأفضلية وأنه ربما يختص بعض الصحابة ببعض المناقب ولايكون دليلاً على أنه أفضل ممن هو أفـضل منه بإجماع الأمة (المسلمين) فقد اختص النبى فى الحـديث أبا بكر وعمر وعثمان وعلى . . «فـقال أرحم أمتى بأمتى أبا بكر، وأشدهم فـى دين الله عمر وأصـدقهم حيـاءً عثمـان وأقضاهم عـلى وأعلمهم بالحلال والحـرام معاذ وأفرضـهم زيد - أعلمهم بالفرائـض - قال وما أقلت الغبـراء وما أظلت الخـضرء على ذى لهـجه أصدق من أبـى ذر أشبه عـيسى ابن مـريم فى زهده». الحديث[4].

---

(١) القول المفيد (١/ ١٦٨).

(٢) الحشر آيه / ١٨.

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٧٨٠) عن عمر به.

(٤) تقدم تخريجه فى الباب الأول.

فهل اختصاص زيد مثلاً بأنه أفرضهم يعنى أنه أفضل من أبى بكر؟

الجواب: لا ففى حديث أن الجنة ثمانية أبواب وأن أبا بكر يدعى منهم جميعاً.

ومثال آخر ابن عمر ثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ سأل سؤالاً فلم يعرفه إلا ابن عمر وكان أصغر الموجودين وكان موجوداً فى المجلس أبو بكر وعمر هذا السؤال عن الشجرة التى لايسقط ورقها صيفًا ولا شتاءًا(١)؟ فوقع فى نفسه الجواب.

فهل معنى هذا أنه أفضل من أبيه ومن أبى بكر.

الجواب: لا فإن الخصوصية لاتعنى الأفضلية فهذا جواب.

وجواب آخر أن الرسول ﷺ اختص علية ليس محابة منه لعلى، فقد يقول قائل إن لم يكن له خصوصية وتميز وهو كسائر الصحابه فلماذا يخصه النبى بالراية فهذا اتهام للرسول بالمحاباة حاشاه. فإن لم يعدل هو فمن يعدل؟

الجواب أن علياً له مزية وفضل فى هذا العمل على الصحابة فى هذه الموقعة؟ فما هى المزية؟ ثبت فى الصحيحين من حديث سلمة بن الأكوع أنه قال: إن النبى ﷺ قال **«ادعوا لى عليا»** قال فهو أرمد(٢).

وفى الحديث أن عليا قال حينما ذهب الرسول إلى خبير وترك عليًا لأنه أرمد فقال «أنا أتخلف عن النبى ﷺ فى غزوة؟! كبر عليه ذلك حتى وهو مريض وله رخصة فى القعود عن الغزو والصحابة كلهم يعلمون أنه مريض فى المدينة فلحق بالنبى ﷺ حتى حينما أصبحو فاصبحوا كلهم يرجو أن يعطاها فإذا هو على ومانرجوه.. مانأمل أن يكون معنا لأنه من ذوى الأعذار. فلكونه معذوراً مريضاً له رخصة فى التخلف، ومع هذا أخذ بالعزيمة وأتى فهو فضل بهذا العمل - فلذلك استحق على الرايه من دون سائر الصحابة عليهم رضوان الله وفيها تعقب على ـ شيخ الإسلام ـ المصنف فى المسائل والفوائد. حيث قال: وفيه الإيمان بالقدر والتسليم له حيث أنها لم تعطى لمن سعى لها وأعطيت لمن لم يسع لها.

لا والله ابن أبى طالب سعى لها واستحق هذا بسعيه له لابنومه!!.

قوله: (يحبه الله ورسوله) قال ابن حجر(٣): زاد فى حديث سهل بن سعد «ويحب

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٢)، ومسلم فى صفة الجنة (٩/ ١٦٧/ ٦٣) عن ابن عمر.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) الفتح (٧/ ٥٤٥).

الله ورسوله» وفى رواية ابن إسحق **«ليس بفرار»** وفى حديث بريدة **«لايرجع حتى يفتح الله له»**(1). اهـ.

قال ابن حجر(2): وفى حديث سلمة بن الأكوع «أن علـيًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»(3) أراد بذلك وجود حـقيقة المحـبة، وإلا فكل مسلم يشـترك مع على فى مطلق هذه الصفة.

وفى الحديث تلميـح بقوله تعالى: **﴿قُلْ إِن كُنـتُمْ تُحِبُّونَ الـلَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ الـلَّهُ﴾** فكأنه أشار إلى أن عـليا تام الاتباع لرسـول الله ﷺ حتى اتصف بصـفة محـبة الله له، ولهذا كانت محبته علامة الإيمان وبغضه علامة النفاق كما أخرجه مسلم من حديث على نفسه قال: «والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبى الأمى أن لايحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»(4) وله شاهد من حديث أم سلمة عند أحمد(5). اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(6): **قوله: «يحب الله ورسوله ويحـبه الله ورسوله»** فيه فضيلة عظيـمـة لعلى رضى الله عنه، لأن النبـى ﷺ شـهـد له بذلك، ولكـن ليس هذا من خصائصه.

قال شـيخ الإسلام: ليس هذا الوصف مختـصاً بعلى ولا بالأئمة، فـإن الله ورسوله يحب كل مؤمن تقى يحب الله ورسوله، لكن هذا الحـديث من أحسن ما يحتج به على النواصب الذى يتبرأون منه ولايتولونه، بل قد يكفرونه أو يفسقونه كالخوارج. لكن هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة الذين يجـعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كـانت قبـل ردتهم، فإن الخـوارج تقـول فى على مـثل ذلك، لكن هذا باطل فـإن الله ورسوله لا يطلق مثل هذا المدح على من يعلم أنه يموت كافرًا.

وفيه إثبات صفة المحبة لله.

وفيـه إشارة إلى أن عليًا تام الاتبـاع لرسول الله ﷺ حتى أحـبه الله، ولهـذا كانت محبته علامة الإيمان، وبغضه علامة النفاق؛ ذكره الحافظ بمعناه. اهـ. قلت: وقد تقدم.

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) الفتح (6/ 89).

(3) تقدم تخريجه.

(4) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (1/ 341/ 131).

(5) أخرجه أحمد فى «مسنده» (6/ 292)، والترمذى (3/ 37م).

(6) تيسير العزيز الحميد: (97).

قال ابن عثيمين[1]: قوله: «يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله».

أثبت المحبة لله من الجانبين، أى أن الله تعالى يُحِبُّ ويُحَبَّ، وقد أنكر هذا أهل التعطيل، وقالوا: المراد بمحبة الله للعبد إثابته أو إرادة إثابته، والمراد بمحبة العبد لله محبة ثوابه، وهذا تحريف للكلام عن ظاهره مخالف لإجماع السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى من بعدهم، ومحبة الله تعالى ثابتة له حقيقة، وهى من صفاته الفعلية، وكل شىء من صفات الله يكون له سبب؛ فهو من الصفات الفعلية، والمحبة لها سبب؛ فقد يبغض الله إنسانًا فى وقت ويحبه فى وقت لسبب من الأسباب. اهـ.

قلت: وفيه رد على الشيعة الذين قالوا أن الولايه لعلى لانه اختص بهذه المنقبة وهو كان أولى بالخلافة من أبى بكر وعمر وقد كفرا لأنهما لم يولباه الخلافة.

الجواب على ذلك من وجوه أولها: أنه بشر من هو دونه من الصحابة وهو عبد الله ويلقب حمارًا كان يشرب الخمر فيؤتى به فيقيم عليه الحد فلعنه بعض الصحابة فقال لاتلعنه فإنه يحب الله ورسوله.

فمن باب أولى العشرة المبشرون بالجنة فإن كانت هذه البشارة سبب لأولوية على رضى الله عنه بالخلافة فقد بشر أبوبكر وعمر بأكثر من ذلك فهم أولى وأولى وكذلك هذا الشارب للخمر أفيكون أولى بالخلافة؟!

الثانى وهو رد على الشيعة والنواصب أن يقال: أما على رضى الله عنه فكيف يقبل أن يزوج ابنته من كافر وهذا (رد على الشيعة) أما عمر فكيف يقبل أمير المؤمنين أن يتزوج من ابنة كافر وهذا (رد على النواصب والخوارج) فهما أجل عندنا من أن يفعلا ذلك.

وسيأتى انقسام الناس لثلاثة أقسام فى على بن أبى طالب، وذلك فى كلام الحافظ عند قول المصنف [أين على].

قوله: [يفتح الله على يديه].

قال سليمان آل الشيخ[2]: صريح فى البشارة بحصول الفتح على يديه، فكان الأمر كذلك، ففيه دليل على شهادة أن محمدًا رسول الله اهـ.

وكذلك **قال ابن عثيمين[3]:**

---

(١) القول المفيد (١/ ١٦٨).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٩٨).

(٣) القول المفيد (١/ ١٦٩).

قوله: [فبات الناس يدوكون ليلتهم].

وعند البخارى بلفظ (فنحن نرجوها) قال ان حجر[1]: فى حديث سهل هنا: «فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها» وقوله: «يدوكون» بمهملة مضمومة أى باتوا فى اختلاط واختلاف، والدوكة بالكاف الاختلاط، وعند مسلم من حديث أبى هريرة «أن عمر قال: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ»[2] وفى حديث بريدة «فما منا رجل له منزلة عند رسول الله ﷺ إلا وهو يرجو أن يكون ذلك الرجل، حتى تطاولت أنا لها، فدعا عليًا وهو يشتكى عينه فمسحها، ثم دفع إليه اللواء[3].

ولمسلم من طريق إياس بن سلمة عن أبيه قال: «فأرسلنى إلى على قال: فجئت به أقوده أرمد فبزق فى عينه فبرأ»[4] اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[5]: **[قوله: فبات الناس يدوكون ليلتهم]**، هو بنصب ليلتهم على الظرفية، ويدوكون قال المصنف: يخوضون. والمراد أنهم باتوا تلك الليلة فى خوض واختلاف فيمن يدفعها إليه.

وفيه حرص الصحابة على الخير ومزيد اهتمامهم به، وذلك يدل على علو مراتبهم فى العلم والإيمان.

قال سليمان آل الشيخ[6]: **[قوله: أيهم يعطاها]** فهو يرفع أى على البناء.

[قلت] فى قوله: **«فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها»**، فائدة: - فكله بات يفكر أيهم يعطاها ليس للإمارة فى حد ذاتها وإنما لحب الله ورسوله لمن يعطاها فإذا نظرنا إلى حالنا وحالهم نجد فرقًا كما بين السماء والأرض فى علو همتهم وحرصهم على الخير وفى نومنا وعدم حرصنا على الخير فارق عظيم بيننا وبينهم والأمر كما قال ابن عباس **«إنى لأراكم أشد الناس شبهًا ببنى إسرائيل»**. وبنو إسرائيل مضرب المثل فى الكسل فى كل شىء فإن الله سبحانه وتعالى لما حكى عن موسى عليه السلام حينما قال لهم.

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾. قالوا **﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾** وقبل ذلك قالوا. **﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾** حتى الكلام ممل مميت نسأل الله العفو والعافية.

---

(١) فتح البارى (٧/ ٥٤٥).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفضائل (٨/ ١٨٨/ ٣٣).

(٣) تقدم.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجهاد (٦/ ٤١٤/ ١٣٢).

(٥) (٦) تيسير العزيز الحميد (٩٧).

ولما قال لهم سبحانه وتعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ ما هان عليهم أن يسجدوا ودخلوا على إستهم من أجل ذلك هم ملوك العالم فى الربا من قديم لايحبون أن يتعبوا فى أى شيء كما قص الله علينا من أخبارهم لكن الصحابة عكس ذلك تماماً والأمثلة على ذلك كثيرة.

فلذلك كان النبى ﷺ يتعوذ من الكسل. فيقول: «اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل»[١]. وهذا الكسل يشبه حالنا الآن.. والرسول ﷺ تعوذ من الكسل وأسباب الكسل والفتور.

والله المستعان.

قوله: [كلهم يرجو أن يعطاها].

تقدم كلام ابن حجر فى القول قبل السابق مباشرة أن عمر كان أيضًا يرجوها وفى رواية أبى هريرة عند مسلم: أن عمر قال: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ[٢].

قال سليمان آل الشيخ[٣] فإن قلت: إن كانت هذه الفضيلة لعلى رضى الله عنه ليست من خصائصه؛ فلماذا تمنى بعض الصحابة أن يكون له ذلك؟

قيل الجواب كما قال شيخ الإسلام أن فى ذلك شهادة النبى ﷺ لعلى بإيمانه باطناً وظاهرًا، وإثباتاً لموالاته لله ورسوله، ووجوب موالاة المؤمنين له، وإذا شهد النبى ﷺ لمعين بشهادة أو دعا له بدعاء أحب كثير من الناس أن يكون له مثل تلك الشهادة، ومثل ذلك الدعاء، و«إن كان النبى ﷺ يشهد بذلك لخلق كثير ويدعو به لخلق كثير، وكان تعيينه لذلك المعين من أعظم فضائله ومناقبه.

قلت: وفى هذه الجملة أيضاً حرص الصحابة على الخير. اهـ.

قوله: [أين على بن أبى طالب]

بوب البخارى: **(باب مناقب على بن أبى طالب) قال ابن حجر**[٤]: أى ابن عبد المطلب **(القرشى الهاشمى أبى الحسن)** وهو ابن عم رسول الله ﷺ شقيق أبيه واسمه عبد مناف على الصحيح. ولد قبل البعثة بعشر سنين على الراجح وكان قد رباه النبى ﷺ من صغره لقصة مذكورة فى السيرة النبوية، فلازمه من صغره فلم يفارقه إلى أن مات.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٣٦٧)، ومسلم فى الدعاء (١٧/ ٢٩) عن أنس به.
وانظر «منار السبيل» (١٤٧٧ ـ بتخريجنا) أنظر «فتح المجيد» (ح ١٤١) بتخريجنا.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تيسير العزيز الحميد (٩٨).
(٤) فتح البارى (٧/ ٨٩).

وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، وكانت ابنة عمة أبيه وهى أول هاشمية ولدت لها شمى، وقد أسلمت وصحبت وماتت فى حياة النبى ﷺ، قال أحمد وإسماعيل القاضى والنسائى وأبو على النيسابورى لم يرد فى حق أحد من الصحابة بالأسانيد الجياد أكثر مما جاء فى على وكأن السبب فى ذلك أنه تأخر، ووقع الاختلاف فى زمانه وخروج من خرج عليه، فكان ذلك سبباً لانتشار مناقبه من كثرة من كان بينها من الصحابة ردًا على من خالفه، فكان الناس طائفتين، لكن المبتدعة قليلة جدا. ثم كان من أمر على ما كان فنجمت طائفة أخرى حاربوه، ثم اشتد الخطب فتنقصوه واتخذوا لعنه على المنابر سنة، ووافقهم الخوارج على بغضه وزادوا حتى كفروه، مضموما ذلك منهم إلى عثمان.

● **انقسام الناس فى علىٍّ على ثلاثة طوائف:**

قال ابن حجر: فصار الناس فى حق على ثلاثة: أهل السنة والمبتدعة من الخوارج والمحاربين له من بنى أمية وأتباعهم فاحتاج أهل السنة إلى بث فضائله فكثر الناقل لذلك لكثرة من يخالف ذلك، وإلا فالذى فى نفس الأمر أن لكل من الأربعة من الفضائل إذا حرر بميزان العدل لايخرج عن قول أهل السنة والجماعة أصلا.

وروى يعقوب بن سفيان بإسناد صحيح عن عروة قال: «أسلم علىٌّ وهو ابن ثمان سنين»(١) وقال ابن إسحق «عشر سنين» وهذا أرجحها، وقيل غير ذلك. **(وقال النبى ﷺ له أنت منى وأنا منك)**(٢) وهو طرف من حديث البراء بن عازب فى قصة بنت حمزة، وقد وصله البخارى فى الصلح وفى عمرة القضاء مطولاً.

وفى رواية للبخارى(٣): **(فقيل هذا على)** كذا وقع مختصرًا، وبيانه فى رواية إياس بن سلمة عند مسلم(٤)، وفى حديث سهل بن سعد: «فلما أصبح الناس غدو على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: **أين على بن أبى طالب؟** قالوا: يشتكى عينيه، قال: **فأرسلوا إليه**، فأتوا به» وقد ظهر من حديث سلمة بن الأكوع أنه هو الذى أحضره، ولعل عليًا حضر إليهم بخيبر ولم يقدر على مباشرة القتال لرمده، فأرسل إليه النبى ﷺ فحضر من المكان الذى نزل به، أو بعث إليه إلى المدينة فصادف حضوره.

قال سليمان آل الشيخ(٥): قال بعضهم كأنه استبعد غيبته عن حضرته فى مثل هذا الموطن، لاسيما وقد قال: «**لأعطين الراية**».

---

(١) ذكر القولين ابن الأثير فى «أسد الغابة» (٤/ ٩١) وزاد أقوالاً أخرى.
(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٢٥١) عن البراء به.
(٣) فتح البارى (٧/ ٥٤٦).
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) تيسير العزيز الحميد (٩٨).

وفيه سؤال الإمام عن رعيته وتفقده أحوالهم وسؤاله عنهم فى مجامع الخير. اهـ.

[قلت] وفيه أيضًا فائدة لطيفة: استعمال المعاريض حتى لا يصدم من يأمل منه الخير، وفيه: كرم خلقه ﷺ. والله المستعان.

قوله: [فقيل هو يشتكى] أى من الرمد كما فى «صحيح مسلم» عن سعد بن أبى وقاص، فقال: «ادعو لى عليًا» فأتى به أرمد فبصق فى عينيه(١). اهـ.

قوله: [فأرسلوا إليه] بهمزة قطع من أمر من الإرسال، أمرهم بأن يرسلوا إليه يدعوه له ولمسلم من طريق إياس بن سلمة عن أبيه قال: فأرسلنى إلى على، فجئت به أقوده أرمد فبصق فى عينيه فبرأ(٢).

قوله: (فبرأ) قال ابن حجر(٣): بفتح الراء والهمزة بوزن ضرب، ويجوز كسر الراء بوزن علم، وعند الحاكم من حديث على نفسه قال: «فوضع رأسى فى حجره ثم بزق فى إلية راحته فدلك بها عينى» وعن بريدة فى «الدلائل» للبيهقى «فما وجعها على حتى مضى لسبيله» أى مات. وعند الطبرانى من حديث على «فما رمدت ولا صدعت مذ دفع النبى ﷺ إلىَّ الراية يوم خيبر»(٤) وله من وجه آخر «فما اشتكيتها حتى الساعة. قال: ودعا لى فقال: «اللهم اذهب عنه الحر والقر»، قال فما اشتكيتهما حتى يومى هذا» اهـ(٥).

قال سليمان آل الشيخ(٦): قوله: (فبرأ) وهو بفتح الراء والهمزة، بوزن ضرب، ويجوز الكسر بوزن علم، أى عوفى فى الحال عافية كاملة، كأن لم يكن به وجع من رمد ولاضعف بصرٍ أصلاً.

فعند الطبرانى من حديث على: «فما رمدت ولا صدعت منذ دفع إلىَّ النبى ﷺ الراية»(٧).

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الفضائل» (٨/ ١٨٧/ ٣٢)،
وانظر الفتح الموضع السابق. وأنظر تمام تخريجه في «فتح المجيد» (ح١٤٥) بتخريجنا
(٢) تقدم تخريجه قريباً، وانظر المصدرين الأولين.
(٣) فتح البارى (٧/ ٥٤٦).
(٤) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (٩/ ١٢٢) ونسبه لأبى يعلى، وأحمد باختصار قال: ورجالها رجال الصحيح غير أم موسى وحديثها مستقيم. وأنظر تمام تخريجه في «فتح المجيد» (ح ١٤٨) بتخريجنا
(٥) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (٩/ ١٢٢) ونسبه للطبرانى فى «الأوسط» قال: وأسناده حسن.
(٦) تيسير العزيز الحميد (٩٨). (٧) تقدم.

قال ابن عثيمين(١): قوله: «فبرأ».

هذا من آيات الله الدالة على قدرته وصدق رسول الله ﷺ أهـ.

[قلت]: فهذه ليست دروشة ولاشطحة من شطحات الصوفية التى يفعلونها.

وبلغنى أن بعض الأخوة كان صوفيًا ثم التزم وحكى لنا من أفعالهم القبيحة الكثير من ذلك: أنه كان يقول أن بعض مشايخ الصوفية كان يبول فى مكان ما ثم وضعوا على بوله مسكاً وكولونيا وقالوا تعالوا انظروا إن الشيخ تبول مسكاً فأخذوا يتبركون بهذه المسك قبحهم الله. فهذا قدرهم عند الله تعالى أن يوضعوا فى كنيف ويلطخو بالنجاسة. نسأل الله العافية.

ولعلى منقبة أخرى أن النبى ﷺ دعا له بإن لايصاب بحر لابرد، فكان يُرى فى اليوم الشديد البرد وهو لايزيد على إزار وفى اليوم الشديد الحر يلبس الصوف رضى الله عنه.

والله المستعان.

قوله: [انفذ على رسلك حتى تنزل ساحتهم].

وفى رواية للبخارى: فى حديث سهل: **(فقال علىٌ يارسول الله أقاتلهم)** هو بحذف همزة الاستفهام.

وفى رواية للبخارى (حتى يكونوا مثلنا) أى حتى يسلموا.

قوله: (فقال انفذ) بضم الفاء بعدها معجمة.

قوله: (على رسلك) بكسر الراء أى على هينتك(٢) أهـ.

[قلت] فى قول على رضى الله عنه فى روايه البخارى (حتى يكونوا مثلنا): استعجال النتائج، بالنسبة لحال المدعوين فلا يرضى الداعى منه إلا أن يكون فى يوم أو ليلة صحابى فى المعتقد أو السلوك وإلاشنع عليه والصق به التهم.

كمثل كثير من شباب الصحوة الإسلامية، لكن الرسول ﷺ وجه عليا إلى التدريج فى الدعوة وترك التسرع كما سيأتى. فلا يتسرع الشباب بدعوة من هم فى خارج البيت وخارج دائرة الأهل من الغرباء قبل دعوة البيت أو الأهل فعند ذلك يصطدم بما لايتوقعه، ولذلك.

---

(١) القول المفيد (١/ ١٧٠).

(٢) فتح البارى (٧/ ٥٤٧).

قال سبحانه تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ فلماذا لم يقل الله تعالى: (الغرباء) بدلاً من (الاهل)؟ الجواب لأن الإنسان يضيق صدره بالأهل، ويتسع للغرباء؛ لأن الأهل محل ضيق الصدر.

قوله: ﴿لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ في الحقيقة: أنها مرتبطة بمسألة دعوة الأهل؛ لأن ضيق الصدر على الأهل يتكئ على تكئة فيه - ماهى بالنسبة للمتزوج - فيقول أنا أعمل ليل نهار وأنا كذا وكذا.. والنبى ﷺ قال: الرفق ما دخل فى شئ إلا زانه.. وما نزع من شيء إلا شانه»(١).

أما الاحتجاج بالعمل والوظائف على ترك الخير فى دعوة الأهل فالله يقول: **﴿لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾**.

وقد ذكرت فى شرحى لـ«زاد المعاد» أنك إن لم تأسس قاعدة قوية فى بيتك وخرجت تدعو خارجًا ستجد أهلك يشنعون عليك وتكون أنت المخطئ وإذا قالوا للناس ذلك لم يسمعوا. والنبى ﷺ أول ما أُمر أمر أن يدعوا الأقربين. فأنذر أهله زوجته خديجة ثم الأقرب فالأقرب ثم أعلن دعوته وخرج بها إلى المدينة ثم تدرج فى المرحلية الدعوية. فعليك أن تدعوهم بحكمة.

فها هو على بن أبى طالب كان سيتسرع وقال «يارسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا» فقال له ﷺ **انفذ على رسلك**» حتى تنزل بساحتهم وادعوهم إلى الإسلام. والله المستعان.

قوله: وقال: انفذ على رسلك» قال سليمان آل الشيخ: أما انفذ فهو بضم الفاء، أى: امض لوجهك. **ورسلك:** بكسر الراء وسكون السين، أى على رفقك ولينك من غيرعجلة، يقال لمن يعمل الشيء برفق. **وساحتهم:** فناء أرضهم، وهو حواليها.

وفيه الأدب عند القتال، وترك الطيش، والأصوات المزعجة التى لا حاجة إليها.

وفيه أمر الإمام عماله بالرفق واللين من غير ضعف ولا انتقاض عزيمة كما يشير إليه قوله: «**حتى تنزل بساحتهم**».

قال ابن عثيمين قوله: «انفذ على رسلك».

أى: مهلك، مأخوذ من رِسْل الناقة؛ أى: حليبها يحلب شيئاً فشيئاً، والمعنى: امش

---

(١) تقدم تخريجه.

هوينا هوينا؛ لأنَّ المقام خطير؛ لأنَّه يخشى من كمين، واليهود خبثاء أهل غدر.

●**فائدة دعوية من وحى قوله ﷺ [انفذ على رسلك]: -**

ذكر ابن باز فى قوله الله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾. الكيفية التى ينبغى أن يتصف بها الداعى ويسلكها يبدأ أولاً بالحكمة. وهى كما سيأتى عنه تطلق على النبوة والعلم والفقه فى الدين وعلى العقل وعلى الوضوح وعلى أشياء أخرى لا تخرج عن قوله ﷺ لعلى «أنفذ على رسلك»(١).

وقال ابن القيم: الدعوة تنقسم الى ثلاثة اقسام من حيث حال المدعو.

١- فإنه إما أن يكون طالباً للحق محباً له، مؤثراً له على غيره إذا عرفه فهذا يُدعَى بالحكمة، ولايحتاج إلى موعظة وجدال.

٢- وإما أن يكون مشتغلاً بِغير الحق، لكن لو عرفه آثره واتبعه. فهذا يحتاج إلى الموعظة بالترغيب والترهيب.

٣- وإما أن يكون مُعانداً مُعارضاً، فهذا يُجادَل بالتى هى أحسن. فإن رجع وإلا انتُقِل معه إلى الجدال إن أمكن». انتهى.

قلت: وهناك حالة رابعة ذكرها ابن باز وهى إذا ظهر من المدعو العناد والظلم فلا مانع من الإغلاظ عليه كما قال الله سبحانه: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾** الآية، وقال تعالى: **﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾**.

فالقسم الأول:

قسم يحب الحق حريص عليه. مؤثراً اياه على غيره. فهذا يحتاج إلى الحكمة:

«والحكمة» هى: القرآن والسنه: **﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾**.

و«الحكمة» هى: فعل ماينبغى فى الوقت الذى ينبغى على الوجه الذى ينبغى أو هى: وضع الشىء فى موضعه.

وذكر فيما تقدم **ابن باز**: أنها العلم والفقه أوهى كلمة مشتركة تطلق على معان كثيرة كالنبوة والعلم،و التفقه فى الدين. . و العقل،والورع.

(١) راجع رسالة الدعوة إلى الله للشيخ عبدالعزيز بن باز.

قال الشوكاني:ـ رحمه الله ـ هي المانعة من السفه.

قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ من يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وتفسير الحكمـة بذلك يدلـك على أن الدعـوة دعوة شمولـية» ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ﴾ بالدين بـالسنة بالقرآن بـالعلم النافع بـغير ذلك من شموليـة الاسلام هذه الحكمة تهدى لطلبة الحق الحريصين عليه الطالبين له المؤثرين له على ما سواء ـ نحسبكم جميعاً كذلك ـ.

القسم الثانى الموعظة الحسنة(*): لمن

(أ) للذى انشغل عن الحق بمباح بعمل مثلاً، لـكنه لايعرف له حد، فآثره غيره عليه - مثل السواد الأعظم للمسلمين.

(ب) هذا الذى انشغل عن الحق (لمدخن، مدمن **التلفاز**، مدمن كرة) بضد الحق لكنه لو علمه، أتاه واتبعه.

فمن الخطأ أن تبدأ معهم فى الدعوة بطريقة منفرة له عن الحق، فترى البعض أول ما يذهب اليه يدعوه يـقول له السجائر حرام، والكرة حرام، والتلـفاز حرام؟ هل تصح هذه الطريقة؟

الجواب لا، هذا خطأ فى طريقة الدعوة وكلمـة (حرام وحلال) لاينبغى أن تطلق بهذه الصورة المتكررة العشوائية، خاصة لطالب الحق الحريص عليه.

وأما الثانى، فإننا تؤثر عليه بالترغيب والترهيب. ونذكره بالله، والأحاديث التى فى أهوال القيامة، وأحاديث الصراط وأحاديث فضل الجنة، لعله يرق قلبه فيستجيب، فيأتى الداعى فـى هذه الحاله يـقول له يا فـلان لو تركت هـذا لكان خيـرًا لك فى صحـتك وعافيتك ودينك وكذا وكذا. . .

فالرسول ﷺ حينـما جاءه رجل فقال يارسول الله «إئذن لى فى الـزنى» فهل قال له أنه حرام مباشرة؟ وكذا من يشرب السجائر تـقول له حرام هو يعلم إنها حرام، وكذلك ايضاً نقـول له التلفاز وكذلك يـقول له حرام، انظر: إلى دعوة الـرسول ﷺ رهبه أولاً قال: **«أتحبه لأمك»** قال لا قـال **«اتحبـه لأختك»** **قـال لا قال: كذلـك النـاس لايحبـونه لأمهاتهم وأخواتهم**(١).

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٢٥٦، ٢٥٧)، والطبرانى فى «الكبير» (٧٦٧٩) عن أبى أمامة.

(*) راجع رسالة الدعوة إلى الله للشيخ عبدالعزيز بن باز.

فالنبى ﷺ دعى بعض الناس بهذه الآية فقط: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ .فهذه بالموعظة الحسنة.

أيضاً رجل حليق اللحية : هل نقول له انت آثم حرام عليك، بل نتدرج معه حتى يتهيأ لقبول أمر الله وأمر الرسول ونعطه موعظة حسنة حتى إذا تهيأ فعليك معه بالحكمة إن كان طالبًا لها. وعند ذلك ياتى إليك ويقول يا أخى ما هو حكم مشاهدة التلفاز حرام أم حلال؟ هو يطلب إذًا. فعند ذلك نأتيه بالعلم النافع فى هذا الأمر وتجدون مصداق ذلك فيمن حلف باللات وبالعزى له فى الشرع كفارة. **حيث قال ﷺ من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله.**

والنبى ﷺ لم يقل عندما نسمع حالف يحلف بغير الله نقول له انت مشرك، بل بين للصحابة أن لابد من الإحلال ان يحل محل الخبيث الطيب كما تسمعون من يقول: والنبى، ورحمة فلان، . . . نقول له قل لا إله إلا الله(١).

فإن ذلك أيسر عليه، من أن تقول له إنك أشركت. بل قال النبى ﷺ الداء، وترفق بنا بدواء سهل على من وقع فى ذلك.

القسم الثالث، الذى يحتاج إلى الجدال وهو المعاند المستكبر المعرض، لكنه ينقسم إلى قسمين:

(أ) قسم معاند مستكبر مع ظلم: فالدعوة معه بالشدة والغلظة، كدعوة موسى مع فرعون فتارة يقول له قولاً ليناً وتارة يهدده بالله وتارة يقول: إنى لأظنك يا فرعون مثبوراً.

(ب) قسم معاند مستكبر على غير ظلم على جهل منه لم يعتدى فى حال استكباره وأعراضه. . هذا نجادله بالتى هى أحسن. كما قال ﷺ فى قصة الاعرابى الذى جاء إلى النبى ﷺ وطلب منه طلباً فأعطاه فقال «**هل رضيت وهل اعطيت؟** فقال الاعرابى مارضيت وما اعطيت فاعطاه ثلاث مرات لو سأله فقال نفس المقالة فقام الصحابة عليه لينالوا منه فقام ﷺ: واعطاه إلى ان رضى الرجل. وأثنى على الرسول ﷺ فأمره الرسول أن يخرج ويقول: **هذا الثناء أمام الصحابة حتى يسقط ما فى صدورهم ما صنعت وحتى يرضوا عنك**» فذهب فقال مقالته ثم انصرف.

فقال رسول الله ﷺ: «**ألا إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه، فاتبعها الناس، فلم يزيدوها إلا نفوراً، فنادهم صاحب الناقة، خلوّ بينى**

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٦٥٠)، ومسلم فى الإيمان (٦/ ١١٩/ ٥) عن أبى هريرة.

وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأعلم، فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها وأخذ لها من قمام الأرض فردها هوناً هوناً هوناً حتى جاءت، واستناخت وشد عليها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار»(١).

فهذا المعرض المستكبر أحيانا يحتاج إلى الحسنى أو بالمعاملة الحسنة أو بالجدال إن كان عالماً كما جادل النبي ﷺ النصارى حينما قالوا له ما تقول في عيسى وفي معجزته؟ فتلا عليهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

وبهذا انتهت معهم الموعظة الحسنة ولم يبق إلا الإغلاظ والشدة لأنهم بهذا ظلموا امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

ولقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

ذلك لأنهم، لم يرضوا بهذا الجدال الحسن وظلموا وتعدوا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ فالغلظة والشدة تأتي أحيانا في بعض المواقف ولبعض الاقسام ولبعض المدعوين.

لكن الأمر كما قال ﷺ: «الرفق ما دخل في شيء إلا زانه وما خلا من شيء إلا شانه»(٢).

وقال: «إن الله يعطي على الرفق مالا يعطي على العنف»(٣) والدليل على ذلك ان هناك ثلاثة مراحل ليس فيها انذار، ومرحلة واحدة فيها انذار.

فينبغي على الداعي ألا يجعل الغلظة والشدة هي الأصل مع المدعوين.

وقد يكون أحيانا القول اللين او الرفق هو الشدة قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾. فكان من ذلك قول موسى لفرعون. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ

---

(١) أخرجه أبوالشيخ والبزار من حديث أبي هريرة، وإسناده ضعيف.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) [صحيح] أخرج مسلم في البر والصلة (١٦/١٤٦ ـ النووي) عن عائشة به.
وانظر «رياض الصالحين» (٦٣٥ ـ بتخريجنا).

مَثْبُوراً﴾ هالكا ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾. قولاً ليناً لأنه لايصلح معه بعد بيان الحجج الواضحة إلا ان يقول له ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ أنا بينت لك حينما سألتنى ﴿مَن رَّبُّكَ﴾ قلت رب المشرق والمغرب، وبينت لك: أن الله ربك ورب إباءك الأولين. **وقبل أن لم توجد من رب الناس؟!**. فالرب قبل أن توجد وبعد أن تموت. فبعد كل ذلك لم تؤمن إذاً أنت هالك مثبور.

قال ابن عثيمين(١): قوله: «حتى تنزل بساحتهم».

أى: ما يقرب منهم وما حولهم، والنبى ﷺ يقول: «**إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**».

وهذا إذا كنَّا على الوصف الذى عليه الرسول ﷺ وأصحابه، أما إذا كنا على وصف القومية، فإننا لو نزلنا فى أحضانهم؛ فمن الممكن أن يقوموا ونكون فى الأسفل.

قوله: (ثم ادعهم إلى الإسلام) قال ابن حجر(٢): ووقع فى حديث أبى هريرة عند مسلم «فقال على: يارسول الله علام أقاتل الناس؟ قال: «**قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله**»(٣) واستدل بقوله: «**ادعهم**» أن الدعوة شرط فى جواز القتال، والخلاف فى ذلك مشهور فقيل: يشترط مطلقًا، وهو عن مالك سواء من بلغتهم الدعوة أو لم تبلغهم، قال: إلا أن يعجلوا المسلمين. وقيل لا مطلقاً وعن الشافعى مثله. وعنه لايقاتل من لم تبلغه حتى يدعوهم، وأما من بلغته فتجوز الإغارة عليهم بغير دعاء، وهو مقتضى الأحاديث. ويحمل ما فى حديث سهل على الاستحباب، بدليل أن فى حديث أنس أنه ﷺ أغار على أهل خيبر لما لم يسمع النداء(٤)، وكان ذلك أول ما طرقهم، وكانت قصة على بعد ذلك. وعن الحنفية تجوز الإغارة عليهم مطلقاً وتستحب الدعوة.

قال سليمان آل الشيخ(٥): قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام» أى الذى هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ومن هذا الوجه طابق الحديث الترجمة. وفى

(١) القول المفيد (١/ ١٧٠، ١٧١).
(٢) فتح البارى (٧/ ٥٤٧).
(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفضائل (٨/ ١٨٨/ ٣٣).
(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٩٤٣).
(٥) تيسير العزيز الحميد (٩٨، ٩٩).

حديث أبى هريرة عند مسلم: فدعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب، فأعطاه الراية وقال: «امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك» فسار على شيئاً ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ يارسول الله: على ماذا أقاتل الناس؟ فقال: «فقاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»(١) وفيه أن الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله، المراد بها الدعوة إلى الإخلاص بها، وترك الشرك وإلا فاليهود يقولونها، ولم يفرق النبى ﷺ فى الدعوة إليها بينهم وبين من لا يقولها من مشركى العرب، فعلم أن المراد من هذه الكلمة هو اللفظ بها، واعتقاد معناها، والعمل به، وذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٢) وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾(٣) وذلك هو معنى قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام» الذى هو الاستسلام لله تعالى، والإنقياد له بفعل التوحيد وترك الشرك، وفيه مشروعية الدعوة قبل القتال، لكن إن كانوا قد بلغتهم الدعوة جاز قتالهم ابتداء، لأن النبى ﷺ أغار على بنى المصطلق وهم غارون، وتستحب دعوتهم لهذا الحديث وما فى معناه؛ وإن كانوا لم تبلغهم وجبت دعوتهم.

قال ابن عثيمين(٤): قوله: «ثم ادعهم».

أى: أهل خيبر، **«إلى الإسلام»**؛ أى: الاستسلام لله.

وقوله: [وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه]

قال سليمان آل الشيخ(٥): أى فى الإسلام أى إذا أجابوا إلى الإسلام، فأخبرهم بما يجب عليهم من حقوقه التى لابد من فعلها، كالصلاة، والزكاة، وهذا كقوله فى حديث أبى هريرة: **«فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها»**(٦).

(١) تقدم.

(٢) آل عمران آيه/ ٦٤.

(٣) الرعد آيه / ٣٦.

(٤) القول المفيد (١/ ١٧٠).

(٥) تيسير العزيز الحميد (٩٩)

(٦) تقدم قريباً.

وقد فسره أبو بكر الصديق لعمر رضى الله عنهما لما قاتل أهل الردة الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقال له عمر كَيْفَ نُقَاتِلُ الناسَ وقد قال رَسُولُ الله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولوا لا إلهَ إلا الله، فَمنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّى مالَهُ وَنَفْسَهُ إلا بحقِّه؟» قال أبو بكر: فإن الزكاة حق المال، والله لَوْ مَنَعونى عَنَاقاً كَانُوا يُؤَدُّونَها إلى رَسُولِ الله ﷺ لَقَاتَلْتُهم على مَنْعِهَا[1].

وحاصله أنهم إذا أجابوا إلى الإسلام الذى هو التوحيد فأخبرهم بما يجب عليهم بعد ذلك من حق الله تعالى فى الإسلام من الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام الظاهرة وحقوقه. فإن أجابوا إلى ذلك فقد أجابوا إلى الإسلام حقًا، وإن امتنعوا عن شيء من ذلك فالقتال باق بحاله اجماعًا. فدل على أن النطق بكلمتى الشهادة دليل العصمة لا أنه عصمة، أو يقال: هو العصمة لكن بشرط العمل، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ﴾[2] الآية ولو كان النطق بالشهادتين عاصماً لم يكن للتثبت معنى، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا﴾[3]. أى عن الشرك وفعلوا التوحيد ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾[4] فدل على أن القتال يكون على هذه الأمور.

وفيه أن لله تعالى حقوقاً فى الإسلام من لم يأت بها لم يكن مسلماً، كإخلاص العبادة له والكفر بما يعبد من دونه. وفيه بعث الإمام الدعاة إلى الله، كما كان النبى ﷺ وخلفاؤه الراشدون يفعلون.

وفيه تعليم الإمام أمراءه وعماله ما يحتاجون إليه.

وقال ابن عثيمين[5]: أى: فلا تكفى الدعوة إلى الإسلام فقط، بل يخبرهم بما يجب عليهم فيه حتى يقتنعوا به ويلتزموا، لكن على الترتيب الذى فى حديث بعث معاذ.

---

(1)[متفق عليه] أخرجه البخارى (١٣٩٩) ومسلم فى الإيمان (١/ ٢٠٠ ـ النووى).
وانظر «رياض الصالحين» (١٢١٣ ـ بتخريجنا).
وأنظر تمام تخريجه في «فتح المجيد »(ح١٥١) بتخريجنا

(2) النساء آية/ ٩٤.

(3)(4) التوبة آية / ٥.

(5) القول المفيد (١/ ١٧١).

وهذه المسألة يتردد الإنسان فيها: هل يخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فى الإسلام قبل أن يسلموا أو بعده؟

فإذا نظرنا إلى ظاهر حديث معاذ وحديث سهل هذا؛ فإننا نقول: الأَوْلى أن تدعوه للإسلام، وإذا أسلم تخبره.

وإذا نظرنا إلى واقع الناس الآن، وأنهم لا يسلمون عن اقتناع؛ فقد يسلم، وإذا أخبرته ربما يرجع، قلنا: يُخبَرون أولاً بما يجب عليهم من حق الله فيه؛ لئلا يرتدوا عن الإسلام بعد إخبارهم بما يجب عليهم، وحينئذ يجب قتلهم لأنهم مرتدون.

ويحتمل أن يقال: تترك هذه المسألة للواقع وما تقتضيه المصلحة من تقديم هذا أو هذا. اهـ.

[قلت]: قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام» فيه أن الدعوة لاتكون إلى جزئية وإن كانت إلى جزئية لمقتضى الحال أو مقتضى المقال أو المدعو فهذا ليس معناه نفى بقيت الاسلام فكما قلت الناس فى هذا طرفان ووسط فمنهم مَنْ أخذ بالعروة الدنيا فقط ودعا إليها ومنهم من دعا إلى العروة العُليا فقط ومنهم من دخل فى كل عرى الاسلام ودعا إليها جميعًا أما من قال: إنى لا أدعو إلا بهذه الجزئية لان الناس لم يفهموا إلا هذه أو أنا لا أحسن إلا هذه مع علمه أن الإسلام ليس هذه الجزئية فقط؛ فنقول له قد أصبت وبارك الله فيك. ومن فعل العكس بأن دعا إلى جزئية من جزئيات الإسلام كالفقه فقط أو العقيدة فقط أو السيرة فقط أو الزهد فقط أو الجهاد فقط أو الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقط أو غير ذلك من جزئيات الإسلام ويعتقد أن الدين كل الدين هو هذه الجزئية فقط حتى والى على ذلك وعادى عليه فقد أخطأ. ذلك بأن الإمام النووى يبين فى معنى الطائفة المصورة أنها بين فقير وعابد وزاهد ومحدث وبصير بالحرب.. إلخ أى أنها تضم هذا كله وليس جزءه فقط لذا نقول لمنْ دعا إلى جزء.

فقد دعوت إلى الجزء وتركت الكل، الله عز وجل يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً** ﴾. فهذه الآية دليل علي شمولية الدعوة

وقال ﷺ: «**ادعوهم إلى الاسلام**» كل الاسلام. وأخبرهم بما يجب عليهم (أى مقتضيات الإسلام) حق الله على العباد وهو إفراد الله بالعبادة.

تقدم قول الله عزوجل: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِى أَدْعُو إِلَى اللَّهِ**﴾ وذكر ابن باز فى رسالته «الدعوة إلى الله» قول الله عزوجل أيضاً: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ**﴾ وقال: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ**﴾ أى إلى لا إله إلا الله كما ذكره الطبرانى فى كتاب «الدعاء»[1].

---

(١) أخرجه الطبرانى فى «الدعاء» (١٥٤٩) من قول عكرمة.

وقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾.

وفى حديث ابن عباس يقول النبى ﷺ: «**ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله**»[1]. إلى الإسلام بوجه عام.

كما قال لعلي: «**انفذ على رسلك وادعهم إلى الإسلام**» أى الإسلام الشمولى وليس إلى جزء بل إلى الإسلام كله الإسلام بضع وسبعون شعبة[2] فندعو إلى أعلاها وندعوا إلى أدناها، بل ندعوا إلى أدناها كما ندعوا إلى أعلاها، فلاندعوا إلى الجهاد ونترك السواك مثلاً «**فأعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى من الطريق**».

والناس فى هذا طرفان ووسط: فى الدعوة إلى الإسلام وإلى الله فمنهم من يدعو إلى «الشعب العليا» والآخر يدعو إلى «الشعب الدنيا».

وطوائف تدعو إلى الجهاد وتحرير المسجد الأقصى وإلى توحيد صفوف المسلمين وهذا طيب ولكن للأسف يحقروا من يدعوا إلى الشعب الأخرى التى هى فى نظرهم أقل أهمية من الجهاد بالنظر إلى الجهاد كمن يدعو إلى الصوم والزكاة والسمت الصالح واللحية والسواك وإماطة الأذى.

والنبى ﷺ هو الذى قال إماطة الأذى من شعب الإيمان والذى أمرك بهذا أمرك بهذا ««**فلاتحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلق أخاك بوجه طلق**»[3]. فالمقصود أن الناس فى هذا الأمر كغيره من الأمور طرفان ووسط

(١) طرف يحصر دعوته فى هذه الشعب العليا ويحقر من يدعو إلى هذه الشعب الدنيا.

(٢) وطرف آخر: يحقر الشعب العليا ويدعو إلى الشعب الدنيا ويقول الناس يحتاجون إلى كذا وكذا من الأمور الفقهية أو الأخلاقية أو التربوية. ولأتهكم بمن يدعو إلى الشعب الدنيا كما لم يتهكم خالد ابن الوليد بأبى هريرة المحدث ولم يتهكم أبوهريرة بخالد المجاهد.

نقول هذا طيب وهذا طيب لكن لانتهكم بمن يدعوا إلى ذروة سنام الإسلام والشعب العليا فيه.

---

(١) تقدم في أول حديث في الباب.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٩)، ومسلم في الإيمان (٢/ ٣ ـ النووي) عن أبي هريرة به. وانظر «رياض الصالحين» (١٢٧ ـ بتخريجنا).

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم في البر والصلة (١٦/ ١٧٧ ـ النووي) عن أبي ذر. وانظر «رياض الصالحين» (١٢٢ ـ بتخريجنا).

(٣) **والوسط أن ندعو** إلى هذا وذاك طالما أننا ندعوا إلى الإسلام كما فى هذا الحديث الذى بين أيدينا فى كتاب التوحيد وندعو إلى الإسلام كافة لكن بالتدرج والمرحلية.

قال الله عزوجل: ﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ فالربانى هو الذى يربى الناس بصغار العلم قبل كباره.

ولكن إذا كانت هذه المرحلة هى مرحلة الشعب الدنيا، فلا نكفر أو نفسق من يدعو إلى الشعب العليا بل نضعها فى خطتنا أيضا ذلك لأن مرحلة الشعب الدنيا، ما هى إلا تمهيد لهذه المرحلة الشعب العليا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.

فأنت تأمر الناس أن يدخلوا فى الإسلام كافة فلابد وأن تدعوهم إلى الإسلام كافة، وإلا لو دعوتهم إلى جزئية كأن تقول خذوا هذه الجزئية فقط فقد خالفت السنة فى الدعوة ولهذا قال ﷺ لعلى: «**ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم** بما عليهم من حق الله تعالى فيه.

وكذا قال لمعاذ: «**ادعهم إلى الإسلام**» لكن بتدرج ومرحلية.

قال ابن باز(*): شمولية الإسلام:

الإسلام: عبادة وقيادة. دين ودولة، وعبادة وجهاد ومصحف وسيف وعبادة وسياسة، واجتماع واقتصاد.

فكما تدعو إلى العبادة تدعو إلى توحيد الله وتدعوا إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتدعو إلى الجهاد، وتدعو إلى تحكيم شرع الله.

وتدعوا إلى الاقتصاد الإسلامى، لا الاقتصاد الرأسمالى الغربى، الرأى يقوم على عبادة المال والدرهم والدينار من أجله يرابى ويزانى ويعاهر والغاية تبرر الوسيلة، فإذا كانت الغاية هى جمع المال فلاتسأل عن الوسيلة من حلال أم حرام هذه هى الرأسمالية فلا مانع من الإتجار باللحوم البيضاء أو الحمراء طالما أنها أربح التجارات فى العالم.

فالإسلام الحسنة بين السيئتين اقتصاد رأسمالى غربى واقتصاد شيوعى شرقى وهو الذى لايحترم أموال الناس ويأخذها بغير وجه حق ويسلبهم أموالهم بدعوى الإشتراكية أما الإسلام فلم يمنعك من التجارة والكسب الحلال من الطرق المشروعة وقال الله تعالى:

(*) راجع في ذلك: «رسالة الدعوة إلى الله» للشيخ ابن باز بتصرف.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾.

وقال ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه**»(١).

وحرم الظلم بوجه عام وحرم الغرر فى المعاملات والغش وهذه هى وسطية الاقتصاد الإسلامي.

وأيضا تجب عليك فى بعض الأوقات أن تدعو إلى هذا أيضا فتدعو إلى الاجتماع الإسلامى وليس الاجتماع الغربى والأوربي.

وأحكام المعاملات بين الأخ وأخيه والشقيق وشقيقه، والابن وأبيه والأبناء وأمهم، وصلة الأرحام.

وهل هناك علم اجتماع أنفع من هذا العلم. ادع إلى الاجتماع الإسلامي.

ادع إلى التآخى الإسلامى ، ادع إلى التآخى والأخوة الإيمانية، ونبذ الفرقة وما يترتب على الفرقة لذلك كانت الدعوة إلى الله وإلى سبيله وإلى الإسلام، دعوة شمولية، ولم تكن دعوة حزبية مذهبية طائفية.

خلاصة هذه الوسطية فى نقاط:

(١) ادعوا إلى الله لا إلى حزب ولا إلى جماعة ولا شيخ ولا مذهب.

فكثيراً من يدعو إلى الله يظن هذا فى نفسه، لكن فى الحقيقة هو يدعو إلى نفسه يدعو ليقال فلان مثلاً شيخ الإسلام أو علاَّمة الزمان أو ترجمان القرآن أو حسنة الدنيا أو هو بارع فى التوحيد وهو حريص على ذلك، هذا لم يدعو إلى الله حتى لو كانت دروسه توحيد بل يدعو إلى نفسه.

تدعو الناس على مذهب معين أو آراء شيخ معين، توالى عليه، وتعادى عليه.

هذه ليست دعوة إلى نفسك لكن إلى غير الله.

لكن دعوتنا إلى الإسلام توالىَ عليه وتعادى عليه.

(٢) تدعو إلى الإسلام دعوة شمولية ليس التوحيد فقط، ولكن التوحيد ومقتضياته.

(٣) على الداعى إلى الله أن يأخذ بالحق وأن يتبع الحق إذا ظهر دليله ولو خالف فلاناً أو فلاناً.

---

(١) تقدم تخرجه

(٤) عدم التقليد الأعمى وسيأتى مزيد بحث فى التقليد فى الباب الثامن والثلاثين.

(٥) الرفق بالمخالف وعدم التشنيع على الآخر بالمرجوح طالما لم يخرج به عن دائرة أهل السنة كما سبق فى حديث السبعين ألف.

قوله (فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً إلخ) قال ابن حجر[١]: يؤخذ منه أن تألف الكافر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله.

قال سليمان آل الشيخ[٢]: **قوله: «فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»**. «أن»: هى المصدرية، واللام قبلها مفتوحة، لأنها لام القسم، وأن ومدخولها مسبوق بمصدر مرفوع على أنه مبتدأ خبره خير.

[قلت]: وفيه جواز القسم بغير استحلاف، لبيان عظم الأمر والتأكيد على وقوعه، والله المستعان.

قال ابن عثيمين[٣]: **قوله: «لأن يهدى الله»**

اللام واقعة فى جواب القسم، وأن بفتح الهمزة مصدرية، ويهدي. مؤول بالمصدر مبتدأ، و«خير»: خبر، ونظيرها قوله تعالى: ﴿**وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾[٤].

قوله: (حمر النعم) قال ابن حجر[١]: بسكون الميم من حمر وفتح النون والعين المهملة وهو من ألوان الإبل المحمودة، قيل المراد خير لك من أن تكون لك فتتصدق بها، وقيل تقتنيها وتملكها، وكانت مما تتفاخر العرب بها.

مواقف من شجاعة على ابن أبى طالب وأسباب فتح الله على يديه

وذكر ابن إسحق من حديث أبى رافع قال: «خرجنا مع على حين بعثه رسول الله ﷺ برايته فضربه رجل من يهود فطرح ترسه، فتناول على بابًا كان عند الحصن فتترس به عن نفسه حتى فتح الله عليه، فلقد رأيتنى أنا فى سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه[٥]، وللحاكم من حديث جابر «أن عليًا حمل الباب يوم خيبر، وأنه جرب بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلاً»[٦] والجمع بينهما أن السبعة عالجوا قلبه،

---

(١) فتح الباري (٧/ ٥٤٦- ٥٤٧).

(٢) تيسير العزيز الحميد (١٠٠).

(٣) القول المفيد (١/ ١٧١، ١٧٢).

(٤) البقرة آية/ ١٨٤.

(٥) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٤/ ٢١٢) من طريق ابن إسحاق عن بعض أهله.

(٦) أخرجه البيهقي في المصدر السابق بإسناد ضعيف.

والأربعين عالجوا حمله، والفرق بين الأمرين ظاهر ، ولو لم يكن إلا باختلاف حال الأبطال وزاد مسلم فى حديث إياس ابن سلمة عن أبيه «وخرج مرحب فقال: قد علمت خيبر أنى مرحب، الأبيات، فقال علي: أنا الذى سمتنى أمى حيدرة» الأبيات. «فضرب رأس مرحب فقتله» فكان الفتح على يديه»[١] وكذا فى حديث بريدة الذى أشرت إليه قبل وخالف ذلك أهل السير فجزم ابن إسحق وموسى بن عقبة والواقدى بأن الذى قتل مرحبًا هو محمد بن مسلمة، وكذا روى أحمد بإسناد حسن عن جابر[٢]، وقيل محمد بن مسلمة كان بارزه فقطع رجليه فأجهز عليه علي[٣]، وقيل إن الذى قتله هو الحارث أخو مرحب فاشتبهوا على بعض الرواة، فإن لم يكن كذلك وإلا فما فى الصحيح مقدم على ما سواه، ولا سيما وقد جاء من حديث بريدة أيضًا، وكان اسم الحصن الذى فتحه على القموص وهو من أعظم حصونهم، ومنه سبيت صفية بنت حيي، والله أعلم.

وقال سليمان آل الشيخ [٤]بنحو كلام ابن حجر: وحمر بضم المهملة وسكون الميم، والنعم بفتح النون والعين المهملة، أي: خير لك من الإبل الحمر، وهى أنفس أموال العرب، يضربون بها المثل فى نفاسة الشيء، قيل: المراد خير من أن تكون لك فتتصدق بها، وقيل تقتنيها وتملكها.

قلت: هذا هو الأظهر، والأول لا دليل عليه، أى أنكم تحبون متاع الدنيا، وهذا خير منه.

قال النووي: وتشبيه أمور الآخرة بأمور الدنيا إنما هو للتقريب إلى الأفهام، وإلا فذرة من الآخرة خير من الأرض بأسرها، وأمثالها معها. وفيه فضيلة الدعوة إلى الله، وفضيلة من اهتدى على يديه رجل واحد، وجواز الحلف على الفتيا والقضاء والخبر، والحلف من غير استحلاف.

قال ابن عثيمين[٥]: قوله: «حمر النعم».

بتسكين الميم: جمع أحمر، وبالضم: جمع حمار، والمراد الأول.

وحمر النعم: هى الإبل الحمراء، وذكرها لأنَّها مرغوبة عند العرب، وهى أحسن وأنفس ما يكون من الإبل عندهم.

---

(١) تقدم تخريجه. وأنظر شرحنا لزا المعاد»

(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٤/ ٢١٥).

(٣) ذكره البيهقي في «الدلائل» (٤/ ٢١٦) عن الواقدي. وانظر «شرحنا لزاد المعاد»

(٤) تيسير العزيز الحميد (١٠٠).

(٥) القول المفيد (١/ ١٧١, ١٧٢).

وقوله: «**لأن يهدى الله بك**»، ولم يقل: لأن تهدي؛ لأن الذى يهدى هو الله.

قال ابن باز: والمعنى أى خير لك من الإبل الثمينة [**قلت:**] والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، أى أن هذا اللفظ عام وليس بخاص، والله أعلم.

ثم قال: وفيه بيان أهمية الدعوة وتعليم الناس، فإن أبوا قوتلوا ليكف شرهم، ولايكون عقبة فى طريق غيرهم إلى الإسلام ويستعان بهم وبأموالهم فى سبيل الله، . . . اهـ.

والمراد بالهداية هنا هداية التوفيق والدلالة.

وهل المراد الهداية من الكفر إلى الإسلام، أو يعم كل هداية؟

نقول: هو موجه إلى قوم يدعوهم إلى الإسلام.

وهل نقول: إن القرينة الحالية تقتضى التخصيص، وأنَّ من اهتدى على يديه رجل فى مسألة فرعية من مسائل الدين لا يحصل له هذا الثواب بقرينة المقام؛ لأن عليًا موجه إلى قوم كفَّار يدعوهم إلى الإسلام، والله أعلم. اهـ.

● فضائل أخرى للدعوة والداعى خلاف ما تقدم

ذكر ابن باز بعض هذه الفضائل، منها:

(١) قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾.

وتقدم قول الحسن البصرى: هذا ولى الله هذا حبيب الله هذا خيرة الله فى أرضه، استجاب إلى الله ودعا الناس فيما استجاب إلى الله فيه وعمل صالحًا فى هذه الاستجابة. فهو استجاب تلبية لقول الله: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ**﴾ الآية.

فهو استجاب ودعا ليس ذلك فقط بل استجاب ودعا وعمل صالحًا كأنما دعا الناس إليه. وهذا أيضًا امتثال لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ..**﴾ ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ**﴾ فهو استجاب ودعا ولم ينس نفسه وعمل صالحًا وقال أننى من المسلمين بلسان حاله لا بلسان مقاله.

(٢) ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ فالخيرية فينا بسبب الدعوة فالفلاح فى الدعوة إلى الله.

(٣) إنها سبيل محمد. والداعى إلى سبيل محـمد على بصيرة هو من اتباعه فهو من أحق الناس أن ينـسب إلى النبيﷺ لكن غيـره ربما نُسب لكن نسبة ادعـاء ولـم ينسب حقيقة إليه.

فهذا بعض فضائل من دعا إلى الله بأدلة القرآن، وأما من السنة:

(١) من دعا إلى هدى كان له مثل أجور من تبعه ـ إلى يوم القيامة ـ لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة عليه من الوزر مثل آثام من تبعه ـ إلى يوم القيامة ـ لا ينقص ذلك من اثامهم شيئاً أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة[(١)].

(٢) من دل على خير فلـه مثل أجر فاعله[(٢)] (الدال على الخير كفاعله). والحديث له قصة.

(٣) «فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خيرلك من حمر النعم».

ففيه ثواب أخروى تقـريبه بثواب دنيوى للتقريب، وإلا فالـذى فى الآخرة لا يعدلها الدنيا وما فيها أخرجاه عن سهل بن سعد.

(٤) وعند التـرمذى عن ابن مسعود قـال: قال رسول الله «نضر الله امرأ سـمع منا شيئاً فبلـغه كما سمعه، فرب مبلـغ أوعى من سامع»[(٣)] وقال الترمذي: حـديث حسن صحيح. وفى الحديث أيضاً: «نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعـاها فاداها كما سمعها»[(٤)] أخرجه ابن عبد البر، وهو فى شعب الإيمان للبيهقي.

(٥) ما تصـدق مؤمن بصدقة أحـب إلى الله عز وجل من مـوعظة يعظ بهـا قومه، فيفترقون وقد نفعهم الله عزوجل بها. من كلام أبى الدرداء ذكرناه فى كتابنا فقه الخطابة وأصله فى الترغيب والترهيب)[(٥)].

---

(١) [صحيح]مسلم في العلم (١٦/ ٢٢٧ ـ النووي). وأنظر كتابي فقه الخطابة وانظر «رياض الصالحين (١/ ١٧ ـ بتخريجنا).

(٢) [صحيح] مسلم في الإمارة (٣/ ١٣٨).

وانظر «رياض الصالحين» في الموضع السابق بتخريجنا. وأيضاً «كتابنا فقه الخطابة»

(٣) أخرجه أحمـد في «مسنده» (١/ ٣٤٧)، والتـرمذي (٢٦٥٧)، وابن ماجة (٢٣٢) عن ابـن مسعود وانظر «رياض الصالحين» (١٣٩٢ ـ بتخريجنا).

(٤) أخرجه ابن عبـدالبر في «جامع بيان الـعلم» (١/ ٣٩) عن زيد بن ثابت بـه وانظر الشعب للبـيهقي (١٧٣٦).

(٥) له شواهد في معناه ذكرها ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٢١ ـ ٢٧) وانظر كتابنا «فقه الخطابة» ص٣٤. الضبعة الثانية.

(٦) هى خير ما ينفع المسلم فى حياته وبعد مماته.

لحديث أبى هريرة عند مسلم (**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث .... علم ينتفع به**»[١]. وفى بعض الطرق علم علمه أو نشره. فهذا يجرى عليه أجره بعد موته.

(٧) من دعا إلى الله وهو يحرص على هداية الناس وعلى صلاحهم فلعل الله أن يجازيه بجزاء من جنس عمله، فيهديه ببركة حرصه على هداية الناس ويصلح من شأنه ببركة ذلك.

(٨) بركة الدعوة وفضل الدعوة : أفضل فضائل الدعوة البركة التى يجدها الداعى على نفسه وصحته وعافيته ووقته وأولاده وأهله.

وأعظم الثمرة وأعظم الفضل الذى يلمسه الداعى نفسه فالداعى هو المستفيد الأول، بهذه الدعوة، يجد من البركة والخير فى رزقه، ووقته ما لا يجده غيره، ويفهم فى الوقت القليل - إذا بورك له ببركة دعوته فى عقله - يفهم مالا يفهمه غيره فى قرون لأن الله تعالى يقول : ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً**﴾.

قال ابن تيمية فى مؤدى ما قال إنه باستقراء الأمم أهل السنة تجدهم أسد وأحد عقلاً من غيرهم وأنهم ينالون من العلوم فى الفترة القليلة ما يناله غيرهم فى قرون وهذا الثبات وهذه الحجة الجيدة فى العقل ببركة دعوتهم وببركة أنهم فعلوا ما يوعظون به، أمروا بالدعوة فدعوا، وأمروا بالعمل بما دعوا إليه فعملوا، وأمروا بالاستجابة فاستجابوا.

فإن الله عز وجل يبارك للرجل والمرأة فى عافيته ببركة الذكر فقط فما الظن بالذكر مع الدعوة.

ففى الصحيح حين جاءت فاطمة وسألت رسول الله ﷺ أن يعطيها خادماً فقال: ليس لك عندى خادم، وقال: «**ألا أدلكما على خير مما سألتمانى؟ إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا !؟ أربعاً وثلاثين وأحمدا ثلاثاً وثلاثين وسبحا الله ثلاثًا وثلاثين**»[٢].

قال ابن حجر: وفيه أن ذكر الله معين للمرأة على عمل البيت وهو أفضل لها من خادم.

---

(١)[صحيح] أخرجه مسلم في الوصية (١١/ ٨٥ - النووي) عن أبي هريرة.
وانظر «رياض الصالحين» (٩٥١ - بتخريجنا). وانظر «كتابنا فقه الخطابة»

(٢) [تفق عليه] أخرجه البخاري (٣١١٣)، ومسلم في الذكر والدعاء (١٧/ ٤٥ - النووي) عن علي
وانظر «رياض الصالحين» (١٤٦٢ - بتخريجنا).

انظر إلى حال الداعى الذى تفرغ لدعوته، انظر إليه فى أهله وبيته، وانظر إلى حال الآخر الذى أخلد إلى الأرض وقال احبس هذا الوقت مع أولادى فأذاكر لهم أو اصنع لهم كذا وكذا من الأشياء المشروعة فنجد مصداق الحديث القدسى إن صح:

«**يا دنيا من خدمك فاستخدميه ومن خدمنى فاخدميه**». ويشهد لمعناه ماثبت فى الطبرانى وغيره «**من أصبح والدنيا أكبر همه فرق الله شمله وجعل فقره بين عينيه، ولم يؤته من الدنيا إلا ما كتب له**»[1].

فلما تفرغ الداعى لله وللدعوة إليه لإرشاد الناس إلى ربهم خدمته الدنيا، والناس تسعى إليه لخدمته، لتحفيظ أبناءه.

ويأتى ناس تساعد زوجته فى تنظيف منزله بل ويأتى آخر يوصله إلى الدروس وغيره وآخر يريد بل يتمنى أن يخدمه.. كذا.

فى حين الآخر الذى تفرغ لأبنائه تأتيه المشاكل من كل حدب وصوب لا تنتهي، والأبناء لا تفهم وينتهى من هذه المشكلة يدخل فى أخرى. وهو مخطئ لأنه فرغ نفسه لهم.

فإن الداعى يخلفه الله فى بيته وأبناءه لا يكونوا غير مهذبين، ولا متبرجات ولا يشربون المخدرات.

نعمة الله على الداعى لاتحصى ثم لا تحصى ثم لا تحصى.

العاجلة قبل الآجلة. فأنت بالخيار إما أن تنزل لهذه الدركات وإما أن تتعرض لهذه البركات تتحرك لهذه النفحات. عسى الله أن يفيض عليك منها أو يصيبك شيء منها.

● **زيادة على رواية المصنف:**

فى رواية للبخاري: **(فأعطاها ففتح عليه)**

قال ابن حجر[2]: فى حديث سهل «فأعطاها الراية» وفى حديث أبى سعيد عند أحمد «فانطلق حتى فتح الله عليه خيبر وفدك وجاء بعجوتها»[3].

وقد اختلف فى فتح خيبر هل كان عنوة أو صلحًا.

وفى حديث عبد العزيز بن صهيب عن أنس[4] التصريح بأنه كان عنوة وبه جزم ابن عبد البر، ورد على من قال: فتحت صلحًا.

---

(١) انظر مجمع الزوائد (١/ ٢٤٨) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، وانظر كتابي «فقه الخطابة» (٢/ ٦١٥) في خطبة القول الملهم في أسباب وعلاج الهم.

(٢) فتح الباري (٧/ ٥٤٥، ٥٤٦).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٦).

(٤)[متفق عليه] أخرجه البخاري (٤٢٠١)، ومسلم في النكاح (٥/ ٢٣٥/ ٨٤).

فيهِ مَسائِلُ

الأولى: أنَ الدَّعْوَةَ إلَى الله طَريق مِنِ اتَّبعَ رَسُولَ الله ﷺ.

قال: وإنما دخلت الشبهة على من قال فتحت صلحًا بالحصنين اللذين أسلمهما أهلهما لحقن دمائهم، وهو ضرب من الصلح لكن لم يقع ذلك إلا بحصار وقتال انتهى.

والذى يظهر أن الشبهة فى ذلك قول ابن عمر «أن النبى ﷺ قاتل أهل خيبر فغلب على النخل، وألجأهم إلى القصر فصالحوه على أن يجلو منها وله الصفراء والبيضاء والحلقة ولهم ما حملت ركابهم على أن لا يكتموا ولا يغيبوا» الحديث وفى آخره «فسبى نساءهم وذراريهم، وقسم أموالهم للنكث الذى نكثوا، وأراد أن يجليهم فقالوا: دعنا فى هذه الأرض نصلحها»(١) الحديث أخرجه أبو داود والبيهقى وغيرهما.

وكذلك أخرجه أبو الأسود فى المغازى عن عروة.

فعلى هذا كان قد وقع الصلح ، ثم حدث النقض منهم فزال أثر الصلح ، ثم من عليهم بترك القتل وإبقائهم عمالاً بالأرض ليس لهم فيها ملك، ولذلك أجلاهم عمر، فلو كانوا صولحوا على أرضهم لم يجلوا منها والله أعلم.

واحتج الطحاوى على أن بعضها فتح صلحًا بما أخرجه هو وأبو داود من طريق بشير ابن يسار «أن النبى ﷺ لما قسم خيبر عزل نصفها لنوائبه وقسم نصفها بين المسلمين» وهو حديث اختلف فى وصله وإرساله ، وهو ظاهر فى أن بعضها فتح صلحًا، والله أعلم.

●●●

فيه مسائل:

● **الأولى: أن الدعوة إلى الله طريق من اتبع رسول الله ﷺ.**

وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ والأشمل من ذلك والأبلغ فى مطابقة الآية أن يقال: إن الدعوة إلى الله طريق الرسل وأتباعهم.

---

(١) أخرجه أبوداود (٣٠٠٦) عن ابن عمر به.

الثانية: التَّنْبيــه عَلَى الإخْلاصِ، لأنَّ كَثِيــراً مِنَ النَّاسِ لَوْ دَعَا إِلَى الحَقِّ، فَهُوَ يَدْعُو إِلَى نَفْسِه.

الثالثة: أَنَّ البَصِيرَةَ مِنَ الفَرَائِضِ.

الرابعة: مِنْ دَلائِلِ حُسْنِ التَّوْحِيدِ كَوْنُهُ تَنْزِيهًا لله تَعَالَى عَنِ المَسَبَّةِ.

● **الثانية: التنبيه على الإخلاص.**

وتؤخذ من قوله: ﴿**أَدْعُو إِلَى اللَّهِ**﴾ ، ولهذا قال: «**لأن كثيـراً من الناس لو دعا إلى الحق، فهو يدعـو إلى نفسه**»؛ فـالذى يدعـو إلى الله هو الذى لا يريد إلا أن يقـوم دين الله، والذى يدعـو إلى نفسه هـو الذى يريد أن يكون قوله هو المقـبول، حـقًا كان أم باطلاً.

● **الثالثة: أن البصيرة من الفرائض.**

وتؤخـذ من قوله تعـالى: ﴿**أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيــرَةٍ**﴾ ووجه كـون البصـيرة من الفرائض؛ لأنه لابـد للداعية من العلم بما يـدعو إليه، والدعـوة فريضة، فـيكون العلم بذلك فريضة.

قلت: لأنه ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب فالعلم والبصيرة اللازمة للدعوة فرض وواجب لأنه لا تتم الدعوة إلا به.

● **الرابعة: من دلائل حسن التوحيد كونه تنزيهًا لله عن المسبة.**

قلت: وفيه الحديث القدسي: «**يسبنى ابن آدم ويشـتمنى فمن شتمـه لى أن جعل لى ولد ومن سبه لى قال أيعيدنى بعد أن أكون عظامًا**»(١).

ويؤخذ من قوله تعالى : ﴿**سُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ فسبحان الله دليل على أنه واحد لكماله.

ومـعنى عن المسبّة ، أي: وعن مماثلـة الخالق للمـخلوق، إذ تمثـيل الكامل بالناقص يجعله ناقصًا.

قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره ... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

---

(١) [صحيح] أخرجه البخاري (٣١٩٣) عن أبي هريرة به.

الخامسة: أَنَّ مِنْ قُبحِ الشِّرْكِ كَوْنُهُ مَسَبَّةً لله

السادسة: وَهِيَ مِنْ أَهَمِّهَا: إِبْعَادُ المُسْلِمِ عَنِ المُشْرِكِينَ، لِئَلاَّ يَصِيرَ مِنْهُم وَلَوْ لَمْ يُشْرِك.

السابعة: كَوْنُ التَّوْحِيدِ أَوَّلَ وَاجِب.

● **الخامسة: أن من قبح الشرك كونه مسبّة لله.**

وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بعد قوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾.

● **السادسة - وهى من أهمها: إبعاد المسلم عن المشركين؛ لئلا يصير منهم، ولو لم يشرك.**

لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ولم يقل: «وما أنا مشرك» لأنَّه إذا كان بينهم، ولو لم يكن مشركًا، فهو فى ظاهره منهم، ولهذا لما قال الله للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾؛ توجّه الخطاب له ولهم.

● **السابعة: كون التوحيد أول واجب.**

تؤخذ من قوله ﷺ: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله**»، وفى رواية: «**أن يوحدوا الله**».

وقال بعض العلماء: أول واجب النظر، لكن الصواب أن أول واجب هو التوحيد، لأنَّ معرفة الخالق دلت عليها الفطرة. اهـ.

[قلت]: وهذه المسألة فيها: رد على بعض المتكلمين أو على أشباههم الذين فى دائرة أهل السنة فى أنهم قالوا أول واجب هو النظر فى دلائل التوحيد ثم بعد ذلك يوحد. وبعضهم قال لا يقبل توحيد للعامى المقلد لأنه لايوحد إلا بالنظر فى الأدلة، وهذا كلام المعتزلة أو بعض من ينتسب إلى أهل السنة ممن كانوا شابهوا المعتزلة أو كانوا منهم ولعل بعضهم يسلك هذا المسلك وهو التكفير كانوا زماناً يعتبرون الإنسان غير موحد إلا إذا تعلم التوحيد بأدلته على أيديهم ويشرحوا كتاب كذا بحيث بعد ذلك يحكموا عليك بالإسلام فلا يحكموا لك بالإسلام إلا بعد التعلم وكأنهم شابهوا من قال بالنظر فى الأدلة فيما بينهم والجواب عليهم من هذا الحديث: أن النبى ﷺ لم يوجب على هؤلاء ولا على غيرهم النظر أولاً فى الأدلة للتوحيد، ثم يوحدوا بل إنه دعا الأميين ودعا

الثامنة: أَنَّهُ يُبْدَأُ بِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى الصَّلاة.

التاسعة: أنَّ مَعْنَى «أَنْ يُوَحِّدُوا الله» مَعْنَى شَهَادةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله.

الكتابيين إلى التوحيد أولاً لا بالنظر فى أدلته ثم بعد ذلك يوحدوا **«فليكن أول ما تدعوهم إليه هو شهادة أن لا إله إلا الله فإذا وحدوا الله أو فإذا عرفوا الله»**.

لا إلى النظر فى الأدلة بل الشهادة، فيقروا بها أولاً ثم يأتيهم التفصيل والبيان شيئًا فشيئًا ولأن التوحيد توحيد الربوبية ومعرفة الخالق دلت عليه الفطرة.

قال تعالى: **﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾**

وفى صحيح مسلم: **«إنى خلقت عبادى حنفاء»**(١).

وفى الصحيح: **«كل مولود يولد على الفطرة..»**(٢).

فهى مسألة فطرية، وداعى الفطرة فيك يوافق هذه الفطرة المعينة للداعى الذى يدعوك إلى التوحيد قبل عرض الأدلة والحاصل أنه لا مانع من عرض الأدلة لكن لا تكون ابتداء لكى يوحد فى آخر الأمر بل يعرض عليه الإسلام ليقبله جملة وغيبًا ثم يبحث عن الأدلة إن وصل إليها وآمن بها فبها ونعمت.

وإن ارتد فهو مرتد.

ولو كان النظر فى الأدلة واجب ولا يقبل توحيد العامى لكان النبى ﷺ أقر خالد ابن الوليد لما قتل من قال لا إله إلا الله رغم وجود قرينة أنه قالها خشية من السيف ولم يقل لم يكن عنده أدلة، أو أنه لم يفهم معناها أو مقتضياتها ولم يقره على ذلك، بل عاتبه فى ذلك، وقد تقدم هذا الكلام بالتفصيل.

● **الثامنة: أن يُبدأ به قبل كل شيء.**

تؤخذ من قوله ﷺ : **«ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه» «فإن هم أطاعوك فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة»**.

● **التاسعة: أنَّ معنى أن يوحِّدوا الله معنى شهادة أن لا إله إلا الله.**

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم (٢٨٦٥) عن عياض بن حمار.
وانظر كتابنا «فتح ذي الجلال في تخريج أحاديث الظلال» (٤٠٦).
(٢) تقدم تخريجه.

العاشرة: أَنَّ الإِنْسَانَ قَدْ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الكتـابِ وَهُوَ لاَ يَعْرِفُهَا أَو يَعْرِفُها وَلا يَعْمَلُ بِهَا.

الحادية عشرة: التَّنْبِيهُ عَلَى التَعْلِيم بِالتَّدْرِيجِ.

الثانية عشرة: البَدَاءَةُ بِالأَهَمّ فَالأَهَمِّ.

الثالثة عشرة: مَصْرِفُ الزَّكَاة.

الرابعة عشرة: كَشْفُ العَالِم الشُّبْهَةَ عَنِ المُتَعَلِّم.

تؤخذ من تعـبير الصحـابى حيث عبَّر فى رواية بقوله: «شـهادة أن لا إله إلا الله» وفى رواية عبَّر بقوله: «أن يوحدوا الله».

● **العاشرة: أنَّ الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها أو يعرفها ولا يعمل بها.**

ومراده بقوله: «لا يعـرفها، أو يعرفها» شهـادة أن لا إله إلا الله، وتؤخذ من قوله: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**»، إذ لو كانوا يعرفون لا إله إلا الله، ويعملون بها ما احتاجوا إلى الدعوة إليها.

● **الحادية عشرة: التنبيه على التعليم بالتدريج.**

تؤخذ من قـوله ﷺ لمعاذ: «**ادعـهم إلى أن يوحـدوا الله، فـإن هم أطاعـوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم ...**» إلخ الحديث.

[قلت] وأيضًا امتثـالاً لقوله تعالى: ﴿ **وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنـتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ** ﴾.

● **الثانية عشرة : البدء بالأهم فالأهم.**

تؤخذ من أمرهﷺ معاذًا بالتوحيد ليدعو إليه أولاً، ثم الصلاة، ثم الزكاة.

● **الثالثة عشرة: مصرف الزكاة.**

تؤخذ من قوله: «**فترد على فقرائهم**».

● **الرابعة عشرة: كشف العالم الشبهة عن المتعلم.**

المراد بالشبهة هنا: شبهة العلم، أي: يكون عنده جهل.

الخامسة عشرة: النَّهْيُ عَنْ كَرَائِمِ الأَمْوَالِ.

السادسة عشرة: اتِّقَاءُ دَعْوَةِ المَظْلُومِ.

السابعة عشرة: الإِخْبَارُ بِأَنَّهَا لاَ تُحْجَبُ.

تؤخذ من قوله: «**إن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**».

فبيَّن أنَّ هذه الصدقة تؤخذ من الأغنياء، وأنَّ مصرفها الفقراء.

[قلت] لماذا اختار ابن عثيمين أن المصنف قصد ذلك وهو آخذ هذه الفوائد من الحديث جزء جزء.

فقال له خذ صدقة من الأغنياء ترد على الفقراء ثم قال له إياك وكرائم أموالهم فبقى إما أن نقول إن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم ترد على فقرائهم فكشف الشبهة عنه أنه أعلمه بمصرف من مصارف الزكاة.

أو إما أن نقول أنه ينهاه عن أخذ الصدقة عن كرائم الأموال.

لأن هذه الكرائم تدخل فى أموالهم فقد يظن أن الأمر عام يشمل جميع الأموال فقال له: إن الأمر يشمل الأموال التى ليس من كرائم الأموال فإما أن تكون الشبهة هى هذه أو أنه بين له مصرف من مصارف الزكاة. لكن الأقرب أن تكون الشبهة فى كرائم الأموال، والله أعلم.

- **الخامسة عشرة: النهى عن كرائم الأموال.**

تؤخذ من قوله: «**فإياك وكرائم أموالهم**»، إذ إياك تفيد التحذير، والتحذير يستلزم النهي.

- **السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم.**

تؤخذ من قوله: «**واتق دعوة المظلوم**».

- **السابعة عشرة: الإخبار بأنَّها لا تُحجب.**

تؤخذ من قوله: «**فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**» فقرن الترغيب أو الترهيب بالأحكام، مما يحث النفس إن كان ترغيبًا، ويبعدها ويزجرها إن كان ترهيبًا، لقوله: «**اتق دعوة المظلوم**» فالنفس قد لا تتقي، لكن إذا قيل: ليس بينها وبين الله حجاب، خافت ونفرت من ذلك.

الثامنة عشرة: مِنْ أَدلَّة التَّوحِيد مَا جرَى علَى سيِّد المُرْسَلِينَ وَسَادَاتِ الأَوْلِيَاءِ مِنْ المَشَقَّةِ وَالجُوعِ وَالوبَاءِ.

التاسعة عشرة: قَوْلُهُ: «لأُعطِيَنَّ الرَّايَةَ..» إلخ: عَلَمٌ مِنْ أعْلاَمِ النُّبُوَّةِ.

● **الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء.**

والظاهر أن المؤلف رحمه الله يريد الإشارة إلى قصة خيبر، إذ وقع فيها فى عهد النبيﷺ جوع عظيم، حتى إنهم أكلوا الحمير والثوم، وأمَّا الوباء، فهو ما وقع فى عهد على رضى الله عنه، وأما المشقة، فظاهرة.

ووجه كون ذلك من أدلة التوحيد: أنَّ الصبر والتحمل فى مثل هذه الأمور يدل على إخلاص الإنسان فى توحيده وأن قصده الله، ولذلك صبر على البلاء. أهـ.

[قلت] : إن كان رجل منافق ـ نسأل الله العافية ـ يدعو لنفسه، فيريد أن المسجد يملأ والناس تصفق له، ويقال له يا شيخ فلان ويريد أن يذاع اسمه، ولا يدعو إلى الله فإنه إن أوذى وأكل الحمير والثوم كما حدث للصحابة من المشقة والجوع فى غزوة خيبر فإن حدث له مثل هذا، أو أصابه مرض أو تعب فعند ذلك يظهر نفاقه فى جزعه وعدم رضاه وعدم صبره لأنه لم يكن هذا العمل لله خالصاً إنما لحظ نفسه فلما لم يجد هذا الحظ ذهب جفاء مع الزبد وأما ما ينفع الناس فيمكث الأرض فهذا كان ظاهراً جدًا فى هذه الغزوة فإن كان هؤلاء الناس غير مخلصين فما الذى كان يصبرهم على ذلك وما الذى يجعلهم يحتملوا، لو أن أحدهم ذاهب يدعو لوجاهته وشرفه ويقال له يا شيخ فلان ولم يقال له ذلك، بل ضرب وأوذى وجاع. . ومع ذلك صبر واحتمل واحتسب وثبت حتى مرت هذه الفتنة والابتلاءات وهو صامد، والنبى ﷺ يقول: **«أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب»**(1). فإن كان يدعو لنفسه أو لغير الله، فما الذى يجعله يحتمل هذه المشقة، إن كان منافقًا فى مثل هذه المواقف، فصبره على المشقة والجوع والوباء هو والصحابة دليل على أنهم كانوا يدعون إلى الله ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ والله المستعان.

● **التاسعة عشرة: قوله: «لأعطين الراية» علم من أعلام النبوة.**

لأنَّ هذا حصل، فعلى بن أبى طالب يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله. اهـ.

---

(1) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٢/ ١١٧ ـ النووي) عن البراء به.

وانظر كتابنا «فتح ذي الجلال في تخريج أحاديث الظلال» (٥٣٤) وانظر «شرحنا لزاء المعاد».

[قلت] إن الله عز وجل يفتح بالغيب النسبى على من يشاء من الرسل كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ فالرسل هم الذين استثنوا فى الغيب والغيب النسبي.

فالغيب غيبان. . غيب مطلق وغيب نسبي.

والغيب المطلق هو الذى ذكره الله عز وجل فى قوله تعالي: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ هذه خالصة لله عز وجل كما قال ابن عمر مرفوعًا فى الصحيح: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله»(١).

حصر وقصر لهذه المفاتح على الله فقط فلا يطلع عليها لا ملك مقرب، ولا نبى مرسل والأدلة على ذلك واضحة وجليه أوضحتها فى خطبة ، « الترغيب فى الإيمان بالغيب»(٢) فالغيب النسبى هو الذى يفتح الله به على من يشاء من رسله تأييدًا له وتأييدًا لرسالته وإظهارًا لنبوته كما قال تعالى حكاية عن عيسى حينما كان يدعو بنى إسرائيل ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ﴾ فهذا غيب نسبى فتح الله به على من ارتضى من رسله . كعيسى،وكيوسف عليه السلام، قال: ﴿لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ بتأويله قبل أن تأتيكما، فهذا غيب نسبى وليس مطلق.

نعم أصحابه فى السجن لا يعرفونه، لكن من طبخه يعرفونه فهذا غيب نسبى يظهر لمن كان فى خارج السجن لمن كان يصنع الطعام ويغيب عن من فى داخل السجن ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾فالذى أخبر به الرسول ﷺ عن هذا الفتح كان غيباً من جنس الغيب الذى فتح الله به على عيسى ويوف والرسول ﷺ فتح عليه بهذا الغيب وقيل له أن عليًا سيفتح الله على يديه «فأخبر بذلك فكان الأمر كما أخبر فهذا علم من أعلام النبوة».

---

(١) [صحيح] أخرجه البخاري (٤٦٩٧) عن ابن عمر به.

(٢) انظر كتاب «فقه الخطابة وزاد الخطيب».

العشرون: تَفْلُهُ فى عَيْنَيْه عَلَمٌ من أَعْلامِهَا أيضاً.

الحادية والعشرون: فَضِيلَةُ عَلِىٍّ رَضِىَ الله عَنْهُ.

الثانية والعشرون: فَضْلُ الصَّحَابَةِ فِي دَوْكِهِم تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَشُغْلِهِمْ عَنْ بِشَارَةِ الفَتْحِ.

الثالثة والعشرون: الإيمَانُ بِالقَدَرِ لِحُصُولِهَا لِمَنْ لم يِسْعَ لَهَا ومَنْعِهَا عَمَّنْ سَعَى.

● **العشرون: تفله فى عينيه علم من أعلامها أيضًا.**

لأنه بصق فى عينيه، فبرأ كأن لم يكن به وجع.

● **الحادية والعشرون:** فضيلة على بن أبى طالب رضى الله عنه.

وهذا ظاهر؛ لأنَّه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

● **الثانية والعشرون: فضل الصحابة فى دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح.**

لأنهم انشغلوا عن بشارة الفتح بالتماسهم معرفة من يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

● **الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعى.**

لأنَّ الصحابة غدوا على رسول الله ﷺ مبكرين، كلهم يرجو أن يُعطاها ولم يعطوها، وعلى بن أبى طالب مريض ولم يسع لها، ومع ذلك أعطى الراية.

[قلت] «فلما أصْبحوا غدو على رسول الله » ولم يحضر على فقال **«أين على بن أبى طالب»** فلم يغدوا معهم، فهم آمنوا بالقدر... إلخ.

إلا أنه لم يسلم للمصنف ماذهب إليه بإطلاق.

فعلى بن أبى طالب وإن لم يغدوا كغدوهم إلا أنه سعى كسعيهم وأكثر وقد تقدم عند مسلم أنه كان مريضًا فله رخصة ورغم ذلك لم يتخلف وخرج مع رسول الله ﷺ إلى خيبر، فهنا سعى كسعيهم وأكثر، فتميز بهذه المزية لأنه سعى وهو معذور وهم ليسوا كذلك . والله المستعان.

الرابعة والعشرون: الأدَبُ فِي قَوْله:«عَلَى رِسْلكَ»

الخامسة والعشرون:الدَّعْوَةُ إلىَ الإسْلاَم قَبْلَ القتَال.

السادسة والعشرون: أَنَّهُ مَشْرُوعٌ لِمَنْ دُعوا قَبْلَ ذلكَ وَقُوتلُوا.

السابعة والعشرون: الدَّعْوَةُ بِالحِكْمَة لِقولِه: «أَخبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ».

الثامنة والعشرون: المَعْرفهُ بِحَقِّ الله في الإِسْلاَمِ.

التاسعة والعشرون: ثَوَابُ مَنِ اهْتَدَى عَلَى يَدَيْهِ رَجُلٌ وَاحِدٌ.

● **الرابعة والعشرون: الأدب فى قوله: «على رسلك».**

ووجهه : أنه أمره بالتمهل وعدم التسرع.

● **الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال.**

لقوله: **«انزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام».**

● **السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا.**

قلت: لأنه ﷺ أغار على بنى المصطلق حينما لم يسمع النداء ولم يدعهم أولاً لأنهم دعوا قبل ذلك(١).

● **السابعة والعشرون : الدعوة بالحكمة، لقوله: «أخبرهم بما يجب عليهم.**

لأن من الحكمـة أن تتم الدعوة، وذلك بـأن تأمره بالإسـلام أولاً، ثم تخبـره بما يجب عليه من حق الله، ولا يكفى أن تأمره بالإسـلام، لأنَّه قد يطبِّق هذا الإسلام الذى أمرته به وقد لا يطبقه، بل لابد من تعاهده حتى لا يرجع إلى الكفر.

● **الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله فى الإسلام.**

تؤخذ من قوله: **«وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه».**

● **التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدى على يديه رجل واحد.**

لقوله: **«لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم»**، أي: خير لك من

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٥٤١)، ومسلم في الجهاد (٦/١/٢٧٨) عن ابن عمر به وانظر «شرحنا لزاد المعاد» فى هدية ﷺ فى الجهاد.

كل ما يستحسن فى الدنيا، وليس المعنى كما قال بعضهم: خير لك من أن تتصدق بنعم حمر.

● **الثلاثون: الحلف على الفتيا.**

لقوله: «**فوالله لأن يهدى الله...**» إلخ ، فأقسم النبى ﷺ وهو لم يُستقسم، والفائدة هى حثه على أن يهدى الله به والتوكيد عليه.

ولكن لا ينبغى الحلف على الفتيا إلا لمصلحة وفائدة، لأنَّه قد يفهم السامع أنَّ المفتى لم يحلف إلا لشك عنده.

والإمام أحمد رحمه الله أحيانًا يقول فى إجابته : أي والله، وقد أمر الله رسوله بالحلف فى ثلاثة مواضع من القرآن:

فى قوله تعالى: ﴿**وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ**﴾.

وفى قوله تعالى: ﴿ **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ**﴾.

وفى قوله تعالى: ﴿**قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ**﴾.

فإذا كان فى القَسَم مصلحة ابتداءً، أو جوابًا لسؤال، جاز وربما يكون مطلوبًا أ.هـ.

●●●

٥ باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

- **محتويات الباب:**

١- مناسبة الباب لما قبله من الأبواب، ولكتاب التوحيد.

٢- شرح الترجمة.

٣- مناسبة آيات الباب بعضها ببعض.

- **الآية الأولى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾** [الإسراء: ٥٢]

١- مناسبة الآية للباب.

٢- الإعراب.

٣- سبب نزول الآية.

٤- أقوال المفسرين فى الآية.

٥- أقوال شراح كتاب التوحيد فى الآية.

٦- فصل فى الوسيلة، وأحكامها.

- معنى الوسيلة لغة واصطلاحاً.

- أقسام الوسيلة [مشروعة- ممنوعة] وتفصيل ذلك

- شبهة: التوسل بجاه النبى ﷺ، والرد عليها

- **الآية الثانية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾**[الزخرف]: ٢٦]

١- مناسبة الآية للباب

٢ـ الإعراب.

٣- أقوال المفسرين فى الآية

- **علاقة الآية بما قبلها، وبيان المقصود الأصلى منها.**

٤- أقوال شراح كتاب التوحيد فى الآية.

٥- فصل فى عدم البراء من الشرك وأهله

- معنى الولاء، لغة وشرعاً.

- أدلة الولاء من الكتاب والسنة.

-أسباب موالاة الكافرين

- أحكام الموالاة [مكفرة- غير مكفرة].

- صورة الموالاة.

● التشبه، وفيه مسألة الإكراه على الكفر والتقية.

● الحب والمودة للدين، لا للحزب ولا لفرقة.

وفيه مسألة حكم الحب الجبلى للكافر.

● النصرة

● الطاعة والمتابعة

● المعاونة والقيام بالأمر والنصح

● المداهنة على حساب الدين

● تولية الكفار أمور المسلمين

● السكنى معهم فى ديارهم وتكثير سوادهم

- تعريف البراء لغة وشرعاً

- صور ليست من الموالاة

● الاستعانة بغير المسلم لفرض حماية الداعى.

● المؤاجرة والمبايعة مع المشركين.

● البيع والشراء.

● قبول الهداية منهم والإهداء إليهم.

● رد السلام عليهم.

● الإنتفاع بما عندهم.

● الزواج من الكتابية

● **الآية الثالثة:** ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]

١- مناسبة الآية للباب والمراد منها.

٢- الإعراب.

٣- معنى الأحبار والرهبان.

٤- ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين.

٥- أقوال شراح كتاب التوحيد فى الآية.

٦- الشرك فى الحكم.

٧- الحكم بغير ما أنزل الله.

٨ ـ فوائد أخرى- لصاحب «مغنى المريد»

الآية الرابعة: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾ [البقرة].

١- مناسبة الآية للباب

٢- مناسبة الأية لكتاب التوحيد.

٣- الإعراب.

٤- أقوال المفسرين فى الآية.

٥- أقوال شراح كتاب التوحيد فى الآية.

٦ـ المحبة وأنواعها.

٧- كلام ابن القيم فى المحبة والعشق وعلاجه.

٨- أسباب المحبة

● **حديث: «من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله».**

١- مناسبة الحديث للباب

٢- تقسيم الإسلام إلى إسلام حكمى وإسلام حقيقى

٣- مآخذ على من خلَّط بينهما.

٤- شبه لشراح كتاب التوحيد والرد عليها.

٥- فوائد من قوله «وحسابه على الله»

● **مسائل الباب.**

● ● ●

٥ بابُ تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

مناسبة الباب لما قبله من الأبواب، ولكتاب التوحيد أيضاً:

قال سليمان آل الشيخ:(١)

ولما ذكر المصنف فى الأبـواب السابقة التوحيد وفضائلـه، والدعوة إليه، والخوف من ضده الذى هـو الشرك، فكأن الـنفوس اشتاقـت إلى معرفـة هذا الأمر الذى خلـقت له الخليقـة، والذى بلغ من شأنـه عند الله أن من لقيـه به غفر له. وإن لقـيه بملء الأرض خطايا.

بيَّن - المصـنف رحمه الله - فى هذا الباب أن الـتوحيد ليس اسماً لا مـعنى له، أو قولاً لا حقيقة له كما يظنه الجاهلون الذين يظنـون أن غاية التحقيق فيه هو النطق بكلمة الشهادة من غير اعتـقاد القلب بشيء من المعاني، والحاذق منهـم يظن أن معنى الإله هو الخالق المتفرد بـالملك، فتكون غاية معرفـته هو الإقرار بتوحيد الربوبـية، وهذا ليس هو المراد بالتوحيـد، ولا هو أيضاً معنى «لا إله إلا الله» وإن كان لابد منه فـى التوحيد بل التوحيد اسم لمعنى عظيم، وقول له معنى جليل هو أجل من جميع المعاني،

وحاصله هو: البراءة من عبادة كل ما سوى الله، والإقبال بالقلب والعبادة على الله، وذلك هو معـنى الكفر بالطاغـوت، والإيمان بالله، وهو معنى «لا إلـه إلا الله» كما قال تعالى: **﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾** وقال تعالى حكـاية عن مؤمن يّس: **﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾** وقال تعالى: **﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾** وقال تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: **﴿ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار لاجرم أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الأخرة﴾** والآيات فى هذا كثيرة تبين أن

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» (١٠١- ١٠٢).

معنى «لا إله إلا الله» هو البراءة من عبادة ما سوى الله من الشفعاء والأنداد، وإفراد الله بالعبادة، فهذا هو الهدى ودين الحق الذى أرسل له رسله، وأنزل به كتابه، أما قول الإنسان لا إله إلا الله من غير معرفة لمعناها، ولا عمل به، أو دعواه أنه من أهل التوحيد، وهو لا يعرف التوحيد، بل ربما يخلص لغير الله من عباداته من الدعاء والخوف والذبح.

والنذر والتوبة والإنابة وغير ذلك من أنواع العبادات، فلا يكفى فى التوحيد، بل لا يكون إلا مشركاً والحالة هذه، كما هو شأن عباد القبور. ثم ذكر المصنف آيات تدل على هذا أ.هـ.

قال ابن باز (١): وذكر- يعنى المصنف- هذا الباب لتعرف حقيقة التوحيد. أهـ

قال ابن عثيمين (٢): وهذا الباب مهم؛ لأنه لما سبق الكلام على التوحيد وفضله والدعوة إليه، كأن النفس الآن اشْرَأَبَّت إلى بيان ما هو هذا التوحيد الذى بُوِّب له هذه الأبواب (وجوبه، وفضله، والدعوة إليه).

فُيجاب بهذا الباب، وهو تفسير التوحيد. أهـ.

قال الفقير: ومناسبة هذا الباب لما قبله

[أولاً]: أنه لما كان الداعى إلى الله داعياً على بصيرة فكان لابد أن يفسر له التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله؛ لذلك بوب المصنف هذا الباب، بعد الدعاء مراعاة لترتيب الآية ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ**﴾والتفسير للتوحيد غير بيان معناه، ففى هذا بيان لمجمل معنى التوحيد، وفى التفسير بيان تفصيلى للتوحيد؛ لذلك تعرض فيه لعبادة الأحبار والرهبان، ولموالاة الكفار، وتبرء إبراهيم منهم، والأنداد التى تحب كحب الله؛ ولهذا أيضاً تلا هذا الباب أبواباً كثيرة جداً تفسر التوحيد ببيان ضده من الشرك.

[والثانى]: لأنه لما شرح التوحيد على الإجمال فى الباب الأول، وهذا الشرح على الإجمال كافى للداعية أن يدعو للتوحيد، ولكن هذا الشرح لايكفى لاستمرار الدعوة، فكأنه لما عرَّفه على الإجمال ورغب فيه ورهب من ضده من الشرك بيِّن أنك الآن

---

(١) «التعليق المفيد» (٥٧).

(٢) «القول المفيد» (١/ ١٨٣).

تأهلت للدعوة، لكن هذا القدر لايكفى للاستمرار، فينبغى أن نشرح لك على التفصيل، فناسب لاستمرارية الدعوة أن يذكر بعد باب/ الدعاء إلى (لاإله إلا الله) أن يذكر التوحيد على التفصيل ومعنى الشهادة.

[والثالث] : قاله الشراح أن فى هذا الباب مزيد بيان للتوحيد.

[الرابع]: أنه جمع فى هذا الباب الأبواب، التى لايتصور أن يخرج المرء من الإسلام إلى الكفر إلا من خلالها، فالأمور المكفرة إما تقديم عبادة لغير الله ظاهرة أوباطنة.

أما الظاهرة، ففى قوله: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ**﴾ فكانوا يقدمون عبادة ظاهرة منها: الدعاء للأنداد والنظراء مع أن أندادهم ونظرائهم كانوا مسلمين يبتغون إلى الله الوسيلة، فهذا باب.

أو عبادة باطنة كالمحبة والمودة والمولاة ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾ فعبادة ظاهرة أوباطنة تخرج المسلم من الإسلام.

ومن هنا ذكر الآية ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ**﴾ فبين أن التوحيد فى البراءة من الشرك والمشركين ليس فقط فى عدم الموالاة والمحبة لهم، وصورة ثالثة: أن يقدم أمر أو نهى لغير الله وإن كان مردها للعبادة التي هى الأمر والنهى، لكن هنا نص على الصورة فقال: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ فبين على الإجمال الأبواب التى تخرج الناس من الإسلام إلى الكفر وهي: التحاكم، الأمر والنهي، العبادة الظاهرة، والعبادة الباطنة، ثم ختم الباب بـ«**من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم دمه وماله**»ليعلم أن التوحيد ليس الكلمة فحسب، وإنما الإتيان بلوازمها. والله أعلم.

• • •

● شرح الترجمة:

قال سليمان آل الشيخ(١) : قوله : **(باب تفسير التوحيد وشهادة أن لاإله إلا الله)** أى تفسير هاتين الكلمتين، والعطف لتغاير اللفظين، وإلا فالمعنى واحد أ.هـ.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ(٢): هذا من عطف الدال على المدلول. أ. هـ .

وقال السعدي(٣): هذه المسألة أكبر المسائل وأهمها كما قال المصنف - رحمه الله- وحقيقة تفسير التوحيد: العلم والاعتراف بتفرد الرب بجميع صفات الكمال وإخلاص العبادة له.

وذلك يرجع إلى أمرين:

نفى الألوهية كلها عن غير الله، بأن يعلم ويعتقد أن لايستحق الألهية ولاشيئاً من العبودية أحد من الخلق لا نبى مرسل ولا ملك مقرب ولاغيرهما، وأنه ليس لأحد من الخلق فى ذلك حظ ولانصيب.

والأمر الثاني: إثبات الألوهية لله تعالى وحده لاشريك له وتفرده بمعانى الألوهية كلها وهى نعوت الكمال كلها، ولايكفى هذا الإعتقاد وحده حتى يحققه العبد بإخلاص الدين كله لله فيقوم بالإسلام والإيمان والإحسان وبحقوق الله وحقوق خلقه قاصداً بذلك وجه الله وجالباً رضوانه وثوابه.

ويعلم أن من تمام تفسيرها وتحقيقها البراءة من عبادة غير الله، وأنَّ إتخاذ أنداد يحبهم كحب الله أو يطيعهم كطاعة الله أويعمل لهم كما يعمل لله ينافى معنى لا إله إلا الله أشد المنافاة. اهـ.

وقال ابن باز(٤): بين المؤلف هنا تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله بما يوافق لفظها، وبما يضادها، لأن الشيء يعرف بضده، وقد قيل : والضد يظهر حسنه الضد، وبضدها تتميز الأشياء، وذكر هذا الباب لتعرف حقيقة التوحيد.

وحقيقته: هو إفراد الله بالعبادة وتخصيصه بها وبجميع أنواع العبادة، فتؤمن بذلك بالقلب وتعمل بالجوارح. وقوله ﴿**وشهادة أن لا إله إلا الله**﴾هذا من باب عطف الدال والشهادة على المدلول، وهو التوحيد ، فالتوحيد هو شهادة بالله وحده. اهـ.

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» (١٠١)

(٢) «فتح المجيد» (١/ ١١٩).

(٣) «القول السديد» (٣١٢٣٠).

(٤) «التعليق المفيد» (٥٧).

وقال ابن عثيمين [1] : التفسير معناه: الكشف والإيضاح، مأخوذ من قولهم: فَسَرَت الثمرة قشرها، ومن قول الإنسان: فَسَرْت ثوبي؛ فاتضح ما وراءه، ومنه تفسير القرآن الكريم .

والتوحيد تقدم تعريفه، والمراد به هنا اعتقاد أن الله واحد فى ألوهيته.

وقوله :«وشهادة أن لاإله إلا الله».

معطوف على التوحيد؛ أى: وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله والعطف هنا من باب عطف المترادفين؛ لأن التوحيد حقيقة هو: شهادة أن لا إله إلا الله . اهـ.

● ● ●

مناسبة آيات الباب بعضها ببعض، ومابينها من ترابط.

الأولى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾(٢)

الثانية: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٣)

الثالثة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾(٤)

الرابعة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(٥).

قال حامد بن محمد(٦) والشيخ ـ رحمه الله ـ قد ذكر للإسلام والتوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله أربع آيات من كتاب الله هن له كالقواعد حيث لاوجود له ولاثبات إلا بها، وهن أم المسائل التوحيدية وأصلها ،حيث إن المسائل تتولد منها وتنتج وتتفرع منها تفرع الأغصان من أصل الشجرة.

قلت- أى حامد بن محمد: فكما أن الأغصان تتقارب ضعفاً وقوة، كذلك التوحيد فى قلب المسلم والمؤمن والمحسن، فتأمل.

(١) القول المفيد (١/ ١٨٣)
(٢) الإسراء(٥٧)
(٣) الزخرف : ٢٦،٢٨
(٤) التوبة : ٣١
(٥) البقرة: ١٦٥
(٦) «فتح الله الحميد المجيد» (١٩١)

الآيات المذكورات فى ترقى مراتبها كأربع درجات مالم ترق الأولى لم ترق الثانية ، ومالم ترق الثانية لم ترق الثالثة، ومالم ترق الثالثة لم ترق الرابعة.

الآية الأولى قوله تعالي﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.

أعلم أن هذه الآية اشتلمت على ثلاث فوائد يلزمك أن تؤمن بها وتعمل بمقتضاها وتنبذ من خالفها وتحاربه.

الأولى: أن ماسوى الله مطلقاً لايملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً.

الثانية: أن ما سواه عبيده وتحت قهره وتصريفه، ويبتغون إليه الوسيلة بالأعمال الصالحة فهو ربهم وإلههم وحده لاشريك له.

الثالثة: أن من سواه يرجون رحمته ويخافون عذابه ويعلمون أن عذابه كان محذوراً، فهو الواحد الأحد المتفرد بالعز والجبروت والملك والملكوت وهو الحى الذى لايموت.

فإذا رقيت هذه الدرجة وماتضمن من الوحدانية حينئذ طولب **بالدرجة الثانية** وهى الحب فى الله والبغض فيه والمولاة فى الله والمعاداة فيه والمشار إليها فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(١) وقوله تعالى : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾(٢) فينبغى لزارع الإيمان أن يستعين بالله فى إنشاء عرْقين من سويداء قلبه:

عِرْق المحبة لأهل الإيمان والتوحيد والطاعة.

وعِرْق البغض لأهل الشرك والكفر والنفاق أصلا، ولأهل المعاصى فرعاً، فإذا أنشأتهما من قلبك اسقهما بماء التصديق حتى يثمر عرق المحبة بالموالاة لأهل الحق من النصيحة لهم والدعاء لهم والبر والإحسان إليهم بحسب الطاقة والقدرة والذب عن

(١) الزخرف : ٢٦، ٢٨ (٢) الممتحنة (٤)

أعراضهم وقضاء حوائجهم وإفشائهم بالسلام وعيادة مرضاهم وتشييع جنائزهم وغير ذلك من الحقوق.

ويثمر العرق الثانى بالمعاداة لأهل الباطل من المجاهدة والتبرى منهم وعدم الركون إليهم والتغليظ عليهم وعدم مواكلتهم ومجالستهم إذا رأى منهم العناد والإعراض.

عن ابن عباس «من أحب فى الله وأبغض فى الله وعادى فى الله ووالى فى الله فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد أحد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس على مر الدنيا وذلك لايُجْدِ على أهله بشىء». رواه ابن جرير(١).

* فإذا قبلت هذه الدرجة وتمكنت فيها بلا التفات ولامحاباة **طولبت بالثالثة وهى** لب الكتاب وزبدة الرسالة والكتاب، وهى أن يكون الله أحب إليك مما سواه، فإذا تقدم أمره على أمر من عداه وذلك قوله تعالى ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾(٢). قوله: يحبونهم كحب الله دل على أنهم يساوون مع الله غيره كما قال تعالى حكاية عن المشركين فى النار. ﴿**تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(٣)

قال ابن تيمية: أى فى المحبة، فإذا عرفت من ساوى مع الله غيره فى المحبة أشرك الشرك الأكبر، فكيف بمن رجح محبة الند على الله تعالي؟

بل وكيف بمن أقبل بكليته على غيره قلباً وقالباً؟

بمعنى أنه يعظم أوامر الند وحرماته أشد تعظيماً إذا هتك حرمة من حرمات الند غضب غضب الليث واحمرت وجنته وانتفخت أوداجه وقام وقعد فيه، وإن هتك حرمة من حرمات الله لم يرفع به رأساً بل ويثبط غيره عن القيام فيه.

فإذا رقيت هذه الدرجة وتمكنت فيها **طولبت بالدرجة الرابعة** وهى المتممة للدرجات الثلاث وهى المتابعة لرسول الله ﷺ فيدور مع قول الرسول وفعله نفياً وإثباتاً بلا روغان، فإن أتاه حكم من غيره وازنه بميزان ماجاء به ﷺ، فإن وافقه أخذ بالقول، وإن

(١) أخرجه ابن المبارك فى الزهد (٣٥٣) بإسناد ضعيف.

(٢) البقرة: (١٦٥) (٣) الشعراء: (٩٧، ٩٨)

خالفه ضربه بالحائط، قال تعالى ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١)وقال تعالي﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(٢) وسيأتى زيادة بيان إن شاء الله فى بابه.

واستدل الشيخ - أى محمد بن عبدالوهاب - على ذلك بالآية الرابعة وهى قوله تعالى : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾(٣) عن عدى بن حاتم أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية قال: يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم، قال: «**أليسوا يحللون لكم الحرام ويحرمون عليكم الحلال فتطيعونهم؟ قال : بلي، قال : فتلك عبادتهم**» (٤) . وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «**من قال: لاإله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله**» (٥).

اعلم أن الرسول ﷺ قيد قول : لا إله إلا الله بالكفر بما يعبد من دون الله فمن لم يكفر بما يعبد من دون الله ما قال : لاإله إلا الله، فتأمل حتى تميز بين الناس، ويشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب. أهـ

● ● ●

---

(١) النساء : (٦٥) (٢) النساء : (٩٥)

(٣) التوبة : (٣١)

(٤) سيأتى تخريجه

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى الايمان (١/ ٢٣٤/ ٣٧) وسيأتى تمام تخريجه فى حديث المتن من خلال هذا الباب.

وقول الله تعالى ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾[١].

●مناسبة الآية للباب:

قال عبدالله بن جار الله[٢]: ومناسبتها للباب أن التوحيد لايصح إلا إذا بني على الإيمان بالله، وإخلاص العبادة له، وعدم التقرب إلا إليه. أ. هـ.

وقال ابن باز[٣]: أن دعاء من لايملك كشف الضر أو جلب النفع من دون الله هذا هو الشرك وضده هو التوحيد . أ. هـ.

قال ابن عثيمين[٤]: وجه مناسبة الآية للباب (باب تفسير التوحيد وشهادة أن لاإله إلا الله):

أن التوحيد يتضمن البراءة من الشرك، بحيث لايدعو مع الله أحداً؛ لاملكاً مقرباً، ولانبياً مرسلاً، وهؤلاء الذين يدعون الأنبياء والملائكة لم يتبرؤا من الشرك، بل هم واقعوان فيه، ومن العجب أنهم يدعون من هم فى حاجة إلى مايقربهم إلى الله تعالي؛ فهم غير مستغنين عن الله بأنفسهم؛ فكيف يغنون غيرهم؟!. اهـ.

وقال القرعاوي[٥]: حيث دلت الآية على أن معنى التوحيد هوشهادة أن لاإله إلا الله هو ترك ماعليه المشركون من دعاء الأنبياء والصالحين والاستشفاع بهم إلى الله، وإنه لايكفى النطق بالشهادة مالم يكفر بكل معبود سوى الله. أهـ.

الإعراب[٦]:

(أولئك) مبتدأ و(**الذين يدعون**) بدل منه وجملة (**يبتغون**) خبر والواو فاعل و(**إلى ربهم**) متعلقان بالوسيلة و(**الوسيلة**) مفعول به ويجوز لك أن تعرب الذين هى الخبر وجملة يبتغون حال من فاعل يدعون. **(أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه)** أيهم بدل من فاعل يبتغون وأى موصولة ويجوز أن تكون استفهامية فهى مبتدأ وأقرب خبر وعبارة أبى حياة: «واختلفوا فى إعراب (**أيهم أقرب**) وتقديره، فقال الحوفي: أيهم أقرب ابتداء وخبر والمعنى ينظرون أيهم أقرب فيتوسلون به ويجوز أن يكون أيهم أقرب

---

(١) الإسراء ٥٧.
(٢) «الجامع الفريد» (٣٣)
(٣) «التعليق المفيد» (٥٧)
(٤) «القول المفيد» (١/ ١٨٥)
(٥) «الجديد» (٧٢).
(٦) «الإعراب» (٥/ ٤٦٠) .

بدلاً من الواو فى يبتغون، ففى الوجه الأول أضمر فعل التعليق وأيهم أقرب فى موضع نصب على إسقاط حرف الجر لأن نظر إن كان بمعنى الفكر تعدى بفى وإن كانت بصرية تعدت بإلى فالجملة المعلق عنها الفعل على كلا التقديرين تكون فى موضع نصب على إسقاط حرف الجر كقوله **(فلينظر أيها أزكى طعاماً)** وفى إضمار الفعل المعلق نظرا والوجه الثانى قاله الزمخشرى قال: وتكون أى موصولة أى يبتغى من هو أقرب منهم وأزلف الوسيلة إلى الله فيكف بغير الأقرب» فعلى هذا الوجه يكون أقرب خبر مبتدأ محذوف واحتمل أن يكون أيهم معرباً وهو الوجه واحتمل أن يكون مبنياً لوجود مسوغ البناء، وأقرب خبر لمبتدأ محذوف والمعنى يبتغون من هو أقرب منهم وأمت إليهم بزلفى الوسيلة إلى الله فما بالك بغير الأقرب فكيف يزعمون أنهم آلهة، **(ويرجون رحمته)** عطف على **(يبتغون)** ويرجون: فعل مضارع وفاعل وحذفت لام الفعل وهى الواو لالتقاء الساكنين ورحمته: مفعول به ويخافون عذابه عطف على يرجون رحمته. **(إن عذاب ربك كان محذوراً)** تعليل للخوف وإن واسمها وجملة كان خبرها واسم كان مستتر تقديره هو ومحذوراً خبركان. اهـ.

● **أسباب النزول**: فى سبب نزولها أقوال

(أحدها): أن نفراً من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجن والنفر من العرب لايشعرون، فنزلت هذه الآية والتى بعدها، روى عن ابن مسعود(1).

عن ابن مسعود رضى الله عنه فى قوله: **﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾** قال: كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن، فأسلم النفر من الجن، وتمسك الإنسيون بعبادتهم، فأنزل الله **﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾**(2) كلاهما بالياء.

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: نزلت هذه الآية فى نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنيون، والنفر من العرب لايشعرون بذلك(3).

---

(1) ذكره ابن الجوزى فى «زاد المسير» ـ(5/ 37، 38) وانظر تخريجه بعده

(2) [متفق عليه] أخرجه البخارى (4714)، ومسلم فى التفسير» (9 / 357 / 28)

وأنظر تخريجه فى «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا».

(3) [صحيح] ذكره السيوطى فى «الدر» (4 / 343) ونسبه لابن جرير، وابن مردويه، وأبى نعيم، والبيهقى فى «الدلائل»

أنظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد»(ح154) بتخريجنا)

قال ابن كثير : (١). واختار ابن جرير قول ابن مسعود لقوله ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾وهذا لايعبر به عن الماضى فلا يدخل فيه عيسى والعزير والملائكة.

[الثاني]: نزلت فى قبائل من العرب كانت تعبد صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن:

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: كان قبائل من العرب يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن، ويقولون هم بنات الله، فأنزل الله ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾الآية(٢).

[الثالث]: نزلت فى أهل الشرك كانوا يعبدون الملائكة وعزيراً والمسيح وأمه والشمس.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى الاية. قال كان أهل الشرك يعبدون الملائكة والمسيح وعزيراً(٣).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ﴾قال: عيسى وأمه وعزير(٤).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ قال: هم عيسى وعزير والشمس والقمر(٥).

[الرابع](٦) أن المشركين كانوا يعبدون الملائكة فقط ويقولون: هى تشفع لنا عند الله، فلما ابتلوا بالقحط سبع سنين، قيل لهم ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾، قاله مقاتل، والمعنى: قل ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة، ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾له إلى غيركم.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/٤٦).

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٤ / ٣٤٣) ونسبه لابن جرير

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٣٣١٨) وذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق وزاد نسبته لابن جرير، وابن مردويه.

وأنظر «فتح القدير» (٨١٠٤ ـبتخرجنا)

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم وذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق وزاد نسبته لابن أبى شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه. وانظر «فتح القدير» (٨١٥ ـ بتخريجنا).

(٥) [ضعيف] ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لسعيد بن منصور وابن جرير، وابن المنذر، «القدير» (٨١٠٦ ـ بتخريجنا) وأيضاً «فتح المجيد» (ح١٥٦) بتخريجنا)

(٦) «زاد لمسير» (٥/٣٧/٣٨).

قال سليمان آل الشيخ

قال شيخ الإسلام(١) : وهذه الأقوال كلها حق، فإن الآية تعم من كان معبوده عابداً لله سواء كان من الملائكة أومن الجن أو من البشر.

والسلف في تفسيرهم يذكرون جنس المراد بالآية على نوع التمثيل، كما يقول الترجمان لمن سأله معنى لفظ الخبز؟ فيريه رغيفاً، فيقول هذا، فالإشارة إلى نوعه لا إلى عينه، وليس مرادهم بذلك تخصيص نوع دون نوع مع شمول الآية للنوعين فالآية خطاب لكل من دعا دون الله مدعوا. وذلك المدعو يبتغى إلى الله الوسيلة، ويرجو رحمته، ويخاف عذابه.

فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد تناولته هذه الآية، كما تتناول من دعا الملائكة والجن.

ومعلوم أن هؤلاء كلهم يكونون وسائط فيما يقدره الله بأفعالهم، ومع هذا فقد نهى الله عن دعائهم، وبين أنهم لايملكون كشف الضر عن الداعين ولاتحويله، لايرفعونه بالكلية، ولايحولونه من موضع إلى موضع ، كتغيير صفته أو قدره؛ ولهذا قال: ﴿وَلا تَحْوِيلاً﴾ فذكر النكرة تعم أنواع التحويل فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين، أو دعا الملائكة أو دعا الجن فقد دعا من لايغيثه، ولايملك كشف الضر عنه، ولاتحويله. انتهي.

قال سليمان آل الشيخ(٢): وبنحو ما تقدم من كلام هؤلاء قال جميع المفسرين. أهـ.

●ماجاء في تفسير الآية من القرآن:

قال الشنقيطي(٣): وهذا المعنى الذى بينه جل وعلا فى هذه الآية الكريمة: من أن كل معبود من دون الله لاينفع عابده، وأن كل معبود من دونه مفتقر إليه ومحتاج له جل وعلا - بينه أيضاً فى مواضع أخر، كقوله فى «سور سبإ»﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾(٤)وقوله «سورة الزمر»﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾(٥) إلى غير ذلك من الآيات. أهـ.

---

(١) نقلاً عن «تيسير العزيز الحميد» (١٠٢، ١٠٣).

(٢) تيسير العزيز الحميد (١٠٣).

(٣) «أضواء البيان» (٣/ ٤٣٧).

(٤) سبأ/ (٢٢، ٢٣).

(٥) الزمر/ (٣٨)

قوله [أولئك]

في المشار إليهم بـ ﴿**أولئك**﴾ **أربعة أقوال.**

أحدها أنهم الجن الذين أسلموا.

والثاني : الملائكة

والثالث: أنهم المسيح، وعزير، والملائكة، والشمس، والقمر قاله ابن عباس(١).

الرابع: صنف من الملائكة يقال لهم الجن.

قال الفقير: وتقدم فى أسباب النزول تفصيل ذلك والراجح من كلام ابن تيمية.

قوله [يدعون] فيها قولان:

أحدهما: يعبدون ، أى : يدعونهم آلهة، وهذا قول الأكثرين.

والثاني: أنه بمعنى يتضرعون إلى الله فى طلب الوسيلة (٢).

وعلى هذا يكون قوله: ﴿**يدعون**﴾ راجعاً إلى ﴿**أولئك**﴾، ويكون قوله : ﴿**يبتغون**﴾ تماماً للكلام.

وعلى القول الأول : يكون «يدعون» راجعاً إلى المشركين، ويكون قوله : ﴿**يبتغون**﴾ وصفاً لـ ﴿**أولئك**﴾ مستأنفاً.

وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وأبو عبدالرحمن: «تدعون» بالتاء.

قال ابن الأنبارى : فعلى هذا، الفعلُ مردوداً إلى قوله ﴿**فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ**﴾ ومن قرأ ﴿**يدعون**﴾ بالياء، قال : العرب تنصرف من الخطاب إلى الغيبة إذا أُمن اللَّبس . ومعنى ﴿**يدعون**﴾ يدعونهم آلهة(٣).

قوله [يبتغون]

قال البغوى (٤) : أى يطلبون.

وقال الزمخشري(٥): يحرصون

---

(١) «زاد المسير» (٥/ ٣٧، ٣٨). وتقدم تخريج الحديث.

(٢، ٣) «زاد المسير» (٥/ ٣٧، ٣٨).

(٤) «معالم التنزيل» (٣/ ٥٠٣)

(٥) الكشاف (٢/ ٣٦٤).

قال الرازى[1]: يبتغون فعل المعبودين

وقال القرطبي[2] : مثل البغوي.

وقال السعدي[3] : يتنافسون فى القرب من ربهم.

وقوله **[إلى ربهم الوسيلة]**

● ماجاء فى التفسير بالقرآن

كقوله تعالى فى سورة المائدة: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾**.

● التفسير بالمأثور من المرفوع

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ **«سلوا الله لى الوسيلة»** قالوا: وما الوسيلة؟ قال: **«القرب من الله»** ثم قرأ **﴿يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾**[4]

● أقوال المفسرين

قال ابن جرير[5]: يقول يبتغى المدعون أرباباً إلى ربهم القربة والزلفي، لأنهم أهل إيمان به والمشركون بالله يعبدونهم من دون الله. أهـ.

وقال البغوي[6]: الوسيلة أى القربة، وقيل : الدرجة، أى يتضرعون إلى الله فى طلب الدرجة العليا وقيل الوسيلة : كل مايتقرب به إلى الله تعالى .أهـ.

قال الزمخشرى [7]: يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله، وذلك بالطاعة وازدياد الخير والصلاح. أ. هـ.

---

(١) «التفسير الكبير» (١٠/١٩/٢٣٣).

(٢) تفسير القرطبى (٦/٣٨٩٥).

(٣) تفسير الكريم الرحمن (٣/٨٦).

(٤)أخرجه الترمذى (٣٦١٢) بلفظ آخر وذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه للترمذى وابن مردويه قال: واللفظ له ـ أى لابن مردويه.

(٥) «تفسير ابن جرير» (٨/١٥/ ٧٢).

(٦) «معالم التنزيل» (٣/٥٠٣).

(٧) «الكشاف» (٢/ ٣٦٤).

قال ابن الجوزى [1]: أى يتقرب إليه بالعمل الصالح. أ. هـ.

وقال القرطبي[2]: يطلبون من الله الزلفة والقربي، ويتضرعون إلى الله تعالى بطلب الجنة، وهى الوسيلة.

أعلمهم الله تعالى أن المعبودين يبتغون القربة إلى ربهم، والهاء والميم فى (ربهم) تعود على العابدين أو على المعبودين أو عليهم جميعاً أ. هـ.

قال الشنقيطي[3]:

اعلم أن جمهور العلماء على أن المراد بالوسيلة هنا هو القربة إلى الله تعالى بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه على وفق ماجاء به محمد ﷺ بإخلاص فى ذلك لله تعالي، لأن هذا وحده هو الطريق الموصلة إلى رضى الله تعالي، ونيل ماعنده من خير الدنيا والآخرة.

وأصل الوسيلة: الطريق التى تقرب إلى الشيء، وتوصل إليه وهى العمل الصالح بإجماع العلماء، لأنه لا وسيلة إلى الله تعالى إلا باتباع رسوله ﷺ.

وعلى هذا فالآيات المبينة للمراد من الوسيلة كثيرة جداً كقوله تعالى ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾[4]، وكقوله ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي**﴾[5] وقوله ﴿ **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات.

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بالوسيلة الحاجة، ولما سأله نافع الأزرق هل تعرف العرب ذلك؟ أنشد له بيت عنترة.

إن الرجال لهم إليك وسيلة ... إن يأخذوك تكحّلى وتخضبي[7]

قال: يعنى لهم إليك حاجة، وعلى هذا القول الذى روى عن ابن عباس، فالمعنى ﴿**وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾ واطلبوا حاجتكم من الله، لأنه وحده هو الذى يقدر على إعطائها.

---

(١) «زاد المسير» (٥/ ٣٨).

(٢) «تفسير القرطبي» (٦/ ٣٨٩٥).

(٣) «أضواء البيان» (٢/ ٧٦، ٧٧).

(٤) الحشر (٧).

(٥) آل عمران (٣١).

(٦) النور (٥٤).

(٧) [إسناده منقطع] أخرجه الطبرانى في«الكبير» (١٠ / ٣٠٤ / ١٠٥٩٠).
وأنظر «الاتقان فى علوم القرآن» للسيوطى (٧٤٨ ـ بتخريجنا)

ومما يبين معنى هذا الوجه قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾(١) وقوله: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾(٢) الآية، وفى الحديث «إذا سألت فأسأل الله»(٣).

قال مقيده عفا الله عنه: التحقيق فى معنى الوسيلة هو ماذهب إليه عامة العلماء من أنها التقرب إلى الله تعالى بالإخلاص له فى العبادة، على وفق ما جاء به الرسول ﷺ، وتفسير ابن عباس داخل فى هذا، لأن دعاء الله والابتهال إليه فى طلب الحوائج من أعظم أنواع عبادته التى هى الوسيلة إلى نيل رضاه ورحمته.

وبهذا التحقيق تعلم أن مايزعمه كثيرمن ملاحدة أتباع الجهال المدعين للتصوف من أن المراد بالوسيلة فى الآية الشيخ الذى يكون له واسطة بينه وبين ربه، أنه تخبط فى الجهل والعمى وضلال مبين وتلاعب بكتاب الله تعالى ،و اتخاذ الوسائط من دون الله من أصول كفر الكفار، كما صرح به تعالى فى قوله عنهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾(٤) وقوله : ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٥) فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الطريق الموصلة إلى رضى الله وجنته ورحمته هى أتباع رسوله ﷺ، ومن حاد عن ذلك فقد ضل سواء السبيل، ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ الآية .

والظاهر أن الوسيلة فى بيت عنترة معناها التقرب أيضاً إلى المحبوب، لأنه وسيلة لنيل المقصود منه، لذا أنشد بيت عنترة المذكور ابن جرير، والقرطبى وغيرهما لهذا المعنى الذى ذكرنا وجمع الوسيلة: الوسائل، ومنه قول الشاعر:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا ... وعاد التصافى بيننا والوسائل

(١) العنكبوت (١٧). (٢) النساء (٣٢).

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١ / ٢٩٣، ٣٠٣)، والترمذى (٢٥١٦) عن ابن عباس به. وأنظر «رياض الصالحين» (٦٣ ـ بتخريجنا)

(٤) الزمر (٣). (٥) يونس (١٨).

وهذا الذى فسرنا به الوسيلة هنا هو معناها أيضاً فى قوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾[1] الآية، وليس المراد بالوسيلة أيضاً المنزلة التى فى الجنة التى أمرنا ﷺ أن نسأله له الله أن يعطيه إياها،ونرجو الله أن يعطيه إياها، لإنها لاتنبغى إلا لعبد، وهو يرجو أن يكون هو.

قال ابن الجوزى [2].

فى قوله :﴿أيهم أقرب﴾ قولان ذكرها الزجاج.

أحدهما : أن يكون ﴿أيهم﴾ مرفوعاً بالابتداء، وخبره ﴿أقرب﴾ ويكون المعنى :يطلبون الوسيلة إلى ربهم، ينظرون أيهم أقرب إليه فيتوسلون إلى الله به.

والثانى أن يكون﴿أيهم أقرب﴾ بدلامن الواو فى ﴿يبتغون﴾ فيكون المعنى يبتغى أيهم هو أقرب الوسيلة إلى الله.

قوله ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾

● ماجاء فى التفسير من القرآن

كقوله تعالى ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾و﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾و﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾و﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾و﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾و﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾و﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

وفى الجمع بين الخوف والرجاء آيات كثيرة.

● ماجاء فى التفسير من المرفوع

وروى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال :«**لو يعلم المؤمن ماعند الله من**

(١) الإسراء/ (٥٧).

(٢) زاد المسير (٥/ ٣٨).

العقوبة ماطمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ماعند الله من الرحمة ماقنط من جنته أحد»(١).

وروى البخاري عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : **«الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك»**(٢).

قال النووي(٣) : اعلم أن المختار للعبد فى حال صحته أن يكون خائفاً راجياً، ويكون خوفه ورجاؤه سواء، وفى حال المرض يمحض الرجاء وقواعد الشرع، من نصوص الكتاب والسنة وغير ذلك متظاهرة على ذلك. أ. هـ.

قال أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي: اعلم أن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كئود(٤) أهـ.

●أقوال المفسرين:

قال ابن جرير (٥) : (يرجون) بأفعالهم تلك رحمته (ويخافون) بخلافهم أمره عذابه. أ. هـ.

قال البغوى (٦): (يرجون رحمته) جنته. أهـ.

وقال الزمخشرى (٧): يرجون ويخافون كغيرهم من عباد الله، فكيف يزعمون أنهم آلهة. أ. هـ.

قال الرازي(٨): الملائكة يخافون عذاب الله لو أقدموا على الذنب، والدليل عليه قوله تعالى **﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾** . أهـ.

---

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٦٤٦٩)، ومسلم فى التوبة (١٧ / ٧٠ـ النووي) وأنظر «رياض الصالحين» (٤٤٤ـ بتخريجنا)

(٢) **[صحيح]** أخرجه البخارى (٦٤٨٨) وأنظر «رياض الصالحين» (١٠٦ـ بتخريجنا)

(٣) «رياض الصالحين» (١/ ٢٤١) بتخرجنا.

(٤) «مختصر منهاج القاصرين» (٣٢١).

(٥) «تفسير الطبري» (٨/ ١٥/ ٧٢).

(٦) «معالم ا لتنزيل» (٣/ ٥٠٣).

(٧) «الكشاف» (٢/ ٣٦٤).

(٨) «التفسير الكبير» (١٠/ ١٩/ ٢٣٣).

قال القرطبى[1]: قال سهل بن عبدالله: الرجـاء والخوف زمانان على الإنسان، فإذا استويا استقامت أحواله، وإن رجح أحدهما بطل الآخر. أهـ.

قال ابن كثير [2]: لاتتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فـبالخوف ينكف عن المناهى وبالرجاء يكثر من الطاعات . أهـ.

قوله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾

كان محذوراً؛ لأن الله بين صفة العذاب الذى ينبغى أن يحذر منه، بأنه عذاب أليم، عظيم، مهين، شديد، كبير، مقيم، قريب، غير مردود. . . .

وذكر الله عزوجل العذاب مضافاً للجحيم، والسعير، والحريق، و الشديد، والكبير. . فجاء ذكر الـعذاب فى القرآن الكـريم مفرداً، ومضافاً، مـا يقرب من ثلثـمائة وثلاث و ثلاثين مرة. ومن هنا تستشعر مدى تحذير الله عزوجل من الوقوع فى العذاب (**إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا**)

قال ابن جرير[3]: (**إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ**)يامحمد (**كَانَ مَحْذُورً**) متقى . أ. هـ.

قال البغوي[4]: (**مَحْذُورًا**) يطلب منه الحذر. أهـ.

قال الزمخشري[5]: (**إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ**) حقيقـاً بأن يحذره كل أحد مـن ملك مقرب ونبى مرسل فضلاً عن غيرهم .أهـ.

قال الرازى [6]: فالمراد أن من حقـه أن يحذر، فإن لم يحذره بعض الـناس لجهله فهو لايخرج من كونه بحيث يجب الحذر منه. أ.هـ.

قال القرطبي[7]: أى مخوفاً لا أمان لأحد منه، فينبغى أن يحذر منه ويخاف. أهـ.

قال ابن كثير[8]:أى ينبغى أن يحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله عياذاً باللهأهـ.

قال الشوكانى [9] : أى إن عذابه سبحانه حقيقى مـن أنه يحذره العباد من الملائكة والأنبياء،وغيرهم .أهـ.

---

(١) « تفسير القرطبي» (٦/ ٣٨٩٦).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٦). .

(٣) «تفسير الطبري» (٨/ ١٥/ ٧٢)

(٤) «معالم التنزيل» (٣/ ٥٠٣)

(٥) «الكشاف» (٢/ ٣٦٤، ٣٦٥)

(٦) «التفسير الكبير» (١٠/ ١٩/ ٢٣٥).

(٧) «تفسير القرطبي» (٦/ ٣٨٩٦)

(٨) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٦)

(٩) «فتح القدير» (٣/ ٢٤٢)

قال السعدي[1] : أى هو الذى ينبغى شدة الحذر منه والتوقى من أسبابه. وهذه الأمور الثلاثة، الخوف، والرجاء، والمحبة، التى وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده هى الأصل، والمادة فى كل خير، فمن تمت له تمت له أموره، وإذا خلا القلب منها ترحلت عنه الخيرات وأحاطت به الشرور. أهـ.

● ما جاء من كلام الشراح فى الآية :

قال سليمان آل الشيخ[2]: قلت يبين معنى هذه الآية التى قبلها، وهى قوله ﴿**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً**﴾ الآية.

والمعنى : أن الذى يقدر على ذلك هو الله وحده لاشريك له.

ثم قال: فتبين أن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله :هو ترك ماعليه المشركون من دعوة الصالحين، والاستشفاع بهم إلى الله فى كشف الضر وتحويله، فكيف ممن أخلص لهم الدعوة، وإنه لايكفى فى التوحيد دعواه، والنطق بكلمة الشهادة من غيرمفارقة لدين المشركين، وإن دعاء الصالحين لكشف الضر أو تحويله هو الشرك الأكبر نبه عليه المصنف.

وقال: فقوله ﴿**وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ**﴾ لاتتم العبادة إلا بالخوف والرجاء. ﴿**إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً**﴾أى مما يحذره كل عاقل أهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ [3] **قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالي:** فى هذه الآية ذكر المقامات الثلاثة.

الحب: وهو ابتغاء القرب إليه. .والتوسل إليه بالأعمال الصالحة، **والرجاء والخوف**، وهذا هو حقيقة التوحيد، وحقيقة دين الإسلام، كما فى «المسند» عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال للنبى ﷺ والله يارسول الله : ماأتيتك إلا بعد ماحلفت عدد أصابعى هذه أن لاآتيك، بالذى بعثك بالحق، ما الذى بعثتَ به؟ قال: **الإسلام** قال: وما الإسلام؟ قال: «**أن تسلم قلبك لله، وأن توجه وجهك إلى الله، وأن تصلى الصلوات المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة**»[4]. أ.هـ.

وبنحو مما سبق قال عبدالله بن جار الله[5]**، وابن باز**[6].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ٨٦).
(٢) «تيسير العزيز الحميد» (١٠٢، ١٠٣)
(٣) فتح المجيد (١/ ١٢١).
(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤ / ٤٤٦)، (٥ / ٣، ٤)، والنسائى (٥ / ٤، ٨٢ ـ السيوطي)
(٥) «الجامع الفريد» (٣٣).
(٦) «التعليق المفيد» (٥٧).

وقال ابن عيثيمين[1]: ﴿**أولئك الذين يدعون يبتغون**﴾هو كل داع، كعيسى بن مريم والملائكة، والأولياء، والصالحين. وأما الشجر والحجر فلايدخل فى الآية فهؤلاء الذين زعمتم أنهم أولياء من دون الله لايملكون كشف الضر عنكم ولاتحويله من مكان إلى مكان؛ لأنهم هم بأنفسهم يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، وقد قال الله تعالى مبينا حال هؤلاء المدعوين ﴿ **وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾.

(**يدعون**) أى دعاء مسألة كمن يدعو علياً عند الشدائد. . .أهـ.

قال القرعاوي[2] : [**الفوائد**]:

(١) بطلان عبادة المشركين لغير الله بكون معبوديهم أنفسهم يطلبون القربى من الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه.

(٢) صلاح المعبودين لايبرر الشرك بهم.

(٣) إثبات صفة الرحمة لله عزوجل.

(٤) يسير المؤمن إلى الله بالخوف والرجاء إلا في حالة الاحتضار فيقوى جانب الرجاء. أهـ.

قلت: أى مع الخوف لقول الشاب عند موته للرسول ﷺ: أرجو الله وأخشى ذنوبى[3].

قال برهامى [4] : الآية ترد على من تعلق بالأنبياء والصالحين يدعوهم ويسألوهم. ففى هذا بيان أن هذا الفعل هو الشرك الأكبر المنافى لشهادة أن لا إله إلا الله، وهذا النوع من الشرك الأكبر من أكثر أنواع الشرك انتشاراً فى الأمم، إن لم يكن أكثرها على الإطلاق. أ هـ.

---

(١) القول المفيد (١/ ١٨٤، ١٨٥)

(٢) «الجديد» (٧١، ٧٢)

(٣) أخرجه الترمذى (٩٨٣) ، والنسائى فى الكبري» (١٠٩٠١)، وابن ماجة (٤٢٦١) عن أنس به.

(٤) «فضل الغنى الحميد» (٩٧).

فصل في الوسيلة وأحكامها

قال تعالى ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾

فإذا زعمتم أن هناك صالح الجن والحسين والسيدة والأقطاب الأربعة وغيرهم الذين تزعمون أن تصرف فى الكون فادعوهم فلا يملكون كشف الضر عنكم، وهذا صعب، وهناك سؤال اسهل من هذا هو فهل يملك هؤلاء تحويل الضر عنكم فلا يصبكم؟ لا يستطيعون ذلك.

ولذلك جاء فى حديث أنس حينما جاء رجل فقال يارسول الله هلكت المواشى وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا فدعى ثم فى الجمعة التالية قال هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها فقال النبي **«اللهم حوالينا لاعلينا ....، فانقطعت.. وخرجنا نمشى فى الشمس»**(1) فالله حول المطر بعيداً عنهم وفى الدعاء الأول كشف الضر بإطلاق وأنزل المطر.

أما الذين يدعون من دونه لايستطيعون ذلك ولا كشف الضر ولاتحويله..

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ من الأنبياء كعيسى والعزير والملائكة وصالح الجن هم الذين يبتغون إلى ربهم الوسيلة، كما ثبت فى الصحيح عن ابن مسعود. وتقدم فى أسباب النزول(2).

وهذا كثير فى أهل البدع والأهواء فمثلاً إذا اتبع الأشعرى رجلٌ، والأشعرى رجع عن مذهبه تمسك هذا الرجل ومازال أشعري، بالرغم من رجوع الأشعرى نفسه عن مذهبه أو اتبع الغزالى فى بعض فلسفاته أو إمام الحرمين الجوينى فإن الإمام يرجع وهو لم يرجع.

فالذين تدعون يتقربون لله بأعظم القرب. وهو كقوله تعالى: **﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾**.

---

(1) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٩٣٢)، ومسلم فى الاستسقاء(٦ / ١٩١-١٩٥ - النووي) وأنظر السلسبيل» (٧٥١ -بتخريجنا)

(2) تقدم تخريجه فى أول شرح الآية

● **معنى الوسيلة فى اللغة:** مايتوصل به إلى مقصود قاله ابن كثير وسبق تعريفها من قول الشنقيطى

ومعنى الوسيلة فى الشرع: أحياناً تطلق ويراد بها منزله فى الجنة لاتنبغى إلا لعبد من عباد الله كما ثبت فى الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: **إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علىَّ، فإنه من صلى علىَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لاتنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سئل لى الوسيلة حلت له الشفاعة»**(١).
لكن الوسيلة بهذا المعنى ليست هى المقصود فى هذه الآية كما تقدم ذلك من كلام الشنقيطى.

فالوسيلة هنا ظهرت فى تفسير قوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ قال ابن عباس: الوسيلة هى القُرْبُ.

وقال قتادة: هى التقرب لله بطاعته ومايرضيه.

فالوسيلة فى اللغة مرتبطة بتعريفها فى الشرع فهى التى يتوصل بها: إلى المقصود وهو رحمة الله واتقاء عذابه، وكيف تحصل على هذا المقصود؟ الجواب: هو بالقرب والطاعة، وقد علق الله الفلاح عليها وقال فى الآية ﴿**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ والجهاد من الوسائل للحصول على المقصود. لذلك ذكره فى الآية بقوله ﴿**وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾.

● **أقسام الوسيلة:**

[القسم الأول]: التوسل المشروع.

[القسم الثانى]: التوسل الممنوع.

قسم العلماء الوسيلة من حيث الجواز والمنع لقسمين: توسل مشروع وممنوع.

التوسل المشروع:(١) بأسماء الله وصفاته الحسنى.

(٢) التوسل بالعمل الصالح: من إيمان وتوحيد وسائر الأعمال.

(٣) التوسل بدعاء الصالحين. وماعدا ذلك مختلف فيه.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الصلاة (٢/ ٣٢٠، ٣٢١/ ٣٨٤) وأنظر رياض الصالحين بتخريجنا (١٠٣٩).

أما الأول فدليلهم: قوله ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾، ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾وأدعية الأنبياء ﴿وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين﴾. ﴿وزكريا إذ نادى ربه ربى لاتذرنى فرداً..﴾ ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾ وغير ذلك من أدعية الأنبياء. لحصول مقصود شرعى مثل أدعية إبراهيم ﴿رب اجعل هذا بلداً آمنا وارزق أهله من الثمرات﴾ إلى قوله ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾[1]والجامع لهذا كله ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾.

وكذلك حديث الاستخارة فى الصحيح أن يقدّر له الخير حيث كان[2].

وفى السنة ««اللهم أنى أسألك بأنك أنت الله الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد»[3]

وأيضاً «اللهم إنى أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت، فأسألك بإيمانى بك وتوحيدى لك».

وقال بعض أهل العلم فى تفسير اسم الله الأعظم أنه هو الفرد الصمد ﴿لم يلد ولم يولد ③ ولم يكن له كفوا أحد﴾ .

فهذا دليل جواز التوسل بأسماء الله أوصفاته؛ للحصول على مقصد دينوى أوأخروي.

وكذلك دعاء سيد الاستغفار وهو فى الصحيح.

وأشبه به قوله ﷺ فى قصة أبى بكر رضى الله عنه «اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لاإله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه»[4].

[النوع الثانى من التوسل المشروع] التوسل إلى الله بالعمل الصالح، ويندرج فيه النوع الأول؛ لأن النوع الأول إيمان بالله وتوحيد له، فيتوسل إلى الله كما فى الحديث «اللهم أنى أسألك بأنك أنت الله..»...... الحديث[5].

---

(١) البقرة :١٢٩

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (١١١٦) عن جابر به.
وأنظر «رياض الصالحين» (٧١٩ ـبتخريجنا)

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٩٣)، والترمذى (٣٤٧٥)،وابن ماجه (٣٨٥٧)
وأنظر «الأذكار للنووى» (١٠٢٢ ـ بتخريجنا)

(٤) أخرجه أبو داود (٥٠٦٧) والترمذى (٣٣٩٢) وقال: حسن صحيح وانظر «الأذكار» بتخريجنا (ح١٩٣) للنووى.

(٥) تقدم قريبا

وكذلك قصة الثلاثة نفر الذين دخلوا الغار وسدت عليهم، فتوسل أحدهم بعفة فرجه والآخر توسل بأمانته والثالث توسل ببره بوالديه، وقال الجميع «**اللهم إن كنا فعلنا ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا مانحن فيه**» ففرج الله مابهم من كرب وهو فى الصحيح(١).

[**النوع الثالث**] التوسل لله بدعاء الصالحين.

وفيه حديث أنس فى الصحيح وفيه إن رجلاً جاء للنبى فقال هلك العيال والدواب فادعوا الله لنا فرفع النبى يديه حتى رؤيا بياض ابطيه فنزل المطر(٢).

فتوسلوا لله بدعاء النبى أن ينزل عليهم الغيث وكذلك توسل الإعرابى فى الجمعة التاليةبدعاء النبى أن يرفع المطر وتقدم الحديث قريباً.

وكذلك جود الألبانى فى كتابه التوسل فى قصة الرجل الأعمى وهى مخرجة فى «السنن» و«المسانيد» بأسانيد لاتخلو من ضعف إلا أنها يشد بعضها بعضاً فروى الإمام أحمد فى «مسنده»: عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبى ﷺ فقال: ادعو الله أن يعافينى، قال: «**إن شئت دعوت لك، وإن شئت أخرت ذلك فهو خير**».

وفى رواية: «**وإن شئت صبرت فهو خير لك**».

فقال: ادعوه، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه، فيصلى ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: [**اللهم إنى أسألك، وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة، يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه فتقضى لى، اللهم فشفعه فىّ وشفعنى فيه**]

قال: ففعل الرجل فبرأ(٣).

ففيه أنه توسل لله بدعاء النبى بالإضافة إلى عمل صالح له وهو الصلاة والدعاء.

وكذلك توسلهم بدعاء العباس وفيه جواز التوسل بدعاء الصالحين.

القسم الثانى التوسل الممنوع: هو ماخالف التوسل المشروع فى أى صورة أخرى غير هذه الصورة فهو ممنوع مثل: التوسل بالأموات حتى وإن قطعنا لهم بالصلاح، ولو جاز أن يتُوسل بميت لتوسل الصحابة بالرسول وماعدلوا عن ذلك بالعباس كما ثبت عن عمر

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (ح ٢٢١٥) ومسلم فى الرقاق (٦/١٧/ ٥٨٦) وأنظر «رياض الصالحين» بتخريجنا (ح١٣).

(٢) تقدم قريباً

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤ / ١٣٨)، والترمذي(١٥٧٨)، وابن ماجه (١٣٨٥)،والنسائى فى «الكبري» (١٠٤٩٥)

فى «الصحيح» أنه توسل بالعباس وقال: « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك فتسقنا اللهم إنا نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا»(١).

●كيف نتوسل؟

يعنى نتقرب إليك بدعاء العباس ونحن نُـأمّن عليه، وهذا فى الحقيقة فيه تواضع من عمر رضـى الله عنه واحتـقاره لنفسـه، وهذا الظن به لأنـه هو كان أولى أن يـدعو لأنه أفضل من العباس. وكان العباس حياً.

أضف لذلك قـول النبى عند مسـلم وغيره: «**إذا مات ابـن آدم انقـطع عـملـه إلا من ثلاث**»(٢) وليس فيه أننا نتوسل به أويغثـنا والثلاثة - المذكورة فى الحديث - هؤلاء من كسبه وليس من كسب أحد.

وكذلك قوله ﴿**إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ**﴾ أى أنك يا مـحمد لاتسمع الموتى فمن باب أولى أننا لانسمعهم.

وقد يقول قائل إن الناس الأحياء الذين لا يستجـيبون لك هم كالموتى لايسمعون كما قال تعالى ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ**﴾ فعلى هـذا يكون الرسول لايُسـمع الموتى - أى الذين لايستجيبون - أما موتى الأجساد فإنه يسمعهم.

نقول: لا لأن الآيـة تحمل على ظـاهرها، وقد حمـلها عمر عـلى ظاهرها فـى قصة القليب فى بدر حينما وضـعهم الرسول فى بدر وخاطبهم (**يا فلان يا فـلان هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقاً**)؟ فقال عمر يـارسول الله إنك تكلم أجساداً لا أرواح لـها وقد قال الله﴿**فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ**﴾(٣) فعمر لاينكر على النبـي، وإنما أراد أن يعلمنا نحن حتى لا يأتى جاهل فيقول أن النبى كلم الموتى الكفار إذاً فيمكن أننا نكلم الموتى الصالحين.

فعمر رضى الله عنه من الملهمين وله مواقف كثيرة.

مثل: موقفه من الحجر الأسود حينـما قال «لولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك»(٤) فهل هو لم يعلم أنه حجر إلا فى هذا الوقت؟

---

(١) [**صحيح**] أخرجه البخارى (١٠١٠) وأنظر «الأذكار للنووي» (٤٦١ ـبتخريجنا)

(٢) تقدم تخريجه

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٩٧٩)، ومسلم فى الجنائز (٢ / ٢٣٤ ـ النووي)
وأنظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٤٦٣)

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (١٦١١) عن ابن عمر به.

ولكنه يقول ذلك ليعلمنا حتى لايأتى جاهل فيتمسح فى أحجار الحسين والسيدة زينب ويقول أن النبى والصحابة تمسحوا فى الحجر الأسود فعمر كفانا الرد عليهم.

وكذلك موقفه حينما طلب النبى الورق والمداد ليملى كتاباً لايختلف عليه الناس فمنع عمر ذلك(١) لأنه لن يمكن للنبى ﷺ أن يملى كل الوحى فى هذه الدقائق، وممكن أن يتمسك الناس بهذه الورقة فقط ويتركون الكتاب والسنة وراء ظهورهم.

فعمر لم يقصد أن ينكر على النبى ﷺ وإنما قصد يعلمنا، والنبى ﷺ لم ينكر عليه وقال له «**إن الله رد عليهم أرواحهم**»(٢) وفى رواية «**ما أنتم بأسمع لى منهم**»(٣) فكأن مسئلة سماعه إياهم خاصية من خصوصيات الرسول ﷺ ونحن من باب أولى لانسمعهم.

فإن قال قائل: أنهم ليسوا أمواتًا بل هم أحياء كما قال ﴿ **وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ** ﴾

فالجواب: كما قال المفسرون: إن سبب نزول الآية فى بعض شهداء أحد لاسيما عبدالله -أبو جابر- وقال تعالى ﴿ **بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ ذكر ابن كثير عن ابن مردويه بسنده عن جابر بن عبد الله قال: نظر إلى رسول الله ﷺ ذات يوم فقال «يا جابر مالى أراك مهتمًا؟» قلت يا رسول الله استشهد أبى وترك الدنيا وعيال، فقال: «**ألا أخبرك ما كلم الله أحد قط إلا من وراء حجاب، إنه كلم أباك كفاحًا**».

قال ابن المدينى أحد رواته: والكفاح: المواجهة - «قال: **سلنى أعطيك، قال: أسألك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانيًا. قال الرب عز وجل إنه قد سبق منى القول أنهم إليها لا يرجعون. قال: أى رب فأبلغ من ورائى، فأنزل الله: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾** الآية(٤).

وهذه الحياة حياة برزخية لانعلم عنها شيء والله أعلم بمن يُكلم فى سبيله، ولانقطع

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١١٤)، ومسلم فى الوصية(٦ / ١٠٠ / ٢٢) عن ابن عباس به

(٢) (٣) تقدم قريباً

(٤) أخرجه ابن مردويه فى «تفسيره» كما فى تفسير ابن كثير (٢ / ١٤١ ـ الشعب)

لأحد بشهادة فهو حي، لكن ماهية وحقيقة هذه الحياة ما هي؟ لاسبيل لنا لمعرفة هذه الحياة على الحقيقة والآية عامة ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ فهو فى الدنيا ميت ولكنه حى عند ربه حياة ورزقاً لانعلمه، كما أورد ابن كثير حديثاً مسلسل بالأئمة الثلاثة، أخرجه أحمد فى «مسنده» عن محمد بن إدريس الشافعي، عن مالك بن أنس، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**نسبة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه**» (١).

قوله: (يعلق) أى يأكل، وروى مسلم فى صحيحه عن ابن مسعود مرفوعًا: «**أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل مغلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربهم إطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئًا؟ فقالوا: أى شيء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى**، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا(٢).

وروى أحمد فى «مسنده» عن ابن عباس مرفوعًا «**الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فيه قبة خضراء يخرج إليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية**»(٣) تفرد به أحمد.

قال ابن كثير: وكأن الشهداء أقسام منهم من تسرح أرواحهم فى الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون، منتهى سيرهم إلى هذا النهر فيجتمعون هنالك، ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح، والله أعلم. اهـ.

هذه حياة لاسبيل لمعرفتها لكنا نؤمن بالله وماجاء عن الله على مراد الله ونؤمن برسول الله وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله.

● **تقسيم آخر للتوسل والوسيلة: من حيث الشرع والكون:**

تنقسم الوسائل من هذه الحيثية أيضًا إلى قسمين: وسائل شرعية ووسائل كونية.

أولاً: الوسائل الشرعية: هى القرب والطاعات، ويشترط فيها أن تثبت بالدليل مثل أن نتوسل للشفاعة بالدعاء بعد الأذان« **اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة أت محمداً الوسيلة والفضيلة...**»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣ / ٤٥٥)

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإمارة (٧ / ٣٧ / ١٢١)

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١ / ٢٦٦)

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٦١٤) عن جابر به
وأنظر «رياض الصالحين» (١٠٤٠ بتخريجنا)

فالتوسل لله بهذا الدعاء -للتعرض للشفاعة- فهذا الدعاء وسيلة شرعية لغايات أخروية أو مثلاً التوسل لله بالصلاة والصيام والحج ترجو رحمته وتخشى عذابه.

والدليل هو الذى دلنا على أنها وسيلة شرعية فهذا أشبه بأنواع التوسل المشروعة الثلاثة السابقة.

ولابد لصلاح العمل من شرطيين هما فى قوله تعالى: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾أن يكون العمل صالحًا مع الإخلاص وأيضًا فى قوله تعالى: ﴿**بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ**﴾يعنى يخلص ويتبع.

ثانياً التوسل الكوني: يعنى التوسل الذى ثبت نفعه بالفطرة التى فطره الله عليها أو التجربة مثال: تتوسل بحبة البركة لأنْ تُشفي، فالله فطر هذه الحبة على هذه الخاصية فهى مخلوقة لهذا فعرفنا الفائدة فيها إما بالشرع وإما بالطب.

فالشرع مثل حبه البركة، وعسل النحل، والحجامة(١).

وبالطب مثل باقى الأدوية التى ثبت بالتجربة أنها نافعة.

سؤال: هل التوسل الكونى مشروع أم ممنوع؟

الجواب: التوسل الكونى له شرطان ليكون مشروعًا:

(الأول) ألا يكون هناك مانع شرعي، مثال: أن النبى وجد رجلاً معلق خيطًا قال: **مما هذا؟**قال: من الواهنة قال: «**انزعه فإنه لايزيدك إلاوهناً فإنك لو مت على ذلك ما أفلحت أبداً**»(٢) فهذا الخيط منع منه الشرع.

الثانى أن يثبت بالتجربة أنها تنفع مثل رباط الضغط الطبي.

قد يقول قائل لماذا أخذتم ماثبت نفعه من جهة الطب ولماذا لا أتعاطى وسيله كونية لم يثبت نفعها من جهة الطب؟

قال ابن تيمية: أن الأصل فى العبادات المنع إلابدليل والأصل فى العادات الإباحة إلا بدليل.

الجواب: أن الثابت نفعه من جهة الطب أقره الشرع فأنت لم يتعلق قلبك بغير الله بل كان قلبك متعلق بالله وبما شرعه لك وأمرك بتعاطيه ودليل ذلك؟.

---

(١) تقدم تخريجه فى حديث السبعين..

(٢) سيأتى تخريجه

قول النبى «**تداووا عباد الله فإن الله ماأنزل من داء إلا أنزل له دواء علمه من علمه وجهله من جهله**».(١)

وسُئل النبى أفى الطب خير؟ قال «**نعم**»

فإذا ثبت بالطب نفع هذه الأشياء فأنا ممتثل لشرع لم أتعلق بجاهلية أم الذى لم يثبت نفعه فكأنما صاحبه متعلق بما تعلقت به الجاهلية الأولى بطيرة أو خيط أو تميمة مثلاً.

وأيضاً قال تعالى فى الوسيلة ﴿**فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً**﴾﴿**وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا**﴾وأيضاً ﴿ **لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا**﴾ فإذا تعلقت بخيط من الواهنة فكأنك تعلقت بشىء لاينفع ولايضر فإذا اعتقدت أن هذا سبب وأن الله نافع على الحقيقة فهذا شرك أصغر لأنه ليس سبب لاشرعى ولاقدرى وقول ابن تيمية: الأصل فى العادات الإباحة إلا بدليل لا يختلف مع ما قلناه من أن الوسائل الكونية مباحة إلا بدليل يمنع.

تنبيه: التوسل بدعاء الصالحين يختلف اختلافاً كبيراً عن طلب الأخ من أخيه الدعاء له بظاهر الغيب؟ فالتوسل بدعاء الصالحين ثابت فى الصحيح(٢)، أما طلب الأخ من أخيه أن يدعو له فقد اختلف فى تصحيح الأحاديث التى فيها طلب الدعاء بظهر الغيب كحديث: « **لا تنسانا من صالح دعائك**»(٣) قاله ﷺ لعمر عند سفره، والحديث لا يصح إسناده إلى النبيﷺ ولا يثبت عنه، وغيره من الأحاديث التى تحمل نفس المعنى من طلب الدعاء من الغير اختلفوا فى ثبوتها وقالوا فى سبب المنع غير ما تقدم وهو: أن طلب الرجل الدعاء من أخيه يفضى إلى أمرين:

إما إلى مغالاة أو غرور، فإن الرجل المطلوب الدعاء منه ربما يصيبه الغرور، أو ربما يغتر طالب الدعاء بهذا الرجل أو يغالى فيه. لذلك أثر عن عمر أنه لما طُلب منه الدعاء قال للطالب أأنا نبي؟ لكن إذا لم يطلب منك هل يجوز أن تدعو أنت لأخيك بظاهر الغيب؟

---

(١) تقدم تخريجه فى باب من حقق التوحيد.

(٢) تقدم حديث الاستسقاء بدعاء العباس ـ رضى الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٩٨)، والترمذى (٣٥٦٢)، وابن ماجه (٢٨٩٤) عن عمر به.

الجواب: نعم وهذا ثابت فى القرآن وفى السنة.

قال تعالى ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وكذلك إبراهيم دعى لذريته وأولاده والمؤمنين ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ والرسول كان يدعو للصحابة بظاهر الغيب.

لكن هل يجوز طلب الدعاء؟

الجواب: قال ابن عثيمين ـ مؤدى ما قاله : إنه إذا أمنت هذه العلل وأنت تطلبه لاعلى سبيل الضعف والافتقار والاحتياج لدعائه بل تطلبه على سبيل إثابته بإشغاله بذكر وقربة فيثاب ويؤجر عليها وتؤجر أنت على هذه الدلالة والإرشاد فإن فعلت على هذه النية فيجوز.

فربما أخ طيب تقول له أدعولى ولاتنسانى من صالح دعائك.

فيقول فى نفسه : أنا اصبحت ولى من الأولياء، وصاحب كرامات، وشيخ الإسلام وممكن أعطى دورس وغير ذلك. أما التوسل بدعاء الصالحين لايكون بظاهر الغيب بل هو يدعو لك وأنت تُؤمّن كما فى قصة توسلهم بالعباس وكذلك توسلوا بدعاء النبى فدعى وهم أمنوا وليس بظاهر الغيب.

مسألة : التوسل بجاه النبى ﷺ والرد عليه.

أولاً : من القرآن:

استدلوا بقوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾و﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ والرد عليهم من خلال هذه الآيات:

١ ـ ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾

٢ـ ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾

٣ـ ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾

٤ ـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

أما استدلالهم بالآية ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ لجواز التوسل بالمقبورين والموتى

الرد عليهم :إذا كنتم تقصدون بالوسيلة المعنى اللغوى لها بمعنى هى التوصل إلى المقصود فهذا معنى الوسيلة لغوياً، ولكن العبرة بالمعنى الشرعي: التوصل إلى الله تعالى على ما شرعه الله عزوجل فلا تكون الآية هنا حجة لهؤلاء الذين توسلوا إلى الله بغير ما شرع .

ثانياً : شبهة التوسل بجاه النبى وما جاء فى ذلك من أحاديث والرد عليها:

(١) ماأخرجه الحاكم فى «مستدركه» وصححه حديث توسل آدم بمحمد فقال الله **«كيف عرفته ولم أخلقه قال رأيت اسمه على العرش»**.

قلت هذا الحديث حدثنى الشيخ محمد البنا أن هذا الحديث فيه ثلاثة علل ومسلسل بثلاثة من الضعفاء وقال الذهبى فى المستدرك أن الحديث موضوع[١].

(٢) مسألة التوسل فى حديث فاطمة بنت أسد[٢]، وحديث **«اللهم أنى أسألك بحق السائلين عليك»**[٣]، وحديث **«إذا أصبح وأمسى»**[٤]، وحديث «كان يستفتح بصعاليك المهاجرين»[٥] وحديث **«توسلوا بجاهى فإن جاهى عند الله عظيم»**، وهذا الأخير قال بوضعه ابن تيمية فى كتابه التوسل والوسيلة.

وهذه الأحاديث التى ذكرتها لاتخلو من ضعف كبير لاسيما وحديث آدم يرده قوله

(١) ولفظه : «عن عمر بن الخطاب مرفوعاً: « لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لى فقال: يا آدم وكيف عرفت محمد ولم أخلقه . قال : يارب لما خلقتنى بيدك ونفخت فى من روحك رفعت رأسى، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمداً رسول الله، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلاأحب الخلق إليك، فقال: غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك» أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (٢ / ٦١٥) من طريق أبى الحارث عبدالله بن سلم الفهرى، ثنا إسماعيل بن مسلمة، أنبأنا عبدالرحمن بن زيد بن سلم عن أبيه عن جده عن عمر، وقالك صحيح الإسناد، وهو أول حديث ذكرته لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى هذا الكتاب. أهـ فتعقبه الذهبى بقوله : بل موضوع .

وعبدالرحمن واه، وعبد الله بن أسلم الفهري: لا أدرى من ذا؟ أهـ، والعلة الثانية: جهالة الإسناد إلى عبدا لرحمن، والعلة الثالثة : اضطراب عبدالرحمن، فتارة يرفعه، وتارة يوقفه على عمر.

(٢) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٢٤ / ٣٥١ / ٨٧١) عن نس، وأبو نعيم فى «الحلية» (٣ / ١٢١) وأنظر «المجمع» (٩ / ٢٥٧)

(٣) أخرجه ابن ماجه (٧٧٨) عن أبى سعيد به بإسناد ضعيف.

(٤) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٨ / ٣١٦ / ٨٠٢٧) بإسناد ضعيف وأنظر «المجمع» (١٠ / ١١٧)

(٥) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (١ / ٢٩٢ / ٨٥٨) عن أمية بن خالد مرسلاً.

تعالى ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فلما حصل ماحصل من خطيئة آدم وحواء قالا ذلك، ولم يتوسلا بمحمد كما يزعم الصوفية.

(٣) أما **حديث** فاطمة بنت أسد فخرجه الطبراني في «المعجم الكبير»، وابن حبان، والحاكم، وفيه «**رحمك الله يا أمي بعد أمي، إلى أن قال اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع مدخلها في القبر بحق نبيك والأنبياء من قبلي وأنت أرحم الراحمين**»

والجواب عليه: أنه ضعيف لا تقوم به حجة.

(٤) **وحديث «إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور»**[(١)] فالجواب: أنه ظاهر عليه أمارات الكذب والوضع، وعلى فرض صحته فإنه مردود بالحديث الصحيح: «**إذا مات بن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث** ...»[(٢)] **الحديث**. فزيارة القبور لا تكون إلا للعظة والتدبر، لا للتوسل والاستغاثة أو الاستعانة بالمقبورين الذين انقطع عملهم.

(٥) وحديث «**يابني كعب بن لؤي انقذوا انفسكم من النار، يا فاطمة انقذي نفسك من النار فإني لاأغني عنك من الله شيئاً**»[(٣)].

(٦) **وحديث «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله»**[(٤)] أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

●●●

(١) قال ابن تيمية في «التوسل والوسيلة» تحت هذا الحديث: فهذا الحديث كذب مفترى على النبي ﷺ بإجماع العارفين بحديثه لم يروه آحد من العلماء بذلك ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم في الإيمان (٢ / ٨١ / ٣٤٨) عن أبي هريرة.

(٤) تقدم تخريجه أيضاً.

وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(١)

● **مناسبة الآية للباب:**

قال سليمان آل الشيخ (٢) لما كان قوم إبراهيم يعبدون الله ويعبدون غيره، فتبرأ مما يعبدون إلا الله لاكما يظن الجهال أن الكفار لايعرفون الله، ولايعبدونه أصلاً.

ثم قال : فتبين بهذا أن معنى لاإله إلا الله هو البراءة مما يعبدون من دون الله، وإفراد الله بالعبادة، وذلك هو التوحيد لامجرد الإقرار بوجود الله وملكه وقدرته وخلقه كل شيء. أ هـ.

وقال عبدالله بن جار الله (٣): المناسبة أنها أفادت أن التوحيد معناه تجرد الإنسان من الشرك وإنكاره له، وإخلاص العبادة لله وحده. أهـ.

وقال ابن باز (٤): هذا تفسير التوحيد بمعناه فقوله ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾كقولنا: لاإله، وقوله ﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ كقولنا : إلا الله. -وسيأتي من كلام محمد بن حسن مايشبه ذلك - فبين أن معنى التوحيد البراءة من عبادة غير الله، وإنكارها واعتقاد بطلانها و الرد عليها ، والتوحيد لله وحده بجميع أنواع العبادات. أهـ.

وقال ابن عثيمين(٥) : أن التوحيد لايحصل بعبادة الله مع غيره، بل لابد من إخلاصه لله. أهـ.

وقال القرعاوي(٦): حيث دلت الآية على أن توحيد الشخص لايصح إلا إذا تبرأ من عبادة كل ما سوى الله. أهـ.

الإعراب(٧) :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾، الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق لتذكير العرب بحال جدّهم الأعلي، والظرف متعلق يا ذكر محذوفاً

(١) سورةالزخرف :(٢٦ :٢٨)

(٢) تيسير العزيز الحميد (١٠٤)

(٣) فتح الله الحميد (٣٤)

(٤) التعليق المفيد (٥٨)

(٥) القول المفيد (١/ ١٨٧)

(٦) الجديد(٧٣).

(٧) إعراب القرآن (٩/ ٧٩، ٨٠)

وجملة ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ فى محل جر بإضافة الظرف إليها ﴿لأَبِيهِ﴾ متعلقان بـ﴿قَالَ﴾ و﴿قَوْمِهِ﴾ عطف على ﴿أَبِيهِ﴾ وجملة ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ﴾ فى محل نصب مقول القول و﴿مِمَّا﴾ متعلقان ببراء وجملة ﴿تَعْبُدُونَ﴾ صلة ما ﴿إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ إلا أداة استثناء والذى مستثنى والاستثناء منقطع كأنه قال لكن الذى فطرنى فإنه سيهدين ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً بناءً على أنهم كانوا يشركون مع الله الأصنام، وأجاز الزمخشرى وغيره أن تكون إلا صفة بمعنى غير على أن «ما» فى ما تعبدون موصوفة تقديره إننى برآء من آلهة تعبدونها غير الذى فطرنى فهو نظير قوله تعالي﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ورجح أبو حبان انقطاع الاستثناء إذ كانوا لايعبدون الله مع أصنامهم. وجملة فطرنى صلة للموصول والفاء تعليلية وإن واسمها وجملة سيهدين خبرها والسين للتأكيد لا للاستقبال أى يديم هدايتى لأنه تعالى هاديه فى المستقبل والحال والمفعول به محذوف أى سيهدينى لرعاية الفاصلة. أهـ.

قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾(١).

● **ماجاء فى التفسير بالقرآن**

قال الشنقيطى (٢) :ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قال لأبيه وقومه: إنه براء أى برىء، من جميع معبوداتهم التى يعبدونها، من دون الله أى يعنى أنه برىء من عبادة كل معبود، إلا المعبود الذى خلقه وأوجده فهو وحده معبوده.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى ذكره عن إبراهيم فى مواضع أخر من كتابه كقوله تعالى ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّى إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾(٣) الآية وكقوله تعالى :﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٤).

(١) الزخرف (٢٦، ٢٧).
(٢) «أضواء البيان» (٧/١٤٨، ١٤٩)
(٣) الشعراء (٧٥-٧٨).
(٤) الأنعام (٧٨-٧٩).

وزاد جل وعلا فى سورة الممتحنة براءته أيضاً من العابدين وعداوته لهم وبغضه لهم فى الله، وذلك فى قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾(١).

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ ذكر نحوه فى قوله: ﴿الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾(٣) وقوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾(٤)

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّنِى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي﴾ أى خلقنى. يدل على أنه لايستحق العبادة، إلا الخالق وحده جل وعلا.

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة، دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾(٥) الآية، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾(٦) وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾(٧) وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾(٨) الآية، وقوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾(٩) وقوله تعالى ﴿الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾(١٠) الآية إلى غير ذلك من الآيات.

(١) الممتحنة (٤).

(٢) الشعراء(٧٨).

(٣) الصافات (٩٩).

(٤) الأنعام (٧٧).

(٥) البقرة ٢١٠).

(٦) الشعراء (١٨٤).

(٧) الرعد (١٦).

(٨) النحل (١٧).

(٩) الأعراف.

(١٠) الفرقان (٢-٣).

● **ماجاء فى التفسير من الموقوف**

قوله تعالى : **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾**.

عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قرأ: «**إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ**»بالياء أى (يعبدون)(١).

● **أقوال المفسرين**

قال ابن جرير(٢): يقول تعالى ذكره **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾** الذين كانوا يعبدون ما يعبده مشركو قومك يامحمد **﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾** من دون الله، فكذبوه، فانتقمنا منهم كما انتقمنا ممن قبلهم من الأمم المكذبة رسلها.

وقيل (**إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ**) فوضع البراء وهو مصدر موضع النعت، والعرب لا تثنى البراء ولاتجمع ولاتؤنث، فتقول : نحن البراء والخلاء لما ذكرت أنه مصدر، وإذا قالوا هو برىء منك بالياء، وقد يجمع بريء برآء وأبراء.

ثم ذكر بسنده إلى قتادة قال: كايدهم، كانوا يقولون أن الله ربنا ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله فلم يبرىء من ربه.

قال ابن كثير (٣) يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذى تنتسب إليه قريش فى نسبها ومذهبها إنه تبرأ من أبيه وقومه فى عبادتهم الأوثان فقال: **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ﴾**

وقال الشوكانى (٤) **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾** الآية، أى واذكر لهم وقت قوله لأبيه وقومه الذين قلدوا آباءهم وعبدوا الأصنام. أهـ.

وبنحوٍ مما ذكرنا قال جميع من رأينا من المفسرين.

فائدة : علاقة الآية بما قبلها من الآيات فى نفس السورة، وبيان المقصود الأصلى من الآية :

قال الرازي(٥) : اعلم أنه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة أنه ليس لأولئك الكفار داع يدعوهم إلى تلك الأقاويل الباطلة إلا تقليد الآباء والأسلاف، ثم بين أنه طريق

(١) ذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٥/ ٧٢٠). ونسبه للفضل بن شاذان فى كتاب« القراءات»

(٢) «تفسير الطبري» (١١/ ٢٥/ ٣٨)

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٢، ١٢٣)

(٤) فتح القدير (٤/ ٥٣١).

(٥) «التفسير الكبير»

باطل ومنهج فاسد، وأن الرجوع إلى الدليل أولى مـن الاعتماد على التقليد، أردفه بهذه الآية والمقصود منها ذكر وجه آخر يدل على فساد القول بالتقليد، وتقريره من وجهين:

الأول: أنه تعالـى حكى عن إبراهيـم عليه السلام أنه تـبرأ عن دين آبائه بـناءً على الدليل.

فنقول: إما أن يكون تقليد الآباء فى الأديـان محرماً أو جائزاً، فإن كان محرماً فقد بطل القول بالتـقليد. وإن كان جائزاً فمعلوم أن أشرف آباء الـعرب هو إبراهيم، وذلك لأنهم ليس لهـم فخر ولاشرف إلا بأنهم من أولاده، وإذا كان كذلك فـتقليد هذا الأب الذى هو أشرف الآباء أولى من تـقليد سائر الآباء، وإذا ثبت أن تقليـده أولى من تقليد غيره فنقـول إنه ترك دين الآباء، وحكم بأن اتـباع الدليل أولى من متـابعة الآباء، وإذا كان كذلك وجب تقليـده فى ترك الآباء ووجب تقليده فى ترجيح الدليـل على التقليد. وإذا ثبت هذا فـنقول: فقد ظهر أن الـقول بوجوب يوجب المـنع من التقليـد وما أفضى ثبوته إلى نفيـه كان باطلاً، فوجب **أن يكون القول بالتـقليد باطلاً** فهذا طريق رقيق فى إبطال التقليد، **وهو المراد بهذه الآية**(١).

الثاني: فى بيان أن ترك التقليد، والرجوع إلى متابعة الدليل أولى فى الدنيا والدين، أنه تعالى بين أن إبراهيم عليه السلام لما عـدل عن طريق أبيه إلى متابعة الدليل لا جرم جعل الله ديـنه ومذهبه باقـياً فى عقبه إلـى يوم القيامـة، وأما أديان آبائه فقـد اندرست وبطلت، فثبت أن الرجـوع إلى متابعة الدليل يبقى محمـود الآثر إلى قيام الساعة، وأن التقليد والإضرار ينقطع أثره، ولايبقى منه فى الدنيا خبرولا أثر.

فثبت مـن هذين الوجهين أن مـتابعة الدليـل وترك التقليـد أولى، فهذا بيان المـقصود الأصلى من هذه الآية أهـ.

● **قوله ﴿ إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾** كما قال إبراهيم علـيه السلام فى موضع آخر **﴿الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾**(٢).

● **أقوال المفسرين**

قال ابن جرير (٣) قوله ﴿ إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِي﴾ يقول إنى بريء مما تـعبدون من شيء إلا من الذى (فطرني) يعنى الذى خلقني.

(١) ومذهب من رد التقليد بالجملة دون تفصيل سيأتى مناقشته فى مبحث جليل.

فى وضع الضوابـط والقواعد للتقليـد فى هذا الكتاب فى البـاب السابع والثلاثين (من أطـاع العلماء والأمراء) فليرجع إليه لأهميته.

(٢) الشعراء / ٧٨

(٣) تفسير الطبرى (١١/ ٢٥/ ٣٨).

﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ يقول: فإنه سيقومنى للدين الحق، ويوفقنى لاتباع سبيل الرشد. ثم أسند عن السدي: (فطرني) قال : خلقنى . أهـ.

وبنحو قول ابن جرير هذا قال المفسرون.

وقال الزمخشري[1] : (فإن قلت) كيف تجعله ـ فطرنى ـ بدلاً وليس من جنس ما يعبدون؟ فالجواب: من وجهين (**أحدهما**) أن ذات الله مخالفة لجميع الذوات، فكانت مخالفة لذوات ما يعبدون.

(**الثاني**) أن الله تعالى غير معبود بينهم والأوثان معبود؟

قلت: قالوا : كانوا يعبدون الله مع أوثانهم، وأن تكون (إلا) صفه بمعنى (غير) على أن مافى (ما تعبدون) موصوفة تقديره (إننى براء) من آلهة تعبدونها غير (الذى فطرني)، فهو نظير قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾

[فإن قلت] : مامعنى (سيهدين) على التسويف؟

قلت: قال مرة (فهو يهدين) ومرة (فإنه سيهدين) فاجمع بينهما، وقدر كأنه قال فهو يهدين وسيهدين، فيدلان على استمرار الهداية فى الحال والاستقبال . أهـ.

قوله ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

قال ابن جرير[2] يقول تعالى ذكره: وجعل قوله ﴿إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ وهو قوله لا إله إلا الله ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ﴾، وهم ذريته، فلم يزل فى ذريته من يقول ذلك من بعده واختلف أهل التأويل فى الكلمة التى جعلها إبراهيم فى عقبه. أهـ.

قلت: وهو اختلاف تنوع وليس تضاد لأن الأقوال كلها قد قاربت المعنى وإليك البيان

القول الأول: الكلمة هى لا إله إلا الله.

وعن ابن عباس ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ﴾ قال : **لا إله إلا الله** فى عقبه. قال : عقب إبراهيم ولده[3].

وعن قتادة :شهادة أن لاإله إلا الله والتوحيد، لم يزل فى ذريته من يقولها من بعده [4].

---

(١) الكشاف (٣/٤١٦)

(٢) تفسير ابن جرير (١٢/٢٥/٣٩).

(٣، ٤) تفسير ابن جرير (١٢/٢٥/٣٩).

وقاله مجاهد [1]، والسدي[2]

القول الثاني: الكلمة هى الإخلاص والتوحيد:

عن مجاهد ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ قال: **الإخلاص والتوحيد** لايزال فى ذريته من يقولها من بعده ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قال: يتوبون، أو يذكرون[3].

عن قتادة: التوحيد والإخلاص، يزال فى ذريته من يوحد الله ويعبده[4]. ا.هـ.

(القول الثالث) الكلمة هى الإسلام.

عن عبدالرحمن بن زيد قوله ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ فقرأ ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: جعل هذه باقية فى عقبه، قال **الإسلام**، وقرأ: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ فقرأ ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾[5].

وعن عكرمة ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ قال فى الإسلام أوصى بها ولده.

القول الرابع: أن لاتعبدوا إلا الله:

قال الضحاك الكلمة: أن لاتعبدوا إلا الله[7]. أهـ.

وزاد البغوى [8]**عن ابن جرير:** يعنى جعل وصية إبراهيم التى أوصى بها بنيه باقية فى نسله وذريته، وهو قوله عزوجل ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾. اهـ.

وقال ابن كثير[9] ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ أى: هذه الكلمة وهى عبادة الله وحده لاشريك له، وخلع ماسواه من الأوثان، وهى لا إله إلا الله أى: جعلها فى ذريته يقتدى به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام. لعلهم يرجعون، أى: إليها.

قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم فى قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ يعنى: لاإله إلا الله، لا يزال فى ذريته من يقولها.

(١، ٢، ٤، ٥) «تفسير ابن جرير» (١٢/ ٢٥/ ٣٩).

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٥/ ٧٤٦). وتقدم من عند ابن جرير

(٦) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» وذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم أيضاً فانظره بتخريجنا

(٧) «القرطبي» (٩/ ٥٨٩٧).

(٨) «معالم التنزيل» (٥/ ٩٧).

(٩) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٢٣)

وقال ابن زيد: كلمة الإسلام، وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة أهـ.

وقوله (عقبه)

كما قال ابن جرير سابقاً: هم ذريته.

وعن الزهرى قال: عقب الرجل ولده الذكور والإناث وأولاد الذكور[١].

وعن عبيدة قال: قلت لإبراهيم: ما العقب ؟ قال ولده الذكر[٢].

وعن عطاء فى رجل أسكنه رجل له ولعقبه من بعده أتكون امرأته من عقبه؟ قال: لا ولكن ولده عقبه[٣].

قال القرطبى [٤] قال ابن العربى: ولم تزل النبوة باقية فى ذرية إبراهيم، والتوحيد هم أصله وغيره فيه تبع لهم.

وقال ابن العربى: إنما كانت لإبراهيم فى الأعقاب موصولة بالأحقاب بدعوتيه المجابتين؟ إحداهما فى قوله ﴿**إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ**﴾فقد قال نعم إلا من ظلم منهم فلا عهد.

ثانيهما قوله: ﴿**وَاجْنُبْنِى وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾ وقيل: بل الأولى قوله ﴿**وَاجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الآخِرِينَ**﴾ فكل أمة تعظمه، بنوه، وغيرهم ممن يجتمع معه فى سام أو نوح.

وقال القرطبي[٥]: (العقب) فى اللغة عبارة عن شىء بعد شىء كان من جنسه أومن غير جنسه، يقال: أعقب الله بخير أى جاء بعد الشدّة بالرخاء وأعقب الشيب السواد وعقب يعقب عقوبًا وعقبا إذا جاء شيئاً بعد شيء ولهذا قيل لولد الرجل: عقبه والمعقاب من النساء التى تلد ذكرًا بعد أنثى هكذا أبدًا. وعقب الرجل: ولده وولد ولده الباقون بعده.

والعاقبة الولد، قال يعقوب: فى القرآن﴿**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ**﴾ وقيل: بل

(١) ذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٥/٧٤٦). ونسبه لعبد بن حميد

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد أيضاً.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) «القرطبي» (٩/٥٨٩٦)

(٥) «القرطبي» ٩٠/ ٥٩٠٠).

الورثة كلهم عقب . والعاقبة الولد، ولذلـك فسره مجاهد هنا، وقال ابن زيد: ها هنا هم الذرية. وقال ابن شـهاب: هم الولد وولد الولد. وقيل غيره على ما تقـدم عن السدى وفى الصحاح والعقب (بكسر القاف) مؤخر القدم وهى مؤنثة، وعقب الرجل أيضاً ولده وولد ولده.

وفيه لغتان: عقب وعقب (بالتسكـين) وهى أيضاً مؤنثة: عن الأخفش. وعقب فلان مكان ابيـه عاقبة أى خلفـه، وهو اسم جاء بمعنـى المصدر كقوله تـعالى ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ ولا فرق عند أحد من العلماء بين لفظ العقب والولد فى المعني. وإن اختلف فى الذرية والنسل فقيل إنـهما بمنزلة الولد والعقب؟ لايدخل ولد البنـات فيهما على مذهب مالك. وقيل إنهم يدخلون فيهما أهـ.

قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

وعن مجاهد : (**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**) قال : يتوبون أو يذكرون. أهـ.

قال البغوي(٢) : لعل أهل مكة يتبعون هذا الدين، ويرجعون عما هم عليه إلى دين إبراهيم وقال السدي: لعلهم يتوبون ويرجعون إلى طاعة الله عزوجل . أهـ.

قال الزمخشري(٣) : لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم أهـ.

وقال ابن الجوزى (٤): لعلهم يرجعون إلى التوحيد كلهم إذا سمعوا أن أباهم تبرأ من الأصنام ووحد الله عزوجل.

وقال الفخر الرازى (٥) بقول الزمخشرى نصاً.

وقال ابن كثير(٦): لعلهم يرجعون إليها ـ إلى الكلمة . اهـ

وقال الشوكاني(٧) : ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ تعليل للجعل، أى جـعلها باقية رجاء أن يرجع إليـها من يشرك منهـم بدعاء من يوحد. والضـمير فى (لعلهـم) راجع إلى أهل

---

(١) تقدم تخريجه قريباً

(٢) «معالم التزيل» (٥/ ٩٧)

(٣) «الكشاف» (٣/ ٤٨)

(٤) «زاد المسير» (٧/ ١٣٣)

(٥) «التفسير الكبير» (١٤/ ٢٧/ ٢٠٩)

(٦) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٢٣)

(٧) «فتح القدير» (٤/ ٥٣١)

مكة. وقيل الكلام فيه تقديم وتأخير ؛ والتقدير : فإنه سيهدين لعلهم يرجعون وجعلها. . . أهـ.

وقال السعدى[1] : (**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**) لشهرتها عنه، وتوصيته لذريته، وتوصية بعض بنيه، كإسحاق ويعقوب لبعض، كما قال تعالى ﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ**﴾أهـ.

أقوال شراح كتاب التوحيد فى الآية:

قال سليمان آل الشيخ[2] :

قلت : وروى ابن جرير عن قتادة فى قوله ﴿**إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِى** ﴾قال خلقني[3]

وعنه : ﴿**إِنَّنِى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِي**﴾ قال: إنهم يقولون إن الله ربنا ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ فلم يبرأ من ربه[4] -تقدم- رواه عبد بن حميد.

قلت: يعنى أن قوم إبراهيم يعبدون الله ويعبدونه غيره، فتبرأ مما يعبدون إلا الله، لاكما يظن الجهال أن الكفار لايعرفون الله، ولايعبدون أصلاً.

وروى ابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ**﴾ قال : الإخلاص و التوحيد، لا يزال فى ذريته من يوحد الله و يعبده[5]- تقدم - .

فتبين بهذا أن معنى لا إله إلا الله هو البراءة مما يعبدون من دون الله، وإفراد الله بالعبادة، و ذلك هو التوحيد لامجرد الإقرار بوجود الله وملكه وقدرته وخلقه لكل شىء، فإن هذا يقر به الكفار وذلك هو معنى قوله: ﴿**إِنَّنِى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِي**﴾ فاستثنى من المعبودين ربه وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هى شهادة أن لاإله إلا الله. قاله المصنف اهـ.

قال محمد بن حسن[7] : (لاإله) ، نفى الآلهة الباطلة، وذلك قوله ﴿**إِنَّنِى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ**﴾ وقولك (إلا الله)، إثبات الألوهية للهتعالي، وذلك قوله ﴿**إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِي**﴾

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٢٠٤)

(٢)« تيسير العزيز الحميد» (١٠٣، ١٠٤)

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٥ / ٣٨) وتقدم.

(٤) تقدم تخريجه .

(٥) تقدم

(٦) «فتح الله الحميد المجيد» (١٨٧ ـ١٩١)

فتحقق أن التوحيد الذى ألزم الله به العبيد هو إفراد الله بالعبادة نقلاً، وعقلاً، وفطرة.

أما النقل: قوله تعالى ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ وقوله تعالى ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾.

أما العقل: فكما قيل البعرة تدل على البعير، والسير يدل على المسير، فكيف لاتدل سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج على اللطيف الخبير؟! فإذا شهدت العقول على صفاته، وتفكرت فى أفعاله الجميلة وتدبرت أقواله الحسنة لدل ذلك على أن من هذه أفعاله التى أبهرت العقول وعجزت عن إدراك حقيقتها أنه هو الله لاإله إلا هو.

وأما الفطرة: فمعلوم بالضرورة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة أنه لا زعم لأحد أن العالم له صانعان مكافئان فى الصفات و الأفعال، بل ولا أثبت أحد من بنى آدم إلهًا مساويًا لله فى جميع صفاته، بل عامة المشركين بالله مقرون بأنه ليس له شريك مثله، بل عامتهم مقرون بأن الشريك الذى زعموا أنه مملوك لله سواء، كان ملكاً أو نبياً أو كوكباً أو صنماً كما كان مشركو العرب يقولون فى تلبيتهم : (**لبيك لاشريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك**)، فأهلَّ رسول الله ﷺ بالتوحيد «**لبيك اللهم لبيك، لبيك لاشريك لك لبيك...**»[1] أهـ. مختصراً.

قلت : ودليل الفطرة أنها تشهد بالتوحيد من الكتاب والسنة قوله تعالى ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ**﴾ الآية . قوله ﷺ «**كل مولود يولد على افطرة** »[2] وقال تعالى ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ الآية . والله أعلم وقوله تعالى فى الحديث القدسى عند مسلم «**إنى خلقت عبادى حنفاء**»[3].

قال عبد الرحمن آل الشيخ[4]: فتدبر كيف عبرالخليل عليه السلام عن هذه الكلمة العظيمة بمعناها الذى دلت عليه ووضعت له: من البراءة من كل مايعبد من دون الله من المعبودات الموجودة فى الخارج: كالكواكب، والهياكل، والأصنام التى صورها قوم نوح

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الحج (٤ / ٣٤٦ / ٢٢) عن ابن عباس .

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه

(٤) «فتح المجيد» (١/١٢٣)

علـى صور الصالحـين: ود، وسواع، ويغوث، ويـعوق، ونسـراً، وغيرها مـن الأوثان والأنداد التى كان يعبدوها المشركون بأعيانهم. ولم يستثن من جميع المعبودات إلا الذى فطره، وهو الله وحـده لاشريك له، فهذا هو الذى دلـت عليه كلمة الإخلاص مـطابقة، كما قال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾(١). فكل عبادة يقصد بها غير الله من دعاء وغيـره فهى باطلة. وهى الشرك الذى لايغفره الله﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾(٢). أهـ.

وقال ابن عثيمين(٣) : قوله ﴿إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِى﴾ جمع بين النفى والإثبات، فالنفى ﴿إِنَّنِى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ والإثبات﴿إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِى﴾ فدل على أن التـوحيد لايتم إلا بالـكفـر بما سـوى الله والإيمان بـالله وحده ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾(٤) فهؤلاء يعبـدون الله وغيره؛ لأنه قال ﴿إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِي﴾ والأصل فى الاستثناء الاتصال إلا بدليل، ومع ذلك تبرأ منهم.

وكذا يوجد فى بعض الـبلدان الإسلامية من يصلى ويصوم ويـحج ومع ذلك يذهبون إلى القبور ويسجدون لـها ويركعون، فهم كفار غير موحدين ولايـقبل منهم أى عمل، وذلك من أخطر مايكون على الشعوب الإسـلامية؛ لأن الكفر بما سوى الله عندهم ليس بشىء، وهذا جهل منـهم وتفريط من علماءهم؛ لأن العامى لايـأخذ إلا من عالمه، لكن بعض الناس - والعياذ بالله ـ عالم دولة لا عالم ملة . وفى قول إبراهيم ﷺ **﴿إلا الذى فطرني﴾** ولم يقل إلا الله فائدتان: .

الأولى : الإشارة إلى علـة إفراد الله بالعبادة، لأنه كمـا أنه منفرد بالخلـق فيجب أن يفرد بالعبادة.

الثانية: الإشارة إلى بطلان عـبادة الأصنام، لأنها لم تفـطركم حتى تعبدوهـا، ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفى و الإثبات.

---

(١) الحج ٦٢
(٢) غافر ٧٣ - ٧٤
(٣) القول المفيد (١/١٨٦،١٨٧)
(٤) البقرة :٢٥٦

وهذا من البلاغة التامة فى تعبير إبراهيم عليه السلام. أهـ.

فوائد من الآية:

قال ابن عثيمين(١): يستفاد من الآية أن التوحيد لايحصل بعبادة الله مع غيره، بل لابد من إخلاصه لله، والناس فى هذا المقام ثلاثة أقسام:

١- قسم يعبد الله وحده.

٢- قسم يعبد غيره فقط.

٣- قسم يعبد الله وغيره.

والأول فقط هو الموحد. أهـ.

وقال القرعاوي(٢): - أى من الآية -.

١- أن أصل دين الأنبياء واحد وهو التوحيد.

٢- الجهر بالحق من صفات المرسلين.

٣- وجوب إنكار المنكر ولو على الأقربين.

٤- وجوب البراءة من الشرك.

٥- بيان أن قوم إبراهيم يعبدون الله، ولكنهم يشركون معه.

٦- أن هداية التوفيق خاصة بالله. أهـ.

وهذا النوع من الشرك هو مايعرف بالولاء والبراء.

فصول

الحب والمودة على الدين، لا لفرقة ولا لحزب

قال تعالى: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾(٣).

قال الفقير: قال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب»(٤).

---

(١) «القول المفيد (١/ ١٨٧). (٢) «الجديد» (٧٣).

(٣) المجادلة: ٢٢.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦١٦٩) ومسلم فى البر والصلة (٨/ ٤٣٧/ ١٦٥)

وأنظر «رياض الصالحين» (٣٦٩ بتخريجنا).

وأنظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلالة» (٢٥٠)

فهذه حقيقة الموالاة نصرة ومحبة وتذكير لبعضهم.

وقد بين الله علاقة الموالاة بالتوحيد كما ثبت عن السلف مرفوعاً: «**أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله والموالاة فى الله والمعاداة فى الله**»(١) فهذه أوثق عرى الإيمان فكأن جزاء الموالى ليس الغلبة والنصرة فقط إنما هو متعلق بأوثق عرى الإيمان وفى بعض الروايات «**أن تعطى فى الله وتمنع فى الله**» إما موقوفة أو مرفوعة ذكرها صاحب «الولاء والبراء»(٢) فيكون أصل العطاء والمحبة والتزويج لله.

وجزاؤه أيضاً ما ثبت فى الصحيح إذا كان موالاته لله وعلى هذه الكلمة ليس لنصرة حزب أو جماعة أو لنفسه هو الذى يجد حلاوة الإيمان «**ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون...**»(٣) ولو لم يكن فى المذهبية والحزبية آفة إلا هذه الآفة التى تسبب عدم وجود حلاوة الإيمان فى قلبك فلا توالى ولا تعادى إلا على الفرقة أو الشيخ أو الجماعة أو الحزب لكفى بها آفة التى تطعن فى كمال التوحيد، والرسول قال «**ثلاثة من كن فيه ..**» فى المقابل قال للمتعصب تعصبًا جاهليًا «**ذروها فإنها منتنة**» (٤) فالولاء والبراء ليسوا على حزب حتى لو كان هم الأنصار أو المهاجرين فالأصل هو الله والرسول والإسلام توالى عليه وتعادى عليه معنى ذلك أن كل من دخل فى الإسلام له منا أصل المحبة والولاء حتى لو كان مبتدعاً بدعة غير مكفرة فيوالى من جهة إسلامه ويعادى من جهة ابتداعه فنواليه لإسلامه ونبرأ من ابتداعه، وأيضًا الولاء للرسول ليس للشيخ كيف ذلك: من نرى منه طاعةلله ولرسوله ازداد ولاؤنا ومحبتنا له بقدر طاعته فيما يظهر لنا ومن نرى فيه خلاف ذلك قلّت محبتنا وولاؤنا له بقدر معصيته لله ولرسوله مع الأخذ فى الاعتبار أن أصل الولاء ما زال له لأنه ما زال فى دائرة المسلمين، فلا داعى أن أقول أن هذا أخى وحبيبى لأنه يحضر لشيخنا ويقرأ كتبنا فبقدر سماعه للشيخ يكون قدر حبنا وولائنا له، وبقدر عدم سماعه بقدر بغضنا له فصار الولاء على المشايخ فهى آفة وعقبة كؤود لكل من أراد العمل لله ولإقامة دينه.

وهذا بخلاف الولاء والبراء عند أهل البدع والاهواء فهم يوالون على أهوائهم وبدعهم

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤ / ٢٧٦)، وابن أبى شيبة فى «مصنفه» (٧ / ٢٢٦ / ٦٩) عن البراء به.

وأنظر كتابنا«فقه الخطابة وزاد الخطيب» فى خطبة شم النسيم.

(٢) انظر «الولاء والبراء» (٤١، ٤٢).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١١) ومسلم فى الإيمان (١/ ٢/ ١٣).

وانظر «رياض الصالحين» بتخريجنا (٣٧٦).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم البرو الصلة (٨ / ٣٨١ / ٦٣) عن جابر به.

فمن وافق بدعهم والوه وأحبوه ومن خالف بـدعهم عادوه وبغضوه، وهو كقول الرافضة قالوا: «لا ولاء إلا ببـراء» يعنى لا ولاء لعلى إلا ببـراء من أبى بكر وعمر وتكـفيرهم وهذا الكلام مردود عليه.

وقلنا أن الأمة اتفـقت أنهم أفضل الأمة بعد النـبى والنبى بشرهما بالجـنة ولا يبشر أحدًا بالجنـة ويعلم الله أنه سيـموت على ردة الرسول ذكـر من مناقب أبى بـكر وعمر مايجل عن أن يوصفا بـهذا الوصف القبيح فمن كفرهم فهـم أولى بهذا الوصف لحديث «من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما».(١)

فقول على بـن أبى طالب فى الخوارج: إخواننا بغـوا علينا طهرهم السيـف الشيعة قالوا: لا ولاء إلا ببراء ، أى لا ولاء لعلى إلا ببراه من أبى بكر وعمر .

هذا الكلام مردود عليه بزواج أم كلثوم من عمـر زوجها على من عمر وما كان لعلى أن يزوج ابنته من كافر وهذا كان بعد موت النبى ﷺ .

وفى قصة تزويج بنت على مـن عمر فى سندها نظر(٢) وفيه فكشف عمر عن ساقها فقالت أم كلثوم : لولا أنك أمير المؤمنين لفقأت عينيك متأولاً قوله ﷺ: «إن استطاع أن ينظر إليها فليفعل»(٣).

قال الشيعة : أن هذه تقيه: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ الرد عليهم، هذه منقصة لعلى وليست منقبة أن يخاف من عمر فأرادوا أن ينزهوا علىٍّ فوقعوا فى أشر مما فروا منه.

فالصواب : أن علياً ما زوج ابنتـه لأمير المؤمنين إلا لعلمه أنه أفضـل الصحابة بعد أبى بكـر رضى الله عنهـم أجمعين، وقـطع الله له بالـرضوان كما قـطع لغيـره وبشره بالجنة.

فإن قالوا أنهم ارتدوا بعـد موت النبى ﷺ فنرد عليهم بالآيات التـى تبشرهم بالجنة وكذلك الأحاديث التى فيها مناقبهم فلا يقـطع لأحد بهذه المناقب وهو مآله الكفر ويعلم الله أنه سيموت كافرًا ويعلم أنه سيرتد.

وفى الخبر: يأبى الله ويأبى المؤمنون إلا أبا بكر(٤).

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦١٠٤)،ومسلم فى الإيمان (٢ / ٤٩ ـ النووي) عن ابن عمر وانظر «رياض الصالحين» (١٧٣٥ـ بتخريجنا)

(٢) ذكره الألبانى فى الصحيحة (١ / ١٥٦)

(٣) أخرجه أبو داود (٢٠٨٢) عن جابر به..

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفضائل (٨ / ١٦٣ / ١١) عن عائشة.

وفى الصحيح: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين**»(١) وفى رواية: «**ومن نفسه التى تكون بين جنبيه**».

ولما كانت هذه المسألة «الحب فى الله والبغض فى الله» لا يفعلها إلا من بلغ الكمال فى الإيمان لهذا كان لها الأجر الكبير يوم القيامة وفى الدنيا أيضًا:

فى الدنيا: «**فيحبه الله**»: وفى الأثر الرجل الذى كان يحب أخاه فى الله فذهب ليزوره فى الله فأنزل الله إليه ملك فقال له «**إن الله يحبك**»(٢).

فى الآخرة: «**سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم رجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه**»(٣) أى اجتمعا فى الله وتفرقا فى الله رواه مسلم وغيره.

وقال ابن تيمية رحمه الله(٤): «فأما حب القلب وبغضه، وإرادته وكراهته، بحسب محبة نفسه وبغضها، لا بحسب محبة الله ورسوله، وبغض الله ورسوله، وهذا نوع من الهوى، فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه، ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ**﴾(٥)، ا.هـ.

وقال أيضًا: «إن الله سبحانه بعث الرسل، وأنزل الكتب، ليكون الدين كله لله ويكون الحب لأوليائه، ويكون البغض لأعدائه والإكرام والثواب لأوليائه، والإهانة والعقاب لأعدائه، وإذا اجتمع فى الرجل الواحد خير وشر، وفجور، وطاعة ومعصية وسنة وبدعة، استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة بحسب ما فيه من الشر». ا.هـ.

قال صاحب «فضل الغنى الحميد»(٦): ولا شك أن من أحب الكافرين على كفرهم، أو حتى رضى بكفرهم، وإن لم يحبه فهو كافر مثلهم، فإن الرضى بالكفر كفر، لأنه رد

---

(١) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (١٥)، ومسلم فى الإيمان (١ / / ٢٩٠/ ٦٩)

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة (٨ / ٣٦٦ / ٣٨) عن أبى هريرة وانظر «رياض الصالحين» (٣٨٠ـ بتخريجنا)

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٤٧٩)، ومسلم فى الزكاة (٧ / ١٢٠ـ النووي) عن أبى هريرة وانظر «رياض الصالحين» (٣٧٧ ـ بتخريجنا)

(٤) مجموع الفتاوى (٢٨، ٢٠٨)

(٥) القصص / (٥٠).

(٦) (ص ١١٣، ١١٤).

لكتاب الله عز وجل قال سبحانه: **﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾**(١). وقال: **﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾**(٢)، وقد تبرأ حاطب بن أبى بلتعة- كما تقدم - من أن يكون فعل ما فعل بالكفر بعد الإسلام، وهذا من المعلوم قطعًا من دين الإسلام، بل المؤمن حقًا هو من كان إلقاؤه فى النار أحب إليه من الكفر، كما قال النبى ﷺ : «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المراء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار**»(٣).

فتبين بما ذكرنا لمن يكون حب المؤمن، ولمن يكون بغضه، فالمؤمن كامل الإيمان يحب من كل وجه، والكافر يبغض من كل وجه، والفاسق العاصى الذى عنده أصل الإيمان، يُحَبُّ لإيمانه ويبغض لفسقه ومعصيته كما تقدم بيان ذلك.

وبما تقدم، يتبين لك بطلان الدعاوى المعاصرة التى تنادى **بالمحبة لأهل الأديان، والمساواة بينهما، وتعانق الهلال والصليب**، وعبارة : **الدين لله والوطن للجميع**.

وقد يسمى بعضهم اتباع الملل المختلفة بالنسبة إلى الرسل: المؤمنين من أهل الأديان السماوية، وسعى بعضهم إلى بناء **مجمع الأديان**، وكل هذه الدعاوى إنما نبعت من الكفر، والزندقة، والنفاق ، غرضها هدم هذه العقيدة لدى المؤمنين ، نسأل الله أن يكف عن المسلمين شر هذه الدعاوى وشر أصحابها.

مسألة : ما هو حكم الحب الجبلى (الطبيعي) للكافر:

نفرق بين الحب الجبلى والحب الذى يُصرف للكافر حبًا فى عقيدته.

فها هو عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول أحب أباه حبًا طبيعيًا فقال للنبى ﷺ: إن كنت قاتل أبى فمرنى أن أقتله حتى لا تأمر غيرى فأرى قاتل أبى فأقتله فأقتل مسلمًا بكافر(٤).

---

(١) آل عمران / (٨٥).

(٢) آل عمران / (١٩).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٦)، ومسلم فى الإيمان (٢ / ١٣ ـ النووي) عن أبى هريرة به. وانظر «رياض الصالحين» (٣٧٦ ـتخريجنا)

(٤) أخرجه البيهقى «الدلائل» (٤ / ٦٢) عن عاصم بن عمر بن قتادة به وذكره ابن الأثير فى أسد الغابة» (٣ / ٢٩٧).

فصول

فصل في معنى الولاء لغة واصطلاحا

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(١).

فتقدم معنا أن الكلمة هى كلمة التوحيد والإخلاص والإسلام ولا إله إلا الله.

قال محمد بن عبد الوهاب فى مسائله على هذا الباب:

ذكر سبحانه أن هذه البراءة - يعنى من المعبودين من دون الله-، وهذه الموالاة - يعنى لله عزوجل - هى تفسير شهادة أن لاإله إلا الله، فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾أهـ.

ونعنى بالولاء: الموالاة الواجبة لله، ولرسوله، وللمؤمنين، ولازمها حرمة المولاة للكافرين.

ونعنى بالبراء: التبرؤ من الشرك، وأهله، وعداوتهم، وبغضهم ولازمها حرمة البراءة من المسلمين والمؤمنين أو عداوتهم أو بغضهم.

الولاء لغة يأتى فى معانى قريبة من معناه الشرعى فهو المحبة والقربى، لقوله ﷺ « **إن آل أبى بياض ليسوا بأوليائى إنما ولى الله وصالح المؤمنين، ولكن رحماً أبلها ببلالها**»(٢) يعنى: أصلها بصلتها.

وجاء فى لسان العرب: «الموالاة - كما قال ابن الأعرابى -: أن يتشاجر اثنان فيدخل ثالث بينهما للصلح، ويكون له فى أحدهما هوى فيواليه أو يحابيه، ووالى فلانا إذاأحبه، والمولي: اسم يقع على جماعة كثيرة، فهو الرب، والمالك، و السيد، والمنعم، والمعتق، والناصر، والمحب، والتابع، والجار، وابن العم، والحليف، والحفيد، والعبد، و المعتق، والمنعم عليه، والموالاة ضد المعاداة، والموالاة: المتابعة.

وقال صاحب «المصباح المنير»: الولى فعيل بمعنى : فاعل، من وليه : إذا قام به، وقال :المؤمن ولى الله، بمعنى أنه مطيع لله.

---

(١) الزخرف: / (٢٦ - ٢٨).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى..

وفى الشرع : بمعنى النصرة والتآخى .... كما تقدم من ظاهر الآيات، ولذا.

قال ابن تيمية : «أصل الولاية: المحبة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد».

ويتضح بماذكرنا أن أكثر المعانى تدور حول : الحب، والنصرة، والقيام بالأمر، ولوازم ذلك، كالطاعة، والمتابعة، والمعاونة، والصداقة، ولوازم هذه الأمور.

ولما كان قضية الولاء والبراء ركناً من أركان التوحيد، ومقتضى كلمة لا إله إلا الله فقد كثر بيانها فى القرآن والسنة، شأنها شأن كل قضايا العقيدة، وكثر بيان أحكامها، ولوازمها، وما يترتب عليه فى الدنيا والآخرة:

فصل

فى الأدلة من الكتاب والسنة

على الترغيب فى موالاة المؤمنين والبراءة من الشرك والمشركين وذم الموالى

أولاً : نصوص القرآن : قال الله تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

قال تعالى مبيناً حرمة اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، وأن من والاهم يكون منهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(١). ويخبر سبحانه أن موالاتهم من علامات النفاق، ومرض القلب، وأنها سبب لحبوط العمل، وتستوجب الخسران، قال تعالى : ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾(٢).

وقال سبحانه مبيناً أن موالاة الكافرين لاتكون بحال من الأحوال من صفات المؤمنين،

---

(١) المائدة/ (٥١).　　(٢) المائدة / (٥٢ - ٥٦).

وأن من فعلها فقد برىء من الله، وبرىء الله منه: ﴿لا يَتَّخذ الْمُؤْمنونَ الْكَافرِين أَوْلِيَاءَ من دُون الْمُؤْمنِين وَمَن يفْعَلْ ذَلك فَلَيْس من اللَّه فِي شيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا منهُمْ تُقَاةً ويُحذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّه الْمَصِيرُ﴾(١).

وقد بين عزوجل أن الإيمان بالله واليوم الآخر، ومودة الكافرين ولو كانوا من أقرب الأقربين ـ لايجتمعان في قلب واحد، فقال عزوجل: ﴿ لا تَجدُ قَوْمًا يُؤْمنُونَ باللَّه وَالْيَوْمِ الآخرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشيرَتَهُمْ أُوْلَئكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهمُ الإيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ويُدْخلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي من تَحْتهَا الأَنْهَارُ خَالدينَ فيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئكَ حزْبُ اللَّه أَلا إِنَّ حزْبَ اللَّه هُمُ الْمُفْلحُونَ﴾(٢).

وجعل سبحانه الإسرار بالمودة للكافرين، ولو كان لحماية أهل، أو ولد، أو مال، دون موافقة القلب على الكفر، أو الرضا به علامة على الضلال، فقال عزوجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمنُوا باللَّه رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾(٣).

وعن علي رضي الله عنه قال: بعثني النبي ﷺ أنا، والزبير، والمقداد، فقال: **«انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها»** فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة قلنا: أخرجى الكتاب، قالت: ما معى كتاب، قلنا: لتخرجن الكتاب، أو لنلقين الثياب، قال: فأخرجت الكتاب من عقاصها، فأخذنا الكتاب، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا به: من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **«ياحاطب، ماهذا؟»** قال: لاتعجل على، إنى كنت امرءاً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً، ولا ارتداداً عن دينى، ولارضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: **«إنه صدقكم»**، فقال عمر رضي الله عنه: دعنى أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله

---

(١) آل عمران / (٢٨) (٢) المجادلة / (٢٢). (٣) الممتحنة / (١).

ﷺ: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم»(١) زاد البخارى فى كتاب المغازى فى «صحيحه»: فأنزل الله سورة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾(٢).

وقال سبحانه مبينا للمؤمنين الأسوة الحسنة فى هذا الباب: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾(٣).

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ فى «التفسير»(٤): أى لكم فى إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها، إلا فى استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان ﴿عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾(٥).

وبين سبحانه أن من أسباب لعن بنى إسرائيل على ألسنة أنبيائه ورسله توليهم للكافرين، وبين أن ذلك سبب سخط الله عليهم، وخلودهم فى النار، فقال سبحانه، ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۞ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾(٦).

ثم بين ـ عزوجل أن عدم الإيمان بالله، والنبى ﷺ، والقرآن هو سبب فى هذه الموالاة، فقال: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(٧).

وبين سبحانه: أن عدم القيام بهذا الركن من أركان الإيمان، يؤدى إلى الفتنة والفساد الكبير فى الأرض، فقال سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ

(١) [صحيح] البخارى (٣٠٠٧) وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.
(٢) الممتحنة/ (١).   (٣) الممتحنة / (٤).
(٤) (٤/ ,, ٣٤٨).   (٥) التوبة / (١١٤).
(٦) المائدة / (٧٨ - ٨٠).   (٧) المائدة / (٨١).

﴿في سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾(١).

قال ابن كثير رحمه الله فى «التفسير»(٢): أى: إن لم تجانبوا المشركين، وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت فتنة فى الناس، وهو التباس الأمة، واختلاط المؤمنين بالكافرين، فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل. أ هـ.

ثانياً: نصوص السنة:

١ـ عن جرير بن عبدالله البجلى رضى الله عنه مرفوعاً، وفيه: «**وتنصح المسلم، وتبرأ من المشرك**» (٣).

٢ـ وعن ابن عباس رضى الله عنه مرفوعاً: «**أوثق عرى الإيمان، الموالاة فى الله، والمعاداة فى الله، والحب فى الله، والبغض فى الله**» (٤).

٣ـ وعن ابن عباس رضى الله عنه: «**من أحب فى الله وأبغض فى الله، ووالى فى الله، وعادى فى الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصيامه، حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس اليوم على أمر الدنيا، وذلك لايجزى عن أهله شيئاً**»(٥).

٤ـ وعن جرير بن عبدالله رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «**أنا برىء من كل مسلم أقام بين أظهر المشركين**»، قالوا: يارسول الله، لم؟ قال: «**لاتراءى ناراهما**»(٦).

٥ـ وعن جبلة بن الحارثة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**إذا أويت إلى فراشك فاقرأ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾**(٧) حتى تمر بآخرها، فإنها براءة من الشرك»(٨).

وله شاهد عن نوفل بن معاوية رضى الله عنه(٩).

---

(١) الأنفال / ٧٢، ٧٣.

(٢) (٢/ ٣٣١).

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ٣٥٧، ٣٦٣، ٣٦٤) والنسائى فى «الكبرى» (٧٧٩٨) عن جرير به.

(٤) تقدم تخريجه فى هذا الباب

(٥) أخرجه ابن المبارك فى «الزهد» (٣٥٣).

(٦) [حسن صحيح] أخرجه أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذى (١٦٠٤) عن جرير به.
وانظر «منار السبيل» (٩٩٢١ ـ بتخريجنا.

(٧) الكافرون / (١).

(٨) أخرجه النسائى فى «الكبرى» (١٠٦٣٦) عن جبلة به

(٩) أخرجه أبو داود (٥٠٥٥)، والترمذى (٣٤٠٣) وانظر «الأذكار للنووى» (٢٤٥ ـ بتخريجنا).

قال ابن القيم رحمه الله[1]: إن هذه السورة تشتمل على النفى المحض، فهذا هو خاصية هذه السورة العظيمة، فإنها سورة براءة من الشرك، كما فى وصفها؛ فمقصودها الأعظم هو: البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين، ولهذا أتى بالنفى فى الجانبين تحقيقاً للبراءة المطلوبة، هذا مع أنها متضمنة للإثبات الصريح، فقوله: **﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾** براءة محضة، **﴿وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾** إثبات أن له معبوداً يعبدون، وأنتم بريئون من عبادته، فتضمنت النفى والإثبات، وطابقت قول إمام الحنفاء: **﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِي﴾**[2] فانتظمت حقيقة لا إله إلا الله؛ ولهذا كان النبى ﷺ يقرنها بسورة: **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾** فى سنة الفجر[3] وسنة المغرب[4]، فإن هاتين السورتين سورتا الإخلاص أ.هـ.

فصل ماهو السبب فى موالاة الكافرين؟

[١] **الخوف من الدوائر**: قال تعالى مبيناً السبب فى موالاة الكافرين أنه مرض وزيغ ونفاق وعدم إيقان بوعد الله **﴿ترى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بالفتح﴾** الآية

فيقول هؤلاء: إنما نوالى بعض الظلمة لأننا نخشى أن تدور بنا الدوائر، فيصيبونا بأذى فى أنفسنا أو أموالنا. وأصل هذا إنما هو زيغ ونفاق ومرض فى القلب.

[٢] **الطمع فى العزة والمنحة بالرياسة والشرف ونحوه من قبل الكفار**: يقول: **﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ﴾** الآية

فالزيغ والمرض وعدم اليقين فى وعد الله هو السبب فى جعل كثير من الناس مداهنين موالين للكافرين. ومنشأ المرض والنفاق من معاصى وذنوب وران على القلب وضعف

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٥٦).

(٢) الزخرف/ (٢٦، ٢٧).

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين (٣ / ٢٥٦ / ٩٨) عن أبى هريرة به.

(٤) أخرجه رواه ابن ماجة (١١٦٦) عن عبدالله بن مسعود به.

فى الإيمان دفع كثير من الناس لهذه الموالاة التى نهى الله وبين أنها من صفات المنافقين حيث قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

وقال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ فهو منافق يخادع الله بهذه الطريقة﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ والمنافق يوالى طمعاً فى العزة﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ فأحياناً يطلبون مصلحة وعزة والرسول قال «من انتسب إلى تسع أجداد له فى الجاهلية يبتغى بذلك عزاً مازاده الله إلا ذلاً»(١) وفى الحديث المسند «وجعل الصغار والذلة على من خالف أمري»(٢) فهو لو يعلم أن الذلة والصغار على المخالف وأن العزة فى طاعة الله ورسوله ما ابتغى العزة فى المداهنة والمصانعة وموالاة الكافرين وماخالف أمر النبى فالسبب فى موالاة الكافرين إما عزة ومصلحة أو خوف ﴿نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ والاسباب على كثرتها مردها إلى هذين السببين طمع فى مصلحة أو خشية الدائرة.

فصل

فى حكم الموالاة وصورها

أحكام الموالاة للمشركين تارة تكون هذه الموالاة مكفرة إذا امتنعت موانع الكفر عمن فعلها، وتارة تكون كفر أصغر، أو كبيرة، وتارة تكون معصية، وتارة تكره.

١ - **الركون من الموالاة المكفرة عند انتفاء الموانع ففيها ﴿لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء﴾** وفيها قصه حاطب بن أبى بلتعة المتقدمة فهذه موالاة ومودة لهم، كأن تكون عين وجاسوس للظلمة.

فهذا نوع موالاة الأصل فيه أنه مكفر.

والدليل فهم البخارى فى باب من كفر أخاه متأولاً وفيه أن عمر قال يارسول الله

(١) أخرجه أحمد فى المسند» (٤٠/ ١٣٤) عن أبى ريحانه باختلاف فى أخر.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢ / ٥٠) عن ابن عمر به.

وانظر كتابنا «فقه الخطابة وزاد الخطيب» فى خطبة بذل المعزة فى أسباب العزة.

«دعنى أضرب عنق هذا المنافق»(١) والرسول لم ينكر على عمر فى الحكم على حاطب بالنفاق الذى فهم البخارى أنه كفَّرَهُ متأولاً لكن ماالذى منع الرسول من إمضاء الحكم عليه واستباحة دمه؟.

الجواب: لقرائن تصرف هذه الفعلة من الكفر للكبيرة.

فما هى هذه القرائن؟ .

الجواب: إيادى حاطب البيضاء فى الإسلام؛ لانه بدرى ولأن هذه الفعله فلم تكن جربت عليه من قبل وغير ذلك، فالرسول قال لحاطب: **ماحملك على هذا»** فقال : والله ما فعلته ردة ولا رضى بالكفر» إذن فالموالاة للظلمة وللكافرين إن كانت رضى على منهجهم ومعتقدهم وعدم رضى بالاسلام والمسلمين وبمنهجهم فهذا كفر «إنما فعلتها ليكون لى يد عندهم» فقال الرسول «**لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ....» إلخ الحديث**(٢).

وأما الركون إليهم فقد قال الله تعالى ﴿**وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ**﴾(٣).

قال القرطبى فى «تفسيره»: الركون حقيقته الاستناد، و الاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به.

قال قتادة :عناه: لاتوادوهم، ولاتطيعوهم. وقال ابن جريج: لاتميلوا إليهم . أهـ. ثم قال رحمه الله: وهذا هو الصحيح فى معنى الآية وأنها دالة على هجران أهل الكفر، والمعاصي، من أهل البدع، وغيرهم؛ فإن صحبتهم كفر، أو معصية، إذ الصحبة لاتكون إلا عن مودة، وقد قال حكيم:

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه . . . فكل قرين بالمقارن يقتدى . أهـ.

وقال تعالى : ﴿**وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً * إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا**﴾(٤). إذا كان هذا الخطاب لأشرف مخلوق ﷺ فكيف بغيره؟!!.

٢ - **التشبه من الموالاة التى تتردد بين الكفر والكبيرة والمعصية:** ومن صور الموالاة التى

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) تقدم.

(٣) هود: (١١٣).

(٤) الإسراء: ٧٥.

لايكفر صاحبها، بعض أنواع التشبه وعلى قدر التشبه يكون الحكم على صاحبه: فإذا تشبه فى أصل دينهم بمعنى هل لبس ثوب القسيس يكون تشبه مكفر؟ إذا كان هناك قرينه صارفة من الكفر لغيره مثل أن يقول لبست ثوب القسيس لأدخل الكنيسة وأعرف أخبارهم فنقول هذه قرينه صارقة لكن ظاهرها كفر.

إما إذا كان التشبه ليس فى أصل الدين ولا عَلَمٌ عليهم: مثال الأخوة التى تلبس بنطلون وقميص الآن فهذا تشبه بهم لكن هذا التشبه غير مكفر لأن هذا اللباس ليس عَلَماً عليهم الآن مثل ثوب القسيس. أما إذا فعلها (- أى لبست البنطال والقميص) لمصلحة شرعية فقد تجوز مع الكراهة وقد تجوز بغير كراهة وهذه الصورة أيضاً قد تدخل فى حد الموالاة والقرب والمحبة **«من تشبه بقوم فهو منهم»**(١).

والمسلم يتشبه بالرسول ﷺ فى هديه الظاهر والباطن، وكذا بصحابته رضوان الله عليهم وبما عليه جماعة المؤمنين، فأما التشبه بالكفار فى الظاهر أو الباطن: فمن أخطر الأمور على دين المرء.

فعلى هذا ينقسم التشبه: قسمين:

[القسم الأول]: تشبه يكفر صاحبه: وهو ما كان تشبهاً فى أصل الدين، ولا توجد قرينة لصرف هذا التشبه عن أصل دينهم.

[القسم الثانى] تشبه لا يكفر صاحبه: وهو ما كان تشبهاً ليس فى أصل الدين ويدور هذا القسم بين الكفر الأصغر أو الكبيرة أو المعصية.

قال ابن تيمية رحمه الله فى «اقتضاء الصراط المستقيم»(٢): «ثم جعل - أى الله تعالى - محمداً ﷺ على شريعة من الأمر، شرعها له، وأمره باتباعها، ونهاه عن اتباع أهواء الذين لايعلمون، وقد دخل فى الذين لايعلمون: كل من خالف شريعته. و«وأهواءهم» هى: كل ما يهوونه، وماعليه المشركون من هديهم الظاهر - الذى هو من موجبات دينهم الباطل، وتوابع ذلك - فهم يهوونه. وموافقتهم فيه: اتباع لما يهوونه؛ ولهذا يفرح الكافرون بموافقة المسلمين فى بعض أمورهم، ويسرون به، ويودون أن لو بذلوا مالاً عظيماً ليحصل ذلك.

ولو فرض أن ليس الفعل من اتباع أهوائهم، فلا ريب أن مخالفتهم فى ذلك أحسم لمادة متابعتهم فى أهوائهم، وأعون على حصول مرضاة الله فى تركها، وأن موافقتهم فى

(١) هو جزء من حديث: «بعثت بالسيف» الذى تقدم قريباً.
(٢) (ص ١٤).

ذلك قد تكون ذريعة إلى موافقتهم في غيره؛ فإن من حام حول الحمى أوشك أن يواقعه». أهـ.

وقال رحمه الله:[١] تعليقاً على قول النبي ﷺ: **«من تشبه بقوم فهو منهم»**[٢]: «هذا الحديث أقل أحواله أنه يقتضي تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهرة: يقتضي كفر المتشبه بهم، كما في قوله **﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾**[٣].

ثم قال رحمه الله: «فقد يحمل هذا على التشبه المطلق؛ فإنه يوجب الكفر، ويقتضي تحريم أبعاض ذلك. وقد يحمل على أنه صار منهم في القدر المشترك الذى شابههم فيه؛ فإن كان كفراً، أو معصية، أوشعاراً للكفر-[٤] وللمعصية: كان حكمه كذلك. وبكل حال: فهو يقتضي تحريم التشبه بهم بعلة كونه تشبهاً.

والتشبه: يعم من فعل الشيء لأجل أنهم فعلوه، وهونادر. ومن تبع غيره في فعل لغرض له في ذلك، إذا كان أصل الفعل مأخوذاً عن ذلك الغير.

فأما من فعل الشيء واتفق أن الغير فعله أيضاً، ولم يأخذه أحدهما عن صاحبه، ففي كون هذا تشبها نظر. لكن قد ينهى عن هذا، لئلا يكون ذريعة إلى التشبه، ولما فيه من المخالفة، كما أمر بصبغ اللحي، وإعفائها، وإحفاء الشوارب، مع أن قوله ﷺ: **«غيروا الشيب ولاتشبهوا باليهود»**[٥] دليل على أن التشبه بهم يحصل بغير قصد منا، ولافعل، بل بمجرد ترك تغيير ماخلق فينا. وهذا أبلغ من الموافقة الفعلية الاتفاقية»أهـ

- فصل في أقسام التشبه ومقامه -

وقال رحمه الله بعد ذلك[٦]: اعلم أن أعمالهم ثلاثة أقسام:

- قسم مشروع في ديننا، مع كونه كان مشروعاً لهم، أو لا نعلم أنه كان مشروعاً لهم، لكنهم يفعلونه الآن.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تقدم

(٣) المائدة/ (٥١).

(٤) ومن هذا لبس الزنار والصليب. قال النووي في «روضة الطالبين» ولو شد الزنار على وسطه كفر، واختلفوا فيمن وضع قلنسوة المجوس على رأسه، والصحيح: أنه يكفر. أهـ.

(٥) أخرجه الترمذي (١٧٥٢) عن أبي هريرة وأصله في الصحيحين بلفظ «إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم».

(٦) (ص ١٧٨ - ١٨٠)

● وقسم كان مشروعاً، ثم نسخه شرع القرآن.

● وقسم لم يكن مشروعاً بحال، وإنما هم أحدثوه.

وهذه الأقسام الثلاثة، إما أن تكون فى العبادات المحضة، وإما أن تكون فى العادات المحضة ـ وهى الآداب، وإما أن تجمع العبادات، والعادات، فهذه تسعة أقسام.

● **فأما القسم الأول: وهو ماكان مشروعاً فى الشريعتين، أو ما كان مشروعاً لنا، وهم يفعلونه:** فهذا كصوم عاشوراء، أو كأصل الصلاة والصيام، فهنا تقع المخالفة فى صفة ذلك العمل، كما سن لنا صوم تاسوعاء وعاشوراء(١)، كما أمرنا بتعجيل الفطر مخالفة لأهل الكتاب(٢)، وبتأخير السحور: مخالفة لأهل الكتاب(٣)، وكما أمرنا بالصلاة فى النعلين(٤): مخالفة لليهود، وهذا كثير فى العبادات، وكذلك فى العادات.

قال رسول الله ﷺ: **«اللحد لنا والشق لغيرنا»** (٥).

وسن توجيه قبور المسلمين إلى الكعبة: تمييزاً لها عن مقابر الكافرين، فإن أصل الدفن من الأمور المشروعة فى الأمور العادية ثم قد اختلفت الشرائع فى صفته، وهو أيضاً فيه عبادات.

ولباس النعل فى الصلاة فيه عبادة وعادة، ونزع النعل فى الصلاة شريعة، كانت لموسى عليه السلام، وكذلك اعتزال الحائض، ونحو ذلك من الشرائع ـ التى جامعناهم فى أصلها، وخالفناهم فى وصفها.

● **القسم الثاني: ماكان مشروعاً ثم نسخ بالكلية:** كالسبت، أو إيجاب صلاة، أو صوم، ولايخفى أن النهى عن موافقتهم فى هذا أبلغ، سواء كان واجباً عليهم، فيكون عبادة، أو محرماً عليهم، فيتعلق بالعادات، فليس للرجل أن يمتنع من أكل اللحوم لكل ذى ظفر على وجه التدين بذلك.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الصيام (٨ / ٩ ـ النووى) عن ابن عباس به.
وانظر «السلسبيل» (١١٤٨ ـ بتخريجنا).

(٢) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢ / ٤٥٠)، وأبو داود فى الصوم/ باب ما يستحب من تعجيل الفطر (٢/ ٣١٥/ ٢٣٥٣) وابن حبان فى صحيحه (٥/ ٢٠٧) وابن خزيمة (٣/ ٢٧٥/ ٢٠٦٠) وانظر السلسبيل (١١٢٤ ـ بتخريجنا).

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الصيام (٤/ ٢٢١/ ٤٦) عن عمرو بن العاص بلفظ «فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٨٦)، ومسلم فى المساجد (٢/ ٤٧/ ٦٠) عن أنس.

(٥) [ضعيف] أخره أحمد فى «مسنده» (٤ / ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٣)، وأبو داود (٣٢٠٨)، والترمذى (١٠٤٥)، والنسائى (٢١٣٦)، وابن ماجه (١٥٥٤) عن ابن عباس به.
وانظر «السلسبيل» (٩٢٢ ـ بتخريجنا).

وكذلك ماكان مركباً منهما، وهي الأعياد التى كانت مشروعة لهم، فإن العيد المشروع يجمع عبادة، وهوما فيه من صلاة، أو ذكر، أوصدقة، أو نسك، ويجمع عادة، وهو مايفعل فيه من التوسعة فى الطعام، واللباس، ومايتبع ذلك من ترك الأعمال الواجبه، واللعب المأذون فيه فى الأعياد لمن يتتفع باللعب، و نحو ذلك، ولهذا قال النبى ﷺ لما زجر أبو بكر رضى الله عنه الجاريتين عن الغناء فى بيته قال: «**يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً، وهذا عيدنا**»(١). وكان الحبشة يلعبون بالحراب يوم العيد والنبى ﷺ ينظر إليهم.

فالأعياد المشروعة يشرع فيها، وجوباً، أو استحباباً من العبادات مالا يشرع فى غيرها، ويباح فيها، أو يستحب، أو يجب من العادات التى للنفوس فيها حظ، مالا يكون فى غيرها كذلك، ولهذا وجب فطر يوم العيد، وقرن بالصلاة فى أحدهما الصدقة، وقرن بها فى الآخر الذبح، وكلاهما من أسباب الطعام.

فموافقتهم فى هذا القسم المنسوخ من العبادات، أو العادات، أو كليهما أقبح من موافقتهم فيما هو مشروع الأصل؛ ولهذا كانت الموافقة فى هذا محرمة؛ وفى الأول قد لاتكون إلا مكروهة.

●**وأما القسم الثالث: وهو ماأحدثوه من العبادات، أو العادات، أو كليهما** ـ فهو أقبح،وأقبح، فإنه لو أحدثه المسلمون قد يكون قبيحاً، فكيف إذا كان ممالم يشرعه نبى قط؟ بل قد أحدثه الكافرون، فالموافقة فيه ظاهرة القبح . أهـ.

ومن أخطرمظاهر التشبه: التشبه بهم فى أعيادهم، قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عز وجل قد أبدلكم بهما خيراً منهما: يوم الأضحي، ويوم الفطر**» (٢).

وقال مجاهد والربيع بن أنس والضحاك في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ**﴾(٣). قالوا : أعياد المشركين(٤).

وقال عمر رضى الله عنه: «لاتعلموا رطانة الأعاجم، ولاتدخلوا على المشركين كنائسهم، يوم عيدهم، فإن السخطة تنزل عليهم»(٥).

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٩٥٢)، ومسلم فى العيدين (٣/ ٤٥٠/ ١٦) عن عائشة به.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ١٠٣)، وأبو داود (١١٣٤)، والنسائى (٣/ ١٧٩ ـ السيوطى) عن أنس به.

وانظر كتابى «فقه الخطابه» وخطبة شم النسيم.

(٣) الفرقان/ (٧٢).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٩).

(٥) أخرجه البيهقى (٩/ ٢٣٤)، وصحح إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية.

انظر كتابى «فقه خطابة» خطبة شم النسيم.

٣- النصرة

تقدم ما ورد فى لسان العرب أن من معانى الولى : الناصر.

ومنه قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[١].

أي: لا ناصر لهم، والموالاة والمحاباة والنصرة واجبة على كل مسلم لإخوانه فى الدين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾[٢] وقال النبى ﷺ: **«انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره»**[٣].

ومن أخطر صور موالاة الكافرين: نصرهم على المؤمنين، بل ذلك الفعل يوجب لصاحبه النار، وينطبق عليه بسبب فعله ذلك أحكام المشركين، مهما زعم الإيمان بكلامه، أو اعتذر بمعذرته، قال تعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾[٤].

قال ابن جرير رحمه الله فى «التفسير»[٥]: «هذا نهى من الله عز وجل للمؤمنين أن يتخذوا الكفار أعوانًا وأنصارًا وظهورًا. . .».

قال: «ومعنى ذلك لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهورًا، وأنصارًا ، توالونهم على دينهم، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، ومن فعل ذلك فقد برئ من الله، وبرئ الله منه، بارتداده عن دينه، ودخوله فى الكفر» اهـ.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[٦].

قال ابن كثير - رحمه الله - فى «تفسيره»[٧]: ﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي: بترك الهجرة، وقال: هذه الآية الكريمة عامة فى كل من أقام بين ظهرانى المشركين، وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنًا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه، مرتكباً حرامًا بالإجماع، وبنص هذه الآية.

---

(١) محمد/ ١١ . (٢) الأنفال/ ٧٢.

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٩٥٢) وانظر «رياض الصالحين» (٢٣٩ ـ بتخريجنا)

(٤) آل عمران / (٢٨). (٥) تفسير ابن جرير

(٦) النساء/ (٩٧). (٧) (١/ ٥٤٣).

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على أمر رسول الله ﷺ يأتى السهم فيرمى أحدهم فيقتله أو يضرب عنقه، فيقتل فأنزل الله هذه الآية: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾**(١).

وروى ابن جرير بسنده عن عكرمة فى هذه الآية قال: «نزلت فى قيس بن الفاكه بن المغيرة والحارث بن زمعة بن الأسود، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وأبى العاصى بن منبه بن الحجاج، وعلى بن أمية بن خلف، قال: لما خرج المشركون من قريش، وأتباعهم لمنع أبى سفيان بن حرب، وعير قريش من رسول الله وأصحابه، وأن يطلبوا ما نيل منهم يوم «نخلة»، خرجوا معهم بشباب كارهين، كانوا قد أسلموا، واجتمعوا ببدر على غير موعد، فقتلوا ببدر كفارًا، ورجعوا عن الإسلام، وهم هؤلاء الذين سميناهم»(٢).

وعن السدى فى الآية قال: «لما أسر العباس، وعقيل، ونوفل قال رسول الله ﷺ: «**افد نفسك، وابن أخيك**، فقال: يا رسول الله، ألم نصل إلى قبلتك ونشهد شهادتك؟ قال: يا عباس إنكم خاصمتم فَخُصِمْتُم، ثم تلا عليه هذه الآية: **﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾**(٣)(٤).

فوضح بما ذكرنا حكم من زعم الإسلام ثم خرج فى صفوف الكافرين مقاتلاً للمسلمين فحكم المشركين يجرى عليه فى جميع هذه الأحوال، وهكذا عامل الرسول ﷺ، والمسلمون من خرج فى بدر، ولو كانوا كارهين، وإنما آثروا مرضاة آبائهم، وأهليهم على الإسلام، والإيمان بالرسول ﷺ ، ولا يصلح مثل هذا إكراهًا ليعذرْ صاحبه(٥)، والظاهر فى سياق الآية، وما ذكرنا من الآثار فى سببِ النزول: أن حكم الكفر ينطبق عليهم فى الآخرة أيضًا، لأن الله قد حكم أن لهم جهنم، وساءت مصيرًا، ولم يدل على خروجهم منها، بل وفى بعض الروايات عن ابن عباس: «فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين، وأكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ**

---

(١) **[صحيح] أخرجه البخارى** (٤٥٩٦)، وانظر «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا.

(٢) أخرجه ابن جرير (٥/١٤٨) وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/٣٦٥) وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن أبى حاتم. وانظر الأخير بتخريجنا.

(٣) النساء/ (٩٧).

(٤) انظر ابن جرير المصدر السابق، وذكره السيوطى فى «الدر» ٢٠/٣٦٦)، وزاد نسبته لابن أبى حاتم فانظره بتخريجنا.

(٥) الكلام على شروط الإكراه.

﴿الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾(١)، فدل عدم الاستغفار لهم على كونهم ماتوا على الكفر بسبب هذه الموالاة الشركية لأهل الشرك، ولو كانوا آبائهم أو أهليهم.

ويؤيد ذلك ما رواه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾(٢). قال: «ذلك أن قومًا كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام، وكانوا يظاهرون المشركين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد ﷺ فليس علينا منهم بأس، وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة، قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الخبثاء فاقتلوهم، فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم، وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان الله - أو كما قالوا: أتقتلون قومًا قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا، ويتركوا ديارهم، نستحل دماءهم، وأموالهم لذلك؟ فكانوا فئتين، والرسول ﷺ عندهم لا ينهى واحدًا من الفريقين عن شيء، فنزلت: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾الآية(٣).

والشاهد منها قول المؤمنين: «فاقتلوهم فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم» ونزلت الآيات بموافقة هذه الطائفة من المؤمنين، لقوله تعالي: ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾(٤).

قال السدي: إذا أظهروا كفرهم، فاقتلوهم حيث وجدتموهم(٥).

وهذا أقرب ما قيل في تفسير الآية موافقًا لسياقها كما قال ابن جرير بعد ذكر الاختلاف فيمن هم المقصودون بهذه الآية.

والقول الآخر أنها نزلت في عبد الله بن أبي سلول، وأصحابه - الذين تخلفوا عن

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» وابن أبي حاتم وذكره السيوطي في «الدر» (٢/ ٣٦٥) وزاد نسبته لابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في «السنن» وانظر «فتح القدير» بتخريجنا، وكذا تفسير ابن أبي حاتم بتخريجنا أيضاً.

(٢) النساء/ (٨٨).

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٥/ ١٢٢) وابن أبي حاتم في «تفسيره» عن ابن عباس بإسناد ضعيف.

(٤) النساء/ (٨٩).

(٥) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٥/ ١٢٤).

رسول الله فى غزوة أحد، والسياق يـ دل على بُعده، كما ذكـر ابن جرير والقرطبى وأبو السعـود وغيرهم، وأولـى هذه الأقوال بالـصواب: قول من قـال: نزلت هذه الآيـة فى اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ فى قوم كانوا ارتدوا عن الإسلام بعد إسلامهم من أهل مكة.

وفى قول الله تـعالى: ﴿فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ أوضح الدليـل على أنهم كانوا من غير أهل المدينة. أ.هـ(١).

قال صاحب «فضل الغنى الحميد»: وأما تسميتهم منافقين مع التصريح بكفرهم، فإما باعتبـار حالهم السابق- كما ذكره أبو السـعود فى «تفسيره»- وإما باعتبـار تكلمهم بالإسلام، مع استمرارهم عـلى ما يناقضه من موالاة الكفار بنصرتهـم، ومظاهرتهم على المسلمـين - وقد ذكرنا الأثر فى ذلك- والمنـافق إذا أظهر كفره، وجب قـتله، وإن ظل ينتسب إلى الإسلام.

وهذا الأمر بقـتل المنافقين - إذا أظهـروا نفاقهم- معلـق على المصلحة فـى قتله، أو المفسدة، فـقد ترك رسول الله ﷺ قتل مـن علم نفاقه قـطعًا منهم، وهـو الذى قال له: اعدل(٢). لوجود مفسدة أن يتـحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابـه، فى حين أمر بقتل الخوارج حين يخرجون(٣)، لظهور مفسـدة تركهم حينئذ، بسفـك الدم الحرام، وانتهاك الحرمات، وانتفاء مفسدة قتلهم، بانتشار الإسلام، وتأسس قواعده، وهذا ما فعله الخليفة الراشد على بن أبى طـالب رضى الله عنـه(٤)، وقد أمر الله بجهاد المنـافقين مع الكفار، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾(٥).

ورجح ابن جرير إن قتالهم بالـسيف إذا أظهروا نفاقهم، ومثله قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾(٦).

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٣٣).

(٢) [متفق عليه] رواه البخارى (٣١٣٨)، ومسلم (١٠٦٣) ، من حـديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه، بلفظ لقد شقيت إن لم أعدل».

(٣) [صحيح] رواه مسلم (١٠٦٤)، وأبو داود (٤٦٦٧)، وأحمد (٣/ ٣٢)، مـن حديث أبى سعيد، رضى الله عنه بلفظ: «تمرق مارقة عند فرقة المسلمين » - الحديث.

(٤) [صحيح] رواه البخـارى (٦٩٣٢) ، وأبـو داود (٤٣٥١) ، والترمذى (١٤٥٨) ، والنـسائـى (٢/ ١٧٠) ، (١/ ٢٨٢).

(٥) التحريم / (٩).   (٦) الأحزاب / (٦٠ - ٦١).

وعن قتادة قال: إذا هم أظهروا النفاق، فبناء الأمر فى قتال المنافقين على المصلحة والمفسدة فى ذلك، والله تعالى أعلم.

ولو كان هؤلاء المنافقون قد صرحوا بعدم انتسابهم للإسلام، لما كان هناك معنى لاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ فيهم، حتى ينزل القرآن يبين صحة نفاق الذين اختلف المؤمنون فى أمرهم، ويحذر من دافع عنهم من الدفاع عنهم.

قال ابن حزم رحمه الله فى «المحلى»[1]: «من لحق بدار الكفر، والحرب مختاراً لمن يليه من المسلمين، فهو بهذا الفعل مرتد، له أحكام المرتد كلها - من وجوب القتل عليه متى قدر عليه، وإباحة ماله، وانفساخ نكاحه، وغير ذلك».

وقال أيضًا: «وكذلك من سكن بأرض الهند، والسند، والصين، والترك، والسودان، والروم من المسلمين، فإن كان لا يقدر على الخروج من هناك، لثقل ظهر، أو لقلة مال، أو لضعف جسم، أو لامتناع طريق، فهو معذور، فإن كان هناك محاربًا للمسلمين، معينًا للكفار بخدمة أو كتابة، فهو كافر، وإن كان إنما يقيم هنالك لدنيا يصيبها، وهو كالذمى لهم، وهو قادر على اللحاق بجمهرة المسلمين، وأرضهم، فما يبعد عن الكفر، وما نرى له عذرًا، ونسأل الله العافية».

قال: «وليس كذلك من سكن فى طاعة أهل الكفر من الغالية[2]، ومن جرى مجراهم، كأهل مصر، والقيروان، وغيرهم، فالإسلام هو الظاهر، وولاتهم على ذلك، لا يجاهرون بالبراءة من الإسلام، بل إلى الإسلام ينتسبون، وإن كانوا فى حقيقة أمرهم كفاراً[3].

وقال أيضًا: وأما من سكن فى بلد تظهر فيه بعض الأهواء المخرجة إلى الكفر، فهو ليس بكافر، لأن اسم الإسلام هو الظاهر هنالك على كل حال من التوحيد، والإقرار برسالة محمد ﷺ، والبراءة من كل دين غير الإسلام، وإقامة الصلاة، وصيام رمضان، وسائر الشرائع- التى هى الإسلام، والإيمان، والحمد لله رب العالمين». أهـ.

قال محمد بن عبد الوهاب- لما ذكر الأنواع التى يكفر بها الرجل - قال: «النوع

---

(١) (١١/ ١٩٩).

(٢) يقصد غلاة الشيعة، كالفاطميين الذين كانوا يحكمون مصر، والقيروان، وسائر أفريقيا، بل والحرمين، وغير ذلك قاله صاحب «فضل الغنى الحميد».

(٣) لابد من التنبيه لهذا الفرق المهم بين طاعة من يصرحون بالكفر، وبين طاعة من ينتسبون إلى الإسلام، وهم فى حقيقة أمرهم كفار، فأمر الطائفة الأخيرة يحتاج إلى نظر، واجتهاد، وليس معلومًا قطعًا من الدين كالأولين، وموالاتهم، وطاعتهم، وإن كانت محرمة إلا أنها ليست عن الملة، مراعاة لهذا الفارق المهم، ما لم يعلم كفرهم، فتنبه قاله صاحب «فضل الغنى الحميد».

الرابع: من سلم من هذا كله، ولكن أهل بلده يصرون على عداوة التوحيد، وأهله واتباع أهل الشرك، وهو يعتذر إن ترك وطنه، يشق عليه، فيقاتل أهل التوحيد مع أهل بلده، ويجاهد بماله ونفسه، فهذا أيضًا كافر، فإنه لو يأمرونه بتزوج امرأة أبيه، ولا يمكنه ترك ذلك، إلا بمخالفتهم فعل.

وموافقته لهم مع الجهاد معهم بنفسه وماله، مع أنهم يريدون بذلك قطع دين الله ورسوله أكبر من ذلك بكثير، فهو أيضًا كافر، وهو ممن قال الله فيهم: ﴿**سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَائِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا**﴾(١). اهـ(٢).

قال صاحب «فضل الغنى الحميد». ومما تقدم من الأدلة، وأقوال العلماء، تعرف حكم من يخرج فى جيوش الكافرين، المعلنين كفرهم، فى قتال المسلمين، لأجل إسلامهم، كالشيوعيين الملحدين، ونحوهم وما يجب على المسلمين أن يعاملوهم به، وبالله التوفيق، ولابد لنا من التنبيه هنا على أن النصرة الواجبة للمؤمنين، إنما تجب فى الدين، كما أمر الله بها: ﴿**وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ**﴾.

وأما إن كانت انتصارًا لعصبية، أو قومية، أو وطنية دون معرفة الحق من الباطل وإنما هى الطاعة العمياء لمن يرفع رايات الجاهلية، فهذه هى التى قال فيها النبى ﷺ: «**من قاتل تحت راية عميّة، يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة فقتل، فقتلته جاهلية**»(٣).

وقال ﷺ: «**والذى نفسى بيده ليأتين على الناس زمان، لا يدرى القاتل فى أى شيء قتل، ولا يدرى المقتول فى أى شيء قُتل**»(٤).

وعن أبى بكرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار»، فقلت: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**»(٥).

(١) النساء/ (٩١).

(٢) الدفاع لابن عتيق ص:(١٠-١٢) نقلاً عن «الولاء والبراء» ص:(٢٧٤).

(٣) أخرجه مسلم فى الإمارة (٦/ ٤٨٠/ ٥٧) عن جند يا بن عبدالله.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفتن (٩/ ٢٦٢/ ٥٥) عن أبى هريرة به.

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣١) ومسلم فى الفتن (١٨/ ١٠ ـ النووى)

واتظر «رياض الصالحين» (١٠ ـ بتخريجنا).

٤ - الطاعة والمتابعة

تقدم ما فى «لسان العرب»: المولى : المتابع، وولى فلان فلانًا، إذا تابعه، والمؤمن: ولى الله فى حق المطيع كما فى «المصباح» فالطاعة، والمتابعة، من أهم معانى الموالاة، التى يجب على المسلم أن يعلم لمن تكون.

أمر الله تعالى عباده المؤمنين بطاعته سبحانه، وطاعة رسوله ﷺ، وأولى الأمر منهم، وهم العلماء والأمراء الذين يقودونهم بكتاب الله، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1] وطاعة أولى الأمر مقيدة، بأن لا يأمروا بمعصية، فإن أمروا بمعصية، فلا سمع ولا طاعة، كما استفاضت الآحاديث، «إنما الطاعة فى المعروف»[2] وأمرنا سبحانه باتباع ما أنزله، فقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾[3] وهو قد أنزل الكتاب والحكمة: القرآن والسنة، وأوجب أيضاً اتباع سبيل المؤمنين، ومنهجهم فقال تعالى : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[4] ولذا كان من أهم مميزات أهل السنة اتباعهم لسلف الأمة من الصحابة فمن بعدهم من الأئمة، لأن هذا المعنى من أسس الموالاة الإيمانية التى تجمعهم، فبهذا تعلم لمن تكون الطاعة، ولمن يكون الاتباع، وممن تتلقى الأوامر، وبأى مقياس توزن، فمّا أنزله الله فى كتابه، وما صح عن رسوله ﷺ، وما أجمع عليه السلف، هو ذلك الميزان الحق، الذى لا يخطئ من اتبعه وأطاعه.

قال ابن كثير فى «تفسيره»[5]: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[6]. أي: اتبعوا كتابه وخذوا سننه ﴿وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[7] أي: فيما أمروكم به من طاعة الله ، لا فى معصية الله ، اهـ.

وقال أيضًا: والظاهر أنها عامة فى كل أولى الأمر من الأمراء والعلماء.

وأما طاعة الكافرين والمنافقين، ومتابعتهم على الكفر، والضلال، والمعاصي، فهذه

---

(١) النساء/ (٥٩).

(٢) [متفق عليه] رواه البخارى (٧١٤٥)، ومسلم فى الإمارة (٦/ ٦٧/ ٣٩/٤) عن على به

(٣) الأعراف / ٣.

(٤) النساء / ١١٥ .

(٥) (١/ ٥١٨).

(٦ ، ٧) النساء/ ٥٩ .

موالاة لهم، حذرنا الله منها، فقال مبينًا عقوبة من يطيعهم فى بعض الأمر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ * فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾(١).

فإذا كان هذا حال من يطيعهم فى بعض الأمر فكيف بمن يكون طوع أمرهم ورهن إشارتهم؟!، نعوذ بالله من الخذلان.

وقال تعالى مخاطبًا نبيهﷺ والخطاب لأمته: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾(٢). الآثم: هو الفاجر فى أفعاله، والكفور: هو الكافر قلبه.

وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(٣).

قال ابن كثير: هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى: إذا كان يأمر عبده، ورسوله بهذا، فلأن يأمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى. أ.هـ.

وقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٤) وبين عاقبة من يتبع أهل الكتاب، وأنهم لا يرضون إلا بالكفر الصراح: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾(٥)، وقال: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، والآيات فى هذا كثيرة، معلومة فى كتاب الله، والأحاديث فى التحذير من متابعة أهل الكتاب متواترة فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعًا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه قلنا**: يا رسول الله ﷺ اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»(٦).

---

(١) محمد / (٢٥ - ٢٨).
(٢) الإنسان / (٢٤).
(٣) الأحزاب/ (١ - ٢).
(٤) الجاثية/ (١٨).
(٥) البقرة/ (١٢٠).
(٦) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٤٥٦)، ومسلم فى العلم (٦/ ٤٧٢/ ٦). عن أبى سعيد به.

وقد وقع فى زماننا تحقيق خبر النبى ﷺ أصبحنا لا نرى عجبًا أن نسمع ونقرأ من يدعو لطاعة أهل الكفر شرقًا وغربًا، ويزين للمسلمين اتباعهم فى القليل والكثير، والكفر والفسوق والعصيان، والمظهر والجوهر، ويصرح أن لا تقدم للعرب وللمسلمين، إلا بأخذ ما هم عليه كله، لا يُترك منه شيء فصدق الصادق المصدوق ﷺ واعلم أن طاعتهم فى الكفر كفر، وفى المعصية معصية، مع اعتقاد أنها معصية، وذنب.

قال ابن تيمية رحمه الله(١): «هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا حيث أطاعوهم فى تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، يكونون على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله، فيتبعوهم على التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله اتباعهم لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركًا وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم فكان من اتبع غيره فى خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله، مشركًا مثل هؤلاء.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحليل الحرام، وتحريم الحلال ثابتًا، لكنهم أطاعوهم فى معصية الله ، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصى التى يعتقد أنها معاصي، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب، كما قال النبيﷺ : «**إنما الطاعة فى المعروف**»(٢)، وقال رسول الله ﷺ : «**السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**»(٣)، وقال ﷺ: «**لا طاعة لأحد فى معصية الله عز وجل**»(٤) وقال ﷺ: «**من أمركم بمعصيةفلا تطيعوه**»(٥).

ثم ذلك المحرِّم للحلال، أو المحلِّ للحرام إن كان مجتهدًا قصده اتباع الرسول ﷺ، لكن خفى عليه الحق فى نفس الأمر، وقد اتقى الله ما استطاع، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه، بل يثيبه على اجتهاده الذى أطاع به ربه، ولكن من علم أن هذا أخطأ فيما جاء به الرسول، ثم اتبعه على خطئه، وعدل عن قول الرسولﷺ، فهذا له نصيب من هذا الشرك الذى ذمه الله ، لا سيما إن تبع فى ذلك هواه، ونصره باللسان واليد، مع علمه

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٧٠).　　(٢) سبق تخريجه.

(٣) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٧١٤٤)، ومسلم فى الإمارة (٦/ ٤٦٦/ ٣٨) عن ابن عمر به.

(٤) أخرجه أحمد فى « مسنده» (٥/ ٦٦) عن حكم بن عمرو به .

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٦٧)، وابن ماجه (٢٨٦٣) عن أبى سعيد به .

بأنه مخالف للرسول، فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه، ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز تقليد أحد في خلافه. اهـ.

قال صاحب «فضل الغنى الحميد»: واعلم أن من أخطر مظاهر الطاعة والمتابعة أن ينخرط الإنسان تحت رياستهم في الأحزاب العلمانية، أو الإلحادية، كالشيوعية، والاشتراكية، والقومية الماسونية، ويبذل لها الولاء، والحب والنصرة.

وكيف يتسنى لمسلم يفهم قضية الولاء والبراء أن يرضى باتباع الكفار والمنافقين، مع تصريحهم في أحزابهم، وهيئاتهم، بأنها لا تقوم على أساس الدين، ولا تفرق بين الناس على أساس الدين، وأن المساواة بين الأديان شرط، والمساواة بين أصحابها أيضًا في مشروعة قيامها أصلاً، ويمعنون في الغي، والضلال، حين يرفعون شعارات تدل على وحدة الكفر، والإيمان، تحت راية حزبهم، ويفتخرون بهذا الخزى والخذلان؟! والعياذ بالله.

أفيرضى مسلم غيور على إسلامه أن يقف تحت هذه الراية، التي مزقت من أجلها عقيدة التوحيد، والإيمان ممثلة في قضية الولاء والبراء، والحب والبغض؟! أفيقبل تحت أى ظرف من الظروف، ولأى مصلحة يظنها من المصالح، أن يقول لأمثال هؤلاء: أنا منكم وأنتم مني، بدلاً من: إنى بريء مما تعملون، ويتوكل على العزيز الرحيم كما أمر الله تعالى؟!

وهل هان عليه إسلامه لدرجة أن يرضى أن يقدم قربانًا لأوثانهم المعاصرة رايته الإسلامية وانتسابه للإسلام؟!.

فعندهم لا يجوز ولا يمر إلى مجالسهم وهيئاتهم إلا أن يتخلى عن رايته الإسلامية، ويرفع أخرى- أيا ما كانت يسارًا أو يمينًا أو وسطًا - إلا راية الإسلام، اللهم إنا نبرأ إليك من هذا كله.

قال الشنقيطى رحمه الله فى «أضواء البيان»[1]: «ومن هدى القرآن للتى هى أقوم هديه إلى أن الرابطة التى يجب أن يعتقد أنها هى التى تربط بين أفراد المجتمع، وأن ينادى بالارتباط بها دون غيرها، إنما هى دين الإسلام، لأنه هو الذى يربط بين أفراد المجتمع حتى يصير بقوة تلك الرابطة جميع المجتمع

(١) (٣/٤٠١).

الإسلامى كأنه جسد واحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». أ.هـ.

وإلى من يظنون أن المصلحة فى التدسس فى صفوف الجاهلية بأحزابها وهياكلها: التى تقوم على المبادئ المخالفة لدين الله - نسوق هذه العبارة من«ظلال القرآن»[1] يقول: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2] لا ظاهر الشرك ولا خافيه، هذه طريقى فمن شاء ليتابع، ومن شاء فأنا سائر فى طريقى المستقيم.

وأصحاب الدعوة إلى الله لابد لهم من هذا التمييز، لابد لهم أن يعلنوا أنهم أمة وحدهم، يفترقون عمن لا يعتقد عقيدتهم، ولا يسلك مسلكهم، ولا يدين لقيادتهم، ويتميزون ولا يختلطون، ولا يكفى أن يدعوا أصحاب هذا الدين إلى دينهم، وهم متميعون فى المجتمع الجاهلي، فهذه الدعوة لا تؤدى شيئًا ذا قيمة إنه لابد لهم منذ اليوم الأول أن يعلنوا أنهم شيء آخر غير الجاهلية، وأنهم يتميزون بتجمع خاص أصرته: العقيدة المتميزة، وعنوانه: القيادة الإسلامية، لابد لهم أن يميزوا أنفسهم من المجتمع الجاهلي، وأن يميزوا قيادتهم من قيادة المجتمع الجاهلى أيضًا.

إن اندفاعهم، وتميعهم فى المجتمع الجاهلي، وبقاءهم فى ظل القيادة الجاهلية[3]، يذهب بكل السلطان الذى تحمله عقيدتهم، وبكل الأثر الذى يمكن أن تنشئه دعوتهم، وبكل الجاذبية التى يمكن أن تكون للدعوة الجديدة.

وهذه الحقيقة لم يكن مجالها فقط هو الدعوة النبوية فى أوساط المشركين، إن

---

(١) (٤/ ٢٠٣٤).

(٢) يوسف/ ١٠٨.

(٣) «تنبيه» لفظ الجاهلية قد ورد فى الكتاب والسنة لبيان ما كان عليه أهل الكفر والشرك من الجهل والضلال، وكثيرًا ما استعمله الصحابة فى وصف مرحلة زمنية فى حياتهم قبل إسلامهم، وهو على هذا يشمل ما كان كفرًا وما كان معصية، فمن الكفر:

ظن الجاهلية - وهو عقائدهم الكفرية من سوء الظن بالله ووحدانيته وأسمائه وصفاته..

وحكم الجاهلية - وهو تشريعاتهم الباطلة التى اخترعوها من غير مستند من شريعة الله.

وحمية الجاهلية- وهى إباؤهم ورفضهم الحق الذى جاء به الرسول ﷺ موالاة لآبائهم وأجدادهم ومن العصبة قول النبيﷺ لأبى ذر رضى الله عنه: «إنك امرؤ فيك جاهلية» رواه البخارى ومسلم، الحديث=

مجالها هو مـجال هذه الدعوة، كلما عادت الجاهلـية فغلبت على حياة الـناس، وجاهلية القرن العشرين لا تختلف فى مقوماتها الأصـلية، وفى ملامحها المميزة، عن كل جاهلية أخرى واجهتها الدعوة الإسلامية على مدار التاريخ.

والذين يـظنون أنهـم يصلون إلـى شيء عن طريق الـتميع فـى المجتمع الجـاهلي، والأوضاع الجاهـلية، والتـدسس الناعم مـن خلال تلك المجـتمعات، ومـن خلال هذه الأوضاع، بالدعوة إلى الإسلام، هؤلاء لا يدركون طبيعـة هذه العقيدة، ولا كيف ينبغى أن تطـرق القلوب. إن أصـحاب المذاهـب الإلحادية أنفـسهم يـكشفـون عن عنوانـهم وواجهتـهم، أفلا يعلـن أصحاب الدعوة الإسـلامية عن عنـوانهم الخاص؟! وطريـقهم الخاص؟! وسبيلهم التى تفترق تمامًا عن سبيل الجاهلية؟!» اهـ.

قال صاحب «فضل الغنى الحميد» فنقول لهؤلاء الواهمين: إن مشروعية الوسيلة، كمشروعية الغاية، سواء بسواء فى المنهج الـرباني الذى قال الله عز وجل لنبيه ﷺ مبينًا له: ﴿**اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ**﴾(١)، وبين أنه هو العلـيم بعواقب الأمور، وحقائق الأشيـاء، الحكيم الذى لا يشرع، ولا يقدر شيـئًا عبثًا بغير حكمـة، ومنها هذا الأمر، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿**وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** ﴾(٣). فاتباع الوحى لا اتباع الهوى، وأهواء أهل الزيغ والضلال، حين يـأخذون الناس معهم تارة يمينًا، وتارة يـسارًا، ومرة شرقًا، ومرة غربًا، وتـارة إشتراكية، وأخـرى ديمقراطية، أفنـسير معهـم فى كل مرة، قال تـعالي: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا** ﴾(٤).

فلسنا بـالأسباب ننتصر، ولا بالـقوة والعدد، والعتاد، وإن كان الـواجب: إعداد ما استطعنا منهـا، طالما كان سببًا مشروعًا، وإنما ننتصر بالـتوكل على الله فى دفع أذاهم، برد فتنتـهم، وهو حسبنا ونعم الوكـيل، ولابد هنا من وقفة علـى أن الإجابة إلى الحق

=أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه مرفوعًا: «أربع من أمتى من أمور الجاهلية لايتركونهن» - الحديث رواه مسلم، ومنه ربا الجاهلية - إلا أن يستحله أحد - وكذا تبرج الجاهلية، والله أعلم.

وما نقلناه عن صاحب الظلال قصدنا منه إثبـات بطلان المداهنة فى أمور الدعوة ووسائلها، وجوب تميز الدعاة فى سلوكهم ومنهجهم عن أهل الباطل كلهم من أهل الشرك والنفاق، أو من أهل البدع والضلال، ولا يلزم منه الحكم بالتكفير أو الشرك الأكبر على كل ما وصف بأنه «جاهلي».

(١) الأحزاب / (١). (٢ - ٤) الأحزاب / (١، ٢، ٣).

ليست الموالاة للكافرين فى شيء، وليست متابعة لهم، ولا طاعة، بل هى متابعة للحق، وطاعة لله.

قال الإمام ابن القيم - فى عرضه لفوائد غزوة الحديبية- فى «زاد المعاد»[1]: «إن المشركين، وأهل البدع، والفجور، والبغاة، والظلمة، إذا طلبوا أمرًا يعظمون فيه حرمة من حرمات الله تعالى، أجيبوا إليه، وأعطوه، وأعينوا عليه، وإن منعوا غيره، فيعاونون على تعظيم ما فيه من حرمات الله تعالى، لا على كفرهم وبغيهم ويمنعون مما سوى ذلك، فكل من التمس المعاونة على محبوب لله، مُرضٍ له، أجيب إلى ذلك- كائنًا من كان- ما لم يترتب على إعانته على ذلك المحبوب، مبغوض لله أعظم منه، وهذا من أدق المواضع، وأشقها على النفوس». اهـ.

٥ - المعاونة والقيام بالأمر والنصح

قال صاحب «فضل الغنى الحميد» من معانى الموالاة كما سبق القيام بالأمر، فولى الأمر هو الذى يتولى أمر غيره بالصلاح ويعاونه فى قضاء حاجته ومصالحه، وينصح له، وهذا المعنى يجب أن يكون للمؤمنين. قال النبى ﷺ: **«الدين النصيحة»** قيل لمن؟ قال: **«لله ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم»**[2]، وقال ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»**[3].

ومن موالاة الكافرين معاونتهم على ظلمهم ونصرتهم على باطلهم، قال تعالى: **﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾**[4] وفى حديث جرير رضى الله عنه: «وتنصح المسلم وتبرأ من المشرك»[5] وقد جعل الله مصير امرأة نوح وامرأة لوط مصير قومهما لأجل معاونتهما لقومهما ورضاهما بما هم عليه. قال تعالى: **﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا**

---

(١) (٢/ ١٢).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (٢/ ٣٦) عن تميم الدارى.
وانظر «رياض الصالحين» (١٨١٥ ـ بتخريجنا).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٠٢٦)، ومسلم فى البر والصلة (٦/ ١٣٩) عن أبى موسى به.
وانظر «رياض الصالحين» (٢٢٤ ـ بتخريجنا).

(٤) المائدة/ (٢).

(٥) سبق تخريجه.

﴿صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾(١) ومن معانى ذلك الثناء على الكافرين ونشر فضائلهم ومحاسنهم وإضفاء الأوصاف الفاتنة فى المدح والثناء، مثل أنهم أصحاب المنهج العلمي، وأنهم أصحاب الحضارة، والتقدم، والعلم، والرقي، مع وصف المسلمين بالأوصاف المناقضة، ولا شك أنه لا يجوز وصف الكفار بالعلم مطلقًا بل لابد من التقييد، بل يوصفون بعدم العلم على الإطلاق، ويستثنى بعض العلم الدنيوي، قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(٢) فلابد من الحذر من طريقة العلمانيين الذين يأمرون المسلمين باتباع الغرب فى خيره وشره زاعمين أنه لاسبيل للنهوض إلا من خلال اتباع المنهج الغربى فى كل ما جاء به، وأنه لا يجوز الفصل بين العلوم الحديثة ومناهج الحياة الأخرى فى الاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، والآداب، والفنون، وغيرها مما كان له أخطر الآثار فى حياة المسلمين وازدواج المقاييس فيها والسعى الحثيث للفصل بين الدين والحياة وليس فقط بين الدين والدولة.

٦- المداهنة على حساب الدين

قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾(٣).

والمقصود بذلك موافقتهم على شيء من باطلهم على سبيل المجاملة، وكذا تقديمهم وتعظيمهم والمدح والثناء لأكابرهم.

ومن ذلك: تسمية قتلاهم بالشهداء، ووضع أكاليل الزهور على قبورهم، والترحم عليهم وأعظم ذلك خطرًا التصريح بأنهم على الحق، وأنهم لا فرق بينهم وبين المسلمين، قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(٤).

٧- تولية الكفار أمور المسلمين

ومن معانى الموالاة: تولية الكفار أمرًا من أمور المسلمين كالإمارة والكتابة ونحوه مما فيه سلطان على مسلم.

---

(١) التحريم / (١٠).

(٢) الروم / (٦، ٧).

(٣) القلم / (٩).

(٤) القلم / (٣٥، ٣٦).

قال ابن القيم رحمه الله[1]: ولما كانت التولية شقيقة الولاية كانت توليتهم نوعاً من توليهم، وقد حكم تعالى بأن من تولاهم فإنه منهم، ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم والولاية تنافي البراءة، فلا تجتمع البراءة والولاية أبدًا، والولاية إعزاز فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبداً، والولاية صلة، فلا تجامع معاداة الكافر أبداً. اهـ.

٨ـ السكنى معهم في ديارهم وتكثير سوادهم(*)

قال رسول الله ﷺ: **«من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله»** (٢).

وقال ﷺ: **«لاتساكنوا المشركين، ولاتجامعوهم، فمن ساكنهم، أو جامعهم فليس منا»**(٣)، ويتصل هذا الموضوع بالحديث عن الهجرة والمقصود بها هنا الهجرة من دار الكفر أو الفسق إلى دار الإسلام.

أحكام الهجرة:

قال ابن قدامه في «المغني»(٤): «فالناس في الهجرة على ثلاثة أضرب:

[أحدهم]: من تجب عليه: وهو من يقدر عليها، ولايمكنه إظهار دينه، ولا تمكنه إقامة واجبات دينه، مع القيام بين الكفار، فهذا تجب عليه الهجرة، لقول الله تعالى **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾**(٥).

وعيد شديد يدل على الوجوب، ولأن القيام بواجب على من قدر عليه والهجرة من ضرورة الواجب، ومالايتم الواجب إلا به فهو واجب.

[الثاني]: من لاهجرة عليه: وهو من يعجز عنها، إما لمرض، أو إكراه على الإقامة أو ضعف من النساء والولدان وشبههم، فهذا لاهجرة عليه، لقوله تعالي: **﴿إِلَّا**

---

(١) أحكام أهل الذمة (١/ ٢٤٢).

(*) انظر «الولاء والبراء» للقحطاني (٢٧٠ - ٢٨٢).

(٢) أخرجه «أبو داود (٢٧٨٧)، عن سمرة بن جندب به.

(٣) علقه الترمذي (٤/ ١٥٦) تحت حديث (١٦٠٥) ووصله الحاكم في «المستدرك» (٢/ ١٤١ـ ١٤٢) وصححه.

(٤) المغني (٨/ ٤٥٧).

(٥) النساء / (٧٩).

الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾(١) ولاتوصف باستحباب، لأنها غيرمقدور عليها.

[الثالث] - من تستحب لـه، ولاتجب عليه: وهو من يقدر عـليها، لكنه يتـمكن من إظهار دينه، وإقامته فى دار الكفر، فتستحب له، ليتمكن من جهادهم، وتكثير المسلمين ومعونتهم ويتخلـص من تكثير الكفار ومخالطتهم، ورؤية المنكـر بينهم، ولا تجب عليه لإمكان إقامة واجـب دينه بدون هجرة، وقد كان العـباس عم النبى ﷺ مقيـماً بمكة مع إسلامه. أهـ.

وقال الشوكانى رحمه الله فى «السيل الجرار»(٢):

واعلم أن الـتعرض لذكـر دار الإسلام ودار الكفر قـليل الفائـدة جداً، لما قدمـنا لك الكلام على دار الحرب، وأن الكافرالحربى مبـاح الدم والمال على كل حال، مالم يؤمن من المسلمين، وأن مال المسلم ودمه معصـومان بعصمة الإسلام فى دار الحرب، وغيرها، وإن كانت الفائدة هى ماتـقدم من كونهم يملكون علينا مادخل داراهـم قهراً فقد أوضحنا هنالك أنهم لايملكـون علينا شيئاً، وإن كانت الفائدة - وجوب الـهجرة عن دار الكفر فليس هذا الوجـوب مختصاً بدار الكفر، بل هوشـريعة قائمة، وسنة ثابتـة عند استعلاء المنكر، وعدم الاستطـاعة للقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهـى عن المنكر، وعدم وجود من يأخذ على المنتهكين لمحارم الله، فحق على العبد المؤمن أن ينجو بنفسه، ويفر بدينه إن تمكن مـن ذلك، ووجد أرضاً خالـية من التظـاهر لمعاصـى الله وعدم التناكـر على فاعلها، فإن لم يجد؛ فليس فى الإمكان أحـسن مما كان وعليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بيـده فإن لم يستطع فبلسانه فـإن لم يستطع فبقلبه، كـما أرشد ذلك الصادق المصدوق فيما صح عنه، وإذا قدر أن يغلق على نـفسه بابه، ويضرب بينه وبين العصاة حجابه كان ذلك من أقل ما يجب عليه. أهـ.

ثم قال تعليقاً على قول صاحـب المتن« إلى خلى عما هاجر لأجله»(٣): فوجهه ظاهر لأن الانتقال من شر إلى شر، ومن دار عصاة إلى دار عـصاة ليس فيه إلا إتعاب النفس بقطع المفاوز، فإن كان التظاهر بالمعاصى فـى غير بلده أقل مما هو ببلده كان ذلك وجها للهجرة، وفى الشر خيار. أهـ.

---

(١) النساء/ (٩٨).

(٢) (٤/ ٥٤٧).

(٣) خليّ عما هاجر لأجله معناه: إلى بلد خال من الشر الذى هاجر من بلده لأجل وجوده.

ثم قال رحمه الله: إن كانت المصلحة العائدة على طائفة من المسلمين ظاهرة، كأن يكون له مدخل فى بعض الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، أو فى تعليمه معالم الخير بحيث يكون ذلك راجحاً على هجرته، وفراره بدينه؛ فإنه يجب عليه ترك الهجرة رعاية لهذه المصلحة الراجحة؛ لأن هذه المصلحة الحاصلة له بالهجرة تصير مفسدة بالنسبة إلى المصلحة المرجوة بتركه للهجرة. أهـ.

وقد سبق فى النصرة كلام ابن حزم فيمن يقيم بدار الحرب فراجعه.

فصل موانع التكفير بالموالاة

التقية - الإكراه - المداراة

● **تمهيد فى الفرق بين التقية والمداراة:** قال تعالى **﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾** والتقية: هى الرخصة فى إظهار الموالاة مع اطمئنان القلب بالإيمان. كما قال **﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾**.

والتقية ربما كانت لخطر حتمى الوقوع فيستخدم المسلم التقية ليدفع الضرر حتمى الوقوع وليس الظنى الوقوع ولكن هى رخصة، والأصل الثبات، وهى لها علاقة بالمداراة والقاسم المشترك بينهما أنهما نفس المعنى فالتقية: هى درء الشد المفسد بالقول اللين.

والمداراة: درء الشر المفسد بالقول اللين(١).

لكن التقية تكون فى الغالب تحت تهديد أما المداراة فليس هناك إكراه.

ومثال المداراة أن النبى ﷺ قال «**بئس أخو العشيرة إئذنوا له**»(٢) فلما دخل ألان له القول وقال: هذا منافق إداريه حتى لايفسد عليّ غيره.

ولم يكن هناك تهديد على النبى ﷺ لكن لمصلحة شرعية فعل ذلك.

فصل

المانع الأول الإكراه

لماكان المسلم قد يتعرض إلى ضرورة تكرهه على إظهار موالاة الكفار أو المنافقين أو أن يدفع عن نفسه شرهم وأذاهم باستعمال التقية لزم أن يكون على بينة من أمره فيما

(١) ارجع إلى كتابى «المداهنة والمداراة». يَسَّر الله نَشْرَه.

(٢) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٦٠٥٤)، ومسلم فى البر والصلة (٨/ ٣٨٨/ ٧٣) عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ به.

يجوز وما لايجوز من ذلك وحدود الإكراه المعتبر شرعاً ومعنى التقية، وشروط اعتبار العمل بها - وهذا فصل مختصر فى أهم مسائل هذا الموضوع:

قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١).

سبب النزول:

قال الحافظ ابن كثير فى «تفسيره»(٢): روى العوفى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء معتذراً إلى النبى ﷺ، فأنزل الله هذه الآية(٣)، وهكذا قال الشعبي، وقتادة، وأبومالك. أهـ.

ثم قال: ولهذا اتفق العلماء على أن المكره يجوز له أن يوالى المشركين، إبقاء لمهجته. أهـ.

شروط الإكراه المعتبر شرعاً:

ذكر ابن حجر فى «الفتح»(٤) هذه الشروط:

١- أن يكون فاعله قادراً على إيقاع ما يهدد به، والمأمور عاجزًا عن الدفع، ولو بالفرار.

٢- أن يغلب على ظنه أنه إذا امتنع أوقع به ذلك.

٣- أن يكون ما هدد به فورياً، فلو قال: إن لم تفعل كذا ضربتك غداً. لايعد مكرهاً، ويستثنى ما إذا ذكر زمنا قريباً جداً، أو جرت العادة بأنه لايخلف.

٤- أن لايظهر من الأمور ما يدل على اختياره. أهـ.

أما لوتمكن من الفرار على أن يعطيهم ماله فعل كما فعل صهيب رضى الله عنه.

قال ابن كثير رحمه الله فى «تفسيره»(٥) عند قوله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾(٦) قال ابن عباس، وأنس، وسعيد بن المسيب، وأبو عثمان النهدي، وعكرمة، وجماعة: «نزلت فى صهيب ابن سنان

(١) النحل/ (١٠٦). (٢) (٢/ ٥٨٧).

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٤/ ٢٤٨) ونسبه لابن المنذر، وابن أبى حاتم. وانظر الأخير بتخريجنا.

(٤) (١٢/ ٣١١). (٥) (١/ ٢٤٧).

(٦) البقرة (٢٠٧).

الرومي، وذلك أنه لما أسلم بمكة، وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله؛ فإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر، فعل، فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب، وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا له : ربح البيع، فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية(1). أهـ.

ثم قال رحمه الله وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت فى كل مجاهد فى سبيل الله. أهـ.

قال صاحب «فضل الغنى الحميد»(2): وما فعله صيهب رضى الله عنه مشروع بلا شك ولكن هل هو واجب أم مستحب؟ الذى يظهر أن الإضرار البالغ بالمال يعد عذراً يسقط من صاحبه وجوب التخلص من الكفار بدفع المال ويبقى الاستحباب،و أما الحبة من المال التى لا أثر لها فيلزمه حفظ دينه بدفعها . والله أعلم.

على أى شيء يصح الإكراه؟.

قال القرطبى رحمه الله فى «تفسيره»(3).

«أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره، أنه لايجوز له الإقدام على قتله، ولا انتهاك حرمته بجلد أو غيره، ويصبر على البلاء الذى نزل به، ولايحل له أن يفدى نفسه بغيره، ويسأل الله العافية فى الدنيا والآخرة.

واختلف فى الزنا، فقال مطرف، وأصبغ، وابن الحكم، وابن الماجشون: لايفعل أحد ذلك، وإن قتل لم يفعله، فإن فعله فهو آثم، ويلزمه الحد، وبه قال أبوثور، والحسن .

وقال ابن العربى : الصحيح أن يجوز الإقدام على الزنا، ولاحد عليه خلافاً لمن ألزمه ذلك. اهـ .

ثم قال رحمه الله: قال ابن خويز منداد فى «أحكامه»: اختلف أصحابنا متى أكره الرجل على الزنا، فقال بعضهم : عليه الحد، لأنه إنما يفعل ذلك باختياره، وقال بعضهم: لاحد عليه.

قال ابن خويز منداد: وهو الصحيح . وقال أبو حنيفة: إن أكرهه غير السلطان حدّ، وإن أكرهه السلطان فالقياس أن يحد ، ولن استحسن أن لايحد، وخالفه صاحباه، فقالا: لاحد عليه فى الوجهين، ولم يراعوا الانتشار يعنى انتشار ذكره قبل الإيلاج - وقالوا : متى علم أن يتخلص من القتل بفعل الزنا؛ جاز أن ينتشر، قال ابن المنذر، : لاحد عليه،ولافرق بين السلطان فى ذلك وغير السلطان. اهـ.

---

(1) انظر «الدر» (1/ 430) وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(2) (ص: 150). (3) (5/ 3799).

هل يصح الإكراه على القول والفعل أم القول فقط؟

قال القرطبى رحمه الله فى «تفسيره»[1]: ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الرخصة إنما جاءت فى القول، وأما فى الفعل فلا رخصة فيه، مثل أن يكرهوا على السجود لغير الله، أو الصلاة لغير القبلة، أو قتل مسلم أو ضربه، أو أكل ماله، أو الزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، يروى هذا عن الحسن البصري، وهو قول الأوزاعى ، وسحنون من علمائنا.

وقال محمد بن الحسن: إذا قيل للأسير : اسجد لهذا الصنم وإلا قتلتك. فقال : إن كان الصنم مقابل للقبلة، فليسجد، ويكون نيته لله تعالي، وأن كان لغير القبلة فلا يسجد وإن قتلوه.

والصحيح أنه يسجد وإن كان لغير القبلة وما أحراه بالسجود حينئذ، فقد قال ابن عمر رضى الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يصلي وهومقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه، قال وفيه نزلت﴿ **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾[2] وفى رواية ـ «ويوتر عليها غير أنه لايصلى المكتوبة»[3]، فإذا كان هذا مباحاً فى السفر ـ فى حالة الأمن - لتعب النزول عن الدابة للتنفل، فكيف بحالة هذا المكره؟!.

واحتج من قصر الرخصة على القول بقول ابن مسعود رضى الله عنه: «ما من كلام يدرأ عنى سوطين من ذى سلطان إلا كنت متكلمًا به»[4] فقصر الرخصة على القول، ولم يذكر الفعل ، وهذا لا حجة فيه، لأنه يحتمل أن يجعل الكلام مثالاً، وهو يريد أن الفعل فى حكمه.

وقالت طائفة: الإكراه فى الفعل والقول سواء إذا أسر الإيمان، روى ذلك عن عمر بن الخطاب ومكحول، وهو قول مالك، وطائفة من أهل العراق.

وروى ابن القاسم عن مالك أن من أكره على شرب الخمر، وترك الصلاة، أو الإفطار فى رمضان، أن الإثم عنه مرفوع. أ.هـ.

---

(١) (٥/٣٧٩٨).

(٢) البقرة (١١٥). والحديث أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين (٣/ ٢٢٥/ ٣٣).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٠٩٧) ، ومسلم فى صلاة المسافرين (٦/ ٢١٢ ـ النووى) وانظر «السلسبيل» (٣٥٤ ـ بتخريجنا).

(٤) ذكره ابن حزم فى «المحلى» (٨/ ٣٣٦) ، وقال: لا يعرف له من الصحابة رضى الله عنهم مخالف . ا . هـ.

بِمَ يصح الإكراه؟

قال القرطبى رحمه الله فى «تفسيره»[1]: «واختلف العلماء فى حد الإكراه، فروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أنه قال: «ليس الرجل بآمن على نفسه إذا أخفته، أو أوثقته، أو ضربته».

وقال ابن مسعود رضى الله عنه: « ما كلام يدرأ عنى سوطين إلا كنت متكلمًا به»[2].

وقال الحسن: «التَّـقِيَّة جائزة للمؤمن إلى يوم القيامة، إلا أن الله تبارك وتعالى لم يجعل فى القتل تقية».

وقال النخعي: «القيد إكراه، والسجن إكراه».

وهذا قول مالك إلا أنه قال: «والوعيد المحقق إكراه، وإن لم يقع، إذا تحقق ظلم ذلك المعتدي، وإنفاذه لما يتوعد به».

وليس عند مالك وأصحابه فى الضرب والسجن توقيت، إنما هو ما كان يؤلم من الضرب، وما كان من السجن يدخل من الضيق على المكره، وإكراه السلطان وغيره عند مالك إكراه.

وتناقض الكوفيون فلم يجعلوا السجن والقيد إكراهًا على شرب الخمر، وأكل الميتة، لأنه يخاف منهما التلف، ويجعلوهما إكراهًا فى إقراره على ألف درهم.

قال ابن سحنون: وفى إجماعهم على أن الألم والوجع الشديد إكراه ما يدل أن الإكراه يكون من غير تلف نفس، وذهب مالك إلى أن من أكره على يمين بوعيد، أو سجن، أو شرب أنه يحلف، ولا حنث عليه، وهو قول الشافعي، وأحمد، وأبى ثور، وأكثر العلماء. أ.هـ.

هل يختلف حكم الإكراه مع اختلاف المكره عليه ونوع الإكراه؟

قال ابن تيمية[3]: «تأملت المذاهب فوجدت الإكراه يختلف باختلاف المكره عليه، فليس الإكراه المعتبر فى كلمة الكفر، كالإكراه المعتبر فى الهبة ونحوها، فإن أحمد قد نص فى غير موضع: أن الإكراه على الكفر لا يكون إلا بالتعذيب من ضرب، وقيد، ولا يكون الكلام إكراهًا» أ.هـ.

---

(١) (٥/٦٠٣٨).

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

(٣) نقلاً عن الولاء والبراء (٣٧٧).

قال القرطبى فى «تفسيره»[١]: «أكره يوسف عليه السلام على الفاحشة بالسجن، وأقام خمسة أعوام، وما رضى بذلك لعظيم منزلته، وشريف قدره، ولو أكره رجل بالسجن على الزنا، ما جاز له إجماعًا، فإن أكره بالضرب فقد اختلف فيه العلماء، والصحيح أنه إذا كان فادحًا فإنه يسقط عنه إثم الزنى وحده.

وقد قال بعض علمائنا: إنه لا يسقط عنه الحد، وهو ضعيف، فإن الله تعالى لا يجمع على عبده العذابين، ولا يصرفه بين بلاءين، فإنه من أعظم الحرج فى الدين قال تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾[٢] أ.هـ.

فصل

المانع الثاني (التقية)(*)

قال تعالى: ﴿**لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ**﴾[٣].

قال البغوى فى «تفسيره»[٤]: نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفار، ومداهنتهم، ومباطنتهم، إلا أن يكون الكفار غالبين، ظاهرين، أو يكون المؤمن فى قوم كفار يخافهم، فيداريهم باللسان، وقلبه مطمئن بالإيمان، دفعًا عن نفسه من غير أن يستحل دمًا حرامًا، أو مالاً حرامًا، أو يظهر الكفار على عورة المسلمين، والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل، وسلامة النية، قال تعالى: ﴿**إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ**﴾[٥]، ثم هذه رخصة فلو صبر حتى قتل فله أجر عظيم .أ.هـ.

وقال ابن القيم: فى «بدائع الفوائد»[٦]: معلوم أن التقاة ليست بموالاة لهم .أهـ.

ولأن باب التقاة باب يمكن أن ينفذ منه الشيطان بسهولة، يزين للضعفاء، ومرضى

---

(١) (٤/ ٣٤١٦).

(٢) الحج/ (٧٨).

(*) وانظر «الولاء والبراء» (٣٦٩ - ٣٧٥).

(٣) آل عمران/ (٢٨).

(٤) (١/ ٣٣٦).

(٥) النحل/ (١٠٦).

(٦) (ص: ٨٠).

القلوب أن يركنوا إلى أعداء الله، قال بعدها مباشرة: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ يحذركم فى الدنيا أن تتخذوا هذا الباب تكأة، وتستسهلوا هذه الكبيرة - وهى موالاة أعداء الله - وينذركم أن إليه المصير، فيجازيكم على ما فعلتم فى الدنيا، فلا تحسبوا أن ترتكبوا هذه الكبيرة فى الأرض- مخادعين أنفسكم أو مخادعين الناس - ثم تنجوا من عذاب الله فى الآخرة[1].

قال شهاب الدين القرافى فى «الاستغناء فى أحكام الاستثناء»[2]: ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ تقديره: لا تفعلوا ذلك فى حالة من الحالات إلا فى حالة الاتقاء.

وقال ابن جرير الطبري[3]: فى تفسير قوله تعالى: ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾: أى إلا أن تكونوا فى سلطانهم، فتخافوهم على أنفسكم، فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتضمروا العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مسلم بفعل أهـ.

فصل

فى معنى البراء لغة واصطلاحا

البراء لغة: البعد أو التنزه والحديث فى الصحيح «أما أحدهما فكان لايستبرأ من بوله»[4] يعنى لايتنزه ويبعد أو إن شئت فقل أن الولاء عكس البراء فالولاء: محبة. والبراء: بغض وعداوة.

والله عز وجل قال لنا أن لنا أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ فالكفر والعداوة والبغض هى معنى البراء فى المعنى اللغوى والشرعي، والواجب على المسلم أن يبرأ من الكفر والكافرين وأن يوالى الإسلام والمسلمين كما تقدم معنا فى معنى (لاإله) براء (إلا الله) محبة، وأيضاً إذا كان كلمة التوحيد براء وولاء فهى أيضاً قوله تعالى ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ أى يتبرأ من الطاغوت ويوالى الله.

---

(١) راجع «دراسات قرآنية» ص: (٣٢٦). (٢) (ص: ٦٣٤).

(٣) تفسير الطبرى (٣/٢٢٨).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٣٧٨)، ومسلم فى الطهارة (٣/ ٢٠٠ ـ النووى) عن ابن عباس به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٥٤٠ ـ بتخريجنا).

وهذا فيه إشارة إلى أن الذى تبرأ من الكفر والكافرين ووالى الإسلام والمسلمين فهو المهتدى كما قال تعالى: ﴿إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين﴾ وهذه منقبة من مناقب الحب فى الله والبغض فى الله قال تعالى﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ فلايتصور إلا البراء من الشرك والمشركين ولو كانوا أبائهم.

ومن الأحاديث التى بينت معنى البراء لغة «**اللهم إنى أبرء إليك مما صنع خالد**»(١) وقال بعض الصحابة وهو أنس بن النضر فى غزوة أحد «**اللهم إنى أبرء إليك مما صنع هؤلاء**»(٢) حيث فروا من حول الرسول وهذا الصحابى الذى قال ذلك استشهد بعد أن تبرأ من فعل هؤلاء.

فصل فى الفرق بين القسط والمودة والموالاة

قال الفقير: الله عزوجل يوجهنا ويعلمنا صورة من صور المودة لبعض الأقارب الذين لم يحاربوننا فى الدين ولم يخرجونا من ديارنا قال تعالى ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٣).

فرق بين البر والقسط، وبين المودة والموالاة: فالمودة والمولاة: هذا عمل قلبى يثمر عن عمل للجوارح، بخلاف البر والقسط فإنه قد يكون عمل للجوارح وليس له تعلق بعمل القلب ولذلك ربما تقسط مع أحد من الناس وأنت تكرهه امتثالا لقوله تعالى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾ إذن فقد نعدل ونقسط مع من نبغضه من باب التقوى والإحسان.

فهذه الآية قد يؤخذ منها أن من لم يقاتلنا نواليه.

الجواب: لا يؤخذ ذلك منها، ولا نواليه، بل نبره ونقسط إليه فقط وسبب نزول الآية أن أسماء رضى الله عنها جاءتها أمها وهى راغبة، وكانت مشركة، فلم تأذن لها

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٣٣٩) عن ابن عمر به.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإمارة (٧/٥٣/١٤٨)، والترمذى (٣٢٠١) عن أنس للفظ للترمذى.

(٣) الممتحنة/ ٨.

فى الدخول حتى ذهبت للرسول ﷺ تستأذنه، فنزلت الآية[1].

فلا مانع من برها ولكن ليس لها ولاء، وهو عين مافعله النبى ﷺ حينما وصل بعض أقاربه من المشركين حيث قال«**إن بنى فلان ليسوا لى بأولياء، بل لهم عندى رحم أبلها ببلالها**».

وليس التقى من يعدل مع من يحب، ولكن التقى من يعدل مع من لايحب فالعدل عزيز نادر حيث وصى الله المؤمنين بذلك فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ .

وأما قوله الله تعالى ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا**﴾[2] .

تبرؤا: أى تخلُّوا عنهم فى وقت هم فى أمس الحاجة إليهم.

قال ابن القيم: من أحب شيئًا من دون الله ليس فى الله وليس لله عذب بمحبته فى الدنيا والآخرة.

وكما أنه لايدخل جنة الآخرة إلا من دخل جنة الدنيا (مجالس العلم: يُرى فى وجهه نضرة النعيم، ومن لم تُر عليه فى الدينا لا يُرى عليه فى الآخرة).

أيضًا من دخل نار الدنيا (نار العشق تكون عليهم فى القبر نار) يدخل نار الآخرة.

ولهذا كان ابن القيم يقول على شيخ الإسلام ؛ كان يُرى عليه نضرة النعيم.

ومن هنا نعرف من هم أولياء الله وأولياء الشيطان.

فأولياء الشيطان هم الذين أحبوا الشيطان وأحبوا منهجه ومعتقده وناصروه وآزروه واتبعوا الظلمات التى يُلبس بها على الناس فعلى وجوههم ظلمة: ﴿**كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا**﴾.

وأما أولياء الرحمن: هم الذين والوا الله واحبوه وتقربوا إليه بما يرضيه سبحانه ومن هنا نعرف قوله تعالى ﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾[3]واتبعوا النور الذى أنزل على رسوله فهؤلاء هم المؤمنون حقاً، نسأل الله أن نكون منهم.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٩٧٨)، ومسلم فى الزكاة (٧/ ٨٨ ـ النووى) عن أسماء به . وانظر «رياض الصالحين» (٣٢٧ ـ بتخريجنا).

(٢) البقرة/ ١٦٦ .

(٣) يونس / ٦٢، ٦٣ .

صور ليست من الموالاة

قال صاحب «فضل الغنى الحميد»: ويلزمنا فى هذا المقام أن نبين مايجوز من المعاملة مع الكفار والمشركين وذلك لأن كثيراً من الناس قد يسىء الفهم فيما ورد من الأدلة من معاملات أجازها الشرع مع الكفار فيظن أنها دليل على جواز موالاتهم ومودتهم وما أكثر مانسمع ذلك ونراه فيمن يوالى الكافرين موالاة محرمة وأحياناً كفرية، وهو يحتج بأن الرسول ﷺقد باع واشترى ووهب وقبل الهدية وعاد مرضى الكفار ونحو ذلك فلابد لنا من التفريق بين مايجوز ومالايجوز من معاملة الكفار وأيضاً فكثير من أهل البدع الغلاة يجعلون كل معاملة مع الكفار ـ أو مع من يظنون كفرهم بسبب غلوهم فى الدين وبدعتهم ـ موالاة كفرية أومحرمة جهلاً منهم بالفرق بين هذه المعاملات الجائزة وصور الموالاة المحرمة لغة وشرعاً؛ وإليك هذه الصور التى ليست من الموالاة.

١ـ الاستعانة بغير المسلم لغرض حماية الداعى

من أدلة ذلك حماية أبى طالب لرسول الله ﷺ، وقد حرص رسول الله ﷺ على ذلك، وأيضاً قبول أبى بكر رضى الله عنه الدخول فى جوار ابن الدغنة،وليست العلة فى قبول ذلك مجرد تمتع المسلمين بالراحة والحياة، ولكن للتمكن من نشر الإسلام، والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، أو النجاة من إيذاء الكفار،وبطشهم للقيام مستقبلا بالدعوة إلى الله تعالى، وهذا بشرط أن لايكون على حساب أحكام الإسلام، أو التنازل عن شىء منها، وأن يطمئن إلى عدم خيانته للمسلم، أو كشف مايطلع عليه من أمر الدعوة إلى الله تعالى سواء كان ذلك لجميل عليه للمسلم، أو صدق معاملة أو حسن خلق، ولاضير على المسلم إذا استعان على ذلك بموقف المشرك المفيد. لأى سبب من الأسباب(١).

أما الاستعانة بهم فى قتال الكفار، فالراجح المنع منه لقول النبىﷺ: **«أرجع فلن استعين بمشرك»**(٢). و أما فى قتال المسلمين فمنعه جماهير العلماء لأنه تسليط للكفار على المسلمين قال تعالى : **﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾**(٣).

---

(١) «أصول الدعوة» لعبد الكريم زيدان.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجهاد (٦/ ٤٣٧/ ١٥٠) عن عائشة به.

وانظر كتابنا «قفو الأثر فى شرح بلوغ المرام بكلام ابن حجر».

(٣) النساء : (١٤١)

٢ـ المؤاجرة والمبايعة مع المشركين(*)

قال البخارى فى صحيحه: «باب هل يؤاجر الرجل نفسه من مشرك فى أرض الحرب» . ثم ساق بسنده عن خباب رضى الله عنه قال: كنت رجلاً قيناً، فعملت للعاص بن وائل فاجتمع لى عنده، فأتيته اتقاضاه، فقال : لا، والله، ولا أقضيك حتى تكفر بمحمد ﷺ، فقلت أما والله حتى تموت، ثم تبعث، فلا، قال: وإنى لميت، ثم مبعوث؟ قلت :نعم، قال : فإنه سيكون لى مال، وولد فأقضيك، فأنزل الله تعالى ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً﴾(١) . »(٢)

قال ابن حجر فى «فتح البارى»(٣) فى شرح الباب: أورد فيه حديث خباب - وهو إذ ذاك مسلم - فى عمله للعاص بن وائل، وهو مشرك، وكان ذلك بمكة، وهى إذ ذاك دار حرب، واطلع النبى ﷺ على ذلك، وأقره، ولم يجزم المصنف بالحكم؛ لاحتمال أن يكون الجواز للضرورة، أو أن جواز ذلك كان قبل الإذن فى قتال المشركين ومنابذتهم، وقبل الأمر بعدم إذلال المؤمن نفسه.

قال المهلب:كره أهل العلم ذلك، إلا لضرورة، بشرطين:

أحدهما: أن يكون عمله فيما يحل للمسلم فعله.

والآخر: أن لايعينه على ما يعود ضرره على المسلمين. وقال ابن المنذر: استقرت المذاهب على أن الصناع فى حوانيتهم يجوز لهم العمل لأهل الذمة، ولايعد ذلك من الذلة، بخلاف أن يخدمه فى منزله، وبطريق تبعته له. أهـ.

قال ابن قدامه فى «المغنى»(٤) : لاتجوز إجارة المسلم للذمى لخدمته، نص عليه أحمد فى رواية الأثرم، فقال: إن آجر نفسه من الذمى فى خدمته لم تجز، وإن كان فى عمل شيء جاز، وهو أحد قولى الشافعى. والآخر: تجوز، لأن له إجارة نفسه فى غير الخدمة؛ فجاز فيها، كإجارته من المسلم، ولنا : أنه عقد يتضمن حبس المسلم عند الكافر، وإذلاله أشبه البيع، يحققه أن عقد الإجارة للخدمة يتعين فيه حبسه مدة الإجارة

(*) انظر «الولاء والبراء» للقحطانى (٣٥٤ ـ٣٥٦)

(١) مريم :٧٧

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٠٩١)،ومسلم فى صفة القيامة (٩/ ١٥١/ ٣٥) عن خباب به.

(٣) فتح البارى (٤/ ٤٥٢)

(٤) المغنى (٥/ ٤١٠)

واستخدامه، والبيع لايتعين فيه ذلك، فـإذا منع منه، فلأن يمنع من الإجارة أولى، فأما إن آجر نفسه في عمل معين في الذمة، كخياطة ثوب، جاز بغيرخلاف نعلمه.

ثم قال رحـمه الله: ولأنه عقد معـاوضة لايتضمن إذلال المسلم، ولا استـخدامه أشبه مبايعـته، وإن آجر نفسه مـنه بعمل غيـر الخدمة مدة معلـومة جاز أيضاً في ظـاهر كلام أحمد. أهـ.

٣. البيع والشراء

قال البخـاري رحمه الله: «باب الشراء والـبيع من المشركين وأهـل الحرب» ثم ساق بسنده عن عبدالرحمن بن أبي بكر رضـي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ ثم جاء رجل مشرك طويل بغنم يسوقها، فقال النبي ﷺ **«بيعاً أم عطيـة ـ أو قال ـ أم هبة؟ قال: لا، بل بيع، فاشترى منه شاة»** (١).

قال ابن حجر في «الفتح»(٢) قال ابن بطال: معاملة الكفار جائزة إلا مع مايستعين به أهل الحرب على المسلمين. ثم قال: وفي الحديث قبول هدية المشرك، لأنه سأله هل يبيع أو يهدي؟. أهـ.

٤. قبول الهدية منهم والإهداء إليهم

قال البخـاري رحمه الله: «باب قبـول الهدية من المشـركين» ثم ذكر حديـث أنس في إهداء أكيـدر دومة للنـبي ﷺ (٣)، وحديث أنـس في إهداء اليهـودية للنبـي ﷺ الشاة المسمومة وأكله منها وأصحابه(٤)، وكذا إهداء ملك أيلة للنبـي ﷺ بغلة بيضاء، فكساه برداً (٥). وقصة هاجر التي أهداها الجبار لإبراهيم عليه السلام (٦).

قال الحافظ في «الفتح»(٧): في الجمع بين هذه الأحاديث وحديث: «إني نهيت عن

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٢١٦)، ومسلم في الأشربة (٧/ ٢٦٢/ ١٧٥).

(٢) فتح الباري (٤/ ٤٠١)

(٣) [صحيح] علقه البخاري (٢٦١٦)، ووصله مسلم في الفضائل (٨/ ٢٦٠/ ١٢٧).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٦١٧)، و مسلم في السلام (٧/ ٤٣٣/ ٤٥).

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخاري (١٤٨١)، ومسلم في الفضائل (٨/ ٤٥/ ١١) عن أبي حميد به.

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم في الفضائل (٨/ ١٣٤/ ١٥٤) عن أبي هريرة به.

(٧) فتح الباري (٥/ ٢٤١)

زبد المشركين»[1]. قال«وجمع غير الطبرى بأن الامتناع فى حق من يريد بهديته التودد والموالاة، والقبول فى حق من يرجو بذلك تأنيسه وتأليفه على الإسلام».

وقد روى البخارى فى باب الهدية للمشركين حديث إهداء عمر أخاه المشرك حلة حرير[2]. وحديث أسماء فى صلة أمها وهى مشركة [3]. وهذا على سبيل التأليف وصلة الرحم من غير مودة.

٥ـ رد السلام عليهم(*)

قال ابن القيم فى «زاد المعاد»[4]: اختلف فى وجوبه: فالجمهور على وجوبه، وهو الصواب، وقالت طائفة: لايجب الرد عليهم، كما لايجب على أهل البدع، وهو أولى.

والصواب الأول، والفرق: أنا مأمورون بهجر أهل البدع، تعزيراً لهم، وتحذيراً منهم، بخلاف أهل الذمة. أهـ.

ومما يرجح رأى الجمهور فى وجوب الرد على أهل الكتاب قوله ﷺ: **«إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم»**[5].

٦ـ الانتفاع بما عندهم(**)

يجوز أن يتلقى المسلم من غير المسلم ماينفعه فى علم الكيمياء والفيزياء، والفلك، والطب، والصناعة، والزراعة، والأعمال الإدارية، وأمثال ذلك. وهذا حين تنعدم الاستفادة من هذه العلوم من مسلم تقى.

كذلك يجوز الانتفاع بهم فى دلالة الطريق، وماعندهم من سلاح، وملابس، وغير ذلك من الحاجات التى يحتاجها الناس، وجرت العادة فيها أن المسلم والكافر يستويان فى الانتفاع بها. وأدلة الانتفاع بالكفار نجدها فى سنة رسول الله ﷺ، فقد ورد فى

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٥٧)، والترمذى (١٥٧٧)، عن عياض بن حمار به.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٦١٩)، ومسلم فى اللباس (٧/ ٢٨٢/٦).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) (٢/ ٢٧)

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٩٢٦)، ومسلم فى السلام (١٤/ ١٤٤ ـ النووي) عن أنس به. وانظر «رياض الصالحين» (٨٦٩ ـ بتخريجنا).

(*) انظر الولاء والبراء للقحطانى (٣٥٩ ـ ٣٦١)

(**) انظر «الولاء والبراء» للقحطانى (٣٦٢ـ٣٦٣)

الحديث عن عائشة رضى الله عنها «استأجر النبى ﷺ وأبو بكر رجلاً من بنى الديل.. هادياً خريتاً» (١).

٧ـ الزواج من الكتابية

قال تعالى ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾(٢).

قال ابن كثير رحمه الله فى «التفسير» (٣) أى: وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات، وذكر هذا توطئة لمابعده، وهوقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فقيل أراد به المحصنات الحرائر دون الإماء. حكاه ابن جرير عن مجاهد، وإنما قال مجاهد المحصنات: الحرائر(٤). فيحتمل أن يكون أراد ماحكاه عنه، ويحتمل أن يكون أراد به بالحرة العفيفة كما قال فى الرواية الأخرى عنه، وهو قول الجمهور هنا، وهو الأشبه لئلا يجتمع فيها أن تكون ذمية وهى مع ذلك غير عفيفة فتفيد حالها بالكلية. اهـ.

ثم قال: وقيل المراد بأهل الكتاب ههنا الإسرائيليات وهو مذهب الشافعى.

وقيل المراد بذلك الذميات دون الحربيات لقوله تعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(٥) وكان ابن عمر رضى الله عنه لايرى التزويج بالنصرانية ويقول: لاأعلم شركاً أعظم من أن تقول أن ربها عيسى وقد قال تعالى: ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾(٦) اهـ.

ثم قال: وقد تزوج جماعة من الصحابة رضي الله عنهم نساء النصارى ولم يروا لذلك بأساً أخذاً بهذه الآية الكريمة مخصصة ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٢٦٣)، وانظر «منار السبيل» ـ بتخريجنا ـ.

(٢) المائدة: ٥

(٣) (٢/ ٢٠)

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٤٦٢) ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير. وانظر «فتح القدير (٣٩٤١ ـ بتخريجنا).

(٥) التوبة: ٢٩

(٦) البقرة: ٢٢١ والأثر [صحيح] أخرجه البخارى (٥٢٨٥).

قَبْلِكُمْ﴾ فجعلوا هذه الآية الكريمة مخصصة للتى فى سورة البقرة : ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾إن قيل بدخول الكتابيات فى عمومهاو إلا فلامعارضة بينها وبينها لأن أهل الكتاب قد انفصلوا فى ذكرهم عن المشركين فى غير موضع . أهـ.

فتبين بهذا أن قول أهل العلم: جواز الزواج من الكتابية العفيفة يهودية أو نصراينة - ولم يخالف فى ذلك إلا ابن عمر رضى الله عنه فى النصرانية، والأظهر قول الجمهور، إلا أنه لابد هنا من التنبيه إلى أن هذا الزواج لابد أن يظل معه بغض هذه المرأة على دينها، ولامانع من استمرار النكاح مع وجود البغضاء، فكم من بيوت تقوم على غير الحب من مصالح ومنافع أخر، ولما كان هذا الأمر - وهو استمرار الزواج دون محبة - لايقوى عليه الأكثر كان زواج الكتابية مكروهاً كماثبت النهى عنه عن عمر رضى الله عنه دون تحريم، وقد قال النبى ﷺ، «**فاظفر بذات الدين تربت يداك**»(٢).

قوله : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾(١).

● مناسبة الآية للباب والمراد بها:

قال سليمان آل الشيخ(٣): ومراد المصنف رحمه الله بإيراد الآية هنا أن الطاعة فى تحريم الحلال وتحليل الحرام من العبادة المنفية من غير الله تعالى؛ ولهذه فسرت العبادة بالطاعة، وفسر الآله بالمعبود المطاع، فمن أطاع مخلوقاً فى ذلك فقد عبده؟ إذ معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله يقتضى إفراد الله بالطاعة وإفراد الرسول بالمتابعة. أهـ

قال عبد الله بن جار الله (٤).

أن من أطاع غير الله فى تحريم الحلال وتحليل الحرام فقد اتخذه رباً ومعبوداً وجعله شريكاً لله وذلك ينافى التوحيد أ.هـ.

وقال ابن عثيمين (٥):وجه كون هذه الآية تفسيراً للتوحيد وشهادة أن لاإله إلا الله أن الله انكر عليهم إتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، وهذه الآية سيأتى فيها

---

(١) «التوبة» (٣١)

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى» (٥٠٩٠) ومسلم فى الرضاع (١٠/ ٥٠ - النووي) عن أبى هريرة به.

وانظر «رياض الصالحين» (٣٦٥ - بتخيجنا.

(٣) «تيسير العزيز الحميد» (١٠٤، ١٠٥)

(٤) «الجامع الفريد» (٣٤).

(٥) «القول المفيد» (١٨٨، ١٨٩).

ترجمة كاملة فى كلام المؤلف رحمه الله؛ فهؤلاء جعلوا الأحبار شركاء فى الطاعة كلما أمروا بشىء أطاعوهم، سواء وافق أمر الله أم لا:

إذًا؛ فتفسير التوحيد أيضاً بلا إله إلا الله يستلزم أن تكون طاعتك لله وحده ولهذا على الرغم من تأكيد النبى ﷺ لطاعة ولاة الأمر؛ قال: **«إنما الطاعة فى المعروف»**(١) اهـ.

قال القرعاوى (٢) : حيث دلَّت الآية على أن معنى التوحيد وشهادة أن لاإله إلا الله يقتضى إفراد الله بالطاعة وإفراد الرسول بالمتابعة لأن من أطاع الرسول فقد أطاع الله.

الإعراب (٣):

قال تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾

(اتخذوا) فعل وفاعل، و**(أحبارهم)** مفعول به و**(رهبانهم)** عطف على أحبارهم و**(أربابا)** مفعول به ثان و**(من دون الله)** صفه لأرباباً و**(المسيح)** عطف على أحبارهم والمفعول الثانى بالنسبة إليه محذوف أى رباً و**(ابن)** صفة المسيح أو بدل منه، وثبت الألف فيه لأنه صفة بين علمين، والمسيح لقب واللقب من أقسام العلم.

معنى «الأحبار» و«الرهبان»(٤).

«أحبارهم» فى المختار : الحبر الذى يكتب به وموضعه المحبرة بالكسر، والحبر أيضاً الأثر وفى الحديث :**يخرج رجل من النار قد ذهب حبره وسبره،**

قال الفراء: أى هيئته ولونه.

وقال الأصمعى: الجمال والبهاء وأثر النعمة وتحبير الخط والشعر وغيرها تحسينه **قلت**: ومنه قول أبى موسى للرسول ﷺ أنه كان يسمع منه القرآن : لوعلمت أنك تسمعنى لحبرته لك تحبيراً والحبر بالفتح الحبور وهو السرور، وحبره أى سره، وبابه نصر، وحبرة أيضاً بالفتح ومنه قوله تعالى **﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾** أى يسرون وينعمون ويكرمون.

والحبر بالفتح والكسر واحد أحبار اليهود والكسر أفصح لأنه يجمع على أفعال دون فعول.

---

(١) تقدم تخريجه. (٢) «الجديد» (٧٥). (٣) «إعراب القرآن» (٤/ ٩٠).
(٤) «إعراب القرآن» (٤/ ٩٠-٩٢)

وقال الفراء: هو بالكسر، وقال أبو عبيدة: هو بالفتح، وقال الأصمعى: لا أدرى أنه بالفتح أو بالكسر، وقال: الحبر بالكسر منسوب إلى الحبر الذى يكتب به لأنه كان صاحب كتب والحبرة كالعنبة برد يمانى والجمع حبر كعنب وحبرات بفتح الباء. وفى المنجد: الحبر والحبر بالفتح والكسر: العالم الصالح، السرور والنعمة، رئيس من رؤساء الدين، الحبر الأعظم: خلف السيد المسيح على الأرض، رئيس الكهنة عند اليهود، والجمع أحبار وحبور.

(رهبانهم) جمع راهب وهو من اعتزل الناس إلى دير طلباً للعبادة والمؤنث راهبة وجمعها راهبات ورواهب. أهـ.

عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال: أتيت النبى ﷺ وهو يقرأ فى سورة براءة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ فقال «أما أنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذ أحلوالهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه»(١).

وعن أبى البخترى قال: سأل رجل حذيفة رضى الله عنه فقال أرأيت قوله تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أكانوا يعبدونهم؟ قال: لا ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه(٢).

وعن حذيفة رضى الله عنه: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ﴾ قال: أما أنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم أطاعوهم فى معصية الله(٣).

وعن قتادة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ اليهود ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ النصارى ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ فى الكتاب الذى أتاهم وعهد إليهم ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سبح نفسه أن يقال عليه البهتان(٤).

وعن الضحاك قال: ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ قراؤهم ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ علماؤهم (٥).

(١) [حسن] أخرجه الترمذى (٣٠٩٥)، وابن جرير (١٠/ ٨٠).
وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٣٧٤). وانظر «فتح المجيد» (ح١٦٣) بتخريجنا.

(٢) ذكر السيوطى فى «الدر» (٤/ ١٧٤) ونسبه لعبد الرزاق، والفريابى، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ، والبيهقى فى «الشعب».
وانظر تخريجه فى «فتح القدير» (٥٩٢٢ ـ بتخريجنا).

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ والبيهقى فى «الشعب».

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ.

(٥) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن المنذر وابن أبى حاتم.
وانظر الأخير بتخريجنا وكذا «فتح القدير» (٥٩٢٣ ـ بتخريجنا).

وعن ابن جريج قال : الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى [1].

وعن السدى مثله[2].

وعن الفضيل بن عياض قال الأحبار العلماء والرهبان العباد [3].

● **ماجاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين**

قال ابن جرير [4]: يقول الله جل ثناؤه اتخذ اليهود ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ وهم العلماء، والنصارى ﴿رهْبَانَهم﴾ وهم أصحاب الصوامع، وأهل الاجتهاد فى دينهم منهم : أهـ.

قال البغوى [5]: فإن قيل أنهم لم يعبدوا الأحبار والرهبان؟ قلنا: معناه أنهم أطاعوهم فى معصية الله واستحلوا ما أحلوه، وحرموا ما حرموا، فاتخذوهم كالأرباب. ثم ذكر حديث عدى بن حاتم[6].

قال الزمخشرى [7] : اتخذوهم أرباباً، أنهم أطاعوهم فى الأمر بالمعصية وتحليل ماحرم الله وتحريم ما حلله كما تطاع الأرباب فى أوامرهم، ونحوه تسمية أتباع الشيطان فيما يوسوس به عباده، بل كانوا يعبدون الجن، ﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ . ثم ذكر أثر عدى.

وبنحوه قال ابن الجوزى[8].

وقال الفخر الرازى[9].

الأكثرون من المفسرين قالوا: ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا فيهم أنهم آلهة العالم، بل المراد أنهم أطاعوهم فى أوامرهم ونواهيهم، نقل أن عدى بن حاتم كان نصرانياً فانتهى إلى رسول الله ﷺ، وهو يقرأ سورة براءة، فوصل إلى هذا الآية، قال فقلت لسنا نعبدهم فقال **«أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ماحرم الله فتستحلونه»** فقلت بلى قال: **«فتلك عبادتهم»**

(١) ذكره السيوطى فى المصدر الآخر ونسبه لابن المنذر.
وانظر «فتح القدير» (٥٩٢٤ ـ بتخريجنا).

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم فانظره بتخريجنا وانظر «فتح القدير» (٥٩٢٥ ـ بتخريجنا).

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم.
وانظر «فتح القدير» (٥٩٢٦ ـ بتخريجنا).

(٤) «تفسير الطبرى» (٦/ ١٠/ ٨٢)

(٥) «معالم التنزيل» (٣/ ٣٨)

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) «الكشاف» (٢/ ١٤٩)

(٨) «زاد المسير» (٣/ ٣٢٢).

(٩) «التفسير الكبير» (٨/ ١٦/ ٣٨-٣٩)

وقال الربيع : قلت لأبى العالية: كيف كانت تلك الربوبية فى بنى إسرائيل؟

فقال : إنهم ربما وجدوا فى كتاب الله ما يخالف أقوال الأحبار والرهبان، فكانوا يأخذون بأقوالهم وماكانوا يقبلون حكم كتاب الله تعالى.

قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين رضى الله عنه: قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء، قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالى فى بعض المسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات، فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا إليها وبقوا ينظرون إلى كالمتعجب، يعنى كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها، ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً فى عروق الأكثرين من أهل الدنيا.

فإن قيل : أنه تعالى لما كفرهم بسبب أنهم أطاعوا الأحبار والرهبان فالفاسق يطيع الشيطان فوجب الحكم بكفره كما هو قول الخوارج.

والجواب: أن الفاسق، وإن كان يقبل دعوة الشيطان إلا أنه لايعظمه لكن يلعنه ويستخف به. أما أولئك الأتباع كانوا يقبلون قول الأحبار والرهبان ويعظمونهم، فظهر الفرق.

والقول الثانى : فى تفسير هذه الربوبية أن الجهال والحشوية إذا بالغوا فى تعظيم شيخهم قدوتهم، فقد يميل طبعهم إلى القول بالحلول والاتحاد، وذلك الشيخ إذا كان طالباً للدنيا بعيداً عن الدين، فقد يلقى إليهم أن الأمر كما يقولون ويعتقدون، وشاهدت بعض المزورين ممن كان بعيداً عن الدين كان يأمر أتباعه وأصحابه بأن يسجدوا له، وكان يقول لهم أنتم عبيدى، فكان يلقى إليهم من حديث الحلول والاتحاد أشياء، ولو خلا ببعض الحمقى من أتباعه، فربما ادعى الألهية، فإذا كان مشاهداً فى الأمة، فكيف يبعد ثبوته فى الأمم السالفة؟

وحاصل الكلام أن تلك الربوبية يحتمل أن يكون المراد منها أنهم أطاعوهم فيما كانوا مخالفين فيه لحكم الله، وأن يكون المراد منها أنهم قبلوا أنواع الكفر، فكفروا بالله، فصار ذلك جارياً مجرى أنهم اتخذوهم أرباباً من دون الله.

ويحتمل أنهم أثبتوا فى حقهم الحلول والاتحاد. وكل هذه الوجوه الأربعة مشاهد وواقع فى هذه الأمة. أهـ.

وقال القرطبى (١).

قوله تعالى ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ قال أهل المعانى : جعلو ا أحبارهم ورهبانهم

(١) تفسير القرطبى (٥/٢٩٥٩).

كالأرباب حيث أطاعوهم فى كل شىء؛ ومنه قوله تعالى ﴿قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ أى كالنار

قال عبدالله بن المبارك:

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانهم.

قال القاضى أبو بكر بن العربى : لايخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جداً أوهزلاً، وهو كيفما كان كفر؛ فإن الهزل بالكفر كفر لاخلاف فيه بين الأمة.

فإن التحقيق أخو العلم والحق، والهزل أخو الباطل، والجهل.

قال علماؤنا: انظر إلى قوله ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

واختلف العلماء فى الهزل فى سائر الأحكام كالبيع والنكاح والطلاق على ثلاثة أقوال:

لايلزم مطلقاً. يلزم مطلقاً. التفرقة بين البيع وغيره.

فيلزم فى النكاح والطلاق؛ وهو قول الشافعى فى الطلاق قولاً واحداً.

ولايلزم فى البيع. قال مالك فى كتاب محمد: يلزم نكاح الهازل .وقال أبو زيد عن ابن القاسم فى العتبية: لايلزم. وقال على بن زياد: يفسخ قبلُ وبعدُ. وللشافعى فى بيع الهازل قولان. وكذلك يخرج من قول علمائنا القولان.

وحكى ابن المنذر الإجماع فى أن جد الطلاق وهزله سواء .

وقال بعض المتأخرين من أصحابنا : إن اتفقا على الهزل فى النكاح والبيع،

لم يلزم وإن اختلفا غلب الجد الهزل.

وروى أبو داود والترمذى والدراقطنى عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «**ثلاث جدهن جدّ وهزلهن جدّ: النكاح و الطلاق والرجعة**»(1) قال الترمذى: حديث حسن غريب، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم.

قلت: كذا فى الحديث «والرجعة» وفى موطأ مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال: «**ثلاث ليس فيهن لعب النكاح والطلاق والعتق**»(2) وكذا روى عن على بن

(1) [حسن] أخرجه أبو داود (٢١٩٤) ، والترمذى (١١٨٤). وانظر «منار السبيل» (١٩٨٨ ـ بتخريجنا).

(2) ذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٥١٠) ونسبه لمالك، وعبد الرزاق، والبيهقى فى «السنن».

أبى طالب[١] وعبدالله بن مسعود وأبى الدرداء[٢] كلهم قال : **ثلاث لا لعب فيهن واللاعب فيهن جاد النكاح والطلاق والعتق** وعن سعيد بن المسيب عن عمر قال: **أربع جائزات على كل أحد العتق والطلاق والنكاح والنذور**[٣]. وعن الضحاك قال : **ثلاث لالعب فيهن : النكاح والطلاق والنذور**. أهـ.

قال ابن كثير[٤] وقوله ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ**﴾ روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام وكان قد تنصر فى الجاهلية فأُسرت أخته وجماعة من قومه ثم مَنَّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته فى الإسلام وفى القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدى إلى المدينة وكان رئيساً فى قومه طيىء وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ وفى عنق عدى صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال: «**بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم**» وقال رسول الله ﷺ «**ياعدى ماتقول؟ أيضرك أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يضرك: أيضرك أن يقال لا إله إلا الله فهل تعلم إلهاً غير الله؟**» ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق، قال : فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال «**إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون**»[٥]. وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما فى تفسير ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا.

وقال السدى: استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم[٦] ولهذا قال تعالى ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا**﴾ أى الذى إذا حرم الشىء فهو الحرام وماحلله فهو الحلال وما شرعه اتبع وماحكم به نفذ ﴿**لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ أى تعالى

---

(١) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد الرزاق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٥٠٩) ونسبه للبخارى فى «تاريخه» والبيهقي.

(٤) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٣٦).

(٥) تقدم تخريجه

(٦) تقدم تخريجه أيضاً.

س وتـنزه عن الشركـاء والنظراء والأعوان والأضـداد والأولاد لاإله إلاهو ولا رب سواه. أهـ

قال الشوكانى رحمه الله[1] وفى هذه الآية مايزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقـليد فى دين الله، وتأثير مايقوله الإسلاف على مـا فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة، فإن طاعـة المتمذهب لمن يقتدى بقوله ويستن بسنـته من علماء هذه الأمة مع مخالفته لماجاءت به النصوص وقامت به حجج الله وبراهينه ونطقت به كتبه وأنبياؤه، هو كاتخاذ الـيهود والنصارى للأحبار والـرهبان أرباباً من دون الله، للقطـع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم وحرموا ماحرموا وحللوا ماحللوا، وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة، وهو أشبه به مـن شبه البيضة بالبيضـة، والتمرة بالتمرة، والمـاء بـالماء، فياعباد الله، ويا أتباع مـحمد بن عبدالله، مابـالكم تركتم الكـتاب والسنة جانبـاً، وعمدتم إلى رجال هم مثلـكم فى تعبد الله لهم بـهما وطلبه منهم لـلعمل بما دلاعليه وأفـاده فعلتم بماجاؤوا به مـن الآراء التى لم تعمـد بعماد الحق، ولم تـعضد بعضد الـدين ونصوص الكـتاب والسنـة، تنادى بأبـلغ نداء وتصـوت بأعلى صـوت بمايخالـف ذلك ويبايـنه، فأعرتموها آذاناً صـماً، وقلوباً غلفاً، و أفهامـاً مريضة، وعقولاً مهيضة، وأذهـاناً كليلة، وخواطر عليلة، وانشدتم بلسان الحال:

وما أنا إلا من غـزية إن غـوت غويت وإن ترشد غز ية أرشد

فدعوا ـ أرشدكم الله وإياى ـ كتبًا كتبها لـكم الأموات من أسلافكم، و استبدلوا بها كتاب الله خالقهـم وخالقكم ومتعبد هم ومتـعبدكم، ومعبودهم ومعبـودكم واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وماجاؤوكـم به من الرأى بأقوال إمامكم وإمامهم وقدوتكم وقدوتهم وهو الإمام الأول محمد بن عبدالله ـ ﷺ .

دعوا كل قـول عند قـول محمد فما آبن فى دينـه كمخاطـر

اللهم هادى الضال، ومـرشد التائه، وموضح السبيل، اهدنـا إلى الحق وأرشدنا إلى الصواب، وأوضح لنا منهج الهداية. أهـ

قال السعدى (٢):

﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ**﴾ وهم علمـائهم ﴿**وَرُهْبَانَهُمْ**﴾ أى : العبَّـاد المتمردين للـعبادة ﴿**أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ يُحلُّـون لهم ماحرم الله فـيحلونـه، ويحرمون لهـم ما أحل الله فيحرمونه ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها.

(١) «فتح القدير للشوكانى» ٢/ ٣٧٢.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٢٣٤).

وكانوا أيضاً يغلون فى مشايخهم وعبادهم، ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثاناً تعبد من دون الله، وتقصد بالذبائح، والدعاء والا ستغاثة أهـ .

● **ماجاء من كلام الشراح فى الآية**

قال سليمان آل الشيخ [(١)]: فمعنى التوحيد ـ من الآية ـ وشهادة أن لاإله إلا الله يقتضى إفراد الله بالطاعة، وإفراد الرسول بالمتابعة، فإن من أطاع الرسول ﷺ فقد أطاع الله، وهذا أعظم مايبين التوحيد وشهادة أن لاإله إلا الله، لأنها تقتضى نفى الشرك فى الطاعة فما ظنك بشرك العبادة؟ كالدعاء والاستعانة والتوبة وسؤال الشفاعة وغير ذلك من أنواع الشرك فى العبادة، وسيأتى مزيد لهذا إن شاء الله تعالى فى باب من أطاع العلماء . والأمراء . أهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ [(٢)] بعد أن ذكر حديث عدى: فصارت طاعتهم فى المعصية عبادة لغير الله، وبها اتخذوهم أرباباً كما هو الواقع فى هذه الأمة وهذا من الشرك الأكبر المنافى للتوحيد الذى هو مدلول شهادة أن لاإله إلا الله.

فتبين بهذه الآية أن كلمة الإخلاص نفت هذا كله لمنافاته لمدلول هذه الكلمة. فأثبتوا مانفته من الشرك وتركوا ما أثبتته من التوحيد. أهـ.

قال ابن باز[(٣)]: بين أن هذا شرك بالله، وأن التوحيد هو أن لايعبد إلا الله، لاراهب ولاحبر، ولانبى، ولاصالح، خلافاً لما فعله اليهود من اتخاذ الأحبار، والنصارى من اتخاذ الرهبان أرباباً ـ ثم ذكر جزء من حديث عدى ـ وفيه **«فتلك عبادتهم»**[(٤)] ويصير بذلك مشركاً كما قال بعد ذلك **(سبحانه عما يشركون)** .

فائدة : بالنسبة لاصحاب القبور فقد اتخذهم القبورين آلهة من دون الله والواجب أن يبين لهم الحق لأن عملهم كفر من أعظم الكفر ولكن لايقتلون بل يبين لهم الحق لإقامة الحجة عليهم فإن أصروا قتلوا إن يسر الله من يقيم ذلك عليهم أ.هـ.

قال صاحب «فضل الغنى الحميد[(٥)]» ـ بعد أن ذكر كلام ابن كثير المتقدم ـ من المعلوم أن قضية إفراد الله بالحكم وحده لاشريك له من أهم قضايا العقيدة، وركن من أركان التوحيد، ومخالفتها من أعظم أسباب الشرك على ظهر الأرض، وقد بينت هذه الآية الكريمة أن الحكم، والتشريع، والتحليل، والتحريم، من أخص معانى الربوبية، كما سبق بيانها، وبين الرسول ﷺ أن المتابعة على الحكم عبادة، وأن التعبد لله بالتحاكم

(١) «تيسير العزيز الحميد» (١٠٤، ١٠٥)
(٢) «فتح المجيد» (١/ ١٢٣).
(٣) التعليق المفيد (٥٨، ٥٩).
(٤) تقدم تخريجه .
(٥) فضل الغنى الحميد (١٥٦ : ١٧٦).

إلى شرعه: توحيد، ومخالفة ذلك: شرك، وككل قضايا العقيدة والتوحيد كثر ذكرهذه المسألة فى كتاب الله عزوجل.

قال تعالى مبيناً أن من اتخذ أحداً مشرعاً فقد جعله لله شريكاً، سواء كانوا أفراداً، أو جماعة، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾(١) وذم المشركين من قريش أعظم الذم فى شأن تشريعات وضعوها من قبل أنفسهم فى أمر بعض الزروع والبهائم، فقال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٢).

فانظر كيف حكم الله بظلمهم، وشركهم، وضلالهم، من أجل تشريعات البهائم، فكيف بتشريعات البشر فى دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم، وأبضاعهم،. وهم الذين كرمهم الله تعالى ؟! نعوذ بالله من الشرك والخذلان.

---

(١) الشورى/ (٢١)   (٢) الأنعام: (١٣٦ ـ ١٤٤)

وقال تعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾(١).

عن ابن عمر رضى الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا: فقال لهم رسول الله ﷺ: «ماتجدون فى التوراة فى شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون. قال عبدالله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ماقبلها وما بعدها، فقال له عبدالله ابن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا آية الرجم، فقالوا: صدقت يامحمد فيها آية الرجم. فأمر بها رسول الله ﷺ، فرأيت الرجل يحنى على المرأة يقيها الحجارة (٢).

سبحان الله ! إذا كان الله سبحانه قد حكم على اليهود، ومن حذا حذوهم بالكفر من أجل تغيير حكم الرجم إلى الجلد،والتحميم - وهو نوع عقوبة - فكيف بمن يجعل الزنا حرية شخصية إذا كان برضاء الطرفين؟!، ويرى الرجم، وأمثاله من أحكام الله، كالقطع فى السرقة، والقصاص، والجلد،وغيرها - شريعة غاب، ووحشية منافية لحقوق الإنسان، ومن يطالع قانون العقوبات المصرى يرى أن ما فعله اليهود والكافرون - وهم سبب تنزيل الآيات - كان أهون بكثير مما يفعله مشرعوا زماننا.

وإليك بعض الأمثلة من قانون العقوبات المصرى:

- «مادة ٢٦٧» من واقع أنثى بغير رضاها يعاقب بالأشغال المؤبدة، أو المؤقتة(أى إن كان برضاها فلا يعاقب).

- «مادة ٢٧٣» لايجوز محاكمة الزانية إلا بناء على دعوى زوجها، إلا إذا زنى الزوج فى المسكن المقيم فيه مع زوجته، كالمبين فى المادة ٢٧٢، فلاتسمع دعواه عليها.(يعنى إذا زنا كل منهما فى مسكن الزوجية، فلاتصح المطالبة بالمحاكمة).

- «مادة ٢٧٤» المرأة المتزوجة التى ثبت زناها يحكم عليها بالسجن لمدة لاتزيد عن سنتين، لكن لزوجها أن يوقف تنفيذ هذا الحكم برضائه معاشرتها له كما كانت.

- «مادة ٢٧٥» ويعاقب أيضاً الزانى بتلك المرأة بنفس العقوبة.

- «مادة ٢٧٧» كل زوج زنى فى منزل الزوجية، وثبت عليه هذا الأمر بدعوى الزوجية يجازى بالحبس مدة لاتزيد عن ستة أشهر.(أى أنه إذا كان خارج منزل الزوجية، أو لم تطلب محاكمته فليست جريمة)، ووالله إنى لاأدرى ماأقول فى هذا الكفر البواح والشرك البين سوى : إنا لله وإنا إليه راجعون، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) المائدة : (٤٤).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٨٤١) ومسلم فى الحدود (١١/ ٢٠٨ - النووي).
وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (١٣٤٩).

● **قال الشنقيطى فى**«أضواء البيان»[(١)]: إن الـذين يتبعـون القـوانين الوضعية التى شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مـخالفة لماشرعه الله عزوجل على ألسنة رسوله ﷺ أنه لايشـك فى كفرهم وشركـهم،إلا من طمس الله بصـيرته، وأعماه عن نـور الوحى مثلهم.

● **ثم قال رحمه الله** : اعلـم أنه يـجب التفصيل بين النظام الوضعى الذى يقتضى تحكيمه الكفر بخالق السموات والأرض،وبين النظام الذى لايقتضى ذلك، وإيضاح ذلك أن النظام قسمان: إدارى وشرعى،

أما الإدارى الذى يراد به ضبط الأمور،وإتقانها على وجه غير مخالف للشرع فهذا لا مانـع فيه، كتـنظيـم شئون المـوظفين، وتـنظيـم إدارة الأعمال عـلى وجه لايخـالف الشرع[(٢)]، ولايخرج من قواعد الشرع مع مراعاة المصالح العامة.

وأما النظام الشرعى المخـالف لتشريع خالق السموات والأرض فتحكـيمه كفر بخالق السموات والأرض، كـدعوى أن تفضيل الذكر عـلى الأنثى فى الميراث ليـس بإنصاف ، وأنهما يلزم استواؤهما فى الميراث، وكـدعوى أن تعدد الزوجات ظلم، وأن الطلاق ظلم للمرأة، وأن الرجم، والقطع،ونحوهما أعمال وحـشية، ولايسوغ فعلها بالإنسان، ونحو ذ لك.

فـتحكـيم هذا الـنوع مـن الـنظام فى أنـفس المجتمع، وأمـوالهـم، وأعراضـهم، وأنسابهم،وعقولهم، وأبدانهم، كفر بـخالق السموات والأرض، وتمرد على نظام السماء الذى وضعه خالق الخلائق لها، وهو أعلم بمصالحهم، سبحانه وتعالى عن أن يكون معه مشرع آخر علوا كبيراً. أهـ.

● **وقال رحمـه الله**[(٣)] فى تفسير سورة الشورى: الحلال هو ما أحله الله، والحرام هو ماحرمه الله، والدين هو ماشرعه الله، فكل تشـريع من غيره سبحانه باطل،و العمل بتشريع بدل تشريع الله عند من يعتقد أنـه مثله أوخير منه كفر بواح لانزاع فيه، وقد دل القرآن فى ايات كثيرة على أنه لاحكم لغير الله وأن اتباع تشريع غيره كفربه .أهـ.

---

(١) (٨٣/٤)

(٢) مع مراعاة أنه ليس من الموالاة: البيع والشراء والإجـارة، وعليه يتضح خطأ من زعم أن التوظف فى الوظائف الحكومية الإدارية ،و أنواع الخدمات المباحة المشروعة فى ضوء القواعد الشرعية لدى الحكومات الحاكمة بالقوانين الوضعية يعد شركاً، أوموالاة، أو مـحرماً، وإنما ذلك الشرك، والكفر، والظلم فى التعاون والرضا بذلك، بل إذا نـوى خدمة المسلمين، وكونه فى حاجـتهم، فالله المسئول أن يتقبل مـنه عملاً صالحاً مثاباً عليه فى الدنيا والآخرة.

(٣) (١٦٢/٧)

● **وقال رحمه الله :** اعلم أن الله عزوجل بين فى آيات كثيرة صفات من يستحق أن يكون الحكم له، فعلى كل عاقل أن يتأمل الصفات المذكورة، ويقابلهامع صفات البشر، المشرعين للقوانين الوضعية، فينظر هل تنطبق عليهم صفات من له التشريع؟

سبحان الله، تعالى عن ذلك، فإن كانت تنطبق عليهم - ولن تكون - فيتبع تشريعهم، وإن ظهر يقينا أنهم أحقر، وأخس، وأذل، وأصغر من ذلك فليقف بهم عند حدهم، ولا يجاوز بهم إلى مقام الربوبية، سبحان الله، أن يكون له شريك فى عبادته، أو حكمه، أو ملكه . أهـ.

● **وقال رحمه الله :**«وكل تحاكم إلى غير شرع فهو تحاكم إلى الطاغوت» وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً**﴾(١) . فالكفر بالطاغوت الذى صرح الله بأنه أمرهم به فى هذه الآية شرط فى الإيمان كما بينه تعالى فى قوله﴿**فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ**﴾(٢). يفهم منه أن من لم يكفر بالطاغوت؛ لم يستمسك بالعروة الوثقى، ومن لم يستمسك بها؛ فهو مترد مع الهالكين. أ هـ.

● **وقال رحمه الله(٣)**:«إن غير الله لايتصف بصفات التحليل والتحريم، ولماكان التشريع وجميع الأحكام، شرعية، أوكونية قدرية، من خصائص الربوبية: كان كل من اتبع تشريعاً غير تشريع الله قد اتخذ ذلك المشرع رباً ، وأشركه مع الله» . أهـ.

● **قال ابن كثير رحمه الله فى «تفسيره»(٤)** فى تفسير قوله تعالى ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ**﴾(٥) ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم،المشتمل على كل خير،الناهى عن كل شر، وعدل إلى ماسواه من الآراء، والأهواء، الاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كماكان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات، والجهالات مما يضعونها بآرائهم، وأهوائهم،وكما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة من ملكهم «جنكيز خان» الذى وضع لهم«الياسق»، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية، والنصرانية، والملة الإسلامية، وغيرها، وفيها كثيرمن الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت فى

(١) النساء : ٦٠ (٢) البقرة / ٢٥٦ (٣) (١٦٩/٧)
(٤) (٦٧/٢). (٥) المائدة : ٥٠

عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية، والنصرانية، والملة الإسلامية، وغيرها، وفيها كثيرمن الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت فى بنيه شرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، فمن فعل ذلك فهو كافر، يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه فى قليل أو كثير، قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾أى: يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أى: ومن أعدل من الله فى حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به وأيقن، وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها؟!، فإنه تعالى هو العالم بكل شىء القادر على كل شىء، العادل فى كل شىء أهـ.

● **ونقل ابن كثير فى «البداية والنهاية»** شيئاً من سخافات هذا «الياسق» ثم قال: فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء،وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة، كفر، فكيف بمن تحاكم إلى «الياسق»، وقدمه عليه، من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين.أهـ.

● **وقال أحمد محمد شاكر رحمه الله فى «عمدة التفسير»**[1] تعليقاً على ابن كثير: أفيجوز ـ مع هذا ـ فى شرع الله أن يحكم المسلمون فى بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوروبا الوثنية الملحدة؟ بل بتشريع تدخله الأهواء، والآراء الباطلة، يغيرونه ويبدلونه كما يشاؤون، لا يبالى واضعه أوافق شرعة الإسلام أم خالفها؟.

إن المسلمين لم يبلوا بهذا قط ـ فيما نعلم من تاريخهم ـ إلا فى ذلك العهد، عهد التتار، وكان من أسوأ عهود الظلم والظلام، ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له، بل غلب الإسلام التتار، ثم مزجهم فأدخلهم فى شرعته، وزال أثر ما صنعوا بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم، وأن هذا الحكم، السىء الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك، لم يندمج فيه أحد من أفراد الأمم الإسلامية المحكومة، ولم يتعلموه ولم يعلموه أبناءهم، فما أسرع مازال أثره.

أفرأيتم هذا الوصف القوى من الحافظ ابن كثير ـ فى القرن الثامن ـ لذلك القانون الوضعى، الذى صنعه عدو الإسلام «جنكيز خان»؟ ألستم ترونه يصف حال المسلمين فى هذا العصر، فى القرن الرابع عشر؟ إلا فى فرق واحد، أشرنا إليه آنفاً: أن ذلك كان فى طبقة خاصة من الحكام، أتى عليها الزمن سريعاً، فاندمجت فى الأمة الإسلامية، وزال أثر ما صنعت.

ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالاً، وأشد ظلماً وظلاماً منهم؛ لأن أكثر الأمم

---

(١) (١٧٣/٤)

الإسلامية الآن تكاد تندمج فى هذه القوانين المخالفة للشريعة، والتى هى أشبه شىء بذلك «الياسق» الذى اصطنعه رجل كافر، ظاهر الكفر، هذه القوانين التى يصطنعها ناس ينتسبون للإسلام، ثم يتعلمها أبناء المسلمين، يفخرون بذلك آباء وأبناء، ثم يجعلون مرد أمرهم إلى معتنقى هذا «الياسق العصرى»! ويحقرون من يخالفهم فى ذلك، ويسمون من يدعوهم إلى الاستمساك بدينهم، وشريعتهم «رجعياً وجامداً» إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة.

بل إنهم أدخلوا أيديهم فيما بقى فى الحكم من التشريع الإسلامى، يريدون تحويله إلى «ياسقهم الجديد» باللين تارة، وبالمكر والخديعة تارة، وبماملكت أيديهم من السلطان تارة، ويصرحون ـ ولايستحيون ـ بأنهم يعملون على فصل الدولة عن الدين!!!.

أفيجوز إذن ـ مع هذا ـ لأحد من المسلمين أن يعتنق هذا الدين الجديد، أعنى التشريع الجديد!! أو يجوز أن يرسل أبناءه لتعلم هذا، واعتناقه، واعتقاده، والعمل به، عالما كان الأب أو جاهلاً؟!.

أو يجوز لرجل مسلم أن يلى القضاء فى ظل هذا «الياسق العصرى» وأن يعمل به، ويعرض عن شريعته البينة؟ ما أظن رجلاً مسلماً، يعرف دينه، ويؤمن به جملة وتفصيلاً، ويؤمن بأن هذا القرآن أنزله الله على رسوله، كتابا محكماً، لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه، وبأن طاعته، وطاعة الرسول الذى جاء به واجبة، قطعية الوجوب فى كل حال ـ ما أظنه يستطيع إلاأن يجزم غير متردد ولا متأول، بأن ولاية القضاء فى هذا الحال باطلة بطلاناً أصلياً، لايلحقه التصحيح، ولا الإجازة.

إن الأمر فى هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، هى كفر بواح، لا خفاء فيه ولا مداراة، ولا عذر لأحد ممن ينتسب للإسلام ـ كائناً من كان ـ فى العمل بها، أو الخضوع لها، أو إقرارها، فليحذر امرؤ لنفسه، وكل امرىء حسيب نفسه.

ألا فليصدع العلماء بالحق غير هيابين، وليبلغوا ما أمروا بتبليغه غير موانين، ولامقصرين.

سيقول عنى عبيد هذا «الياسق العصرى» وناصروه، أنى جامد، وأنى رجعى، وما إلى ذلك من الأقاويل، ألا فليقولوا ما شاؤوا، فما عبأت يوماً ما بما يقال عنى، ولكنى قلت مايجب أن أقول. أهـ.

● **قال أحمد شاكر حفظه الله فى «عمدة التفسير»** (١): عند قوله تعالى **﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾** (٢) اللهم إنى أبرأ إليك من الضلالة. وبعد، فإن أهل الريب، والفتن ممن تصدوا للكلام فى زماننا هذا قد تلمس المعذرة لأهل السلطان فى ترك الحكم بما أنزل الله، وفى القضاء فى الدماء، والأعراض، والأموال بغير شريعة الله التى أنزل فى كتابه، وفى اتخاذهم قانون أهل الكفر شريعة فى بلاد الإسلام. فلما وقف على هذين الخبرين ـ قول ابن عباس رضى الله عنه: كفر دون كفر، وأثر أبى مجلز ـ اتخذهما رأيا يرى به صواب القضاء فى الأموال، والأعراض، والدماء بغير ما أنزل الله، وأن مخالفةشريعة الله فى القضاء العام لاتكفر الراضى بها، والعامل عليها.

والناظر فى هذين الخبرين لامحيص له من معرفة السائل والمسئول، فأبو مجلز (لاحق بن حميد السدوسى) تابعى ثقة، وكان يحب علياً رضى الله عنه، وكان قوم أبى مجلز ـ وهم بنوشيبان ـ من شيعة على يوم الجمل وصفين، فلما كان أمر الحكمين يوم صفين، واعتزلت الخوارج، كان فيمن خرج على على رضى الله عنه طائفة من بنى شيبان، ومن بنى سدوس بن شيبان بن ذهل . وهؤلاء الذين سألوا أبا مجلز ناس من بنى عمرو بن سدوس، وهم نفر من الإباضية، والإباضية من جماعة الخوارج الحرورية، هم أصحاب عبدالله بن إباض التميمى، وهم يقولون بمقالة سائر الخوارج فى التحكيم، وفى تكفير على رضى الله عنه إذ حكم الحكمين، وأن علياً لم يحكم بما أنزل الله فى أمر التحكيم، ثم إن عبدالله بن إباض قال: إن من خالف الخوارج كافر، ليس بمشرك، فخالف أصحابه، وأقام الخوارج على أن أحكام المشركين تجرى على من خالفهم. ثم افترقت الإباضية بعد عبدالله ابن إباض الإمام افتراقاً، لاندرى معه ـ فى أمر هذين الخبرين ـ من أى الفريقين كان هؤلاء السائلون، بيد أن الإباضية كلها تقول: إن دور مخالفيهم دور توحيد إلا معسكر السلطان، فإنه دار كفر عندهم، ثم قالوا أيضاً: إن جميع ما افترض الله سبحانه على خلقه إيمان، وإن كل كبيرة فهى كفر نعمة، لاكفر شرك، وأن مرتكبى الكبائر فى النار خالدون، مخلدون فيها.

ومن البين: أن الذين سألوا أبا مجلز من الإباضية إنما كانوا يريدون أن يلزموه الحجة فى تكفير الأمراء، لأنهم فى معسكر السلطان، ولأنهم ربما عصوا، أو ارتكبوا بعض مانهاهم الله عن ارتكابه، ولذلك قال لهم فى الخبر الأول: «فإن هم تركوا شيئاً منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً»، وقال لهم فى الخبر الثانى: «إنهم يعملون بما يعلمون، ويعلمون أنه ذنب»، وإذن، لم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعة زماننا، من القضاء فى

(١) (٤/١٥٦)   (٢) المائدة : ٤٤

الأموال، والأعراض، والدماء بقانون مخالف لشريعة أهل الإسلام، ولا فى إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام، وبالاحتكام إلى حكم غير حكم الله فى كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ فهذا الفعل إعراض عن حكم الله، ورغبة عن دينه، وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى، وهذا كفر لايشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم فى تكفير القائل به والداعى إليه.

والذى نحن فيه اليوم ـ هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء،و إيثار أحكام غير حكمه فى كتابه، وسنة نبيه ﷺ، وتعطيل لكل ما فى شريعة الله، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفصيل أحكام القانون الموضوع على أحكام الله المنزلة، وأدعاء المحتجين لذلك بأن أحكام الشريعة إنما أنزلت لزمان غير زماننا،ولعلل،وأسباب انقضت؛ فسقطت الأحكام كلها بانقضائها، فأين هذا مما بيناه من حديث أبى مجلز والنفر من الإباضية من بنى عمرو بن سدوس؟!!.

ولو كان الأمر على ما ظنوا من خبر أبى مجلز أنهم أرادوا مخالفة السلطان فى حكم من أحكام الشريعة ـ فإنه لم يحدث فى تاريخ الإسلام أن سن حاكم حكماً، وجعله شريعة ملزمة للقضاء بها. هذه واحدة.

وأخرى : أن الحاكم الذى حكم فى قضية بعينها بغير حكم الله فيها، فإنه :

إما أن يكون حكم بها وهو جاهل، فهذا أمره أمر الجاهل بالشريعة،

وإما أن يكون حكم بها هوى ومعصية، فهذا ذنب تناله التوبة، وتلحقه المغفرة.

وإما أن يكون حكم به متأولاً حكماً خالف به سائر العلماء، فهذا حكمه حكم كل متأول يستمد تأويله من الإقرار بنص الكتاب وسنة رسول الله ﷺ،

وأما : أن يكون كان فى زمن أبى مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم بقضاء فى أمر جاحداً لحكم من أحكام الشريعة، أو مؤثراً لأحكام أهل الكفر على أحكام أهل الإسلام، فذلك لم يكن قط. فلا يمكن صرف كلام أبى مجلز والإباضين إليه.

فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما فى غير بابها، وصرفهما لغير معناهما؛ رغبة فى نصرة سلطان، أو احتيالا على تسويغ الحكم بغير ما أنزل الله، وفرضه على عباده، فحكمه فى الشريعة حكم الجاحد لحكم من أحكام الله : أن يستتاب، فإن أصر، أو كابر، أو جحد حكم الله، ورضى بتبديل الأحكام، فحكم الكافر المصر على كفره معروف لأهل هذا الدين أهـ(١).

● **وقال ابن القيم رحمه الله فى «مدارج السالكين»** (٢): والصحيح أن الحكم

---

(١) من كلام أحمد شاكر

(٢) (١/ ٣٣٧)

بغيرما أنزل الله يتناول الكفر الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله فى هذه الواقعة وعدل عنه عصياناً - مع اعترافه، بإنه مستحق للعقوبة - فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه مخير فيه - مع تيقنه أنه حكم الله - فهذا كفر أكبر، وإن جهله، أو أخطأ، فهذا مخطىء له حكم المخطئين. أهـ.

● **وقال الشيخ محمد بن إبراهيم مفتى الديار السعودية فى كتابه «تحكيم القوانين»** [1]: إن من الكفر الأكبر المستبين: تنزيل القانون اللعين، منزلة مانزل به الروح الأمين، على قلب رسوله ليكون من المنذرين، بلسان عربى مبين، فى الحكم به بين العالمين، والرد إليه عند تنازع المتنازعين .أهـ.

● **وقال ايضاً**: فانظر كيف سجل على الحاكمين بغير ما أنزل الله الكفر والظلم والفسق، من الممتنع أن يسمى الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً، ولا يكون كافراً، بل هو كافر مطلقاً، إما كفر عمل، وإما كفر اعتقاد، وماجاء عن ابن عباس رضى الله عنه، فى تفسير هذه الآية من رواية طاوس وغيره يدل على أن الحاكم بغيرما أنزل الله كافر، إما كفر اعتقاد ناقل عن الملة، وإما كفر عمل لاينقل عن الملة.

أما الأول، وهو كفر الإعتقاد، فهو أنواع

أحدها: أن يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله،وهو معنى ما روى عن ابن عباس رضى الله عنه، واختاره ابن جرير، أن ذلك هو جحود ماأنزل الله من الحكم الشرعى، وهذا ما لانزاع فيه بين أهل العلم، فإن الأصول المتقررة المتفق عليها بينهم: أن من جحد أصلاً من أصول الدين، أو فرعاً مجمعاً عليه، أو أنكر حرفاًمما جاء به الرسول ﷺ قطعياً فإنه كافر الكفر الناقل عن الملة.

الثانى : ألا يجحد الحاكم بغيرماأنزل الله كون حكم الله ورسوله حقاً، لكن اعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ أحسن من حكمه،وأتم وأشمل ؛ لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع، إمامطلقاً، أو بالنسبة إلى ما استجد من الحوادث التى نشأت عن تطور الزمان وتغير الأحوال، وهذا أيضاً لاريب أنه كافر لتفضيله أحكام المخلوقين التى هى محض زبالة الأذهان، وصرف حثالة الأفكار على حكم الحكيم الحميد.

وحكم الله ورسوله لايختلف فى ذاته باختلاف الأزمان، وتطور الأحوال، وتجدد الحوادث، فإنه ما من قضية كائنة ماكانت إلا وحكمها فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ،نصاً، أو ظاهراً، أو استنباطاً، أو غير ذلك، علم ذلك من علمه، وجهله من جهله، وليس معنى ماذكره العلماء من تغير الفتوى بتغير الأحوال ماظنه من قل نصيبهم - أو عدم - من معرفة مدارك الأحكام وعللها، حيث ظنوا أن معنى ذلك بحسب مايلائم إرادتهم الشهوانية البهيمية، وأغراضهم الدنيوية، وتصوراتهم الخاطئة الوبية،

---

(١) (ص ٥٠)

ولهذا تجدهم يحامون عليها، ويجعلون النصوص تابعة لها، منقادة إليها، مهما أمكنهم؛ فيحرفون لذلك الكلم عن مواضعه. وحينئذ معنى تغير الفتوى بتغير الأحوال والأزمان مراد العلماء منه: ما كان مستصحبة فيه الأصول الشرعية، والعلل المرعية، والمصالح التى جنسها مراد الله تعالى ورسوله ﷺ

ومن المعلوم أن أرباب القوانين الوضعية عن ذلك بمعزل، وأنهم لايقولون إلا على ما يلائم مراداتهم، كائنة ما كانت والواقع أصدق شاهد.

الثالث: أن لايعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله، لكن اعتقد أنه مثله، فهذا كالنوعين الذين قبله فى كونه كافراً الكفر الناقل عن الملة؛ لما يقتضيه ذلك من تسوية المخلوق بالخالق، والمناقضة والمعاندة، لقوله عزوجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(١) ونحوها من الآيات الكريمةالدالة على تفرد الرب بالكمال، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقين فى الذات، والصفات، والأفعال، والحكم بين الناس فيما يتنازعون فيه.

الرابع: أن لايعتقد كون حكم الحاكم بغير ما أنزل الله مماثلاً لحكم الله ورسوله فضلا عن أن يعتقد كونه أحسن منه، لكن اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله، فهذا كالذى قبله يصدق عليه ما يصدق عليه؛ لاعتقاده جواز ما علم بالنصوص الصحيحة، الصريحة، القاطعة تحريمه.

الخامس: وهو أعظمها، وأشملها، وأظهرها معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ورسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية إعداداً، وإمداداً، و إرصاداً، وتأصيلاً، وتفريعاً، وتشكيلاً، وتنويعاً، وحكماً، وإلزاماً، ومراجع ومستندات، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمدات مرجعها كلها إلى كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، فلهذه المحاكم مراجع هى: القانون الملفق من شرائع شتى، وقوانين كثيرة كالقانون الفرنسى، والقانون الأمريكى، والقانون البريطانى، و غيرها من القوانين، من مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلى الشريعة، ونحو ذلك.

فهذه المحاكم الآن فى كثير من أمصار الإسلام مهيئة، مكملة، مفتوحة الأبواب، والناس إليها أسراب، إثر أسراب، ويحكم حكامها بينهم بمايخالف حكم السنة والكتاب، من أحكام ذلك القانون، وتلزمهم به، وتقرهم عليه، وتحتمه عليهم، فأى كفر فوق هذا الكفر، وأى مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة.

---

(١) الشورى/ (١١)

وذكر أدلة جميع ما قدمنا على وجه البسط معلومة، معروفة، لايحتمل ذكرها هذا الموضع، فيا معشر العقلاء ! ويا جماعات الأذكياء وأولى النهى! كيف ترضون أن تجرى عليكم أحكام أمثالكم،وأفكار أشباهكم، أو من هم دونك، ممن يجوز عليهم الخطأ، بل خطؤهم أكثر من صوابهم بكثير، بل لاصواب فى حكمهم إلا ماهو مستمد من حكم الله ورسوله، نصاً أو استنباطاً، تدعونهم يحكمون فى أنفسكم، ودمائكم، وسائر حقوقكم، ويتركون، ويرفضون أن يحكموا فيكم بحكم الله ورسوله، الذى لا يتطرق إليه الخطأ، ولايأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. وخضوع الناس، ورضوخهم لحكم ربهم: خضوع، ورضوخ لحكم من خلقهم تعالى ليعبدوه، فكما لايسجد الخلق إلا لله، ولايعبدون إلا إياه، ولا يعبدون المخلوق، فكذلك يجب أن لايرضخوا ولا يخضعوا، أو ينقادوا إلا لحكم الحكيم العليم الحميد، الرءوف الرحيم، دون حكم المخلوق الظلوم الجهول، الذى أهلكته الشكوك، والشهوات،و الشبهات، واستولت على قلوبهم الغفلة، والقسوة، والظلمات، فيجب على العقلاء أن يربأوا بنفوسهم عنه، لما فيه من الاستعباد لهم، والتحكم فيهم بالأهواء،والأغراض، والأخطاء، فضلاً عن كونه كفراً بنص قوله تعالى ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾(١).

السادس: مايحكم به كثير من رؤساء العشائر، والقبائل من البوادى، ونحوهم من حكايات آبائهم، وأجدادهم،وعاداتهم التى يسمونها «سلوهم» يتوارثون ذلك منهم، ويحكمون به، ويحرصون على التحاكم إليه عند النزاع، إبقاءاً على أحكام الجاهلية، وإعراضاً، ورغبة عن حكم الله ورسوله، فلا حول ولاقوة إلا بالله.

أما القسم الثانى: من قسمى كفر الحاكم بغير ما أنزل الله ـ وهو الذى لا يخرج عن الملة ـ وذلك أن تحمله شهوته، وهواه على الحكم فى القضية بغيرما أنزل الله مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله: هو الحق، واعترافه على نفسه بالخطأ،ومجانبة الهدى، وهذا: وإن لم يخرجه كفره عن الملة فإنه معصية عظمى، أكبر من الكبائر، كالزنا وشرب الخمر، والسرقة، واليمين الغموس، وغيرها، فإن معصية سماها الله فى كتابه كفراً أعظم من معصية لم يسمها كفراً نسأل الله أن يجمع المسلمين على التحاكم إلى كتابه، انقياداً، ورضاءً ، إنه ولى ذلك والقادر عليه. أهـ.

هذه النقول السابقة من كلام أهل العلم والتى تصرح بكفر من يحكم بالقوانين

---

(١) المائدة / ٤٤

الوضعية أويرضى بها أو يحتمها على النـاس لابد فيها من ملاحظة أن هذا التكفير هو من جهة الـنوع أى أن هذا النوع من الـكفر هو من الكفـر الأكبر، أما من جهـة المعين فالفتوى بأن فـلاناً بعينه كافر لارتكابه هـذا الكفر فإنما هو لأهل العلم بـعد نظرهم فى استيفاء الشـروط وانتفاء الموانع فى مسألة التـكفير، فمن الشروط مثلاً الـعلم، والبلوغ، والعقل، والقصد، والتذكـر، ومن موانع التكفير(١)، الجهل الـناشىء عن عـدم البلاغ، والصغر، والجنون، والخطأ، والنسيان، والإكراه، فلايصح التسرع فى تكفير المعين حتى يستيقن قيام الحجة وانتفاء العذر وليس معنى ذلك عدم تكفير معين بالمرة، بل يمكن أن يحكم على معين بالكفر والردة بعد ثبوت إتيانه للكفر، وقيام الحجة، وانتفاء الشبهة كما بينا، وقد يكون فى ثبوت الشروط وانتفاء الموانع اجتهاد واختلاف بين أهل العلم ينبغى أن يكون من الخلاف السائغ، أما الحكم العام أى من جهة النوع فلا ينبغى الاختلاف فيه أبداً لوضوح الحق بأدلته وإجماع أهل العلم عليه كما سبق بيانه من نقل الإمام ابن كثير رحمه الله.

فإن قال قائل: **فما الواجب علينا شرعاً وقد علمـنا حرمة التحاكم إلى المحاكم التى تحكم بالقانون الوضعى، والمسلمون ملزمون فى بلادهم بهذه القوانين قهراً؟**.

قلنا: الواجب شرعاً أن يـتحاكموا إلى من يحكم بـينهم بحكم الكتـاب والسنة من علمائهم، و لا يسعهم أن يؤخروا هذا الفرض إلى حين التطبيق المزعوم للشريعة، وهؤلاء العلماء المجتهدون، وإن لم يكن لهم القوة المـادية لإلزام الناس بالأحكام أو لتطبيق كل أحكام الشريعة ـ أو قد يترتب مفاسد من تنفيذ بعض الأحكام ربما تفوق مصلحة إقامتها ـ إلا أن قوة إيمان المسلم تدفعه للقبول بحكم الشرع، ولو لم يكن هناك ما يلزمه بالقوة المادية، ومع زيادة الإيمان يزداد ـ بإذن الله ـ من يطبقون هذا، ويلتزمون به من أنفسهم، وعليهـم جميعاً: أن يطبقـوا كل ما يقدرون عليـه من الأحكام فى ضوء قاعدة المـصلحة والمفـسدة المرعيـة شرعاً، وماعـجزوا عنه فـلا يكلفـون به ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾(٢) وعلى كل حال فالمسلم حين يدعو إلى التحاكم للشرع دون غيره، فقد خرج عن حكم الرضا بحكم الطاغوت، فإذا أوقف مضطراً أمام هذه المحاكم الوضعية فعليه أن يدعوهم، ويأمرهم أن يحكموا له بحقه الـشرعى فقط ـ الذى علمه من أهل العلم ـ لاما يزعمونه حقاً فى قانونهم. وكذلك من تـرافع أمام هذه المحاكم لدفع الظلم عن مسلم أو

---

(١) تقدم شىء من هذه الموانع فى هذا الباب كالإكراه، التقيه، والمداراة.

(٢) البقرة / ٢٨٦

رفعه، فعليه أن يطلب مثل ذلك. ومن يطلب هذا الحق لنفسه، أو لغيره من المسلمين، فلا جناح عليه مهما كان المطلوب منه، فإنه لم يأمر إلا بمعروف.

وإليك ما ذكره الأئمة فى مسألة التحاكم إلى أهل العلم المجتهدين، والتزام أحكامهم عند العجز عن التحاكم إلى القاضى الشرعى المعين من الخليفة المسلم:

١ـ قال ابن تيمية رحمه الله فى «مجموع الفتاوى» [١]«خاطب الله المؤمنين بالحدود والحقوق خطاباً مطلقاً كقوله تعالى ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ**﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ**﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ**﴾[٤] وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا**﴾ولكن قد علم أن المخاطب بالفعل لابد أن يكون قادراً عليه، والعاجزون لايجب عليهم، وقد علم أن هذا فرض على الكفاية وهو مثل الجهاد، بل هو نوع من الجهاد فقوله تعالى ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ**﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ**﴾[٦] وقوله تعالى ﴿**إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ**﴾[٧]ونحو ذلك، هو فرض على الكفاية من القادرين، والقدرة هى السلطان. فلهذا وجب إقامة الحدود على ذى السلطان ونوابه والسنة أن يكون للمسلمين إمام واحد، والباقون نوابه، فإذا فرض أن الأمة خرجت عن ذلك لمعصية من بعضها، وعجز من الباقين، أو غير ذلك، فكان لها عدة أئمة: لكان يجب على كل إمام أن يقيم الحدود، ويستوفى الحقوق، ولهذا قال العلماء: إن أهل البغى ينفذ من أحكامهم ما ينفذ من أحكام أهل العدل، كذلك لو شاركوا الإمارة، وصاروا أحزاباً؛ لوجب على كل حزب فعل ذلك فى أهل طاعتهم، فهذا عند تفرق الأمراء وتعددهم، وكذلك لو لم يتفرقوا لكن طاعتهم للأمير الكبير ليست طاعة تامة، فإن ذلك أيضاً إذا أسقط عنه إلزامهم بذلك لم يسقط عنهم القيام بذلك، بل عليهم أن يقيموا ذلك، وكذلك: لو فرض عجز بعض الأمراء عن إقامة الحدود، والحقوق، أو إضاعته لذلك، لكان ذلك الفرض على القادر عليه.

وقول من قال: لايقيم الحدود إلا السلطان ونوابه، إذا كانوا قادرين، فاعلين بالعدل؛

---

(١) (٣٤/ ١٧٥)
(٢) المائدة: ٣٨
(٣) النور: ٢
(٤) النور: ٤
(٥) البقرة: ٢١٦
(٦) البقرة: ١٦
(٧) التوبة: ٣٩

كما يقول الفقهاء : الأمر إلى الحاكم. إنما هو العادل القادر، فإن كان مضيعاً لأموال اليتامى، أو عاجزاً عنها، لم يجب تسليمها إليه مع إمكان حفظها بدونه،وكذلك الأمير إذا كان مضيعاً للحدود، أو عاجزاً عنها لم يجب تفويضها إليه مع إمكان إقامتها بدونه.

والأصل أن هذه الواجبات تقام على أحسن الوجوه، فمتى أمكن إقامتها من أمير لم يحتج إلى اثنين، ومتى لم يقم إلا بعدد، ومن غير سلطان أقيمت إذا لم يكن فى إقامتها فساد يزيد على إضاعتها، فإنها من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإن كان فى ذلك فساد من ولاة الأمر، أو الرعية مايزيد على إضاعتها لم يدفع فساد بأفسد منه، والله أعلم .أهـ.

٢ـ قال إمام الحرمين الجوينى فى «غياث الأمم»(١) بعد أن فرض خلو الزمان من الإمام، ثم عن الكفاءة ذوى الدراية، أو كون ذى الكفاية والدراية مضطهداً، مهضوماً، لعدم اعتضاده بعدة، واستعداد، وشوكة؛ فلا تثبت له الإمامة.

قال :فكيف تجرى قضايا الولايات وقد بلغ تعذرها منتهى الغايات؟

فنقول : أما ما يسوغ استقلال الناس فيه بأنفسهم، ولكن الأدب يقتضى فيه مطالعة ذوى الأمر، ومراجعة مرموق العصر، كعقد الجمع، وجر العساكر إلى الجهاد، واستيفاء القصاص فى النفس والطرف، فيتولاه الناس عند خلو الدهر، ولو سعى عند شغور الزمان طوائف من ذوى النجدة والبأس، فى نقض الطرق، والسعاة فى الأرض بالفساد، فهو من أهم أبواب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإنما ينهى آحاد الناس عن شهر الأسلحة استبداداً إذا كان فى الزمان وزرٌ قُوامٌ على أهل الإسلام، فإذا خلى الزمان عن السلطان؛ وجب البدار على حسب الإمكان إلى درء البوائق عن أهل الإيمان، ونهينا الرعايا عن الاستقلال بالأنفس من قبيل الاستحثاث على ما هو الأقرب إلى الصلاح، والأدنى إلى النجاح، فإن ما يتولاه السلطان من أمور السياسة أوقع، وأنجع، وأدفع للتنافس، وأجمع لشتات الرأى، وفى تمليك الرعايا أمور الدماء، وشهر الأسلحة وجوه من الخبل لاينكره ذو العقل، وإذا لم يصادف الناس قواماً بأمورهم يلوذون به، فيستحيل أن يؤمروا بالقعود عما يقتدرون عليه من دفع الفساد، فإنهم لو تقاعدوا عن الممكن، عم الفساد البلاد والعباد، وإذا أمروا بالتقاعد فى قيام السلطان، كفاهم ذو الأمر المهمات وأتاها على أقرب الجهات.

(١) (ص ٢٧٩)

وقد قال العلماء: لو خلى الزمان عن السلطان فحق على قطان كل بلد وسكان كل قرية أن يـقدموا من ذوى الأحلام والنـهى، وذوى العقول والحجـى من يلتزمون امـتثال إشارته، وأوامره وينتهون عن مناهيه، ومزاجره، فإنهم لولم يفعلوا ذلك ترددوا عند إلمام المهمات، وتـبلدوا عند إظلال الـواقعات، ولو انتدب جـماعة فى قيام الإمـام للغزوات، وأوغلوا فى مواطـن المخافات تعين عليهـم: أن ينصبوا من يرجعـون إلى رأيه إذ لو لم يفعلوا ذلك تهووا فى ورطات المخافات، ولم يستمروا فى شىء من الحالات.

ومما يـجب الاعـتنـاء به أمـور الولايـات التـى كانـت منـوطة بـالولاة كـتزويـج الأيامى، والقيام بأموال الأيتام، فأقول: ذهب بعض أئمة الفقه إلى أن ما يتعلق بالولاية: تزويـج الأيامى، فمـذهب الشافـعى رضى الله عـنه، وطوائف مـن العلمـاء أن: الحرة، البالغة، الـعاقلة لا تزوج نفسها، فـإن كان لها ولى: زوجها، وإلا فالسـلطان ولى من لاولى له، فإذا لم يكن لها ولى حاضر، وشغر الزمان عن السلطان فنعلم قطعاً أن حسم باب النكاح مـحال فى الشريعة، ومن أبدى فى ذلـك تشككاً فليس على بـصيرة بوضع الشرع، والمصيـر إلى سد باب المناكح يضاهـى الذهاب إلى تحريم الاكتساب كـما سيأتى القول فى ذلك فى الركن الأخير فى الـكتاب إن شاء الله عزوجل ـ وهذا مقطوع به، لا مراء فيه، فليقطع النظر وراء ذلك فى تفصيل التزويج، فأقول: إن كان فى الزمان عالم، يتعين الـرجوع إليه فى تفاصيل الـنقض، والإبرام، ومآخذ الأحكام، فهـو الذى يتولى المناكح التى كانت يتولاها السلطان إذا كان.

وقداختلف قول الشافعى ـ رحمة الله عليـه ـ فى أن من حكم مجتهداً فى زمان قيام الإمام بأحـكام أهل الإسلام، فهـل ينفذ ماحـكم به المحَّكم، فـأحد قوليه، وهـو ظاهر مذهب أبى حنيفة: أن ينـفذ من حكمهماينفذ من حكم القاضى ـ الـذى يتولى منصبه من تولية الإمام، وهذا قول مجتهد فى القياس لست أرى الإطالة بذكر توجيهه، وغرضى منه: إذا انقـدح المصير إلى تنفـيذ أمر محكم من المـفتين فى استمـرار الإمامة، واطراد الولاية، والزعامة مع تردد، وتحرى، واجتهاد، وتآخى، فإذا خلى الزمان، وتحقق موجب الشرع على القطع والبت، واستحالة تعـطيل المناكح، فالذى كان نفوذه من أمر المحكم مجتهداً فيه فى قيام الإمام يصير مقطوعاً به فى شغور الأيام، وهذا إذا صادفنا عالماً يتعين الرجوع إلى علمه، ويجب اتباع حكمه أهـ.

قال الفقير :

قوله ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ كما تقدم من كـلام أهل العلم

أن علاقة هذه الآية بـ(لا إلـه إلا الله) أنها صرف الأمر والحكم لله كما قال العلماء فى تفسير معنى العبادة المتضمن لهذه الكلمة هى الأوامر والنواهى فلانصرف الأمر والنهى والحكم والتشريع إلا لأمره وحكمه، لذلك ناسب أن يفسر لا إله إلا الله من خلال قوله **﴿أحبارهم﴾** ومعنى الحبر كما فى قوله تعالى **﴿ لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ ﴾**وكما فى قوله **﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَار﴾** فالأحبار هم علماء اليهود والرهبان عباد النصارى، وأرباباً: أى إلهة من دون الله والرسول ﷺ فسرذلك من خلال حديث عدى بن حاتم الطائى وهو فى المسند والترمذى كماتقدم.

فهم حللوا ماحرم الله وحرموا ما أحل الله وهذا فى الواقع كثير، فالتحليل والتحريم بالهوى المخالف لأمر الله، مثل : الربا،والغناء، والتصوير، والتبرج،وعبادة القبور وكذلك حرموا أشياء حلال مثل الختان، والنقاب، واللحية، وغير ذلك .

والناس يتبعوهم وهذا الاتباع هو العبادة بعينها.

وقد ذكرنا ذلك فى الباب الأول ودللنا عليها من خلال سورة يوسف **﴿إن الحكم إلا الله امر الاتعبدو إلا إياه﴾** فالحكم هو العبادة فتتحاكم لغيره فأت عابد لغيره. .

وذكرنا صور للعبادة مثل عبادة الشيطان .وهى كانت بالطاعة وليست بالمناسك مثل **﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾** وكذلك عبادة فرعون عبادة طاعة له«**فاستخف قومه فأطاعوه**» فكانت عبادته هى طاعته وغير ذلك من الصور. التى تؤكد أن العبادة هى الأمر والنهى وأن الأمر والنهى هما العبادة .

وقد قال تعالى: **﴿ألا له الخلق والأمر﴾**فالخالق هوالذى يحكم ويأمر فى خلقه ومن حال دون هذا الأمر فقد ضاد الله فى أمره والنبى ﷺ قال: «**من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله فى ملكه أو أمره**» وهو عند أبى داود والحاكم.

فالمضادة فى الأمر والملك بمجرد أن عطل حدا وليس بتبديل أو تعطيل أو جحود إنما بمجرد شفاعة، فما الظن بالمعطل بالكلية فهو مضاد لله فى ألوهيته وربوبيته كما تقول قوله تعالى **﴿ألا له الخلق والأمر﴾**، وكما قال تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾** ومع ذلك هم تحاكموا فكان إيمانهم بالطاغوت هو التحاكم والكفر بالله هو التحاكم لغيره.

هذا وقد قال ابن القيم فى تفسيره الجامع لمعنى الطاغوت: «هو ماتجاوز العبد حده من متبوع أو معبود أومطاع» لذلك ناسب أن يذكر المصنف الآية **﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾** فهم قالوا ذلك ولكن لم يعلموا بمقضياتها أو علموا ولم يعملوا بها كما تقدم معنا فى حديث بعث معاذ لليمن **«إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه لا إله إلا الله»**(١) بالرغم من أنهم أهل كتاب يقولون لاإله إلا الله لذلك عقب الشيخ فى مسائله أنه يحتمل أن يقولها ولايفهم معناها أولا يعمل بمقتضاها فكان مناسب أن يؤكد فى باب تفسير التوحيد صرف الأمر والنهى والحكم والتشريع لله من الآية **﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾**..

مسألة: ـ

متى يكون اتخاذ الأحبار والرهبان مكفر ومتى يكون كبيرة أو معصية أعنى متى تخرج هذه العبادة عن الملة ومتى لاتخرج من الملة؟

الطاعة إما أن تكون منبعها شهوة أو تكون منبعها إباء واستكبار فالأولى معصية والثانية كفر وقد ضربنا مثلاً بمعصية آدم وإبليس وقد كفر إبليس ولم يكفر آدم لأن معصية آدم عن شهوةالخلد والملك قال تعالى : **﴿وقال ما نهاكما ربكما عن تلكم الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين﴾** فهما فى أول الأمر قالوا سمعنا واطعنا ثم بوساوس إبليس أكلوا ثم ندموا بعد ذلك وقالوا: **﴿ربنا ظلمنا أنفسنا ورن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾** أما ابليس لم يندم وقال : **﴿أنظرنى إلى يوم يبعثون...﴾** فهو مصر على ماهو عليه ليوم البعث لأنه فى إباء واستكبار فليس قابل للحكم فى هذا الأمر، حيث رده بقوله **﴿ءأسجد لمن خلقت طيناً﴾** وقوله **﴿قال أناخير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾** فنفرق بين هذين الأمرين فإذا جاء رجل مدخن أوامرأة متبرجه، مثلاً، فسألا عن حكم القمار أو مشاهدة الأفلام أو التبرج والتدخين فإذا قلنا له الأدلةعلى تحريم القمار أومشاهد الأفلام أو التبرج أو التدخين فقال أنا مقتنع بما تقولون، لكن الشهوة غلبت علينا .

فهذا المدخن أو هذه المتبرجة أو أى عاصٍ أو عاصية على هذه الصورة لانقول أنه أبى وكفر، بخلاف من نقول له أن هذا حرام بعد ما أقيمت عليه الحجة يقول هذا حلال ورد أمر الله حتى لو لم يفعل هذا الأمر فهو كافر وأطاع هواه طاعة مخرجة عن الملة.

---

(١) تقدم تخريجه.

ويجد أن الكفر المخرج لـه علاقة بالاعتقاد فى القلب مثـل الرد والإباء والاستكبار.
قال ابن تيمية فيـما ذكره الشارح فى الكتاب : وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً. حيث أطاعوهم فى تحليل ماحرم الله. وتحريم ما أحل الله، يكونون على وجهين:

[أحدهما] أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على هذا التبديل فيعتقدون تحليل ماحـرم الله أو تحريم ما أحـل الله، اتباعـاً لرؤسائهـم مع علـمهم أنـهم خالفـوا دين الرسل، فهذا كـفر وقد جعله الله ورسوله شركـاً وإن لم يكونوا يصلون لـهم ويسجدون لهم، فكان من اتبع غيرهم فى خلاف الدين، مع علمه أنه خلافاً للدين، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله اللهورسوله مشركا مثل هؤلاء.

[الثانى] أن يكون اعتقـادهم وإيمانهم بتحريـم الحرام وتحليل الحلال ثابتـاً، لكنهم أطاعوهم فى معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصى التى يعتقد أنها معاصى فهؤلاء لهم حـكم أمثالهم من أهل الـذنوب، كماقدثبت عن الـنبى ﷺ أنه قال : «**إنما الطاعة فى المعروف**» المحلل للحرام إن كان مجتهداً قصـده اتباع الرسول لكن خفى عليه الحق فى نفس الأمور، وقد اتقى الله ما استطاع، فهذا لايؤاخذه الله بخطئه، بل يثيبه على اجتهاده الذى أطاع به ربه ولكن من علم أن هذا أخطأ فيما جاءبه الرسول ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول فهذا له نـصيب من هذا الشرك الذى ذمه الله، لاسيما إن اتبع فـى ذلك هواه ونصره بالـيد واللسان، مـع علمه أنه مـخالف للرسول. فـهذا شرك يستحق صاحبه العقوبةعليه.

ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لايجوزله تقليد أحدفى خلافه وإنما تنازعوا فى جـواز التقـليد لـلقادر علـى الاستدلال، وإن كـان عاجزاً عـن إظهار الحـق الذى يعلـمه، فهذا يكـون كمن عرف أن دين الإسـلام حق وهو بيـن النصارى، فإذا فـعل ما يقدرعليـه من الحق لايؤاخذ بما عجز عـنه، وهؤلاء كالنجاشى وغـيره، وقد أنزل الله فى هؤلاء الآيات من كتابه كقوله تعالى ﴿**وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم**﴾ وقوله ﴿**وإذا سمعواما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق**﴾ وقوله ﴿**ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون**﴾ وأما إن كـان المتبع للمجتهد عـاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل، وقد فعل ما يـقدر عليه مثله، من الاجتهاد فى التقليد، فهذا لايؤاخذ إن أخطأ كما فى القبلة.

وأما من قلد شـخصاً دون نظيره لمجرد هواه، ونـصره بيديه ولسانه مـن غير علم أن معه الحق ، فهذا من أهل الجاهلية ، وإن كان متبـوعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً، وإن كان متبوعه مخطئاً كان آثماً كمن قال فى القرآن برأيه، فإن أصاب فقد أخطأ وإن أخطأ فليتبـوأ مقعده من النار، وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذى تقدم فيـه الوعيد، ومن

جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة فإن ذلك لما أحب المال منعه من عبادة الله وطاعته وصار عبداً لـه، وكذلك هؤلاء، فيكون فيهم أصغر، ولهم مـن الوعيد بحسب ذلك.

وفى الحديث «إن يسير الرياء شرك»[(١)] وهذامبسوط عند النـصوص التى فيها إطلاق الكفر والشرك على كثير من الذنوب .أهـ.

قال السدى : استنصحوا الرجال وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم[(٢)].

فلا يبقى إلا شـيخ لايعلم الفرق بين الـغسل الواجب والكامل ولاشـىء من العلم الواجب والناس يسألون هذا الشيخ فيتجرأ على الفتوى بغير علم فَيضِلُّ ويُضَلُّ.

فمن اعتقد أن ما قالـه هذا الشيخ مخالفة لما جاءت به الشريعة ومـع ذلك يتبعه على هذه المخالفة ففيه شبه بهـؤلاء الذى ذمهم الله من اليهود الذين أشركوا مع الله الأحبار، ولهذا قال ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾فلم يمتثلوا وعبدوا معه الرهبان والأحبار، وقال« ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾فالذى يفـترى على الرسول الـكذب يتبوأ مقعـده من النار وهو حديـث متواتر فالذى يكذب على الله فماذا يفعل به ؟!

أما الذى يتبع الأحبار والرهبان وهو يعلم خطئهم ولم يتبعهم إلا عن هوى ولشهوة ما فهو كمـن فعل ذلك ابتداءً من غير اتبـاع لهم فهى معاصى أو كبائـر ولو كانت ربا مثلاً ولاتكن كفراً كمـا ثبت عن النبى «إنما الطاعة فى المعروف»[(٣)] كما هو الـقول فى طاعة الأمراء الذين طاعـتهم واجبه لكن ليس بإطلاق وإنما فى المعـروف كما قال تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فطاعة الله والرسول مـطلقة أما أولى الأمر فلم يقـل وأطيعوا اولى الأمر منكم وذكـرنا حديث عبدالله بن حذَافة الـسهمى فى البخارى فى تفـسير هذه الآية عندما جد بهـم السير فقال لهم أنا من أولـى الأمر عليكم فأطيعونى فاجمعوا حطبا وأوقدوا فيه النـار وأدخلوا فيها فهموا أن يدخلوا إلا أنهم قالوا منها فررتم فننتظـرحتى نأتى الرسول ﷺ فقال: «لو دخلتموها ماخـرجتم منها إلى يوم القيامة إنما الطاعة فى المعروف»[(٤)] فالمتبع للعالم عن شهوة فهـى معصية ولكنها مضعفة حيث ضم فيها معصيتين الطاعة فى المعصية والمعصية نفسها.

(١) [ضعيف] أخرجه ابن ماجه (٣٩٨٩) عن عمر به بإسناد فيه ضعف.
(٢) تقدم تخريجه. (٣) تقدم تخريجه.
(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٧٢٥٧).

قال شيخ الإسلام فى الشرح[1] : «**ثم ذلك المحرم للحلال.. إن كان مجتهداً قصده** إتباع الرسول لكن خفى عليه الحق فى نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع، **فلهذا لا يؤاخذه الله بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذى أطاع به ربه....**»

ففى **الحالة الأولى**: مثل قول ابن حزم : بتضعيف حديث المعازف الذى فى «الصحيح»[2] وقال: أنه مرسل أو معلق - إلا أنه ثبت مسنداً عند أبى داود وغيره - وأحل ابن حزم الغناء بناء على أنه ليس هناك حديث عن النبى ﷺ يحرم الغناء واجتهد وأخطأ، ومثل : أبى حنيفة فإنه جوز الزواج من غير ولى فى بعض الصور وهذا ماتتبعه فى مصر والفتاة تتزوج من غير أب. فهنا أبو حنيفة كان قصده اتباع الرسول ﷺ ولم يكن صح عنده حديث «**لانكاح إلا بولى**»[3] ورده بأصول معينة، وضم لذلك «**الثيب أحق بنفسها والبكر تستأمر**»[4].

قال معنى أحق بنفسها: أى ممكن تزوج نفسها. فلو كان الولى شرطاً: لكان فى كل حالة - الثيب والبكر - ولكنه لم يشترطه للثيب فكذلك لم يشترط أن يكون للبكر ولى فهو اجتهد - ما استطع -ولكنه أخطأ فهو مأجور، وليس كافر، أو آثم ولكن يبقى على التابع للمذهب أن يكون له موقف من هذا الرأى الفقهى.

وهو إن علم أنه أخطأ ثم اتبعه وتحول عن قول الرسول وهو يعلم ذلك يقيناً فهذا له نصيب من الشرك الذى ذكره الله فى الآية قال شيخ الإسلام: وعدل عن قول الرسول فهذا له نصيب من هذا الشرك الذى ذمه الله، لاسيما إن اتبع فى ذلك هواه.

وهذه النصيحة لكل طالب العلم وخاصة هؤلاء المتعصبين لمذاهبهم أو لشيوخ معينين «لهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لايجوز له تقليد أحد فى خلافه»

وهذا مؤدى ما قاله الإمام الشافعى حيث قال :أجمع المسلمون على أنه من استبانت له سنة عن رسول الله ﷺ فلا يحل له أن يتركها لقول أحد من الناس كائناً من كان.

فقول شيخ الإسلام : «إنما تنازعوا فى جواز التقليد للقادر على الاستدلال»

بمعنى أنك قادر على البحث والنظر والاجتهاد فلا يجوز لك التقليد وهذا الكلام ليس لنا فنحن لسنا أهل للنظر والاجتهاد.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٧٠، ٧١) مختصراً وأنظر فتح المجيد (١/ ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠).

(٢) علقه البخارى (٥٥٩٠) وانظر «بلوغ المرام» - بتخريجنا.

(٣) [صحيح] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ٣٩٤)، وأبو داود (٢٠٨٥)، والترمذى (١١٠١)، وابن ماجه (١٨٨١) عن أبى موسى به.

وانظر «السلسبيل» (٢٠٢٠ - بتخريجنا).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى النكاح (٩/ ٢٠٤ - النووي) عن ابن عباس به.

وانظر «السلسبيل» (٢٠١٤ - بتخريجنا).

ثم قال: «وإن كان عاجزاً عن إظهار الحق الذى يعلمه»

فمثال ذلك فى العمل أوالمدرسة أوالمسجد فعالم بالحق ولايستطيع إظهاره لخوف أو لأى سبب آخر مثل أن لايكون عنده حسن بيان، لكن الظاهر من كلام شيخ الإسلام أن يكون العجز سببه الخوف.

فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصارى ـ كالنجاشى ـ فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق لايؤاخذ بماعجز عنه ـ ﴿لايكلف الله..﴾ ـ وقد أنزل فيهم ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وماأنزل إليكم وما أنزل إليهم﴾ وقال: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع فما عرفوا من الحق﴾. وقوله ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾، وأما إن كان المتبع ـ الذيل للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل وقد فعل مايقدر عليه من الاجتهاد فى التقليد، فهذا لايؤاخذ إن أخطأ كما فى القبلة. . » ما معنى الاجتهاد فى التقليد يعنى جاء وسأل الشيخ فلان عن حاجته فقال افعله فسأل آخر فقال لا تفعله فسأل ثالث فقال يجوز تفعله أولا تفعله وسأل سبعين من العلماء واجتهد على قدر المستطاع فهذا معناه الاجتهاد فى التقليد فهذا لايؤاخذ إن أخطأ كما فى القبلة عندما ضل الصحابة فى تحدد اتجاه القبلة واجتهدوا فأصبحوا وقد صلوا إلى غير القبلة(1).

فالنبىﷺ لم يؤاخذهم: فأجزأتهم صلاتهم، ولم يأمرهم بالإعادة؛

لأنهم فعلوا ما يقدر عليه مثلهم،وهذا فيه رد على سؤال من يقول أننا إذا كنا لانعمل فى حزبية ولاجماعات ولا طريقة ولكننا سنعمل عمل جماعى لأن النبى نادانا بذلك فمن المفترض أن يكون لهذا العمل منظم أو قائد؟ فالجواب أن المنظم والقائد هو الإمام الأكبر النبى ﷺ لأن هؤلاء الناس تركوا الجماعات وتمسكوا. بجماعة الرسول ﷺ التى أمرنا بلزومها «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين عضوا عليها بالنواجذ»(2) ولما قال «تفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلهم فى النار إلا واحده هى ماكانت على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى»(3) فى هذه الحالة الجماعة هذه زعيمهم النبى ﷺ فلسنا فى حاجة إلى منظم ولامسئول ولا إمام ولا مرشد ولكن لنا مرشد عام للناس كلهم هو النبى ﷺ.

سؤال : فإن قال : أنا لا أعرف كلام النبى ﷺ وأجهله فلابد من واسطة ينقل لى عنه لأننى لست مؤهلا ؟

---

(1) [ضعيف] أخرجه الترمذى (٣٤٥)، وابن ماجه (١٠٢٠) عن عبد الله بن عامر به.
وانظر «السلسبيل» (٣٥٦ ـ بتخريجنا).

(2) تقدم تخريجه.

(3) تقدم تخريجه.

الجواب : الواسطة هم أهل العلم ولم يخرجوا عن هذه الجماعة التى جاء الحديث بالحض على لزومها فقال : «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**»(١) **فمن معانى الجماعة أيضاً أنهم أهل العلم** فإذن أنت تذهب لأهل العلم وتلزمهم لينقلوا لك عن النبى ﷺ.

سؤال فإن **قال**: وأين أهل العلم الآن ؟! فإننى رأيت أهل العلم متحزبين وغالباً ما يكون تبع جماعة كذا أو كذا؟

الجواب: أنك تذهب لكل من عرفت أنه من أهل العلم وتجتهد فى التقليد، وتنظر بغير هوى ولاعصبية، وترى من هو أقرب هؤلاء للحق، فإذا وصلت لهذه المسألة واتبعت أحد العلماء وأخطأت فلا تؤاخذ.

قال شيخ الإسلام : وأما من قلد شخصاً دون نظيره لمجرد هواه، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق فهذا من أهل الجاهلية.»

وهذا يبين مدى الوسطية فى الجواب عن السؤال السابق، وهو أن تسأل كل من تسمع عنه أنه من أهل العلم ولاتقول سأسأل فلان دون فلان: لأن معنى ذلك انك فى نفسك عصبية وهوى لمن تسأله طالما أنهم مثل بعض

فكون أن تفرق بين مثليين فهذا مردود عقلا إلا إذا كان عندك سبب شرعى بأن تقول أن هذا أعلم من هذا وهذا خلاف الصورة السابقة.

لهذا قال شيخ الإسلام : «فهذا من أهل الجاهلية»

مثلما انتصر المهاجرى للمهاجرين والأنصارى للأنصار فقال ياللمهاجرين. وقال الآخر: ياللأنصار

وهذا حلف إسلامى سماه الله بذلك وهذا حلف إسلامى سماه **الله** والرسول **بذلك**، لكن لماحصل أنهم مالوا للهوى ونصروا باليد واللسان وضربوا بعضهم فهذه جاهلية فقال النبى ﷺ :«**أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهر كم ذروها فإنها منتنة ذروها فإنها خبيثة**»(٢) وأنت تشم النتن من هذه العصبية الجاهلية من بعض طلبة العلم الذين تعصبوا لشيوخهم، واتبعوهم من غير علم أنهم معهم الحق أم لا. كما قال الشاعر الجاهلى : أنهم **لايسألون أخاهم إذا دعاهم فى النادبات على ما قال برهاناً**.

كما كان المبدأ الجاهلى السائد : انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى انظر تخريجه فى حاشيتنا على شرح الورقات ط نزار الباز.

(٢) تقدم تخريجه.

وربما يقول قائل ما المانع أن شيخى مصيب وأنا اتبعه؟

الجواب : وإن كان متبوعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً وممكن يسىء لشيخه وينفر الناس منه لأن العصبية العمياء تنفر كثيراً من المعتدلين عن كثير من المشايخ.

وقول شيخ الإسلام «وأن كان متبوعه مخطئاً كان أثما فمن قال فى القرآن برأيه أخطأ وإن أصاب وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار وهؤلاء من جنس مانعى الزكاة. الذى تقدم فيه الوعيد، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، فإن ذلك لما أحب المال منعه من عبادة الله وطاعته وصار عبداً له، وكذلك هؤلاء، فيكون فيهم أصغر، ولهم من الوعيد بحسب ذلك» .

قلت: وكذلك هؤلاء لما طغى عليهم حب المشايخ والمذهب صاروا فى طاعتهم حتى لوكانت هذه الطاعة فى معصية الله وهم الذين قال الله فيهم «اتخذوا» فهذه هى المحبة الغير شرعية لذلك ناسب أن يذكر الآية التى بعدها ﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله**﴾ فأهل السنة مع حبهم للمشايخ فإذا أخطاءوا لم يتبعوهم ولم يؤثموهم ويقروا بمحبتهم مع تخطئتهم

مثل: كلام ابن القيم لأبى إسماعيل الهروى: هو شيخ الإسلام حبيب إلى قلوبنا، ولكن الحق أحب إلينا منه ﴿**والذين أمنوا اشد حباً لله**﴾ فالندية فى الطاعة سببها محبة

واتخاذ الأحبار والرهبان سببه محبة ممقوته وعصبية ممقوته أعمتهم إلا عن طاعة هؤلاء . فتعسوا، والتعاسة هى عدم الوصول للمراد وعدم الوصول لرضا الله، فلا نال مراد ولا أرضى ربه وهذا هو المتعوس، وهؤلا دعى عليهم الرسول ﷺ بعد أن وبخهم بأنهم فى خبث ونتن، ودعى عليهم ألا يشفيهم الله حتى من هذه الشوكة وغير ذلك من الوعيد الذى حصل لهم(بسبب اتخاذهم مشرع من دون الله ووقوعهم من ذلك فى شرك.

قال تعالى : ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم**﴾ .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾(١).

*** مناسبة الآية للباب:ـ**

قال سليمان آل الشيخ(٢):ـ من الأمور المبينة لتفسير التوحيد «وشهادة أن لا إله إلا الله، آية البقرة فى الكفار الذين قال الله فيهم: **﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾** وذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً، ولم يدخلهم فى الإسلام، فكيف بمن أحب الند حباً أكبر من حب الله؟!.

فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده، ولم يحب الله؟!.

قلت ـ يعنى سليمان آل الشيخ- : مراده أن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، هو إفراد الله بأصل الحب الذى يستلزم إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وعلى قدر التفاضل فى هذا الأصل. وما ينبنى عليه من الأعمال الصالحة يكون تفاضل الإيمان والجزاء عليه فى الآخرة.

فمن أشرك بالله تعالى فى ذلك فهو المشرك، لهذه الآية: أخبر تعالى عن أهل هذا الشرك أنهم يقولون لألهتهم فى الجحيم: **﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** ومعلوم أنهم ما ساووهم به فى الخلق والرزق والملك، «إنما ساووهم به فى المحبة والإلهية والتعظيم والطاعة.

فمن قال لا إله إلا الله وهو مشرك بالله فى هذه المحبة، فما قالها حق القول وإن نطق بها، إذ هو قد خالفها بالعمل، كما قال المصنف فكيف بمن أحب الند حباً أكبر من حب الله؟ وسيأتى الكلام على هذه الآية فى بابها إن شاء الله تعالى أهـ.

قال عبدالله بن جار الله(٣): أنّ من أشرك مع الله غيره فى المحبة فقد جعله شريكاً لله فى العبادة وذلك هو الشرك الأكبر الذى لايغفره الله كما قال تعالى: **﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾**.

قال ابن عثيمين(٤): الشاهد من هذه الآية أن الله جعل هؤلاء الذين سووا محبة الله بمحبة غيره مشركين جاعلين لله أنداداً. أهـ.

---

(١) البقرة : ١٦٥.

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (١٠٥).

(٣) «الجامع الفريد» (٣٥).

(٤) «القول المفيد» (١/ ١٩٤).

وقال القرعاوى[1]: حيث دلّت الآية على أنّ معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله هو إفراد الله بأصل الحبٍّ الذى يستلزم إخلاص العبادة جميعاً لله. أهـ.

*** مناسبة الآية للتوحيد:**

قال الفخر الرازى[2]: اعلم أنه سبحانه وتعالى لما قرر التوحيد بالدلائل القاهرة القاطعة أردف ذلك بتقبيح ما يضاد التوحيد لأن تقبيح ضد الشىء مما يؤكد حسن الشىء ولذلك قال الشاعر: **وبضدها تبين الأشياء**.

وقالوا أيضا: **النعمة مجهولة. فإذا فقدت عرفت**، والناس لايعرفون قدر الصحة، فإذا مرضوا ثم عادة الصحة إليهم عرفو قدرها. وكذا القول فى جميع النعم، فلهذا السبب أردف الله تعالى الآية الدالة على التوحيد بهذه الآية. أهـ.

قلت: وبهذا يظهر مناسبة الآية للتوحيد وهى تبينه بضده كما تقدم.

*** مناسبة الآية للتى قبلها**: أن أصل كلمة الرهبان والأحبار محبتهم كما سيأتى عن السدى وغيره بمعناه.

*** الإعراب**[3]:

قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾.

الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لبيان أن بعض الناس لم يعتقد الوحدانية بعد أن ثبت بالدليل القاطع، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. أهـ.

قوله: ﴿مَن يَتَّخِذُ﴾.

﴿مَن﴾ اسم موصول فى محل رفع مبتدأ مؤخر، أو نكرة موصوفة فى محل رفع مبتدأ مؤخر **﴿يَتَّخِذُ﴾** الجملة الفعلية لامحل لها؛ لأنها صلة الموصول أو صفة لـ«مَن» وفاعل يتخذ ضمير مستتر تقديره هو يعود على لفظ مَنْ. أهـ.

قوله: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾.

﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلقان بيتخذ **﴿أَندَادًا﴾** مفعول به أ.هـ.

* * * *

قوله تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾**

- روى البخارى ومسلم عن ابن مسعود قال: قلت يارسول الله أى الذنب أعظم؟ قال **«أن تجعل لله نداً وهو خلقك»**[4].

---

(1) الجديد (٧٧).

(2) الفخر الرازى (٢/ ٣/ ٢٢٦).

(3) الإعراب (١/ ٢٣٠).

(4) تقدم تخريجه.

قال ابن جرير[1]: الند: العدل، والمثل، كما قال حسان بن ثابت:

أتهجوه ولست له بند فشركما لخيركما الفداء

وعن مجاهد: ﴿**أَندَادًا**﴾ عدلاء[2].

وعن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة: أكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله[3].

وعن ابن زيد: الآلهة التي جعلوها معه، وجعلوا لها مثل ما جعلوا له[4].

وعن ابن عباس: أشباهاً[5].

وعن عكرمة: شريكاً[6]. أهـ.

وعن عكرمة أيضاً ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا**﴾ أي شركاء[6].

وزاد ابن أبي حاتم في تفسيره: بسنده عن أبي العالية: ﴿**أَندَادًا**﴾ أوثاناً[7].

وبسنده عن أبي مالك: شركاء. أهـ.

وقال البغوي[8]: ﴿**أَندَادًا**﴾ أي أصناماً يعبدونها. ا.هـ

وقال الفخر الرازي[9]: واختلفوا في المراد بالأنداد على أقوال.

أحدها أنها هي **الأوثان** التي اتخذوها آلهة لتقربهم إلى الله زلفى، ورجوا من عندها النفع والضر. وقصدوها بالمسائل، ونذروا لها النذور، وقربوا لها القرابين، وهو قول أكثر المفسرين.

وعلى هذا الأصنام أنداداً بعضها لبعض، أي أمثال ليس إنها أندادا لله، أو المعنى: إنها أنداد لله تعالى بحسب ظنونهم الفاسدة.

---

(١) تفسير الطبري» (١/١/١٢٦، ١٢٧)، (٢/٢/٤٠)

(٢) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق. وذكره السيوطي في «الدر» (١/٧٧) وزاد نسبته لوكيع، وعبد بن حميد.

(٣) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق. وذكره السيوطي في «الدر» (١/٧٦) وانظر «فتح القدير» (٣٢٣ ـ بتخريجنا).

(٤) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق.

(٥) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق. وذكره السيوطي في «الدر» (١/٧٦) وزاد نسبته لابن أبي حاتم، وانظر «فتح القدير» (٣٢٢).

(٦) أخرجه ابن جرير (٢/٤٠) وذكره السيوطي في «الدر» (١/٣٠٤) ونسبه لعبد بن حميد.

(٧) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/٢٧٦).

(٨) «معالم التنزيل» (١/١٩١).

(٩) «التفسير الكبير» (٢/٤/٢٢٦، ٢٢٧).

(وثانيها) إنهم السادة الذين كانوا يطيعونهم فيحلون لمكان طاعتهم ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، وهو قول عن السدى.

والقائلون بهذا القول رجحوا هذا القول على الأول من وجوه:

(الأول) أن قوله ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ الهاء والميم فيه ضمير العقلاء.

(الثانى) أنه يبعد أنهم كانوا يحبون الأصنام كمحبتهم الله تعالى مع علمهم بأنها لاتضر ولاتنفع.

(الثالث) أن الله تعالى ذكر بعد هذه الآية ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا...﴾ وذلك لايليق إلا بمن اتخذ الرجال أنداداً وأمثالا لله تعالى، يلتزمون من تعظيمهم والانقياد لهم، ما يلتزمه المؤمنون من الانقياد لله تعالى.

القول الثالث: فى تفسير الأنداد قول الصوفية والعارفين، وهو أن **كل شىء شغلت قلبك به سوى الله تعالى**، فقد جعلته فى قلبك نداً لله تعالى وهو المراد من قوله ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أهـ.

*** خلاصة ما جاء فى الأنداد:**

[قلت]: اختلف اختلاف تنوع فى المراد بالأنداد على ثمانية أقوال، وهى:

(١) عدلاء	(٢) الآلهة	(٣) أشباهاً	(٤) شركاء
(٥) أوثاناً	(٦) أصناماً	(٧) سادة	(٨) كل ما

يشغل عن القلب سوى الله.

وتقدم ذكر من قال بذلك ولا يبعد أن يكون الجميع مراد من الآية. والله أعلم.

*** فائدة**(١):

﴿دُونِ﴾ ظرف للمكان وهو نقيض فوق، نحو هو دونه أى أحط منه رتبة أو منزلة، ويأتى بمعنى أمام نحو: الشىء دونك أى أمامك، وبمعنى وراء نحو: قعد دون الصف. أى وراءه، وقد يأتى بمعنى ردىء وخسيس فلايكون ظرفاً، نحو: هذا شىء دون، وهو حينئذ يتصرف فى وجوه الإعراب. ويأتى بمعنى غير كما فى الآية، وأكثر ما يستعمل حينئذ مجروراً بمن. أهـ.

قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾.

﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ فعل مضارع مرفوع وفاعل ومفعول به والجملة الفعلية صفة لأنداداً أو

(١) «إعراب القرآن» (١/ ٢٣١).

حال من الضمير المستكن فى يتخذ ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ الكاف ومجرورها فـى موضع نصب صفة لمصدر محذوف فهو مفعول مطلـق ويجوز الإعراب حالاًوقد رجحه سيبويه والمصدر مضاف إلى مفعوله[١].

قال ابن جرير[٢]: وإن الذين اتخذوا هذه الأنداد من دون الله يحبون أندادهم كحب المؤمنين الله. أهـ.

وعن عكرمة ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أى يحبون آلهتهم كحب المؤمنين لله[٣].

وعن قتادة فى قوله ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ قال: يحبون أوثانهم كحب الله[٤].

وعن مجاهد: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ مباهاة ومضاهاة للحق بالأنداد[٥].

وعن الربيع: ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ هى الآلهة التى تعبد من دون الله يقول: يحبون أوثانهم كحب الله[٦].

وعن ابن زيد: ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ قال: هؤلاء المشركون أندادهم آلهـتهم التى عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله[٧].

وعن السدى: يطيعونهم كما يطيعون الله، إذا أمروهم أطاعوهم وعصوا الله[٨].

وعن أبى العالية: يحبون الأوثان كحب الله، أى كحب الذين آمنوا ربهم[٩].

وقال البغوى[١٠]: قال الزجاج: يحبون الأصنام كمـا يحبون الله؛ لأنهم أشركوها مع الله، فسوى بين الله وبين أوثانهم فى المحبة.

وقال ابن الجوزى[١١]: وفى قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ قولان:

أحدهما: أن معناه: يحبونهم كحب الذيـن آمنوا لله، هذا قول ابن عباس، وعكرمة، وأبى العالية، وابن زيد، ومقاتل، والفراء.

والثانى: يحبونهم كمحبتهم لله، أى: يسوون بين الأوثان وبين الله تعالى فى المحبة،

---

(١) «إعراب القرآن» (١/ ٢٣٠).

(٢) «ابن جرير» (٢/ ٤٠).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» وذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٣٠٣) وزاد نسبته لعبد بن حميد.

(٦) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٧) تقدم تخريجه.

(٨) أخرجه ابن جرير فى تفسيره» وذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٣٠٣) ونسبه إليه.

(٩) «ابن أبى حاتم فى تفسيره» (١/ ٢٧٦)..

(١٠) «معالم التنزيل» (١/ ١٩٢).

(١١) «زاد المسير» (١/ ٢٤٧).

هذا اختيار الزجاج، قال: والقول الأول ليس بشيء، والدليل على نقضه قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ قال المفسرون: أشد حباً لله من أهل الأوثان لأوثانهم.

***

إشكال:

قال ابن جرير(١): «فإن قال قائل: وكيف قيل: كحب الله؟ وهل يحب الله الأنداد؟ وهل كان متخذوا الأنداد يحبون الله؟

فيقال يحبونهم كحب الله قيل أن معنى ذلك بخلاف ماذهبت إليه وإنما نظير ذلك قول القائل: بعت غلامي كبيع غلامك، بمعنى بعته كما بيع غلامك وكبيعك غلامك واستوفيت حقي منه استيفاء حقك بمعنى استيفائك حقك فتحذف من الثاني كتابة اسم المخاطب اكتفاء بكنايته في الغلام والحق كما قال الشاعر:

فلست مسلمًا ما دمت حيا   على زيد بتسليم الأمير

يعني بذلك كما يسلم على الأمير فمعنى الكلام إذًا: ومن الناس من يتخذ أيها المؤمنون من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله اهـ.

قال الرازي(٢): فإن قيل: العاقل يستحيل أن يكون حبه للأوثان كحبه لله، وذلك لأنه بضرورة العقل علم أن هذه الأوثان أحجار لاتضر، ولاتسمع، ولاتبصر ولاتعقل، وكانوا مقرين بأن لهذا العالم صانعاً مدبراً حكيماً ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ومع هذا الاعتقاد كيف يعقل أن يكون حبهم لتلك الأوثان كحبهم لله تعالى.

وأيضاً فإن الله تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ وإذا كان كذلك، كان المقصود الأصلي طلب مرضات الله تعالى، فكيف يعقل الإستواء مع هذا القول؟.

الجواب: قلنا قوله ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أى في الطاعة لها والتعظيم لها، فالإستواء على هذا القول في المحبة لاينافي ما ذكرتموه. اهـ.

قال الفخر الرازي(٣): أما قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ فاعلم أنه ليس المراد محبة ذاتهم فلابد من محذوف، والمراد: يحبون عادتهم أو التقرب إليهم والإنقياد لهم، أو جميع ذلك.

---

(١) ابن جرير (٢/ ٤٠)

(٢) التفسير الكبير (٢/ ٤/ ٢٢٧، ٢٢٨)

وقوله: ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ فيه ثلاث أقوال:

قيل: فيهم كحبهم الله، وقيل فيه: كالحب اللازم عليهم لله، وقيل فيه: كحب المؤمنين لله.

وإنما اختلفوا هذا الاختلاف من حيث إنهم اختلفوا فى أنهم هل كانوا يعرفون الله أم لا؟

فمن قال: كانوا يعرفون مع اتخاذهم الأنداد تأول على أن المراد كحبهم لله.

ومن قال: إنهم كانوا عارفين بربهم حمل الآية على أحد الوجهين الباقيين إما كالحب اللازم لهم أو كحب المؤمنين لله.

والقول الأول أقرب لأن قوله ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ راجع إلى الناس الذين تقدم ذكرهم.

وظاهر قوله: ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ يقتضى حباً لله ثابتًا فيهم، فكأنه تعالى بين فى الآية السالفة أن الإله واحد، ونبه على دلائله، ثم حكى قوله من يشرك معه، وذلك يقتضى كونهم مقربين بالله تعالى. أهـ.

*** خلاصة القول فى ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾**

قال الفقير:

(١) يحبونهم كما يحب المؤمنون الله.

(٢) أو يحبون الأنداد كما يحبون الله.

(٣) مباهاة ومضاهاة للحق بالأنداد.

(٤) يطيعون أندادهم إذا أمروهم ويعصون الله.

(٥) يسوون بين محبة الأنداد ومحبة الله.

* * *

قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

الإعراب[١]: ﴿وَالَّذِينَ﴾ الواو استئنافية أو حالية واسم الموصول مبتدأ ﴿آمَنُوا﴾ فعل وفاعله. والجملة صلة الموصول ﴿أَشَدُّ﴾ خبر الموصول ﴿حُبًّا﴾ تمييز ﴿لِلَّهِ﴾ الجار والمجرور متعلقان بحباً. أهـ.

أخرج ابن جرير: بسنده عن مجاهد: فى قوله تعالى ذكره: يحبونهم كحب الله مباهاة ومضاهاة للحق بالأنداد والذين آمنوا أشد حباً لله من الكفار لأوثانهم[٢].

---

(١) «إعراب القرآن» (١/ ٢٣٠).

(٢) «تفسير الطبرى» (١/ ٢/ ١٤٠). وتقدم

وبسنده عن الربيع فى قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ قال: هى الآلهـة التى تعبد من دون الله يقـول يحبون أوثانهم كـحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله من الكفار لأوثانهم(١).

وبسنده عن ابن وهب: قال: قال ابن زيد فى قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ قال: هؤلاء المشركـون أندادهم آلهتهم التـى عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله والذين آمنوا أشد حبًا لله تعالى ذكره(٢).

وكذا أخرج هذه الآثار ابن أبى حاتم(٣).

قال البغوى(٤): قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾. أى أثبت وأدوم عـلى حبه من المشركين لأنـهم لايختارون على الله ما سواه. والمشركون إذا اتـخذوا صنماً ثم رأوا أحسن منه طرحوا الأول واختاروا الثانى.

قال قتادة: إن الكافر يـعرض عن معبوده فى وقت البلاء ويقبل عـلى الله تعالى كما أخبر الله عزوجل عنهم فقال﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

والمؤمن لايعرض عن الله فى السراء والضراء والشدة والرخاء.

قال سعيد بن جبيـر إن الله عزوجل يأمر يوم القيامة من أحرق نفسـه فى الدنيا على رؤية الأصنام أن يدخلوا جهـنم مع أصنامهم فلايدخلون، لعلمـهم أن عذاب جهنم على الدوام. ثم يـقول للمؤمـنين وهم بيـن أيدى الكفـار إن كنتم أحبـائى فادخلوا جـهنم فيقتحمون فيها فينادى مناد من تحت العرش ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

وقيل إنما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ لأن الله تعالـى أحبهم أولاً ثـم أحبوه ومن شهد له المعبود بالمحبة كانت محبته أتم قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ أ.هـ.

وقال الفخر الرازى(٥): فى بيان أن الذيـن آمنوا هم أشد حباً لله، أما المـتكلمون فقالوا: إن حبهم لله يكون من وجهين.

(أحدهما) أنه ما يصـدر منهم من التـعظيم، والمدح، والثـناء والعبادة خالـصة عن الشرك وعما لاينبغى من الاعتقاد ومحبة غيرهم ليست كذلك.

---

(١) تقدم.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «وابن أبى حاتم» (١/ ٢٧٦).

(٤) «معالم التنزيل» (١/ ١٩٢).

(٥) «التفسير الكبير» (٢/ ٤/ ٢٣١).

(والثانى) إن حبهم لله اقترن به الرجاء والثواب والرغبة فى عظيم منزلته والخوف من العقاب والأخـذ فى طريق التخلـص منه، ومن يعبـد الله ويعظمه على هـذا الحد تكون محبته أشد، وأما العارفون فقالوا المؤمنون هـم الذين عرفوا الله بقدر الطاقة البشرية، وقد دللنا على أن الحب من لـوازم العرفان فكلما كان عرفانهم أتم وجب أن تـكون محبتهم أشد فإن قيـل: كيف يمكن أن يقـال محبة المؤمنيـن لله تعالى أشد مع أنا نـرى الهنود يأتون بطاعات شاقة لايـأتى بشىء منها أحد من المسلمين ولايـأتون بها إلا لله تعالى ثم يقتلون أنفسهم حباً لله.

(والجواب) من وجوه.

(أحدها) أن الذين آمنوا لايتضرعون إلا إلى الله بخلاف المشركين فإنهم يعدلون إلى الله عند الحاجة، وعند زوال الحاجة، يرجعون إلى الأنداد، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ إلى آخره، والمؤمن لايعرض عن الله فـى الضراء والسراء والشدة والرخاء، والكافر قد يعرض عن ربه، فكان حب المؤمن أقوى.

(وثانيها) أن من أحب غيـره رضى بقضائه، فلايتـصرف فى ملكه، فأولـئك الجهال قتلوا أنفسهم بغير إذنه، أما المؤمنون فقد يقتلون أنفسهم بإذنه، وذلك فى الجهاد.

(وثالثها) أن الإنسان إذا ابـتلى بالعذاب الـشديد لايمكـنه الاشتغال بمعـرفة الرب، فالذى فعلوه باطل.

(ورابعها) قال ابن عباس: إن المشـركين كانوا يعبدون صنماً، فـإذا رأوا شيئاً أحسن منه تركوا ذلك وأقبلوا على عبادة الأحسن.

(وخامسها) أن المؤمنين يوحدون ربـهم، والكفار يعبدون مع الصنم أصـناماً فتنقص محبة الواحد، أما الإله الواحد فتنضم محبة الجميع إليه اهـ.

وقال القرطبى(١): ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، وإنما قال ذلك لأن الله أحـبهم، أو لأنهم أحبوه، ومـن شهد له محبوبه بـالحب كانت محبته أتم قـال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾. أهـ.

قال ابن كثير:(٢) قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾. ولحبهم لله وتمام معرفتهم به

---

(١) «تفسير القرطبى» (١/ ٥٨٤).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ١٩٢).

وتوقيرهم وتوحيدهم لـه لايشركون به شيئاً بل يعبدونه وحده ويتوكـلون عليه ويلجأون فى جميع أمورهم إليه. ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال: ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ أهـ.

قال الشوكانى[(١)]: أن هؤلاء الكفار لم يقتصروا على مجرد عبادة الأنداد بل أحبوها حباً عـظيماً، وأفرطوا فـى ذلك إفراطاً بالـغاً، حتى صار حـبهم لهذه الأوثان ونـحوها متمكنًـا فى صدورهم. كتمكن حب المـؤمنين لله سبحانه، فالمـصدر فى قوله: ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ مضاف إلى المـفعول، والفاعل محـذوف وهو: المؤمنون، ويجـوز أن يكون المراد: كحبهم لله، أى عبدة الأوثان، قاله ابن كيسان، والزجاج.

ويجوز أن يكون هذا المصدر من المبنى للمجهول، أى كما يحب الله. والأولى أولى، كقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، فإنه استدراك لما يفيده التشبيه من التساوى، أى أن حب المؤمنين لله أشد من حب الكفار للأنداد؛ لأن المؤمنين يخصون الله سبحانه بالعبادة والدعاء، والكفار لايخصون أصنامهم بذلك، بـل يشركون الله معهم، ويعترفون بأنهم إنما يعبدون أصنامهم ليقربوهم إلى الله.

ويمكن أن يجعل هذا، أعنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ دليلاً على الثانى؛ لأن المؤمنـين إذا كانوا أشد حبًـا لله لم يكن حب الـكفار للأنداد كحب المـؤمنين لله، وقيل: المراد بالأنداد هنا: الرؤساء، أى يطيعونهم فى معاصى الله، ويقوى هذا الضمير فى قلوبهم: ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ فإنه لم يـعقل، ويقويه أيضـاً قوله سبحانـه عقب ذلك: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا﴾ الآية. أهـ.

قال ناصر السعدى[(٢)]: فإنه تعالى، لما بين وحدانيته وأدلـتها القاطعة، وبراهينها الساطعة الموصلة إلى علم اليقين، المزيلة لكل شك.

ذكر هنا أن ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ مع هذا البيان التام ﴿ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ لله أى: نظراء ومثلاء، يساويهم فى الله بالعبادة والمحبة، والتعظيم والطاعة.

ومن كان بهذه الحالة ـ بعد إقامة الحجة، وبيـان التوحيد ـ عُلِمَ أنه معاند لله، مشاق

(١) «فتح القدير» (١/ ٢٣٢).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ١١٠).

له. أو معرض عن تدبير آياته والتفكير فـي مخلوقاته، فليس له أدنى عذر فى ذلك، بل قد حقت عليه كلمة العذاب.

وهؤلاء الذين يتخـذون الأنداد مع الله، لايسوونهم بالله فى الخلـق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به، فى العبادة، فيعبدونهم ليقربوهم إليه.

وفى قوله: «**اتخذوا**» دليل على أنه ليس لله ند.

وإنما المشركـون جعلوا بعض المخـلوقات أنداداً له، تسمـية مجردة، ولفظـاً فارغاً من المعنى. كما قال تعالى: ﴿**وَجَعَلُوا للَّه شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِى الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ**﴾. ﴿**إِنْ هِىَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ**﴾.

فالمخلوق ليـس نداً لله لأن الله هو الخالق، وغيره مخلـوق، والرب هو الرازق. ومن عداه مرزوق، والله هو الغنى وأنتم الفقراء.

وهو الكامل من كل الوجوه، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه.

والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له من النفع والضر والأمر شيء.

فعلم علماً يقيناً، بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأنداداً.

سواء كان ملكاً أو نبياً، أو صالحاً، أو صنماً، أو غير ذلك.

وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة، والذل التام.

فلهذا مدح الله المؤمـنين بقوله: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾ أى: من أهـل الأنداد لأندادهم، لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها.

ولأنهم أحبـوا من يستحق المحبـة على الحقيقة، الذى مـحبته هى عين صـلاح العبد وسعادته وفوزه.

والمشركون أحبوا من لا يسـتحق من الحب شيئاً، ومحبته عين شـقاء العبد وفساده، وتشتت أمره. أ. هـ.

❊ ❊ ❊

* ما جاء في الآية من كلام الشراح:

قال عبدالرحمن بن حسن ال الشيخ(1):

فكل من اتخذ نداً لله يدعوه من دون الله ويرغب إليه ويرجوه لما يؤمله منه من قضاء حاجاته وتفريج كرباته - كحال عباد القبور والطواغيت والأصنام فلابد أن يعظموهم ويحبوهم لذلك، فإنهم أحبوهم مع الله. وإن كانوا يحبون الله تعالى ويقولون «لا إله إلاالله» ويصلون ويصومون، فقد أشركوا بالله في المحبة بمحبة غيره وعبادة غيره. فاتخاذهم الأنداد يحبونهم كحب الله يبطل كل قول يقولونه وكل عمل يعملونه، لأن المشرك لايقبل منه عمل، ولايصح منه. وهؤلاء وإن قالوا: «لا إله إلا الله» فقد تركوا كل قيد قيدت به هذه الكلمة العظيمة: من العلم بمدلولها لأن المشرك جاهل بمعناها. ومن جهله بمعناها جعل لله شريكاً في المحبة وغيرها وهذا هو الجهل المنافي للعلم بما دلت عليه من الإخلاص، ولم يكن صادقاً في قولها، لأنه لم ينف ما نفته من الشرك ولم يثبت ما أثبته من الإخلاص، وترك اليقين أيضا؟ لأنه لو عرف معناها وما دلت عليه لأنكره أوشك فيه، ولم يقبله وهو الحق، ولم يكفر بما يعبد من دون الله، كما في الحديث بل آمن بما يعبد من دون الله باتخاذه الندّ ومحبته له وعبادته إيّاه من دون الله كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ لأنهم أخلصوا له الحب فلم يحبوا إلا إياه ويحبون من أحب ويخلصون أعمالهم جميعاً لله ويكفرون بما عبد من دون الله.

فبهذا يتبين لمن وفقه الله تعالى لمعرفة الحق وقبوله دلالة هذه الآيات العظيمة على معنى شهادة أن لا إله إلا الله وعلى التوحيد الذى هو معناها الذى دعا إليه جميع المرسلين فتدبر. أهـ.

- **قال حامد بن محمد(2):** في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ الآية: **قال ابن تيمية:** أى في المحبة فإذا عرفت من ساوى مع الله غيره في المحبة أشرك الشرك الأكبر، فكيف بمن رجح محبة الند على الله تعالى؟!

بل وكيف بمن أقبل بكليته على غيره قلبًا وقالباً؟! .

بمعنى أنه يعظم أوامر الند، وحرماته أشد تعظيماً إذا هتك حرمة من حرمات الند غضب غضب الليث، وأحمرت وجنته، وانتفخت أوداجه، وقام وقعد فيه، وإن هتك حرمة من حرمات الله لم يرفع به رأساً، بل يثبط غيره عن القيام فيه. أهـ.

(1) «فتح المجيد» (1/123، 124)

(2) «فتح الله الحميد المجيد» (193)

ـ قال عبدالله بن جارالله[1]:

يذكر الله تعالى حال المشركين فى الدنيا وما لهم فى الآخرة من العذاب والنكال حيث جعلوا لله مثالاً ونظراء ويساوونهم بالله فى المحبة والتعظيم. اهـ

ـ قال ابن باز[2]:

هذا أيضاً من تفسير التوحيد بضده وهو عن الذين يتخذون أنداداً يحبهم ويعظمهم ويدعوهم ويتغيث بهم أو يحبهم حباً خاصاً يقتضى عبادتهم من دون الله هذا هو الشرك الأكبر، والله ذم هؤلاء وتوعدهم بالنار كما فى آخر الآيات ﴿**كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾. اهـ.

ـ وقال ابن عثيمين[3]: اختلف المفسرون فى قوله ﴿**كَحُبِّ اللَّهِ**﴾.

ورجح القول الأول وهو : يجعلون محبة الأصنام مساوية لمحبة الله، فيكون فى قلوبهم محبة لله، ومحبة للأصنام، ثم قال: وسياق هذه الآية يرجح القول الأول.

ثم قال: فإن محبتهم لأصنامهم تتضاءل إذا مسهم الضر، فما بالك برجل يحب غير الله أكثر من محبة الله؟! وما بالك برجل يحب غير الله ولايحب الله؟! فهذا أقبح وأعظم.

وهذا موجود فى كثير من المنتسبين للإسلام اليوم؛ فإنَّهم يحبون أولياءهم أكثر مما يحبون الله، ولهذا لو قيل له: أحلف بالله؛ حلف صادقاً أو كاذباً، أمَّا الولىّ؛ فلايحلف به إلا صادقاً.

وتجد كثيراً منهم يأتون إلى مكة والمدينة ويرون أنَّ زيارة قبر الرسول ﷺ أعْظم من زيارة البيت؛ لأنَّهم يجدون فى نفوسهم حباً لرسول الله ﷺ كحبٍّ الله أو أعظم، وهذا شرك؛ لأن الله يعلم أننا ما أحببنا رسول الله ﷺ إلا لحب الله، ولأنَّه رسول الله، ما أحببناه لأنَّه محمد بن عبدالله، لكننا أحببناه لأنَّه رسول الله ﷺ؛ فنحن نحبه بمحبة الله، لكن هؤلاء يجعلون محبة الله تابعة لمحبة الرسول ﷺ إن أحبوا الله.

فهذه الآية فيها محنة عظيمة لكثير من قلوب المسلمين اليوم الذين يجعلون غير الله مثل الله فى المحبة.

---

(١) الجامع الفريد (٣٤).
(٢) التعليق المفيد (٥٨)
(٣) القول المفيد (١/ ١٩٠ ـ ١٩٦).

وفيه أناس أيضاً أشركوا بالله فى محبة غيره، لا على وجه العبادة الشرعية؛ لكن على وجه العبادة المذكورة فى الحديث، وهى محبة الدرهم والدينار والخميصة والخميلة، يوجد أناس لو فتشت عن قلوبهم، لوجدت قلوبهم ملأى من محبة متاع الدنيا، وحتى هذا الذى جاء يصلى هو فى المسجد لكن قلبه مشغول بما يحبه من أمور الدنيا.

فهذا نوع من أنواع العبادة فى الحقيقة، ولو حاسب الإنسان نفسه لماذا خُلِق؟

خلق لعبادة الله، وأيضاً خُلِقَ لدار أخرى ليست هذه الدار؛ فهذه الدار مجاز يجوز الإنسان منها إلى الدار الأخرى، الدار التى خُلِقَ لها والتى يجب أن يُعتنى بالعمل لها، يا ليت شعرى متى يوماً من الأيام فكَّر الإنسان ماذا عملت؟

وكم بقى لى فى هذه الدنيا؟

وماذا كسبت؟

الأيام تمضى ولا أدرى هل ازددت قرباً من الله أو بعداً من الله؟

هل نحاسب أنفسنا عن هذا الأمر؟

فلابدّ لكل إنسان عاقل من غاية؛ فما هى غايته؟

نحن الآن نطلب العلم للتقرّب إلى الله بطلبه، وإعلام أنفسنا، وإعلام غيرنا؛ فهل نحن كلما علمنا مسألة من المسائل طبقناها؟ نحن على كل حال نجد فى أنفسنا قصوراً كثيراً وتقصيراً، وهل نحن إذا علمنا مسألة ندعوا عباد الله إليها؟

هذا أمر يحتاج إلى محاسبة، ولذلك؛ فإن على طالب العلم ضريبة ليست هيِّنة، عليه أكثر من زكاة المال؛ فيجب أن يعمل ويتحرَّك ويبث العلم والوعى فى الأمة الإسلامية، وإلاَّ؛ انحرفت عن شرع الله.

وقال ابن القيم رحمه الله: كل الأمور تسير بالمحبة؛ فأنت مثلاً لا تتحرك لشىء إلا وأنت تحبه، حتى اللقمة من الطعام لاتأكلها إلا لمحبتك لها.

ولهذا قيل: إنَّ جميع الحركات مبناها على المحبة؛ فالمحبة أساس العمل، فالإشراك بالمحبة إشراك بالله.

*** والمحبة أنواع:**

الأول: المحبة لله، وهذه لاتنافى التوحيد، بل هى من كماله، فأوثق عرى الإيمان: الحب فى الله، والبغض فى الله.

والمحبة لله هى أن تحب هذا الشىء؛ لأن الله يحبه، سواء كان شخصاً أو عملاً، وهذا من تمام التوحيد.

قال مجنون ليلى:

أمر على الديار ديار ليلى أقبِّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

الثاني: المحبة الطبيعية التي لايؤثرها المرء على محبة الله؛ فهذه لا تنافي محبة الله؛ كمحبة الزوجة، والولد، والمال، ولهذا لما سئل النبي ﷺ: من أحبّ الناس إليك؟ قال: **«عائشة»**. قيل: فمن الرجال؟ قال: **«أبوها»**(١).

ومن ذلك محبة الطعام والشراب واللباس.

الثالث: المحبة مع الله التي تنافي محبة الله كمحبة الله وهي أن تكون محبة غير الله كمحبة الله أو أكثر من محبة الله، بحيث إذا تعارضت محبة الله ومحبة غيره قدّم محبة غير الله، وذلك إذا جعل هذه المحبة نداً لله يقدمها على محبة الله أو يساويها بها(٢). اهـ.

قال ابن رجب: والمحبة منتهى القربة والاجتهاد ولن يسأم المحبون من طول اجتهادهم لله تعالى يحبونه ويحبون ذكره ويحبِّبونه إلى خلقه، يمشون بين عباده بالنصائح ويخافون عليهم من أعمال يوم القيامة يوم تبدو الفضائح، أولئك أولياؤه وأحباؤه وأهل صفوته، أولئك الذين لا راحة لهم دون لقائه.

وقال فتح الموصلي: المحبّ لا يجد مع حبّ الله للدنيا لذة ولا يغفل عن ذكر الله طرفة عين.

وقال محمد بن النضر الحارثي: ما يكاد يملّ القربة إلى الله تعالى محبّ لله وما يكاد يسأم من ذلك.

وقال بعضهم: المحبّ لله طائر القلب كثير الذكر متسبب إلى رضوانه بكل سبيل يقدر عليها من الوسائل والنوافل دأبًا وشوقًا.

وأنشد بعضهم:

وكن لربك ذا حب لتخدمه إن المحبين للأحباب خدامُ

وأنشد آخر:

ما للمحبِّ سوى إرادة حبِّه إن المحبَّ بكلِّ حالٍ يصرعُ.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٣٦٦٢) ومسلم في الفضائل (٨/١٦٢/٨) عن عمرو بن العاص به.

(٢) انظر ما سبق من أقوال المفسرين في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾.

قال الفقير: وقد قسمت المحبة لدى بعض أهل العلم إلى تقسيم آخر:

روى البخارى أن عمر بن الخطاب قال: يارسول الله والله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا نفسى فقال لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك قال: والذى بعثك بالحق لأنت أحب إلى من نفسى قال: الآن ياعمر»(١).

(١) محبة الله: لاتكفى وحدها للنجاة من عذاب الله والفوز بثوابه. لأن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يزعمون أنهم يحبون الله. وكذبهم الله حيث قال: **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾**

(٢) محبة ما يحب الله: وهذه هى التى تدخله فى الإسلام وتخرجه من الكفر.

(٣) الحب لله وفى الله: وهى من لوازم محبة ما يحب.

(٤) المحبة مع الله: «المحبة الشركية».

كل من أحب شيئاً مع الله لا لله ولا من أجله ولافيه فقد أتخذه نداً من دون الله وهذه محبة المشركين.

(٥) المحبة الطبيعية: محبة العطشان للماء. محبة النوم والزوجة والولد. لاتذم إلا إذا ألهت عن ذكر الله وشغلت عن محبته.

لما سأل إبراهيم عليه السلام ربه الولد فأعطاه وتعلق حبه بقلبه؛ غار الحبيب على خليله أن يكون فى قلبه موضع لغيره فأمره بذبحه.

وكان الأمر فى المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحاناً، ولم يكن المقصود ذبح الولد ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب.

فلما بادر الخليل إلى الامتثال وقدم محبة الله على محبة ولده حصل المقصود فرفع الذبح وفدى الولد بذبح عظيم وبقيت شريعة الفداء.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ فهذه الآية دالة على نوع من أنواع التوحيد وهو:

لايمكن أن يجتمع فى القلب حب المحبوب الأعلى وحب غيره بل هما ضدان لايتلاقيان. بل لابد أن يفارق أحدهما قلب صاحبه.

فمن كانت قوة محبته كلها للمحبوب الأعلى صرفه ذلك عن محبة ما سواه، فإن أحب ما سواه لم يحبه إلا لأجله أو لكونه وسيلة إلى محبته لأن المحبة الصادقة تقتضى

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٦٣٢).

توحيد المحبوب وأن لايشرك بينه وبين غيره فى محبته ولهذا لايغفر الله سبحانه أن يشرك به فى هذه المحبة ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

وخاصية التعبد: الحب مع الخضوع والذل للمحبوب.

كيف يحبك الله؟

أخبر الله تعالى أن أداء فرائضه أحب ما يتقرب إليه المتقربون، ثم بعدها النوافل، وأن المحب إذا أكثر النوافل يصير محبوبًا لله ففى صحيح البخارى. عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قال: من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه، الذى يسمع به،وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذ بى لأعيذنه، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مَسَاءَته**»[(١)].

ففى قوله (به): الباء هنا للمصاحبة أى أن يسمع ويبصر ويبطش ويمشى وأنا صاحبه معه. كقوله فى الحديث «**أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه**»[(٢)] وهذه هى المعية الخاصة فى قوله تعالى: ﴿**لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ ﴿**وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾.

يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما فى الغار فى تفسير الآية: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾.

(١) متابعة الرسول ﷺ: قال الله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾.

(٢) كثرة تلاوة القرآن:

قال ابن رجب: من أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى من النوافل كثرة تلاوة القرآن وسماعه بتفكر وتدبر وتفهم.

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٥٠٢).
وانظر «جامع العلوم» بتخريجنا (٢/ ٦٣٥).
(٢) تقدم تخريجه

قال خباب بن الأرتّ لرجل: تقرّب إلىالله تعالى ما استطعت، واعلم أنك لن تتقرب إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه.

وفى الترمذى عن أبى أمامة مرفوعًا: **«ما تقرب العبد إلى الله تعالى بمثل ما خرج منه»**(١) يعنى القرآن ، لا شيء عند المحبين أحلى من كلام محبوبهم، فهو لذّة قلوبهم وغاية مطلوبهم.

قال عثمان: «لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم» .

وقال ابن مسعود: «من أحب القرآن أحب الله ورسوله».

قال بعض العارفين لمريد: أتحفظ القرآن ؟ قال: لا، قال: واغوثاه بالله لمريد لا يحفظ القرآن فبم يتنعم؟ فبم يترنم؟ فبم يناجى ربه تعالى ؟ كان بعضهم يكثر تلاوة القرآن ثم اشتغل عنه بغيره فرأى فى المنام قائلاً يقول له:

إن كنت تزعم حبى فلم جفوت كتابى
أما تأملت ما فيه من لطيف عتابى.

(٣) الصلاة:

وأعظم فرائض البدن التى تقرّب إليه الصلاة كما قال تعالى: ﴿**وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾ .

وقال النبى ﷺ: **«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»**(٢) .

وقال: **«إذا كان أحدكم يصلى فإنما يناجى ربه، وربه بينه وبين القبلة»**(٣).

وقال: **«إن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته ما لم يلتفت»**(٤).

(٤) عدل الراعى فى رعيته:

ومن الفرائض المقربة إلى الله تعالى عدل الراعى فى رعيته سواء كانت رعية عامة

---

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٢٦٨)، والترمذى (٢٩١١) بإسناد ضعيف لضعف ليث بن أبى سُليم.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الصلاة (٤/ ٢٠٠- النووى)، عن أبى هريرة.
وانظر «رياض الصالحين» (١٤٣١ ـ بتخريجنا).

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (١٢١٤) ، وأحمد (٣/ ١٧٦)، وابن حبان فى «صحيحه» (٤/ ١٧/ ح٢٢٦٤- الإحسان)، والبيهقى فى «السنن» عن (٢/ ٢٩٢) أنس بن مالك.

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ١٧٢)، والترمذى (٩٠٩) ، والنسائى فى «الكبرى» (١١١٨) عن أبى ذر به. وأصله عند البخارى عن أبى هريرة: إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق أمامه فإنما يناجى الله ما دام فى مصلاه .. الحديث.

كالحاكم أو خاصة كعدل آحاد الناس فى أهله وولده، كما قال ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»(١).

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر عن النبى ﷺ قال: «**إن المقسطين عند الله على منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا**»(٢).

وفى الترمذى عن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال: «إن أحب العباد إلى الله يوم القيامة وأدناهم إليه مجلسًا إمام عادل»(٣).

(٥) كثرة ذكر الله تعالى:

قال ابن رجب: ومن ذلك كثرة ذكر الله الذى يتواطأ عليه القلب واللسان.

وفى مسند البزار عن معاذ قال: «قلت: يا رسول الله أخبرنى بأفضل الأعمال وأقربها إلى الله تعالى، قال: «**أن تموت ولسانك رطبًا من ذكر الله تعالى**»(٤).

وفى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم**»(٥).

وفى حديث آخر «**أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه**»(٦).

وقال عز وجل ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ ولما سمع النبى ﷺ الذين يرفعون أصواتهم بالتكبير والتهليل وهم معه فى سفر قال لهم: «**إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم**»(٧).

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٨٩٣)، ومسلم فى الإمارة (١٢/ ٢١٣ ـ النووى) عن ابن عمر به

(٢) [**صحيح**]أخرجه مسلم فى الإمارة (٤/ ١٢/ ٢١١- النووى) عن عبد الله بن عمرو به.

(٣) [**ضعيف**] أخرجه الترمذى (١٣٢٩)، وأحمد (٣/ ٢٢).

عن أبى سعيد بإسناد ضعيف لضعف عطية العوفي..

وقال الترمذى: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٤) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (١٠/ ٧٤) ونسبة للبزار وحسن إسناده.

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٤٠٥) ، ومسلم فى الذكر والدعاء (١٧/ ١٢- النووى).

عن أبى هريرة. وانظر: «فتح ذى الجلال» (ح٢١) بتخريجنا.

(٦) تقدم.

(٧) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٩٩٢) ومسلم فى الذكر والدعاء (١٧/ ٢٥- النووى)، عن أبى موسى الأشعرى. وانظر كتابنا: «فتح ذى الجلال» (ح٦٩٤).

وفى رواية: «وهو أقرب إليكم من أعناق رواحلكم».

(٦) محبة أحباب الله وموالاتهم ومعاداة أعدائه:

قال ابن رجب: ومن ذلك محبة أحبابه وأوليائه فيه ومعاداة أعدائه فيه، فى سنن أبى داود عن عمر قال: «**إن من عباد الله أناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء بمكانهم من الله تعالى**، قالوا: يا رسول الله من هم؟! قال: **هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى منابر من نور، ولا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس**، ثم تلا هذه الآية: ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[(١)] وروى نحوه من حديث أبى مالك الأشعرى عن النبى ﷺ.

وفى حديث «**يغبطهم النبيون بقربهم ومقعدهم من الله تعالى**»[(٢)] وفى المسند عن عمرو بن الجموح عن النبى ﷺ قال: «**لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله، فإذا أحب لله وأبغض لله فقد استحق ولاية من الله، وإن أوليائى من عبادى وأحبائى من خلقى الذين يذكرون بذكرى وأذكر بذكرهم**»[(٣)].

وسئل المرتعش: بم تنال المحبة؟ قال: بموالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه وأصله الموافقة[(*)].

قال الفقير: فحقيقة العبودية لاتحصل مع الإشراك بالله فى المحبة، بخلاف المحبة لله فإنها من لوازم العبودية فإن محبة الرسول ﷺ لايتم الإيمان إلا بها.

ولذلك لا يذوق حلاوة الإيمان إلا من كان الله ورسوله أحب إليه ممن سواهما كما فى حديث «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواها**»[(٤)].

وحديث: «**من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان**»[(٥)].

---

(١) [حسن] أخرجه أبو داود (٣٥٢٧) عن عمر بن الخطاب به.
وانظر كتابنا«فتح ذى الجلال» (ح٥١٧).

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٣٤٣)، وابن جرير فى «تفسيره» (١١/ ٩٢)، أبى مالك الأشعرى به.

قلت: فيه شهر بن حوشب.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٠) عن عمرو بن الجموح. وفيه رشدين بن سعد.

(*) وانظر «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٦٣٧: ٦٤٦) بتخريجنا.

(٤) تقدم تخريجه. (٥) تقدم تخريجه أيضاً.

الخلاصة من كلام بن القيم أن:

توحيد المحبوب ألا يتعدد محبوبه أى مع الله تعالى بعبادته له وتوحيد الحب، ألا يبقى فى قلبه بقية حب حتى يبذلها له فهذا الحب هو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرة عينه وليس لقلبه صلاح ولانعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحب إليه من كل ما سواهما وأن تكون محبته لغير الله تابعة لمحبته لله تعالى فلايحب إلا الله ولايحب إلا لله.

وهى محبة تقتضى تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد وتقتضى كمال الذل والخضوع والتعظيم والإجلال والطاعة والانقياد ظاهرًا وباطناً وهذا لانظير له فى محبة المخلوق ولو كان المخلوق من كان، ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره فى هذه المحبة الخاصة كان مشركاً شركاً لايغفره الله.

واية هذا الباب: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ لها علاقة بالآيتين السابقتين: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ فالندية فى الحب هى سبب صرف الطاعة للأحبار والرهبان؛ وهى سبب فى الولاء والبراء، فمنشأ عبادة العُبَّاد والعلماء شرك المحبة؛ فلذلك ناسب أن نذكر كلامًا له تعلق بالولاء والبراء والمحبة **لشيخ الإسلام** «والواجب على كل مسلم أن يكون حبه وبغضه وموالاته ومعاداته تابعاً لأمر الله ورسوله فلايحب إلا ما أمره الله والرسول أن يحبه ولايبغضه إلا ما أمره الله ورسوله أن يبغضه ومن كان فيه ما يوالى عليه من حسنات وما يعادى عليه من سيئات عومل بموجب ذلك كفساق أهل الملة إذ هم مستحقون للثواب والعقاب والموالاة والمعاداة والحب والبغض بحسب مافيهم من البر والفجور قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وهم عملوا الخير فلابد أن يروا ذلك من محبتنا لهم وعملوا الشر فيروه من بغضنا لهم ولسيئاتهم وهذا مذهب أهل السنة والجماعة بخلاف الخوارج والمعتزلة والمرجئة والجهمية فإن أولئك يميلون لجانب وهؤلاء يميلون إلى جانب».

العشق عارض من العوارض المضعفة لمحبة العبد للرب:

هناك عارض من العوارض المضعفة لهذه المحبة لله وللرسول هو ما يُسمى شرعاً بالعشق، وهو مرض شفاؤه معجز وأعيا دواؤه العشاق، وأعيا علاجه الأطباء.

قال ابن القيم فى فصل فى «هديه ﷺ فى علاج العشق» قال:

هذا مرض من أمراض القلب مخالف لسائر الأمراض فى ذاته وأسبابه وعلاجه».

وهذا العشق سواء عشق الصور أم المردان أو النسوان أو الصبيان فى الحقيقية يمنع فى كثير من الأحيان من محبة الرحمن ويضعف هذه المحبة كما قال ابن القيم:

«إذا تمكن هذا العشق فى القلب واستحكم عز على الأطباء دواؤه وأعيا العليل داؤه وإنما حكاه الله تعالى فى كتابه عن طائفتين من الناس؛ من النساء وعشاق الصبيان. والمُردان فحكاه عن امرأة العزيز فى شأن يوسف -﴿قد شغفها حبًا﴾ -.

-وعشق المردان- حكاه عن قوم لوط ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾والسكرة هى العشق وقد افتخر العشاق بهذاالوصف وقالوا: [هل رأى الحب سكارى مثلنا]، فهم لايشعرون إلا بهذا المحبوب ولا يرون إلا المعشوق، ولايتنفسون إلا بتنفسه، فكأنما غابوا عن الدنيا فهم فى سكر إلا به.

فمن قبيح هذا العشق -وهذا من أسباب علاجه- أن الله برء منه المخلصين ونسبه لغير المؤمنين، فإذا لم يكن فى الباب من قبح العشق إلا أن الله لم ينسبه للصالحين أو المسلمين إنما نسبه لامرأة كافرة ولمن كفروا بنبى من الأنبياء.

قال ابن القيم: «وأماما زعمه بعض من لم يقدر رسول الله ﷺ حق قدره أنه ابتلى به فى شأن زينب بنت جحش، وأنه رآها فقال سبحان مقلب القلوب وأخذت بقلبه، وجعل يقول لزيد بن حارثة «أمسكها» حتى أنزل الله عليه ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾(١).

هذا إدعاء باطل أن النبى ﷺ ابتلى بهذا العشق مع زينب بنت جحش وأن تفسير قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ هو عشق زينب هذا الكلام أتى من رجل جاهل بالشرع وجهله بمقام المرسلين المبلغين عن رب العالمين مع أن النبى ﷺ لكفى بذلك قبحًا مبرأ من هذا الأمر وحاشا لله أن يرسل رسولاً بهذا الخلق، نعم كان يحب النبى ﷺ نساءه وأحبهم إليه عائشة ولكن لم تكن تبلغ محبته لها غاية الحب بل محبته ﷺ ما كانت إلا لله عزوجل.

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٢٦٥).

ولذلك ثبت عنه فى الصحيح أنه ﷺ قال «**لو كنت متخذاً أحد خليلاً من أهل الأرض لاتخذت أبا بكر خليلاً**»(١) الحديث.

فالخلة أعلى درجات المحبة ولم يصرفها النبى ﷺ لأحد من الناس وإنما كانت لله عزوجل. فتوحيد المحبوب وفراغ القلب إلا من محبته هذا هو من لوازم ومقتضيات لا إله إلا الله وهذا سبب من أسباب دفع السوء والفحشاء المترتب على العشق من قول الله: ﴿**كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾ فلما أخلص وفرغ قلبه إلا من الله ومحبته، كان ذلك سبب لدفع العشق عنه وهذا المرض وما يترتب عليه من سوء وفحشاء وكان ذلك علامة من علامات كمال التوحيد فى نفس هذا العبد، وأنه جاء بمقتضيات هذا التوحيد.

لذلك قال ابن القيم: عشق الصور إنما تبتلى به القلوب الفارغة من محبة الله تعالى المعرضة عنه المتعوضة بغيره عنه فإذا امتلأ القلب من محبة الله والشوق إلى لقاءه دفع ذلك عنه محبة مرض عشق الصور اهـ.

ثم استدل على ذلك بقوله: ﴿**كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾ فلو عشق يوسف أو وقع فى مقدماته فحينما قالت له ﴿**هَيْتَ لَكَ**﴾ لم قال لها ﴿**مَعَاذَ اللَّهِ**﴾ وهذا موقف لايعرف عظمته إلا من ضعفت نفسه فى أقل من هذه المواقف.

قال ابن القيم: فدل على أن الإخلاص سببًا لدفع العشق وما يترتب عليه من السوء والفحشاء وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التى هى ثمرته ونتيجته، فصَرْفُ المسبب صرفٌ لسببه اهـ.

فالعشق هو حركة قلب فارغ كما قال ابن القيم.

قال بعض السلف: العشق: حركة قلب فارغ، يعنى فارغًا مما سوى معشوقه قال تعالى: ﴿**وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ**﴾ أهـ فلما فرغ من محبة الله تحرك قلبه إلى محبة غيره فهو بطبعه لابد أن يحب وهذا شىء جبلى ولكن ما هو التوجيه الشرعى للمحبة أو البغض فالعشق هو حركة قلب فارغ.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٦٥٦)، ومسلم فى الفضائل (٨/ ١٦١/ ٦) وانظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد» (ح ٣٥٨) بتخريجنا.

واستدل ابن القيم على ما تقدم ذلـك كما تقدم بقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ يعنى فارغًا إلا من تعلقها بموسى ومحبته وقال شاعرهم:

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً فارغاً فتمكن

قال ابن القيم: والعشق مركب من شيئين استحسان للمعشوق، وطمع فى الوصول إليه، فمتى انتفى إحداهما انتفى العشق اه.

قلت: ـ لابد أن تعرفها حتى تدرك هل أنت فى دركة العشاق فتأخذ بالعلاج الشرعى أم أنت دون هذه الدركة أو مقبل أو مدبر فتعلم أيـن أنت منها حتى تعالج ذلك فتقوى محبتك لله.

أولاً: استحســان الصورة للمعشوق، أو أخـلاقه أو لبسه أو سمته أو صـوته أو غير ذلك.

ثانياً: طمعــاً للوصول إليـه، ولابد للأمرين فـلو استحســن الصورة ولم يطـمع فى الوصول إليـه لم يكن ذلك عشـقاً مثال: ما نراه من بـعض الجهلاء من حب الـعاصين كالمرأة الـتى تحب لاعب كرة أجنـبى مشهور «ماردونـا» واستحسنتـه لكنها لاتطـمع فى الوصول إلـيه لأنه لاعب عالـمى ولأنه فى الأرجنتـين مثلاً ولاسبـيل للوصول لـه فهذا لايسمى عشق.

فلهذا قال ابن القيم فمتى انتفى أحدهما انتفى العشق.

قال ابن القيم: وقد أعيت علة العشق على كثير مـن العقلاء، وتكلم فيها بعضهم بكلام يرغب عن كره إلـى الصواب فنقول قد استقرت حكمـة الله عز وجل فى خلقه وأمره على وقوع التناسب والتآلف بين الأشـباه وانجذاب الشىء إلى ما وافقه ومجانسه بالطبـع، وهروبه من مخالـفه، ونفرته عنـه بالطبع فسـر التمازج والاتصال فـى العالم العلوى والسفلى إنما هو التناسب والتشـاكل والتوافق، وسر التباين، والانفصال إنما هو بعدم التشـاكل والتناسب ، وعلى ذلك قام الخـلق والأمر، فالمثل إلى مثلـه مائل وإليه سائر، والضد عن ضده هارب، وعنه نافر ، وقد قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ فجعل سبحانه علـة سكون الرجل إلى امرأته كونها من جنسه وجوهره فعلة السكون المذكـور وهو الحب كونها منه فدل على أن العلة ليست بحسن الصورة ولا الموافقة فى القصد والإرادة ، ولا فى الخلق الهدى، وإن كانت هذه أيضًا من أسباب الـسكون والمحبة أيضًا وقد ثبت فى «الصـحيح» عن النبى ﷺ

أنه قال: «**الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**»[1] وفى مسند الإمام أحمد وغيره فى سبب هذا الحديث وغيره فى سبب هذا الحديث أن امرأة بمكة كانت تضحك الناس فجاءت إلى المدينة فنزلت على امرأة تضحك الناس، فقال النبى ﷺ: «**الأرواح جنود مجندة**. الحديث.

قلت: فسبب العشق على ما تقدم أمران: طبيعى فأنت مجبول على محبة من يناسبك وسبب آخر مكتسب هو فراغ القلب من حب الله سبحانه.

فيقول: قد استقرت حكمة الله فى السبب الجبلى الذى فطرنا عليه فى خلقه وأمره على وجوب التناسق والتآلف بين الأشباه وإنجذاب الشىء إلى موافقه ومجانسه بالطبع».

فتجد أحد الناس يوافقك فى الشكل أو اللبس أو خلق أو دين أو حرفة أو غير ذلك، فعلى قدر الموافقة على قدر التجانس الذى هو من مقدمات المحبة، وعلى قدر الاختلاف على قدر التنافر وهناك تناسب روحى ليس لك فيه علاقة.

فالحرفة والمذهب وغير ذلك أشياء مكتسبة أما التناسب الروحى ليس لك فيه يد كما ثبت فى الصحيح «**الأرواح جنود مجندة**» فتجد رجلاً ملتزمًا وأخ لاتعرف عليه سوء، وتجد نفسك لا تقبله أو تتلاشاه.

وسأل على بن أبى طالب عمر بن الخطاب عن سبب تنافره لأحد الناس فأجابه عمر بهذا الحديث حيث قال له علىٌ بأن الرجل لا أرى عليه شيئًا وأبغضه فهل سمعت فى ذلك شيئًا عن رسول الله ﷺ قال «**الأرواح جنود مجندة**» هذا يطمئن الأخ عندما يجد أن بعض العامة من الناس الغير ملتزمين بالدين ينفرون منه فيتضايق من ذلك، ولكن هذا ينبغى أن يطمئنه؛ لأن هؤلاء الناس صارت طبائعهم خبيثة تنفر من الطبائع السليمة، وقد استقرت حكمة الله تعالى على أن هذا الأمر لايكون فى الدنيا فقط إنما فى الدنيا والآخرة.

(أولا): فى الدنيا قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾ فلم يجعل السكن فى أن تكون زوجتك من الإنس وأنت من الجن ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا**﴾ فهى ليس من جوهرك وفقط لأن السكن لايكون مع أى امرأة من الإنس لكن مع من وجدت روحها توافق روحك

---

(١) [**صحيح**] أخرجه مسلم فى البر والصلة(٨/ ٤٣٤/ ١٦٠) عن أبى هريرة.

وأتلفت لـها بالرغم من أنـك قد تكون رأيت أجمـل منها بكثير قبلها ولـم تأنس إلا بزوجتك هذه. فصار السكن سببه السبب الجبلى وهو تناسب الأرواح.

واقتضت حكمته تعـالى أن يكون هذا الأمر فى الآخرة أيضاً قال تعالى: ﴿**احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ قال عمر بـن الخطاب: أزواجهم: أشباههـم ونظرائهم يعنى الذين تشبهوا بهم وكل مثيل مع مثيله وكذا قال الإمام أحمد.

وقوله: ﴿ **وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ**﴾ أى قرن كل صاحب عمل بشكـله ونظيره فقرن بين المتحابين فى الله فى الجنة، وقرن بين المتحابين فى طاعة الشيطان فى الجحيم.

وقوله: ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾ يعنى ليس فرعون فقط وإنما فرعون وشبيه فرعون ومن ماثل فرعون فى عمله.

شبهة والرد عليها

هنا شبهة أجاب عليها ابن القـيم بعد أن ذكر قول الرسول ﷺ من حديث أنس فى «الصحيح» «**أن رجلاً سأل الـنبى ﷺ متى السـاعة يا رسول الله ؟ قال : وما أعـددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صـوم ولا صدقة، ولكنى أحب الله ورسوله، قال : أنت مع من أحـببت**، وعند مسلم: «**ولم يلحق بـعملهم** »[(١)] وفى حديث أبى ذر «**ولا يستطيع أن يعمل بعملهم**»[(٢)] وفى بعض طرق حديث صفوان بـن عسال عند أبى نعيم «**ولم يعمل بمثل عملهم**» وهو يفسر المـراد من قوله ﷺ: **قال أنت مع مـن أحببت**» لأن روحك أحبت الطيبين فدل ذلك على أن نفسك طيبة حتى لو لم تعمل كل عملهم فكما ملت إليهم فى الدنيا فأنت معهم يوم القيامة.

وفى المستدرك «**لايحب المرء قوم إلا حشر معهم**» [(٣)] .

وفى المسند «**ومن تشبه بقـوم فهو منهم**»[(٤)] والشبـهة التى عرضـت وهى «إذا كان سبب العشق هو التناسب الروحى فما باله لايكون من طرفين؟ بل تجده كثيراً من طرف

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦١٦٧)، ومسلم فى البر والصلة (١٦/ ١٨٦ ـ النووي).
وانظر «رياض الصالحين» (٣٧٠ ـ بتخريجنا).

(٢) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٨/ ٦٧/ ٦٣٥٣) بنحو.

(٣) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٣٨٤) بنحو عن عائشة رضى الله عنها.

(٤) تقدم تخريجه فى فصول الولاء والبراء

العاشق وحده، فلو كان سببه الاتصال النفسى والامتزاج الروحانى لكانت المحبة مشتركة بينهما؟

فالجواب: أن السبب قد يتخلف عنه مسببه لفوات شرط، أو لوجود مانع، وتخلف المحبة من الجانب الآخر لابد أن يكون لأحد ثلاثة أسباب:

الأول: علة فى المحبة وأنها محبة عرضية، لا ذاتية ولايلزم الإشتراك فى المحبة العرضية، بل قد يلزمها نفرة من المحبوب».

يعنى ممكن هذا الحب يكون عارض يعنى حب مصلحة يزول بزوال المصلحة فهذا موجب للنفرة إذا شعر أنك تحبه لمصلحة أو لغرض.

والسبب الثانى: مانع يكون بالمُحَب يمنع محبة محبوبه له.

فالمُحبَ وهو المعشوق رأى مانع يمنعه من محبة محبوبه كخلق فيه أو شكله أو أخلاقه أو حرفته أو غير ذلك.

والثالث: مانع يقوم بالمحبوب يمنع مشاركته للمحب فى محبته ولولا ذلك المانع لقام به من المحبة لمحبه مثل ما قام بالآخر.

مثل رجل متزوج وهى تحبه وهو لايحبها لأنه متزوج أختها مثلاً فلو انتفت الموانع بأنه طلق أختها سيحبها».

قال ابن القيم: فإذا انتفت هذه الموانع، وكانت المحبة ذاتية فلا يكون قط إلا من الجانبين، ولولا مانع الكبر والحسد والرياسة والمعاداة فى الكفار لكانت الرسل أحب إليهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم ولما زال هذا المانع من قلوب أتباعهم.

أنواع المحبة:

تقدم ذكر أنواع المحبة من أكثر من وجه، وهذا وجه آخر يبين من أى أنواع المحبة يكون العشق.

المحبة أنواع: **(أفضلها)**: محبة الله عزوجل

(ومنها) محبة الاتفاق فى طريقة أو دين أو نحلة أو صناعة أو غير ذلك فالنوع الأول أفضل وأجل الأنواع ومستلزم لطاعة الله وطاعة الرسول، والثانى قد يكون لله وقد يكون لغير الله فربما أحب فلان لأن دينه هو الإسلام ومنهجه منهج الرسول وعلى مذهب أهل

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٤٥، ٩١٦٠ والنسائى.

السنة، فأنا أحبه لهذه الأشياء لله عزوجل؛ لأن الله يحبها، وربما يكون من محبتى له عصبية، فهذا اتبع جماعتى فأحبه والعكس.

ومنها محبة لنيل غرض من المحبوب إما من جاهه أو من ماله أو من تعليمه وإرشاده أو قضاء وطر منه وهذه هى المحبة الغرضية التى تزول بزوال موجبها، فإن من ودَّك لأمر ولى عنك عند انقضاءه.

أما محبة المشاكلة والمناسبة التى بين المحب والمحبوب فهى محبة لاتزول إلا لعارض يزيلها كما تقدم بيان هذه العوارض.

ومحبة العشق من هذا النوع، والمقصود أن العشق لما كان مرضاً من الأمراض كان قابلاً للعلاج - فاطمئنوا لأن هذا المرض من أكثر الأمراض المنتشرة فى الأمة وبه فسدت القلوب كما ثبت فى الصحيح «**ألا أن فى الجسد مضغة إذا فسدت فسد الجسد كله وإذا صلحت صلح الجسد كله ألا وهى القلب**»(١) وفى الحديث الضعيف «**أن النظرة سهم من سهام إبليس يضع فى القلب**»(*) ولعله يشهد له ما جاء فى الصحيح من حديث حذيفة أن **الفتن (لا سيما فتنة العشق)** «**تعرض على القلوب**»(٢) لاعلى العقول أو العيون» فأى قلب أُشر بها فصار قلب المعشوق له دين آخر هو الذى أشرب من هواه، فلايحب إلا ما يحبه المعشوق ولايكره ولا يتنفس ولايشم إلا رائحة معشوقه، وأنتم تعلمون مجنون ليلى وصل لدرجة الجنون كما قال ابن القيم.

والحديث بين أن القلب إذا وصل إلى فإنه: « **لايعرف معروفاً ولاينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه**»(٣) كما قال تعالى فى عابد الهوى ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾ فهم أضل من الأنعام كالمجانين وصاروا فى غفلة ومن آمارات السكر -كما قال ابن القيم فى حقيقة لذة العشق قال-: حقيقتها أنها أحلام نائم أو خيال لاثبات له.

كما قال تعالى فى استفزاز الشيطان لنا بصوته الذى فيه هياج للعشق فينا وهياج لهذه المحبة الغير مشروعة فينا- فتجد كل دندنة الأفلام والمسلسلات حول تهييج الشباب للحب وتنبيه قلوبنا لهذه الرذيلة. قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ**﴾ فسماه الله تعالى طائف وقد مسهم ولكنهم تذكروا وأفاقوا فالشيطان لايستفز القلب الميت ولكن يستفز القلب الحى لأنه ما يدخل الشيطان

---

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٥٢)، ومسلم فى المساقاة (١١/ ٢٧ النووي) عن النعمان بن بشير وانظر «رياض الصالحين» (٥٨٩ بتخريجنا)

(٢) **[صحيح]** أخرجه مسلم فى الإيمان (١/ ٤٤٦/ ٢٣١)

(٣) تقدم قبله.

(*) بنحوه أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٣١٤) وصححه وتعقبه الذهبى فضعفه

بالقلب الخرب كما تقدم عن ابن عباس لهذا يقول الله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ غرور وأحلام.

ويصل العاشق مع معشوقه إلى أنه يحبه أكثر من الله، إلا أن المحبة لله فوق هذه المحبة لاتقارن ولاتماثل مهما ظن المخلوق أن هذه المحبة هى درجة فوق الخلة بل لاتماثل بين محبة المخلوق للخالق وبين محبة المخلوق للمخلوق ومن ظن أن بينهما تماثل حتى ولو فى اللفظ كالصوفية مثلاً يقولون الأناشيد والأغانى لهؤلاء العشاق ويجعلوها لله فمثلاً يقولون: نحن سكارى فى حب الله أو يقولون نحن نعشق الله أو الوصال بيننا وبين الله فألفاظ العشاق لايجوز قولها بينك وبين الله ومن ظن أن هناك تماثل بين محبة الله ومحبة المخلوق فهذا مقبوح وهو أولى بالقبح والبعد عن الله.

وهذا كلام ابن القيم فى قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ فنحن نؤتى من ها هنا من القلب لذلك الشيطان لايحاربك إلا فى قلبك والمقصود أنك تعتقد أن الدندنة على إفسادك وإفساد قلبك عن طريق الأغانى والمسلسلات والأفلام والإعلانات والمجلات والأجهزة المتنوعة مهما علت وقويت فالله يبشرك فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ ويبشرك بأن هذه الدندنة كخيط العنكبوت، وهذا المرض له علاج فى كتاب ربنا وفى سنة نبينا فيذكر ابن القيم هذه الأدوية وأنا أذكرها بعد أن اذكرك.

علاج محبة غير الله (العشق)

الدواء الأول: أن تستقبح هذا الأمر لعلمك أن الله لم ينسبه إلا لقبيح كما جاء فى امرأة العزيز وقوم لوط وكذلك صرف الله هذا الأمر عن المخلصين وقد تقدم تفصيل ذلك.

قال ابن القيم: (الثانى): إن كان مما للعاشق سبيل للوصول إلى محبوبه شرعاً وقدراً فهو العلاج قدراً مثال ذلك: من عشق من حرمت عليك قدراً أو شرعًا تحريمًا أبديًا ولكن من عشق امرأة لم تحرم عليه لاشرعاً ولاقدراً فالوصول إليها بالطريقة الشرعية هو العلاج كما قال النبى **«يا معشر الشباب فمن استطاع منكم الباءة فليتزوج»**(١).

حتى المتزوج إن نظر لامرأة فاستفزه الشيطان وقذف فى قلبه بحبها ولا سبيل شرعى للوصول إليها فليذهب لأمرته فليأتها فهذا هو العلاج الذى وضعه الرسول ﷺ لهذا المرض فإن الله يذهب ما فى نفسه.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٩٠٥)، ومسلم فى النكاح (٩/ ١٧٢ النووي) عن ابن مسعود به. وانظر السلسبيل» (١٩٩٤ بتخريجنا)

لما أخرجه مسلم فى صحيحه عن جابر أن رسول الله ﷺ رأى امرأة، فأتى امرأته زينب وهى تَمْعَسُ منيئَة لها، فقضى حاجته ثم خرج إلى أصحابه فقال: «**إن المرأة تقبل فى صورة شيطان، وتدبر فى صورة الشيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما فى نفسه**» وعند مسلم أيضًا بلفظ «**فوقعت فى قلبه فليعمد إلى امرأته فليواقعها فإن ذلك يرد ما فى نفسه**»(١).

قال النووي: «معنى الحديث: أنه يستحب لمن رأى امرأة فتحركت شهوته أن يأتى امرأته أو جاريته إن كانت له، فليواقعها ليدفع شهوته، وتسكن نفسه، ويجمع قلبه على ما هو بصدده قال العلماء: إنما فعل هذا بيانًا لهم، وإرشادًا لما ينبغى لهم أن يفعلوه، فعلمهم بفعله وقوله . وفيه: أنه لا بأس بطلب الرجل امرأته إلى الوقاع فى النهار وغيره، وإن كانت مشتغلة بما يمكن تركه، لأنه ربما غلبت على الرجل شهوة يتضرر بالتأخير فى بدنه أو فى قلبه وبصره والله أعلم.

فهذا كله نفخة كاذبة لإبليس، فلما تأت أهلك كأنك تبصق عليه.

مثلما إذا رأيت حلمًا افزعك فإن الرسول ﷺ أرشدنا إلى أن نبصق على يسارنا ثلاثاً(٢) فتنتهى النفخة الكاذبة له.

ولذلك تجد كثيرًا من العشاق بعد الزواج يصبحوا أعداءًا، فإذا وصل الزوج لزوجته قبل البناء وقضى وطره، يكرهها ويكون ذلك سبباً فى فسخ العقد حيث ذهبت المحبةمن ماءه الذى هدأ شهوته وحبه لها فلذلك قال النبى «**يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج**»(٣) وهذا ليس كلام نظرى فالزواج من أنفع الأدوية وهذا علاج أصلى وهو الزواج.

الثالث: وهناك علاج بدلى وهو الصوم فهو وقاية وجنة، والصوم يعنى ارتفاع المنسوب الإيمانى عند العبد فيقوى على دفع هذا الداء ويتعاطى أسباب النجاة.

وروى ابن ماجه فى «سننه» أن النبى ﷺ قال: «**لم يرى للمتحابين مثل النكاح**»(٤) وقيل فى معناه أن الجماع من أسباب زيادة المحبة والمودة ولذلك فى كثير من المشاكل الزوجية، تأتى الزوجة فتقول: أنا لا أحب زوجى فلا تصدق وتردها بهذا الحديث.

(١) [**صحيح**] أخرجه مسلم فى النكاح (٥/ ٩١/ ٩)
(٢) [**صحيح**] أخرجه مسلم فى الرؤيا (١٥/ ٢٠ النووي) عن جابر به.
وأنظر «رياض الصالحين» (٨٤٤ بتخريجنا)
(٤) أخرجه ابن ماجه (١٨٤٧) وصححه الألبانى فى «سلسلته».

وهذا هو المعنى الذى أشار إليه سبحانه عقيب إحلال النساء حرائرهن وإمائهن».

فى سورة النساء: ﴿وَمن لَّمْ يَسْتَطِعْ منكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ...﴾ إلى أن قال: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾ وهذا مانحن فيه الآن. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ يخفف عنا هذه الشهوة فنحن أضعف من أن نتحملها فمن رحمته أن أحل لنا الحرائر والإماء إن وجدن وكذلك أحل لنا مثنى وثلاث ورباع.

وذكر تخفيفه فى هذا الموضع وضعف الإنسان يدل على عدم تحمل هذه الشهوة وأنه خفف عنه بما أباح له من أطايب النساء ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ وأباح له ما شاء مما ملكت يمينه ثم أباح له من الإماء أن احتاج لذلك.

الرابع: إن كان لاسبيل للعاشق للوصول للمعشوق قدراً وشرعاً فهو الداء العضال فمن علاجه أن يشعر نفسه باليأس من الوصول للمعشوق، فإن النفس متى يئست من الشيء استراحت منه

قلت: لكن العشاق لم يقولوا أن اليأس علاج بل قالوا إن هذا أسمى معانى الغرام ويقول:

الحب من غير أمل أسمى معانى الغرام

يقول ابن القيم: فإن لم يزل مرض العشق مع اليأس فقد انحرف الطبع انحرافاً شديداً كما قال تعالي: ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾.

فينتقل إلى علاج آخر وهو علاج عقله بأن يعلم بأن تعلق القلب بمالا مطمع فى حصوله نوع من الجنون وصاحبه بمنزلة من يعشق الشمس وروحه متعلقة بالصعود إليها والدوران فى فلكها.

فلا تقاس لذة الأبد التى لا نهاية لها بلذة ساعة تنقلب آلام، لأن محبة الله التعب فيها لذة وهى فى غاية المتعة فانظروا إلى رجل داعى يُؤذى ويُضرب ويُهان فى سبيل الله، ومع هذا كله يجد لذة ما بعدها لذة، فمثال ذلك أبى ذر الغفارى حينما كان يذهب خصيصاً ليجهر عند الكعبة بكلمة التوحيد ليضرب ويتمتع بهذا الضرب، ويذهب مرة ثانية.

فكل مكروه فى محبة الله محبوب، والعكس كل أذى فى محبة المخلوق جحيم، بل محبة المخلوق نفسها أذى فإذا نظرت إلى العشاق تجدهم لا ينامون إلا قليلاً ،ولا يأكلون إلا يسيراً، وتضعف أبدانهم، وتصفر وجوههم ويلتهمهم المرض فانقلبت اللذة والمتعة للآلام فالعاقل عندما ييئس نفسه من المعشوق ولايقدر على أن يعالج نفسه بأحد أمرين.

الأول أنه سيفوت على نفسه محبة أعظم، ولذة أدوم، فيها الأذى نعيم، بعكس محبة المخلوق، وهم قالوا ذلك على أنفسهم كل الأغانى [حبك نار] وآخر يقول [عذاب] وغير ذلك.

الأمر الثاني: حصول مكروه أشق عليه من مفارقة هذا المحبوب

قلت: يعنى سيحصل مفاسد عاجلة أو آجلة منها: أن الله سيحرمه من الرزق، سواء مادى أو معنوى أو الإيمان، كما جاء فى الحديث الضعيف فى النظر «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن تركها من خوف الله أثابه الله إيماناً يجد حلاوته فى قلبه**»(١) فلو تركت لله أبدلك الله إيماناً تحسه فى قلبك وأخرج أحمد والحكيم فى «نوادر الأصول» والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى «الشعب» عن أبى أمامة مرفوعًا: «**ما من مسلم ينظر إلى امرأة» أول رمقة، ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها فى قلبه**»(٢) وربما اجتمع لهذا العاشق المريض الأمران حصول المكروه وفوات المحبوب الأعظم واللذة الأدوم والأنفع.

فإن لم تقبل نفسه هذا الدواء، ولم تطاوعه لهذه المعالجة، فلينظر ما تجلب عليه هذه الشهوة من مفاسد عاجلة وما تمنعه من مصالحها.

الخامس:

قال ابن القيم: فإن لم تقبل نفسه هذا الدواء فليتذكر قبائح المحبوب وما يدعو للنفرة عنه.

قلت: فمثلاً أنت تحب امرأة ولم تستطع بعد كل هذا الدواء ترك حبها فتذكرها وهى فى دورة المياه تتخلى وتصورها فى حال الحيض الذى سماه الله أذى ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى**﴾ كذلك فى حال التمخض من الأنف والفم كذلك انظر لسيء أخلاقها فكما أن الأشياء المستحسنة داعية للحب فكذلك الأشياء المستقبحة داعية للنفرة.

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) [**إسناده ضعيف جداً**] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٢٤٦)، والطبرانى فى «الكبير» (٨/ ٢٤٧/ ٧٨٤٢)بإسناد ضعيف جداً.

قال في «الصحيح» عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ»(١).

ولاتسأل عن البقر الذى يأتى للنجاسة ويشمها ويتلذذ برائحتها فهذا لاتسأل عنه وعده لا فى الموتى بل فى البهائم لماذا نقول ذلك؟ لأنه بالفعل يصل بهذا الشخص إلى دركة أنك تقول له هذا الكلام ويقول لك أعرفه وهذه الأمور من ألذ الأمور فى معشوقتى فهو يتلذذ من ذكرها إذا كانت منسوبة لمعشوقته بل ربما ظن أنه ليس فيها هذه الأمور وربما اصطدم حينما يصل إليها فيجد هذه الأمور.

السادس:

فإن عجزت هذه الأدوية كلها لم يبق له إلا صدق اللجوء إلى من يجيب المضطر إذا دعاه.

قلت: وما أظن هذا إلا فى من فهم أنه فى درك وانحطاط وفى وحل. فهو يصدق فى لجوءه لله بطريق بابه فمتى وفق لذلك فقد قرع باب التوفيق فليعف وليكتم ولا يشبب بذكر المحبوب.

قلت: والتشبيب: يعنى يذكر عشقه له ويصل الأمر إلى التغنى والأشعار بمحبوبته كما قال بعضهم: «عاشق يا بنات النيل وبغنى لكم المواويل».

«ولا يغتر بالحديث الباطل الذى ينسب للرسول عن ابن عباس أنه قال: **«من عشق فعف فمات فهو شهيد»** وفى رواية **«من عشق وكتم وعف وصبر غفر له وأدخله الله الجنة»**(٢).

●●●

قوله: فى «الصحيح» قال سليمان آل الشيخ: أي: «صحيح مسلم» عن أبى مالك الأشجعى عن أبيه عن النبى ﷺ فذكره. وأبو مالك اسمه سعد بن طارق كوفى ثقة،

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الإيمان» / باب: فضل أبى بكر الصديق رضى الله عنه (١/ ٢١٢ - النووي). وأحمد فى «مسنده» (٣/ ٤٧٢) والطبرانى فى «الكبير» (٨/ ٣٨٢/ ح٨١٩١، ٨١٩٤) وابن حبان فى «صحيحه» (١/ ١٩٧/ح ١٧١ - الإحسان).

جميعاً من طريق: أبى مالك عن أبيه عبدالله بن طارق بن أشيم رضى الله عنه فذكره.

وانظر رياض الصالحين (ح٣٩٣) «فتح المجيد» (ح١٧٢) بتخريجنا. ط. نزار الباز

أنظر «المقاص الحسنة» للسخاوى (١١٥٣)

(٢) تيسير العزيز الحميد (١٠٥، ١٠٦).

مات فى حدود الأربعين ومائة، وأبوه طارق بن أشيم بالمعجمة والمثناة التحتية وزن أحمر بن مسعود الأشجعى صحابى له أحاديث. قال مسلم: لم يرو عنه غير ابنه.

وقال ابن عثيمين[1]: لم يفصح المؤلف رحمه الله بمراده بالصحيح؛ أهو «صحيح البخاري» أم «صحيح مسلم»، أم أن المراد به الحديث الصحيح؛ سواء كان فى «الصحيحين» معاً أم فى أحداهما أم فى غيرهما، وليس له اصطلاح فى ذلك يحمل عليه عند الإطلاق، وعلى هذا يبحث عن الحديث فى مظانه، وقد ورد هذا التعبير فى سياق المؤلف للحديث فى مواضع أخري، والمراد به هنا «صحيح مسلم». اهـ

مناسبة الحديث للباب:

قال عبدالله بن جار الله[2]: هى أنه دلَّ علـى أنّ عدم الكفر بما يعبد من دون الله شرك ينافى التوحيد. اهـ.

وقال القرعاوي[3]: حيث دلَّ الحديث على أن معنى التوحيد، وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله لايتم ويكتمل إلا إذا كفر بكل ما يعبد سوى الله. اهـ

قوله: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله»:

قال النووي[4]: شارحاً رواية مسلم قوله: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله»**[5] قال الخطابى ـ رحمه الله: معلوم أن المراد بهذا أهل الأوثان دون أهل الكتاب؛ لأنهم يقولون: لا إله إلا الله ثم يقاتلون ولا يرفع عنهم السيف.

قال: ومعنى **«وحسابه على الله»** أي: فيما يستسرون به ويخفونه دون ما يخلون به فى الظاهر من الأحكام الواجبة، قال: ففيه أن من أظهر الإسلام وأسر الكفر قبل إسلامه فى الظاهر، وهذا قول أكثر العلماء، وذهب مالك إلى أن توبة الزنديق لاتقبل، ويحكى ذلك أيضاً عن أحمد بن حنبل رضى الله عنهما... هذا كلام الخطابي.

وذكر القاضى عياض معنى هذا وزاد عليه وأوضحه فقال: اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال: لا إله إلا الله تعبيراً عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد بهذا مشركوا

---

(١) القول المفيد (١/ ١٩٤).

(٢) الجامع الفريد (٣٦).

(٣) الجديد (٧٨)

(٤) مسلم بشرح النووى (١/ ٢١٢).

(٥) [متفق عليه] حديث ابن عمر أخرجه البخارى (٢٥)، ومسلم فى الإيمان(١/ ٢١١ النووي) وتقدم تخريجه

العرب وأهل الأوثان ومن لايوحد، وهم كانوا أول من دعى إلى الإسلام وقوتل عليه، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد فلايكتفى فى عصمته بقوله: لا إله إلا الله إذ كان يقولها فى كفره وهى من اعتقاده فلذلك جاء فى الحديث الآخر. «**وأنى رسول الله ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة**». هذا كلام القاضى.

قلت: ولابد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به رسول الله ﷺ كما جاء فى الرواية الأخرى لأبى هريرة وهى مذكورة فى الكتاب «**حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بى وبما جئت به**»(١). والله أعلم. أهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٢): قوله: «**من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله**» اعلم أن النبى ﷺ فى هذا الحديث علق عصمة المال والدم بأمرين:

الأول: قول لا إله إلا الله.

الثاني: الكفر بما يعبد من دون الله، فلم يكتف باللفظ المجرد عن المعني، بل لابد من قولها والعمل بها قال المصنف: وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولامعرفة معناها مع التلفظ بها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولاكونه لا يدعو إلا الله وحده لاشريك له، بل لايحرم دمه وماله حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه، فيالها من مسألة ما أجلها، وياله من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع.

قلت: وقد أجمع العلماء على معنى ذلك فلابد فى العصمة من الإتيان بالتوحيد، والتزام أحكامه، وترك الشرك.

كما قال تعالي: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ**﴾(٣) والفتنة هنا: الشرك، فدل على أنه إذا وجد الشرك فالقتال باق بحاله كما قال تعالي: ﴿**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً**﴾(٤).

وقال تعالي: ﴿**فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾(٥) فأمر بقتالهم على فعل التوحيد، وترك الشرك، وإقامة شعائر

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (١/ ٢٣٣/ ٣٤)
(٢) «تيسير العزيز الحميد» (١٠٦).
(٣) سورة الأنفال الآية: ٣٩.
(٤) سورة التوبة الآية: ٣٦.
(٥) سورة التوبة الاية: (٥)

الدين الظاهرة. فإذا فعلوها خلى سبيلهم. ومتى أبوا عن فعلها أو فعل شيء منها فالقتال باق بحاله إجماعاً. ولو قالوا: لا إله إلا الله. وكذلك النبى ﷺ علق العصمة بما علقها الله به فى كتابه.

كما فى الحديث وفى «صحيح مسلم». عن أبى هريرة مرفوعاً: «أُمرتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إلهَ إلا الله ويُؤْمنُوا بى وبمَا جِئْتُ به فَإِذا فَعلوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّى دِمَاءَهُم وأَمْوَالَهُم إلا بِحقِّهَا وَحِسَابُهُمْ علَى الله»(١).

وفى «الصحيحين» عنه قال: لما توفى رسول الله ﷺ وكفر من كفر من العرب، فقال عمر بن الخطاب لأبى بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله**» فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال. والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه. فقال عمر بن الخطاب: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال، فعرفت أنه الحق». لفظ مسلم(*).

فانظر كيف فهم صدِّيق الأمة أن النبى ﷺ لم يرد مجرد اللفظ بها من غير إلزام لمعناها وأحكامها، فكان ذلك هو الصواب، واتفق عليه الصحابة، ولم يختلف فيه منهم اثنان إلا ما كان من عمر حتى رجع إلى الحق. وكان فهم الصديق هو الموافق لنصوص القرآن والسنَّة.

وفى «الصحيحين» أيضاً عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أمِرتُ أَن أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إلهَ إلا الله وأَنَّ مُحمداً رَسُولُ الله وَيقيمُوا الصَّلاةَ ويُؤْتُوا الزَّكَاةَ فإذا فَعَلُوهُ عَصَمُوا منِّى دمَاءَهُمْ وأموالهُم إلا بحقها وَحسَابُهم على الله»(٢). فهذا الحديث كأنه براءة بيَّن فيه ما يقاتل عليه الناس ابتداء، فإذا فعلوه وجب الكف عنهم إلا بحقه، فإن فعلوا بعد ذلك ما يناقض هذا الإقرار والدخول فى الإسلام وجب القتال حتى يكون الدين كله لله، بل لو أقروا بالأركان الخمسة وفعلوها، وأبوا عن فعل الوضوء للصلاة ونحوه، أو عن تحريم بعض محرمات الإسلام كالربا أو الزنا أو نحو ذلك وجب قتالهم إجماعاً، ولم تعصمهم لا إله إلا الله ولا مافعلوه من الأركان.

وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، وأنه ليس المراد منها مجرد النطق، فإذا كانت لاتعصم من استباح محرماً، أو أبى عن فعل الوضوء مثلاً بل يقاتل على ذلك

---

(١) تقدم تخريجه (٢) تقدم.

(*) (متفق عليه) أخرجه البخارى (١٣٩٩) ومسلم فى الايمان (١/ ٢٣٢/ ٣٢).
وانظر «رياض الصالحين» (١٢١٣ ـ بتخريجنا).

حتى يفعله، فكيف تعصم من دان بالشرك وفعله وأحبه ومدحه، وأثنى على أهله، ووالى عليه، وعادى عليه، وأبغض التوحيد الذى هو إخلاص العبادة لله، وتبرأ منه، وحارب أهله، وكفرهم، وصد عن سبيل الله كما هو شأن عباد القبور.

وقد أجمع العلماء على أن من قال: لا إله إلا الله، وهو مشرك أنه يقاتل حتى يأتى بالتوحيد(*).

تنبيه

قال سليمان آل الشيخ: ذكر التنبيه على كلام العلماء فى ذلك فإن الحاجة داعية إليه لدفع شبه عباد القبور فى تعلقهم بهذه الأحاديث وما فى معناها مع أنها حجة عليهم بحمد الله لا لهم.

ثم ذكر كلام النووى المتقدم، وما نقله عن الخطابى والقاضى عياض، فقال:

قال أبو سليمان الخطَّابى فى قوله: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**»: معلوم أن المراد بهذا أهل الأوثان دون أهل الكتاب، لأنهم يقولون: لا إله إلا الله، ثم يُقاتلون، ولايرفع عنهم السيف.

وقال القاضى عياض: اختصاص عصم المال والنفس بمن قال لا إله إلا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد بذلك مشركوا العرب، وأهل الأوثان، ومن لايوحد، وهم كانوا أول من دعى إلى الإسلام، وقوتل عليه، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد فلايكتفى فى عصمته بقوله لا إله إلا الله، إذ كانى قولها فى كفره، وهى من اعتقاده، فلذلك جاء فى الحديث الآخر. «**ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة**».

وقال النووي: لابد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به رسول الله ﷺ، وكما جاء فى الرواية الأخري. «**ويؤمنوا بى وبما جئت به**».

وقال شيخ الإسلام: لماسئل عن قتال التتار مع التمسك بالشهادتين، ولما زعموا من اتباع أصل الإسلام، فقال: كل طائفة ممتنعة من التزام شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة من هؤلاء القوم أو غيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه، كما قاتل أبو بكر والصحابة رضى الله عنهم مانعى الزكاة، وعلى ذلك اتفق الفقهاء بعدهم قال: فأيما طائفة ممتنعة امتنعت عن بعض

(*) كلام سليمان آل الشيخ السابق فيه تفصيل سيأتى بيانه، حيث أنه يفرق بين الإسلام الحكمى والإسلام الحقيقي. فانتبه.

الصلوات المفروضات، أو الصيام أو الحج، أو عن التزام تحريم الدماء أو الأموال أو الخمر أو الميسر، أو نكاح ذوات المحارم، أو عن التزام جهاد الكفار، أو ضرب الجزية على أهل الكتاب، أو غير ذلك من التزام واجبات الدين أو محرماته التي لاعذر لأحد في جحودها أو تركها، التي يكفر الواحد بجحودها، فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء.

قال: وهؤلاء عند المحققين من العلماء ليسوا بمنزلة البغاة بل هم خارجون عن الإسلام بمنزلة مانعي الزكاة. ومثل هذا كثير في كلام العلماء.

والمقصود التنبيه على ذلك، ويكفي العاقل المنصف ما ذكره العلماء من كل مذهب في باب حكم المرتد، فإنهم ذكروا فيه أشياء كثيرة يكفر بها الإنسان، ولو أتى بجميع الدين. وهو صريح في كفر عباد القبور. ووجوب قتالهم إن لم ينتهوا حتى يكون الدين لله وحده، فإذا كان من التزم شرائع الدين كلها إلا تحريم الميسر أو الربا أو الزنا يكون كافراً يجب قتاله، فكيف بمن أشرك بالله ودعى إلى إخلاص الدين لله والبراءة والكفر بمن عبد غير الله فأبى عن ذلك، واستكبر، وكان من الكافرين؟!

قال ابن عثيمين(١): قوله: «وكفر بما يعبد من دون الله».

أي: بعبادة من يعبد من دون الله، قلنا ذلك، لأن عيسى بن مريم كان يعبد من دون الله، ونحن نؤمن به، لكن لانؤمن بعبادته ولا بأنه مستحق للعبادة؛ كما قال تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾**.

وفي قوله: «**وكفر بما يعبد من دون الله**» دليل على أنَّه لايكفي مجرَّد التلفظ بلا إله إلا الله، بل لابد أن تكفر بعبادة من يُعبد من دون الله، بل وتكفر أيضاً بكل كفر، فمن يقول: لا إله إلا الله، ويرى أن النصارى واليهود اليوم على دين صحيح؛ فليس بمسلم، ومن يرى الأديان أفكاراً يختار منها ما يريد؛ فليس بمسلم، بل الأديان عقائد مرسومة من قبل الله - عزوجل -، يتمشى الناس عليها، ولهذا ينكر على بعض الناس في تعبيره بقوله: الفكر الإسلامي، بل الواجب أن يقال: الدين الإسلامي أو العقيدة الإسلامية،

---

(١) القول المفيد (١/ ١٩٥)

ولا بأس بقول المفكِّر الإسلامي؛ لأنَّه وصف للشخص نفسه لا للدين الذى هو عليه. أهـ.

● **شبهة تكفير عوام المسلمين المستور حالهم والرد عليها**

استدل أهل البدع والأهواء بقول الإمام محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله- فى (مسائله على هذا الباب): ومنها قوله ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله**»(١).

وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لاشريك له، بل لايحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يُعبد من دون الله، فإن شك، أو توقف لم يحرم ماله ودمه، فيا لها من مسألة ما أعظمها، وأجلها! ويا له من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع(٢)! أهـ. على تكفير عوام المسلمين المستور حالهم أو فى التوقف عن الحكم بإسلامهم وعصمة دمائهم وأموالهم لأن ظاهر هذا الكلام من الإمام أنه اشترط ستة أمور لعصمة المال والدم أى للإسلام الحكمى (مناط الحكم) وليس للإسلام الحقيقى (مناط الانتفاع) وهذه الشروط كما تقدم هى [التلفظ معرفة المعنى - الإقرار بذلك- لا يدعو إلا الله- الكفر بما يعبد من دون الله] وهناك شرط سادس[الشك والتردد] لهذا تعلق أهل البدع بهذا الكلام دون النظر منهم إلى من كان يخاطبهم الإمام بهذا الكلام، وإليك الجواب عن هذه الشبهة وما يعتذر به الإمام عن هذا الكلام:

● **الجواب بذكر جملة مختصرة فيما يثبت به حكم الإسلام(٣).**

أولا: النطق بالشهادتين:

لحديث أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقها وحسابه على الله**»(٤).

وحديث ابن عمر رضى الله عنه: «**حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دمائهم وأموالهم إلا بحقها**»(٥).

---

(١) تقدم تخريجه وانظر «فضل الغنى الحميد» (١٧٧).

(٢) تقدم ذكر كلامه.

(٣) فضل الغنى الحميد (١٧٩).

(٤) تقدم تخريجه

(٥) تقدم تخريجه

قال النووى رحمه الله: وفيه: صيانة مال من أتى بكلمة التوحيد، ونفسه، ولو كان عند السيف. وفيه: أن الأحكام تجرى على الظاهر، والله يتولى السرائر. أهـ.

قال ابن رجب الحنبلى: ومن المعلوم بالضرورة أن النبى ﷺ كان يقبل من كل من جاءه يريد الدخول فى الإسلام الشهادتين فقط، ويعصم دمه بذلك، ويجعله مسلماً، فقد أنكر على أسامة بن زيد قتله لمن قال لا إلـه إلا الله لما رفع عليه السيف، واشتد نكيره عليه(١) ولم يكن النبى ﷺ ليشترط على من جاءه يريد الإسلام، ثم أن يلتزم الصلاة والزكاة. أهـ.

وقال أيضاً: إن كلمتى الشهادتين بمجردهما تعصم من أتى بهما ويصير بذلك مسلماً، فإذا دخل فى الإسلام: فإن أقام الصلاة، وآتى الزكاة، وقام بشرائع الإسلام؛ فله ما للمسلمين، وعليه ما على المسلمين، وإن أخل بشىء من هذه الأركان فإن كانوا جماعة لهم منعة قوتلوا. أهـ (*)ـ.

وحديث أسامة رضى الله عنه هو فى آخر الإسلام، ويدل على هذا الأمر أيضاً حديث المسيب فى قصة موت أبى طالب، وفيه: أن رسول الله ﷺ قال له: **«يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»**(٢).

وفى حديث المقداد بن الأسود رضى الله عنه أنه قال: يا رسول الله، أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فقاتلنى فضرب إحدى يدى بالسيف فقطعها ثم لاذ منى بشجرة، فقال: أسلمت لله، أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ: **«لاتقتله»** قال: فقلت يارسول الله، إنه قد قطع يدى ثم قال ذلك بعد أن قطعها، أفأقتله؟ قال رسول الله ﷺ: **«لاتقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك(٣) قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته(٤) قبل أن يقول كلمته التى قال»**(٥).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) [متفق عليه] البخارى (١٣٦٠)، ومسلم فى الإيمان (١/ ٣٩/٢٤) عن المسيب بن حزن به.

(٣) أي: معصوم الدم محرم قتله

(٤) أي: غير معصوم الدم لأنك قتلت مسلماً.

(٥) تقدم تخريجه وهو فى «الصحيحين»

(*) جامع العلوم والحكم (١/ ١٣٣)، بتحقيقنا ط نزار الباز.

والكناية عن الشهادتين ممن لايحسنها، كصريح لفظ الإسلام، **أفاده مجد الدين ابن تيمية** فى «المنتقي» فى باب ما يصير به الكافر مسلماً، واحتج بحديث ابن عمر رضى الله عنه: **«قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا، فجعل خالد يقتل ويأسر»** - الحديث، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: **«اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد»**(١).

وفى الباب حديث معاوية بن الحكم السلمى أن النبى ﷺ قال لجارية: **«أين الله؟» قالت: فى السماء، قال: «من أنا؟»، قالت: رسول الله، قال: «اعتقها فإنها مؤمنة»**(٢).

وفيه أيضاً حديث رجل من الأنصار، وفيه من الزيادة السؤال عن الإيمان بالبعث بعد الموت.

قال النووى فى«روضة الطالبين» ـ فيما تحصل به توبة المرتد وفى معناها إسلام الكافر الأصلى ـ: وقد وصف الشافعى رضى الله عنه توبته، فقال: أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويبرأ من كل دين خالف الإسلام. أهـ.

وقال فى موضع: إذا أتى بالشهادتين صار مسلماً، وليس هذا باختلاف قول عند جمهور الأصحاب كما ذكرنا فى كتاب الظهار، بل يختلف الحال باختلاف الكفار، وعقائدهم.

قال البغوي: إن كان الكافر وثنياً، أو ثنويًا لايقر بالوحدانية، فإذا قال لا إله إلا الله حكم بإسلامه، ثم يجبر على قبول جميع الأحكام، وإن كان مقراً بالوحدانية، منكراً نبوة نبينا ﷺ؛ لم يحكم بإسلامه، حتى يقول مع ذلك محمد رسول الله إلى جميع الخلق، أو يبرأ من كل دين خالف الإسلام، وإن كان كفره بجحود فرض، أو استباحة محرم لم يصح إسلامه حتى يأتى بالشهادتين، ويرجع عما اعتقده، ويستحب أن يمتحن كل كافر أسلم بالإيمان بالبعث. أهـ.

قال أبو القاسم الخرقى الحنبلي: ومن شهد عليه بالردة، فقال: ما كفرت فإن شهد أن لا إلا الله، وأن محمداً رسول الله لم يكشف عن شيء. أهـ.

قال ابن قدامة فى «المغنى» شارحاً لهذا الكلام: «إذا ثبتت ردته بالبينة، أو غيرها، فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لم يكشف عن صحة ما شهد عليه

---

(١) تقدم تخريجه فى مبحث الولاء البراء

(٢) [صحيح] فى المساجد (٣/ ٢٣/ ٣٣).

وانظر «منار السبيل» بتخريجنا

به، وخلى سبيله، ولايكلف الإقرار بما نسب إليه لقول النبي ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عزوجل»**(١).

ولأن هذا يثبت به إسلام الكافر الأصلى فكذلك إسلام المرتد، ولا حاجة مع ثبوت إسلامه إلى الكشف عن صحة ردته، وكلام الخرقى محمول على من كفر بجحد الوحدانية، أو جحد رسالة محمد ﷺ، أو جحدهما معا، وأما من كفر بغير هذا، فلا يحصل إسلامه إلا بالإقرار بما جحده، ومن أقر برسالة محمد ﷺ، وأنكر كونه مبعوثاً إلى العالمين؛ لايثبت إسلامه، حتى يشهد أن محمداً رسول الله إلى الخلق أجمعين، أو يتبرأ مع الشهادتين من كل دين يخالف الإسلام، قال: وإن ارتد بجحد فرض؛ لم يسلم حتى يقر بما جحده، ويعيد الشهادتين. أهـ.

وقال أيضاً: وإذا أتى الكافر بالشهادتين، ثم قال: لم أرد الإسلام؛ فقد صار مرتداً، ويجبر على الإسلام، نص عليه أحمد فى رواية جماعة. أهـ.

والنقول فى هذا كثيرة جداً، وهى ـ بحمد الله ـ متفقة على أنه لايشترط أكثر من النطق بالشهادتين فى صحة إسلام الكافر، ولا من يقولها حال كفره، سواء كان مرتداً، أو أصليا، فيحتاج إلى التصريح بالبراءة من كفره مع نطقها، وهذا لايغير من حكم النطق شيئاً لمن لم يكن كذلك، فضلا عمن لايعلم عنه سوى الإسلام الصريح قولاً وعملاً بأركانه، فالتوقف عن الحكم بالإسلام بزعم أن الناس اليوم لا يعرفون معنى لا إله إلا الله، من شر البدع، لأن تفصيل العلم ليس شرطاً، كما بيناه فى شروط «لا إله إلا الله» كما أن الناس فى عصر الرسول ﷺ، والصحابة رضى الله عنهم، ومن بعدهم من أهل العلم كان فيهم العربي، والعجمي، ولم يؤمر أحد بزيادة على القول.

ولذا قال الإمام أحمد: الإسلام: الكلمة، موافقاً للإمام الزهرى فى ذلك ومقصوهما كما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يدخل فيه بكلمة الشهادة، بل كان من العرب فى عهده عليه الصلاة والسلام من لايدرى على التفصيل معنى «لا إله إلا الله»، كما يدل عليه قصة ذات أنواط(٢)، فهل عند ذلك غير رسول الله ﷺ حكم النطق بالشهادة؟

وقد عرفنا أن حديث أسامة(٣) فى آخر الإسلام بعد الفرائض، وقد كان عدى بن حاتم(٤) لايدرى أن اتباع الأحبار والرهبان فى تبديل الشرع عبادة لهم تنافى «لا إله إلا الله»(٤).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سيأتى تخريجه (٣) تقدم

(٤) حديث عدى بن حاتم رضى الله عنه سبق تخريجه .

والنصارى كلهم على ذلك فلم يطلب الرسول ﷺ منهم بزيادة على الشهادتين، ثم يعلموا بعد ذلك، ورسالته عليه الصلاة والسلام لهرقل من أوضح الأدلة على ذلك[١]، وهذا كله ـ بحمد الله ـ طريقة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وأبنائه، وعلماء دعوته، فعندما نسب إليهم تكفير عموم المسلمين بين لهم فى رسائله: أنه يكفر من قامت عليه الحجة، فأصر على الشرك، أو رضى به، أو قاتل أهل التوحيد مع أهل الشرك، ثم قال: وأكثر الأمة ـ بحمد الله ـ ليسوا كذلك، ونفى عن نفسه شبهة التكفير بالعموم[٢].

الأمر الثاني: الذي يثبت به حكم الإسلام: الولادة لأبوين مسلمين أو أحدهما.

وذلك لما رواه أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء، ثم قال أبو هريرة ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾** [الروم: ٣٠][٣].

بوب عليه مجد الدين بن تيمية فى «المنتقي»: «باب تبع الطفل لأبويه فى الكفر، ولمن أسلم منهما فى الإسلام، وصحة إسلام المميز» ولا خلاف بين أهل العلم فى أن الأبوين إذا كانا مسلمين؛ كان أولادهما مسلمين، والجمهور على أن الولد يتبع المسلم منهما أيا كان الأب والأم، وهو الصواب بلا شك؛لهذه الأحاديث، وأما من ولد لأبوين كافرين فهو كافر فى أحكام الدنيا، والخلاف مشهور فى حكمهم فى الآخرة، والأرجح، أنهم فى الجنة خدم لأهلها، وقد يكون بعضهم من أهل الإمتحان والله أعلم، ومثل الولادة، أن يسلم أحد أبوى الطفل، وهو دون البلوغ، أو يأسره المسلمون بعيداً عن أبويه؛ فيصير مسلماً بذلك.

الأمر الثالث: الذى يثبت به الإسلام: الصلاة، على الصحيح من أقوال العلماء ـ مع ثبوت الخلاف فيه ـ وذلك لحديث جرير بن عبدالله رضى الله عنه، قال: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى خثعم فاعتصم ناس بالسجود فأسرع فيهم القتل ـ قال فبلغ ذلك النبى ﷺ فامر لهم بنصف العقل[٤] وقال: **«أنا بريء من كل مسلم أقام بين أظهر المشركين»** قالوا: يارسول الله: لم؟ قال: «لاترائى ناراهما»[٥].

---

(١) رواه البخارى (٧)، من حديث ابن عباس رضى الله عنه: بلفظ: «من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم» ـ الحديث.

(٢) (انظر رسالة منهاج الحق والإتباع) وفيها رسالة الشيخ نفسه لبعض من أنكر عليه، وكذا كتاب: «صيانة الإنسان».

(٣) رواه البخارى (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨)، والترمذى (٢١٣٨)، وأحمد (٢/ ٣٩٣).

(٤) يعنى نصف النية.

(٥) (صحيح) رواه أبو داود (٢٥٣٠) والترمذى (١٦٠٤)

قال ابن القيم رحمه الله: إنما أمر لهم بنصف العقل بعد علمه بإسلامه لأنهم قد أعانوا على أنفسهم بمقامهم بين ظهرانى الكفار فكانوا كمن هلك بجناية نفسه وجناية غيره وهذا حسن جداً. أهـ(1).

قال ابن قدامة: إذا صلى خلف من شك فى إسلامه أو كونه خنثى، فصلاته صحيحة، ما لم يبن كفره، وكونه خنثى مشكلاً لأن الظاهر من المصلين الإسلام، لا سيما إذا كان إمامًا، والظاهر السلامة من كونه خنثى سيما من يؤم الرجال، فإذا تبين بعد الصلاة أنه كان كافرًا أو خنثى مشكلاً فعليه الإعادة على ما بينا.

وإن كان الإمام ممن يسلم تارة ويرتد أخرى: لم يصل خلفه حتى يعلم على أى دين هو.

ثم قال: قال أصحابنا: يحكم بإسلامه بالصلاة، سواء كان فى دار الحرب أو فى الإسلام وسواء صلى جماعة أو فرادى، فإن أقام بعد ذلك على الإسلام فلا كلام، وإن لم يقم عليه فهو مرتد يجرى عليه أحكام المرتدين، وإن فات قبل ظهور ما ينافى الإسلام فهو مسلم يرثه ورثته المسلمون دون الكافرين.

وقال أبو حنيفة: إن صلى جماعة أو منفردًا فى المسجد كقولنا، وإن صلى فرادى فى غير المسجد لم يحكم بإسلامه.

وقال بعض الشافعية: لا يحكم بإسلامه بحال، لأن الصلاة من فروع الإسلام، فلم يصر مسلمًا بفعلها كالحج والصيام، ولأن النبى ﷺ قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دمائهم وأموالهم إلا بحقها**»، وقال بعضهم: إن صلى فى دار الإسلام فليس بمسلم، لأنه قد يقصد الاستتار بالصلاة، وإخفاء دينه، وإن صلى فى دار الحرب فهو مسلم، لأنه لا تهمة فى حقه.

ولنا: قول النبى ﷺ: «**نهيت عن قتل المصلين**»(2) وقال: «بينا وبينهم الصلاة»(3) فجعل الصلاة حدًا بين الإسلام والكفر، فمن صلى فقد دخل فى حد الإسلام، وقال فى المملوك« فإذا صلى فهو أخوك»، ولأنها عبادة تختص بالإسلام، فالإتيان بها إسلام كالشهادتين، وأما الحج فإن الكفار كانوا يفعلونه، والصيام إمساك عن المفطرات، وقد يفعله من ليس بصائم، اهـ(4).

وقال الشافعى رحمه الله: إن صلى فى دار الحرب؛ حكم بإسلامه، وإن صلى فى دار الإسلام، لم يحكم بإسلامه. أهـ.

(1) نقلاً عن عون المعبود. (2) أخرجه أبو داود (٤٩٢٨) عن أبى هريرة به.

(3) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٦٢١)، والنسائى فى «الكبرى» (٣٢٩)، وابن ماجة (١٠٧٩) عن بريدة به وأنظر «السلسبيل» (٢٥٢ بتخريجنا) وتقريب الأسانيد (ح ٤٨) بتخريجنا.

(4) المغنى (٢/١٦، ١٧).

والصحيح: أن هذا فى الظاهر، أما فيما بينه وبين الله فلابد من النطق بالشهادتين، مع القدرة عليهما؛ حتى يصح إيمانه باطناً، لأن النطق بهما: شرط، كما يدل عليه حديث المسيب فى موت أبى طالب: حيث كان يعتقد صحتها، لكنه لم ينطق؛ فمات على الشرك.

وقد أطلق بعض أهل العلم أن الكافر يصير مسلماً، إذا أقر بما يصير المسلم كافراً إذا جحده، ويجبر على قبول الإسلام، والصحيح ما ذكرناه من الأمور الثلاثة، وما عداها يفترق عنها؛ فلايصح القياس عليها. والله أعلم.

وهذا كله فيمن علم كفره، أما من لم نعلم كفره، ولا إسلامه، ولكنه أظهر شعار الإسلام؛ وجب أن يعامل بمقتضى ما أظهر، كتحية الإسلام، أو التسمى بأسماءالمسلمين، أو الأذان فى قوم[1]،ووجود المسجد، فإن ظهر أنه كان كافراً لم يجعل بما أظهر مرتداً، بل هو على كفره الأصلي؛ لأنه لم يدخل فى الإسلام بذلك، وإنما عاملناه بما أظهر من القرائن، بخلاف الشهادتين، والولادة لأب أو أم مسلمين، أو الصلاة فإنه إن ادعى أنه لم يرد الإسلام لم يقبل منه، ويصير مرتداً.

ودليل المعاملة بالقرائن ما رواه أنس رضى الله عنه، قال: **«كان رسول الله ﷺ إذا غزا قوماً لم يغز حتى يصبح، فإذا سمع أذاناً أمسك، وإن لم يسمع أذاناً أغار بعد ما يصبح»**[2].

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال: مر رجل من بنى سليم بنفر من أصحاب النبى ﷺ يرعى غنمًا له، فسلم عليهم، فقالوا لايسلم علينا إلا ليتعوذ منا، فعمدوا إليه، فقتلوه، وأتوا بغنمه النبى ﷺ فنزلت هذه الآية: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾**[3]. وفى رواية: **«أن الرسول ﷺ أرسل بديته»**[4].

---

(١) يلاحظ هنا أن المؤذن نفسه ينطق بالشهادتين فى الآذان فكفره بعد ذلك ردة، أما بالنسبة لمن معه فالآذان قرينة فى حقهم.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) النساء/ ٩٤.

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٥٩١)، والترمذى (٣٠٣٠)، واللفظ الأول للترمذى

مناقشة قول الإمام - رحمه الله:

مما تقدم من أدلة السنة بفهم سلف الأمة عينه فى الرد على هذه البدعة وهذه الفرقة فى تكفير عوام الأمة، ويبقى مناقشة ما فى قول الإمام من كلام ربما خالف فيه ظاهر ما تقدم عن النبى ﷺ.

قال رحمه الله «وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله» يعنى هذا الحديث يبين معنى لا إله إلا الله. قال «فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله، ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله.. إلخ»

وفيه أنه اشترط ستة أمور لعصمة المال والدم: التلفظ، معرفة المعنى، الإقرار، لايدعوا إلا الله، الكفر بما يعبد من دون الله، عدم الشك والتردد.

فأدخل الإسلام الحكمى فى الإسلام الحقيقى فأين هذا الكلام من قول الرسول لعلى «انفذ على رسلك...»(١) فيدعوهم إلى لا إله إلا الله، ويخبرهم بما يجب عليهم بعد ذلك. فهل هو اشترط عليهم شيئًا فى الحديث من هذه الستة، فيستحيل أن تأمر الناس بالصلاة وأنت تقتلهم فهذا تكليف بالمستحيل والله لم يكلف إلا ما فى الوسع وهذا لايتصور شرعاً ولا عقلاً كما تقدم من كلام ابن رجب الحنبلي.

وكذلك فى حديث معاذ: «ادعوهم إلى لا إله إلا الله»(٢) فأين شرط معرفة معناها والإقرار بها... بل هم صاروا مسلمين قبل أن يدعوا للصلاة والزكاة فكلام الشيخ هنا فيه جمع بين الإسلام الحكمى والحقيقى لكن نلتمس العذر للمعنف فلعله عندما رأى خروجًا عن الإسلام وجاهلية وظن الناس أنه بمجرد التلفظ صاروا كاملى الإسلام فحدث منه رد فعل عنيف للترهيب والزجر فلهذا كما سيأتي، أما رد فعل أهل البدع والأهواء لم ينضبط بضابط علمى أخذوا يشترطون شروطًا الأحاديث ليست فيها وجعلوها فى الإسلام الحكمي.

فإياك مِنْ رد الفعل العاطفي، وتَمَسكْ بأصول أهل السنة من هذا وشغب وتشنيع أهل البدع. فأهل السنة هم الحسنة بين السيئتين فلا نقول أن المتبرجة كافرة بمجرد تبرجها لأن التبرج ليس بكفر ولانقول أنها أخت لنا فى الله بل تقول هى مسلمة عاصية لأن الأخوة فى الله لها شروط ثقال لانستطيع عليها، فإياك من رد الفعل العاطفى الذى فيه وقع كثير من أهل السنة.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وقوله: «فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه».

قال الفقير: فالشك والتردد عمل قلبى فكيف نجرى أحكامًا دنيوية على مسائل باطنية لايعلمها إلا الله عزوجل، فعدم الشك والتردد هو الإسلام الحقيقى وهذا ما قاله النبى «**غير شاك فيهما حرمه الله على النار**»(١).

وجاء الشارح يؤكد هذا الكلام بقوله: «وهذا هو الشرط المصحح لقوله لا إله إلا الله فلا يصح قولها بدون هذه الخمس التى ذكرها المصنف رحمه الله أصلاً».

فمجرد الإقرار أسلموا، فندعوهم لإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، فإن أبوا يعنى أعرضوا بعد الإقرار والإسلام قوتلوا على أنهم مرتدين وليسوا كفار كفر أصلي، فقد يمتنع ولا يفعل مع القبول -أى قَبِل الزكاة ولم يصل فاللحاكم أن يقاتلهم من باب قتال أهل البغى لا الردة كما قاتل أبو بكر مانعى الزكاة الذين كانوا كما قال النووى نقلاً عن الخطابى فى «معالم السنن» فى شرح حديث أبى هريرة «**أمرت أن أقاتل الناس..**».

قال الخطابي: وفيه أن أبا بكر قاتل صنفين من مانعى الزكاة.

الأول: صنف جحد وأنكر فهذا ارتد وقوتل من باب الردة.

الثاني: وصنف تأول.

فهذا لم يقاتل قتال المرتد؛ لكن قوتل قتال أهل البغي، فهذا امتنع وقوتل على الامتناع فإنهم تأولوا قول الله ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا**﴾ فالصدقة منوطة بالرسول فتأولوا أن الذى سيأخذ الزكاة منهم الرسول فقط وهو الذى سيصلى عليهم ويطهرهم بهذه الصلاة، وهذا لا يتصور إلا فى الرسول فإن مات لايأخذها غيره، فتأولوا فحماهم من حكمنا عليهم بالردة.

فلماذا سميت حروب الردة؟

قال النووى: لأن الغالب عليها كذلك، لكن كان فيها ناس بغاة غير مرتدين.

وقدمنا نص كلام الخطابى نقلاً عن النووى قبل كلامنا هذا.

فكذلك قد يمتنع عن الزكاة متؤول أو عن الصلاة بعد أن أقر فهذا اختلف العلماء فى تكفيره وهما قولان وروايتان عن أحمد كما نقلها ابن تيمية فى «فتاويه»، قال: وكذلك مانعى الزكاة فإن الصديق والصحابة ابتدأوا قتالهم، قال الصديق «والله لو منعونى عناقاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه»(٢) فهم يقاتلون إذا امتنعوا من أداء

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

الواجبات وإن أقروا بالوجوب ثم تنازع الفقهاء فى كفر من منعها وقاتل الإمام عليها مع إقراره بالوجوب على قولين هما روايتان لأحمد».

[قلت]: هناك توجيه للروايتين: أن الإمام أحمد حينما قال **(يكفر)** اعتبر أن القتال على الإمتناع دليل على الرد القلبى، فقال: يكفر فلو أقر بالوجوب، ثم امتنع ثم نصب القتال للإمام فاعتبر الامتناع مع مقاتلة الإمام قرينة على الردة، فقال بكفره.

- وحينما قال (لايكفر) اعتبر أن الإقرار يكفى وأن هذا الامتناع والمقاتلة بغي، وليست قرينة على سوء المعتقد من ردة أو إنكار.

الشاهد من هذا الكلام: أنه يرى أنه بمجرد الإقرار حتى وإذا لم يلتزم الشرائع بعد أن أقر بوجوبها والإيمان بها جملة وعلى الغيب أن هذا لايكفر قولة واحدة حتى وإن قاتل لايكفر قولة واحدة، بل فيها خلاف، فهو لايرى حداً للإسلام إلا الإقرار كما نقل الحافظ فى «الفتح»(١) من هذا المنطلق وهذا الفهم نقرأ كلام الشارح.

إشكال:

ففى صحيح مسلم حديث أبى هريرة، وكذلك فى الصحيحين حديث ابن عمر هناك إشكال فى الحديثين.

فالحديث الأول: فى صحيح مسلم عن أبى هريرة مرفوعًا: «**أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتَّى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي، وبما جئتُ به، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءَهم وأموالهم إلا بحقها وحِسَابُهم على الله**».

والحديث الثاني: فى الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «**أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عَصَموا مِنى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحِسَابُهم على الله**».

والإشكال هو أن الحديث لم يذكر الإقرار فقط، وإنما ذكر إقامة الصلاة وإتاء الزكاة فمعنى ذلك أن من قال لا إله إلا الله فقط غير مسلم إسلامًا قطعيًا تجرى عليه أحكام المسلمين فى الدنيا من عصمة المال والدم حتى يصلى ويزكي.

والجواب كما تقدم: أن كلمة «**أقاتل**» غير كلمة «**أقتل**» فهى تدل على قتل أحاد الناس وهذا لايتصور إلا أنهم حلال الدم لكن كلمة **(أقاتل)** لفظ مفاعلة يعنى من الجانبين يعنى إن هم أقروا ثم قاتلوا على عدم الصلاة والزكاة أقاتلهم، ولا يحكم عليهم بالردة

---

(١) انظر فتح البارى (١/ ٩٦، ٩٧).

قولة واحدة بل يجرى عليهم الخلاف السابق، وهذا الذى احتج به أبو بكر لكنه لم يذكر هذه اللفظة إنما ذكرها أبو هريرة وابن عمر وإلا لو كان ذَكَرَ الصلاة والزكاة لما احتاج للقياس لكان ذكر اللفظة التى تنص على قتالهم لو قاتلوا على عدم الصلاة والزكاة.

فالحديث لايقول إن الإسلام الحكمى إقرار وعمل إنما هو الإقرار فقط فإن قاتلونا قاتلناهم.

وقد أفاض ابن دقيق العيد فى شرح هذه اللفظة فى شرح «عمدة الأحكام».

وفى الحقيقة هذا الحديث كان من أشكل الأحاديث حتى قرأت معنى هذه اللفظة فما وجدت فيه إشكال. وهذا نص عليه الحافظ ابن حجر وقال «**أقاتل**» غير «**أقتل**».

وقال الشافعي: ليس القتال من القتل بسبيل، وقد يحل قتال الرجل، ولايحل قتله. أهـ.

*** ما يعتذر به للمصنف رحمه الله:**

أولاً: **قال صاحب «فضل الغنى الحميد»**: هذا الكلام من المصنف رحمه الله، احتج به بعض أهل البدع فى تكفير عوام المسلمين ـ المستور حالهم ـ أو فى التوقف عن الحكم بإسلامهم، وعصمة دمائهم، وأموالهم، وذلك دون نظر من هؤلاء المبتدعين عن سيرة الشيخ، ودعوته، ومن كان يقاتلهم، وينازعهم، وجعل هذا الحديث حجة عليهم، فإن الشيخ - رحمه الله- إنما كان ينازع، ويقاتل من أصر على الشرك من دعاء غير الله، أو رضى به، وأقره، أو حارب التوحيد وأهله مع أهل الشرك، بعد بلوغ الحجة التى كان يدعوهم إليها، ويبينها لهم من أدلة الكتاب والسنة القطعية، وكان هؤلاء مع حالهم هذا، يقولون لا إله إلا الله فكان رحمه الله يعاملهم على أنهم مرتدون والمرتد الذى يقول لا إله إلا الله حال كفره لاينفعه مجرد الإقرار بها، حتى يضيف إليها الرجوع عما كان سبب ردته، كما هو معلوم من كلام أهل العلم فى أبواب الردة، وهذا مثل قول أهل العلم فى الكتابى الذى يشهد حال كفره لمحمد ﷺ بالرسالة، أو يقر بالوحدانية مع كفره، فلابد أن يضيف إلى الشهادتين عند إسلامه: شهادته لمحمد ﷺ بالرسالة لعموم الإنس والجن. وكالبهائية والقاديانية، فلابد أن يضيفوا إليها: تكذيبهم بالبهاء، وبالقاديان، كما فعل الصحابة مع أصحاب مسيلمة الكذاب، وأمثالهم، أما أن يجعل هذا الكلام حجة للتوقف فى عصمة دم ومال من ثبت له حكم الإسلام، ولم يعلم عنه ردة وخروج من الشرع، ولايحكم بإسلام من نطق الشهادتين، أو ولد لأبوين مسلمين

حتى يختبر ويمتحن بتفاصيل معينة وضعوها، كما تقدم فهذا القول من أخطر البدع، وأضلها، بل هو مخالف للمعلوم من الدين بالضرورة، فكيف يحمل عليه كلام الشيخ، ويقال إن هذا قصده؟!! أهـ(١).

ثانيًا: تقدم من قولنا أن عذر الإمام وجود هذه الردة وهذا الخروج عن الإسلام إلى الجاهلية مع ظن الناس فى هذه الحالة بنطقهم بـ «لا إله إلا الله» أنهم صاروا كاملى الإسلام، فكان لهذا الرد العنيف من شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب للترهيب والزجر عن هذه الردة، وهذه الجاهلية ، واستلزم ذلك ألا يفصّل أحيانًا كما فى هذا الموضع ليكون ذلك أدعى للزجر والترهيب، وهذا ما يؤكد ما قدمناه فى المقدمة فى منهج الإمام فى هذا الكتاب، وأنه وعظى، دعوى، أكثر منه علمي، فلهذا ناسب فى مقام الوعظ الإجمال لا التفصيل الذى محله التعليم

ثالثًا: وقد يقال أنه جمع بين الإسلام الحكمى والحقيقي، لأن الأخير يشمل الأول، فإذا عبر عن الأول الإسلام الحكمى -بالأخير- الإسلام الحقيقى - فلأن الأخير يشمله وهذا التعبير نافع جدًا فى مقام الوعظ والترهيب، ومن هنا أنزل بعض السلف آيات الكفر الأكبر على الكفر الأصغر للترهيب،ولأن الأكبر يشمل الأصغر.

قوله: (وحسابه على الله).

فيه قبول توبة الزنديق،

قال النووى(٢): قلت: اختلف أصحابنا فى قبول توبة الزنديق وهو الذى ينكر الشرع جملة فذكروا فيه خمسة أوجه لأصحابنا:

أصحها والأصوب منها: قبولها مطلقاً للأحاديث الصحيحة المطلقة.

والثاني: لاتقبل ويتحتم قتله، لكنه إن صدق فى توبته نفعه ذلك فى الدار الآخرة وكان من أهل الجنة.

والثالث: إن تاب مرة واحدة قبلت توبته فإن تكرر ذلك منه لم تقبل.

والرابع: إن أسلم ابتداء من غير طلب قبل منه وإن كان تحت السيف فلا.

والخامس: إن كان داعياً إلى الضلال لم يقبل منه وإلا قبل منه. والله أعلم. أهـ.

(١) فضل الغنى الحميد (١٧٥، ١٧٦).
(٢) شرح النووى لمسلم (١/ ٢١٢)

قال ابن رجب[1]:

قوله (وحسابه على الله): استدل بهذا من يرى قبول التوبة الزنديق، وهو المنافق إذا أظهر العود إلى الإسلام ولم ير قتله بمجرد ظهور نفاقه كما كان النبى ﷺ يعامل المنافقين ويجريهم على أحكام المسلمين فى الظاهر مع علمه بنفاق بعضهم فى الباطن، وهذا قول الشافعى وأحمد فى رواية عنه، وحكاه الخطابى عن أكثر العلماء. والله أعلم. اهـ.

وقال ابن حجر[2] (وحسابهم على الله) أى فى أمر سرائرهم، دليل على قبول الأعمال الظاهرة، والحكم بما يقتضيه الظاهر، والإكتفاء فى قبول الإيمان بالإعتقاد الجازم خلافاً لمن أوجب تعلم الأدلة. ويؤخذ منه ترك تكفير أهل البدع المقرين بالتوحيد الملتزمين للشرائع، وقبول توبة الكافر من كفره، من غير تفصيل بين كفر ظاهر أو باطن.

فإن قيل: مقتضى الحديث قتال كل من امتنع من التوحيد، فكيف ترك قتال مؤدى الجزية والمعاهد؟ فالجواب من أوجه:

(أحدها) دعوى النسخ بأن يكون الإذن بأخذ الجزية والمعاهدة متأخرًا عن هذه الأحاديث، بدليل أنه متأخر عن قوله تعالى ﴿**اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ**﴾.

(ثانيها): أن يكون من العام الذى خص منه البعض، لأن المقصود من الأمر حصول المطلوب، فإذا تخلف البعض لدليل لم يقدح فى العموم.

(ثالثها): أن يكون من العام الذى أريد به الخاص فيكون المراد بالناس فى قوله «**أقاتل الناس**» أى المشركين من غير أهل الكتاب ويدل عليه رواية النسائى بلفظ «**أمرت أن أقاتل المشركين**».

فإن قيل: إذا تم هذا فى أهل الجزية لم يتم فى المعاهدين ولافيمن منع الجزية.

أجيب بأن الممتنع فى ترك المقاتلة رفعها لاتأخيرها مدة كما فى الهدنة، ومقاتلة من امتنع من أداء الجزية دليل الآية.

(رابعها) أن يكون المراد بما ذكر من الشهادة وغيرها التعبيرعن إعلاء كلمة الله وإذعان المخالفين، فيحصل فى بعض بالقتل وفى بعض بالجزية وفى بعض بالمعاهدة

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١٤٠) بتخريجنا.

(٢) فتح البارى (١/ ٩٧).

(خامسها) أن يكون المراد بالقتال هو، أو ما يقوم مقامه من جزية أو غيرها.

(سادسها) أن يقال الغرض من ضرب الجزية اضطرارهم إلى الإسلام، وسبب السبب سبب، فكأنه قال: حتى يسلموا أو يلتزموا ما يؤديهم إلى الإسلام، وهذا أحسن، ويأتي فيه ما في الثالث وهو آخر الأجوبة. والله أعلم. أهـ.

قال سليمان آل الشيخ[1]: قوله: «**وحسابه على الله**» أي إلى الله تبارك وتعالى، هو الذي يتولى حسابه، فإن كان صادقاً من قلبه جازاه بجنات النعيم، وإن كان منافقاً عذبه العذاب الأليم. وأما في الدنيا فالحكم على الظاهر(*)، فمن أتى بالتوحيد والتزم شرائعه ظاهراً وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك.

واستدل الشافعية بالحديث على قبول توبة الزنديق، وهو الذي يُظهر الإسلام، ويسرّ الكفر.

والمشهور في مذهب أحمد ومالك أنها لاتقبل، لقوله تعالى: ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا** ﴾ والزنديق لايتبين رجوعه لأنه مظهر للإسلام، مسر للكفر، فإذا أظهر التوبة لم يزد على ما كان منه قبلها.

والحديث محمول على المشرك. ويتفرع على ذلك سقوط القتل وعدمه، أما في الآخرة فإن كان دخل في الإسلام صادقاً قبلت.

- **وفيه**: وجوب الكف عن الكافر إذا دخل في الإسلام ولو في حال القتال حتى يتبين منه ما يخالف ذلك.

- **وفيه**: أن الإنسان قد يقول: لا إله إلا الله، ولايكفر بما يعبد من دون الله.

- **وفيه**: أن شرط الإيمان الإقرار بالشهادة، والكفر بما يعبد من دون الله مع اعتقاد ذلك واعتقاد جميع ما جاء به الرسول ﷺ.

- **وفيه**: أن أحكام الدنيا على الظاهر، وأن مال المسلم ودمه حرام إلا في حق كالقتل قصاصاً ونحوه، وتغريمه قيمة ما يتلفه.

قوله: (وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب). يعني أن ما يأتي بعد هذه

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١٠٩).

(*) وهذا تنبيه واضح جلي لتفريق الشيخ في هذا الموضع بين الإسلام الحكمي والحقيقي، حيث فرق بين الإسلام النافع في الآخرة والإسلام المحكوم به في الدنيا، فانتبه.

فِيهِ أَكْبَرُ المَسَائِلِ وَأَهمُّهَا.

وَهِيَ تَفْسِيرُ التَّوحِيدِ..

الترجمة من الأبواب شرح للتوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله، لأن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، أن لايعبد إلا الله ولايعتقد النفع والضر إلا فى الله، وأن يكفر بما يعبد من دون الله، ويتبرأ منها ومن عابديها، وما بعد هذا من الأبواب بيان لأنواع من العبادات والاعتقادات التى يجب إخلاصها لله تعالي، وذلك هو معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، والله أعلم. أهـ.

قال ابن عثيمين(١): قوله: «وشرح هذه الترجمة».

المراد بالشرح هنا: التفصيل، والترجمة: هى التعبير بلغة عن لغة أخري، ولكنَّها تطلق باصطلاح المؤلِّفين على العناوين والأبواب، فيقال: ترجم على كذا؛ أي: بوَّب له. أ.هـ.

قال الفقير: وضعت كلمة ترجمة فى اللغة العربية، لتدل على أحد معان أربعة:

أولها: تبليغ الكلام لمن لم يبلغه، ومنه قول الشاعر:

إن الثمانين وبُلّغتُها قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

والمقصود أن الرجل كبر وثقل سمعه.

ثانيها: تفسير الكلام بلغته التى جاء بها، ومنه قيل فى ابن عباس: إنه ترجمان القرآن.

ثالثها: تفسير الكلام بلغة غير لغته.

رابعها: نقل الكلام من لغة إلى أخرى. والدليل حديث هرقل فى الصحيح وحديثه مع أبى سفيان بترجمان.

وأيضاً: تطلق الترجمة على السيرة والتاريخ، كما يقال: ترجمة فلان، أى: سيرته وتاريخه.

وفيه مسائل:

قوله: «**فيه أكبر المسائل وأهمها، وهى تفسير التوحيد**».

فتفسير التوحيد أنه لابد فيه من أمرين:

الأول: البراءة مما سوى الله ـ عزوجل ـ والكفر بغيره.

---

(١) القول المفيد (١/ ١٩٥، ١٩٦).

وَتَفسيرُ الشَّهَادَةِ. وَبيَنها بِأُمُورٍ وَاضِحَةٍ.

ومنْهَا آيةُ الإسْرَاءِ: بَيَّنَ فيها الردَّ عَلَى المُشْرِكِينَ الذِّينَ يَدْعُونَ الصَّالحِينَ؛ فَفيهَا بَيَانُ أَنَّ هذَا هُوَ الشِّرْكُ الأكْبَرُ.

الثاني: إثبات الألوهية لله وحده؛ فلابد من النفى والإثبات لتحقيق التوحيد؛ لأن التوحيد جعل الشيء واحداً بالعقيدة والعمل، وهذا لابد فيه من النفى والإثبات.

فإذا قلت: زيد قائم؛ أثبتَّ له القيام ولم توحده، لكن إذا قلت: لاقائم إلا زيد؛ أثبت له القيام ووحدته به.

وأيضاً إذا قلت: الله إله أثبتَّ له الألوهية، لكن لم تنفها عن غيره؛ فالتوحيد لم يتم.

قوله: «**تفسير الشهادة**».

الشهادة: هى التعبير عما تيقنه الإنسان بقلبه؛ فقول: أشهد أن لا إله إلا الله؛ أي: أنطق بلسانى معبراً عما يكنه قلبى من اليقين، وهو أنه لا إله إلا الله.

قوله: «**منها آية الإسراء**».

وهى قوله تعالي: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ**﴾(١) الآية؛ فبيَّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، وبيَّن أن هذا هو الشرك الأكبر؛ لأن الدعاء من العبادة، قال تعالى: ﴿ **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾(٢)؛ فدلَّ على أنَّ الدعاء عبادة، وإلا؛ لكان أول الكلام مناقضاً لآخره، مع أنَّ آخر الكلام تعليل لأوله، فكل من دعا أحداً غير الله حياً أو ميتاً؛ فهو مشرك شركاً أكبر.

والدعاء ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: جائز، وهو أن تدعو مخلوقاً بأمر من الأمور التى يمكن أن يدركها بأشياء محسوسة معلومة؛ فهذا ليس من دعاء العبادة، بل هو من الأمور الجائزة، قال ﷺ: «**وإذا دعاك فأجبه**»(٣).

---

(١) الإسراء: ٥٧

(٢) غافر: ٤١

(٣) [صحيح] رواه: مسلم (٤/ ١٧٠٤)

ومنْهَا آيَةُ (براءَة) بيَّـنَ فِيها أنَّ أَهْلَ الكِتَابِ أتَّخذُوا أَحْبَارَهُـمْ ورُهبَانَهُمْ أرْبَاباً مِنْ دُونِ الله.

وَبَيَّنَ بـأَنَّهُمْ لَمْ يُـؤْمَرُوا إلاَّ بأنْ يَعْبُـدُوا إلهاً واحداً، مَـعَ أنَّ تَفسِيـرَهَا الذَّى لا إشْكَالَ فيه طَاعَةُ العُلَمَاء وَالعُبَّادِ فِى المَعْصِيَةِ، لاَدُعَاؤهم إيَّاهُم.

وَمِنْهَا قَوْلُ الخَـلِيلِ عَلَيْه السَّلاَمُ لِـلْكُفَّارِ ﴿إنَّنِى بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إلاَّ الَّذِى فَطَرَنِي﴾ الآية.

الثاني: أن تدعو مخلوقاً مطلقاً، سواء كان حياً أو ميتاً فيما لايقدر عليه إلا الله؛ فهذا شرك أكبر لأنك جعلته نداً لله فيما لايقدر عليه إلا الله، مثل: يا فلان اجعل ما فى بطن امرأتى ذكراً.

الثالث: أن تدعو مخلوقاً ميتاً لايجيب بالوسائل الحسية المعلومة؛ فهذا شرك أكبر أيضاً لأنه يدعو من كان هذه حاله حتى يعتقد أن له تصرفاً خفياً فى الكون.

قوله: «**ومنها: آية براءة بين فيها أنَّ أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**».

وهذا شرك الطاعة، وهو بتوحيد الربوبية ألصق من توحيد الألوهية؛ لأنَّ الحكم شرعياً كان أو كونياً إلى الله تعالى؛ فهو من تمام ربوبيته، قال تعالى: ﴿**وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ**﴾[1]، وقال تعالي: ﴿**لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾[2].

والشيخ رحمه الله جعل شرك الطاعة من الأكبر، وهذا فيه تفصيل، وسيأتى إن شاء الله فى باب من أطاع الأمراء والعلماء فى تحليل ما حرَّم الله أو بالعكس.

قوله: «ومنها: قول الخليل عليه السلام للكفار: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُون إلاَّ الَّذِى فَطَرَنِي﴾[3]؛ فاستثنى من المعبودين ربه.

فدل هذا على أن التوحيد لابد فيه من نفى وإثبات: البراءة مما سوى الله، وإخلاص العبادة لله وحده.

---

(١) الشورى: ١٠.

(٢) القصص: ٧٠.

(٣) الزخرف: ٢٦.

وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ هُذه البَرَاءَةَ وَهذه المُوَالاَةَ هِيَ تَفسيرُ شَهَادَةِ أَن لاَ إِلاَّ الله، فَقَالَ: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾.

وَمِنْهَا آيَةُ البَقَرة في الكُفَّار الَّذين قَالَ الله فيهم: ﴿وما هم بخارجين من النار﴾ [البقرة: ١٦٧]. ذَكَرَ أَنَّهم يُحبُّونَ أَنْدَادَهُمْ كَحُبِّ الله، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ يُحبُّونَ الله حُبًّا عَظيماً، وَلَمْ يُدْخِلْهُمْ في الإِسْلاَم؛ فَكَيْفَ بِمَن أَحَبَّ النِّدَّ أَكْبَرَ مِنْ حُبِّ الله؟! وَكَيْفَ بِمَنْ لَمْ يُحبَّ إِلاَّ النِّدَّ وَحْدَهُ وَلَمْ يُحبَّ الله؟!.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ (ﷺ) «مَن قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَكَفَرَ بِمَا يُعبَدُ مِن دُون الله؛ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى الله».

وذكر سبحانه أنَّ هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله؛ فقال: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾(١)، وهي لا إله إلا الله؛ فكان معنى قوله: ﴿إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾ هو معنى قول: لا إله إلا الله.

قوله: «ومنها: قول النبي ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله....» إلخ.

إذاً؛ فلابدّ من الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، قال تعالى: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾(٢).

قوله: «وكفر بما يعبد من دون الله».

أي: كفر بالأصنام، وأنكر أن تكون عبادتها حقاً، فلايكفي أن يقول: لا إله إلا الله، ولا أعبد صنماً، بل لابد أن يقول: الأصنام التي تُعبد من دون الله أكفر بها وبعبادتها.

فمثلاً لايكفي أن يقول: لا إله إلا الله ولا أعبد اللات، ولكن لابد أن يكفر بها ويقول: إنَّ عبادتها ليست بحق، وإلا؛ كان مقراً بالكفر.

فمن رضي دين النصارى دينًا يدينون الله به، فهو كافر لأنَّه إذا ساوى غير دين الإسلام مع الإسلام؛ فقد كذَّب قوله تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه﴾(٣).

وبهذا يكون كافراً، وبهذا نعرف الخطر العظيم الذى أصاب المسلمين اليوم باختلاطهم مع النصاري، والنصارى يدعون إلى دينهم صباحاً ومساءً، والمسلمون لايتحركون، بل بعض المسلمين الذين ما عرفوا الإسلام حقيقة يلينون لهؤلاء، ﴿ودوا لو تدهن

---

(١) الزخرف: ٢٨. (٢) البقرة: ٢٥٦ (٣) آل عمران: ٨٥.

وَهذا مِنْ أَعْظَمِ مَا يُبَيِّنُ مَعْنَى (لا إِلَهَ إِلاَّ الله)؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَجْعَلِ التَّلفُّظَ بِهَا عَاصِماً للدَّم وَالمَال، بَلْ وَلاَ مَعْرِفَةَ مَعْنَاهَا مَعَ لَفظِهَا، بَلْ وَلاَ الإِقْرارَ بذلك، بَلْ وَلاَ كَونَهُ لاَ يَدْعُو إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، بَلْ لاَ يَحْرُمُ مَالُهُ وَدَمُهُ حَتَّى يُضِيفَ إِلى ذلكَ الكُفْرَ بِمَا يُعْبَدُ دُونِ الله. فَإِن شَكَّ أَوْ تَوَقَّفَ؛ لَمْ يَحْرُمْ مَالُهُ وَلاَ دَمُهُ. فَيَالَهَا مِنْ مَسْأَلَةٍ مَا أَعْظَمَهَا وَأَجَلَّهَا! وَيَا لَهُ مِنْ بَيَانٍ مَا أَوْضَحَهُ! وَحُجَّةٍ مَا أَقْطَعَهَا لِلمُنَازِعِ!

فَيُدْهِنُون﴾(١)، وهذا من المحنة التى أصابت المسلمين الآن، وآلت بهم إلى هذا الذل الذى صاروا فيه.

قوله: «**ومنها: آية البقرة فى الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾**(٢).

فجعل الله المحبة شركاً إذا أحبَّ شيئاً سوى الله كمحبته لله؛ فيكون مشركاً مع الله فى المحبة، ولهذا يجب أن تكون محبة الله خالصة لايشاركه فيها أحد حتى محبة الرسول ﷺ، فلولا أنَّه رسول ما وجبت طاعته ولا محبته إلا كما نحب أى مؤمن، ولايُمنع الإنسان من محبة غير الله، بل له أن يحب كل شيء تباح محبته؛ كالولد، والزوجة، ولكن لايجعل ذلك كمحبة الله.

قال المؤلف: «**فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟! وكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله؟!**».

فالأقسام أربعة:

الأول: أن يحب الله أشد حباً من غيره؛ فهذا هو التوحيد.

الثاني: أن يحب غير الله كمحبة الله، وهذا شرك.

الثالث: أن يحب غير الله أشد حباً من الله، وهذا أعظم مما قبله.

الرابع: أن يحب غير الله وليس فى قلبه محبة لله تعالي، وهذا أعظم وأطم.

والمحبة لها أسباب ومتعلقات، وتختلف باختلاف متعلقها، كما أن الفرح يختلف باختلاف متعلقه وأسبابه، فعندما يفرح بالطرب؛ فليس هذا كفرحه بذكر الله ونحوه.

حتى نوع المحبة يختلف، يحب والده ويحب ولده وبينهما فرق، ويحب الله ويحب ولده، ولكن بين المحبتين فرق.

فجميع الأمور الباطنة فى المحبة والفرح والحزن تختلف باختلاف متعلقها، وسيأتى إن شاء الله لهذا البحث مزيد تفصيل عند قول المؤلف: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾**.

---

(١) القلم: ٩.

(٢) البقرة: ١٦٧.

قوله: «ومنها: قول النبي ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله...» إلخ.

إذاً؛ فلا بدّ من الكفر بالطاغـوت والإيمان بالله، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ (١).

قوله: «وكفر بما يعبد من دون الله».

أي: كفر بالأصنام، وأنـكر أن تكون عبادتها حقّاً؛ فلا يـكفي أن يقول: لا إله إلا الله، ولا أعبـد صنماً، بل لا بدّ أن يـقول: الأصنام التي تُـعبد من دون الله أكـفر بها وبعبادتها.

فمثلاً لا يكفي أن يقول: لا إله إلا الله ولا أعـبد اللات، ولكن لا بدّ أن يكفر بها ويقول: إنّ عبادتها ليست بحق، وإلا؛ كان مقراً بالكفر.

فمن رضي دين الـنصارى ديناً يدينون الـله به؛ فهو ؛كافر لأنّه إذا سـاوى غير دين الإسلام مع الإسـلام؛ فقد كذّب قوله تـعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾(٢).

وبهـذا يكون كـافراً، وبهـذا نعرف الخـطر العظـيم الذي أصـاب المسلـمين الـيوم باختلاطهـم مع النصارى، والنصارى يدعـون إلى دينهم صباحاً ومسـاءً، والمسلمون لا يتحركون، بل بعـض المسلمين الذي ما عرفوا الإسلام حقيقـة يلينون لهؤلاء، ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (٣)، وهذا من المحنة الـتي أصابت المسلمين الآن، وآلـت بهم إلى هذا الذل الذي صاروا فيه.

●●●

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) آل عمران: ٨٥.

(٣) القلم: ٩.